التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقاً

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الخامس والثلاثون

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الخامس والثلاثون - سورة الذاريات
وسورة الطور وسورة النجم/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران،
١٤٤٣ هـ
٥٩٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٦-٠١-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن- سورة الذاريات - تفسير ٢- القرآن - سورة النجم -
تفسير ٣- القرآن - سورة الطور - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٣٨٤٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٣٨٤٦
ردمك: ٦-٠١-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

لِلقُرآنِ الكَرِيمِ

(سورة الذاريات وسورة الطور و سورة النجم)

إِعْـدَادُ

القِسمِ العِلمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإِشْـرَافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوِي بن عبدِ القَادِرِ السَّقَّاف

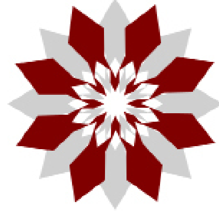
المجلد الخامس والثلاثون

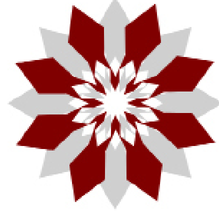
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

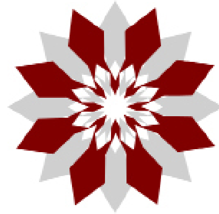
بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الذَّارِياتِ







سورةُ الذَّارِياتِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الذَّارِياتِ)[١].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الذَّارِياتِ مَكِّيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ العِبادةَ لا تكونُ إلَّا لله تعالى وَحْدَه، وعلى أنَّ البَعثَ حَقٌّ[٤].

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ الَّتي تناولَتْها هذه السُّورةُ:

١- افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالقَسَمِ مِنَ اللهِ تعالى ببَعضِ مَخلوقاتِه على أنَّ البَعثَ والجزاءَ كِلاهما حَقٌّ.

---

(١) سُمِّيَت بالذَّارياتِ؛ لِمُفتَتَحِها في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١]، ووَجهُ التَّسميةِ أنَّ هذه الكَلِمةَ لم تقَعْ بهذه الصِّيغةِ في غَيرِها مِن سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٤).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٧).

٢- إبطالُ مَزاعِمِ المُكَذِّبينَ، ووعيدُهم بعذابِ النَّارِ.

٣- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ سُبحانَه لعبادِه المُتَّقينَ.

٤- ذِكرُ طَرَفٍ مِن قَصَصِ الأنبياءِ: إبراهيمَ، ولُوطٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، ومُوسى، ونُوحٍ، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٥- ذِكرُ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وعلى سَعةِ رَحمتِه.

٦- تقريرُ أنَّ اللهَ ما خَلَق الجِنَّ والإنسَ إلَّا لعبادتِه.

٧- توعُّدُ المُشرِكينَ بأنْ يَنالَهم نَصيبٌ مِنَ العَذابِ مِثلُ نَصيبِ نُظَرائِهم مِنَ المكَذِّبينَ، ووَعيدُ الكافِرينَ مِن يَومِهم الَّذي يُوعَدونَ.



الآيات (١-٦)

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾: أي: الرِّياحِ التي تُفَرِّقُ التُّرابَ وهَشيمَ النَّبتِ، وأصلُ (ذرو): يدُلُّ على تَساقُطِ الشَّيءِ مُتفَرِّقًا[١].

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾: أي: السَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِنَ الماءِ، وأصلُ (حمل): يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾: أي: السُّفُنِ الَّتي تجري في الماءِ مُيَسَّرةً جَريًا سَهلًا، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ شَيءٍ[٣].

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾: أي: الملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمرَ اللهِ في خَلْقِه، وأصلُ (قسم): يدُلُّ على تجزئةِ شَيءٍ[٤].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦) و (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) =

﴿ٱلدِّينَ﴾: أي: الجزاءَ بالأعمالِ والقِصاصَ، ومنه يُقالُ: دِنْتُه بما صنَعَ، وأصلُ (دين): جنسٌ مِن الانقيادِ والذُّلِّ[١].

﴿لَوَٰقِعٌ﴾: أي: لَكائنٌ لا مَحالةَ، وأصلُ (وقع): يدُلُّ على سقوطِ شَيءٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ اللهُ تعالى بالرِّياحِ الَّتي تُفَرِّقُ التُّرابَ والنَّباتَ اليابِسَ وغيرَ ذلك، وبالسَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِن الماءِ، وبالسُّفُنِ الَّتي تجري في البِحارِ بسُهولةٍ ويُسرٍ، وبالملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمْرَ اللهِ تعالى في خَلْقِه؛ على أنَّ وَعْدَه تعالى وَعدٌ صادِقٌ لا كَذِبَ فيه، وأنَّ حِسابَه تعالى لعِبادِه واقِعٌ لا مَحالةَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالرِّياحِ الَّتي تُفَرِّقُ التُّرابَ أو المطَرَ، أو النَّباتَ اليابِسَ، أو غيرَ ذلك مِمَّا تُفَرِّقُه الرِّيحُ وتَنشُرُه[٣].

= للراغب (ص: ٧٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٣، ١٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٥).

وقد نقل الزَّجَّاجُ وابنُ عطيَّةَ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالذَّارياتِ: الرِّياحُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ [الروم: ٤٨].

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢﴾.

أي: فالسَّحابِ الَّذي يَحملُ ثِقلًا مِن ماءٍ كثيرٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٥).

وممَّن قال بأنَّ الحامِلاتِ هي السَّحابُ: ابنُ جرير، وابن القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

ونسَبَ الزَّجَّاجُ هذا القولَ إلى المفسِّرينَ جميعًا، ونسَبه السَّمْعانيُّ والشِّنقيطيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١٤).

وقيل: هي صِفةٌ للرِّياحِ. وممَّن اختار هذا القَولَ: الرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧، ٣٣٨).

وقال ابن عطيَّة: (و«الحامِلاتُ وِقرًا» قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه: هي السَّحابُ المُوقَرةُ بالماءِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ وغَيرُه: هي السُّفُنُ المُوقَرةُ بالنَّاسِ وأمتاعِهم. وقال جماعةٌ مِنَ العُلَماءِ: هي أيضًا مع هذا جميعُ الحَيَوانِ الحامِلِ. وفي جميع ذلك مُعتبَرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤، ٤٣٥).

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾.

أي: فالسُّفُنِ الَّتي تجري في البِحارِ بسُهولةٍ ويُسرٍ[(١)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

وممَّن قال بأنَّ الجارياتِ هي السُّفُنُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَيٍ، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّه القَولُ المشهورُ عن الجُمهورِ، ونسَبَه الشِّنقيطيُّ إلى أكثَرِ أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١٤).

قال الشنقيطي: (ويدُلُّ لهذا القولِ كثرةُ إطلاقِ الوصفِ بالجَريِ على السُّفنِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٥).

وقيل: المرادُ بالجارياتِ: الكواكِبُ والنُّجومُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (... الأنسَبُ أن تكونَ هي الكواكِبَ المذكورةَ في قَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ * ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، فسَمَّاها جَواريَ). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٢٠٨).

قيل: إنَّه أحسَنُ في التَّرتيبِ؛ ليكونَ ذلك ترقيًا مِن الأدنَى إلى الأعلَى، إلى ما هو أعلَى منه؛ فإنَّه بدأ بالرِّياحِ، وفوقَها السَّحابُ، وفوقَه النُّجومُ، وفوقَها الملائكةُ المقَسِّماتُ أمرَ اللهِ الَّذي أُمِرَت به بيْنَ خَلْقِه. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمْرَ اللهِ تعالى في خَلْقِه بإذْنِه ووَفْقَ ما أمَرَها به، كالأرزاقِ[(١)].

= لابن القيم (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤).

وقيل: الجارياتُ هي الرِّياحُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمعانيُّ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١).

وقيل: هي السَّحابُ والسُّفُنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤٦، ٤٤٧).

قال ابنُ عطيَّة: («الجارياتُ يُسرًا» قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ وغيرُه: هي السُّفُنُ في البَحرِ، وقال آخَرونَ: هي السَّحابُ بالرِّيحِ، وقال آخَرونَ: هي الجَواري مِنَ الكواكِبِ. واللَّفظُ يَقتضي جميعَ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١).

وقال القاسمي: (﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ أي: السُّفُنِ الجاريةِ في البَحرِ سَهلًا، أو الرِّياحِ الجاريةِ في مَهابِّها، أو الكواكِبِ الَّتي تجري في مَنازِلِها... واللَّفظُ مُتَّسِعٌ بجَوهرِه للكُلِّ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤).

وقال الألوسي: (إذا حُمِلَت هذه الصِّفاتُ على أمورٍ مُختَلِفةٍ مُتغايِرةٍ بالذَّاتِ كما في المُعَوَّلِ عليه، فالفاءُ للتَّرتيبِ في الأقسامِ ذِكرًا ورُتبةً، باعتِبارِ تَفاوُتِ مَراتِبِها في الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِهِ عزَّ وجَلَّ، وهذا التَّفاوُتُ إمَّا على التَّرقِّي أو التَّنَزُّلِ؛ لِما في كُلٍّ منها مِن الصِّفاتِ الَّتي تجعَلُها أعلى مِن وَجهٍ وأدنى مِن آخَرَ إذا نَظَر لها ذو نظَرٍ صَحيحٍ. وقيل: التَّرتيبُ بالنَّظَرِ إلى الأقرَبِ فالأقرَبِ مِنَّا، وإن حُمِلَت على واحدٍ -وهو الرِّياحُ- فهي لترتيبِ الأفعالِ والصِّفاتِ؛ إذ الرِّيحُ تَذْرو الأبخِرةَ إلى الجَوِّ أوَّلًا حتَّى تنعَقِدَ سَحابًا، فتَحمِلُه ثانيًا، وتجري به ثالثًا ناشِرةً وسائِقةً له إلى حيثُ أمَرَها اللهُ تعالى، ثمَّ تُقَسِّمُ أمطارَه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) =

كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ٤، ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ

= للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

نقَل ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ السَّلَفِ وغَيرِهم مِن عُلماءِ المسلمينَ على أنَّ المُقسِّماتِ أمرًا: هم الملائِكةُ. يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٧١).

قال ابن القيِّم: (ما يُشاهَدُ مِن تدبيرِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما لا يُشاهَدُ إنَّما هو على أيدي الملائكةِ؛ فالرَّبُّ تعالى يُدبِّرُ بهم أمرَ العالَم، وقد وكَّل بكُلِّ عَمَلٍ مِن الأعمالِ طائِفةً منهم؛ فوكَّل بالشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجوم والأفلاكِ طائِفةً منهم، ووكَّل بالقَطْرِ والسَّحاب طائِفةً، ووكَّل بالنَّبات طائِفةً، ووكَّل بالأجِنَّةِ والحَيوانِ طائِفةً، ووكَّل بالموتِ طائفةً، وبحِفظِ بني آدَمَ طائِفةً، وبإحصاءِ أعمالِهم وكتابتِها طائفةً، وبالوَحيِ طائفةً، وبالجِبالِ طائفةً، وبكُلِّ شأنٍ مِن شُؤونِ العالَم طائفةً). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٤، ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

وقيل: المُقَسِّماتُ: هي الرِّياحُ الَّتي تُفرِّقُ الأمطارَ على الأقطارِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧).

قال ابن عاشور: (مِنَ المفسِّرينَ مَن جَعَل هذه الصِّفاتِ الأربعَ وَصفًا للرِّياح، قاله في «الكشَّاف»، ونَقَل بَعضَه عن الحَسَنِ، واستحسَنه الفَخرُ، وهو الأنسَبُ؛ لعطفِ الصِّفاتِ بالفاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١).

وقال البقاعي: (﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ أي: مِنَ السُّحُبِ بما تُصرِّفُها فيه الملائكةُ عليهم السَّلامُ، وكذا السُّفُنُ بما يُصَرِّفُها اللهُ به مِن الرِّياحِ اللَّيِّنةِ أو العاصِفةِ مِن سلامةٍ وعَطَبٍ، وسُرعةٍ وإبطاءٍ، وكذا غيرُهما مِن كُلِّ أمرٍ تُصرِّفُه الملائكةُ بيْنَ العبادِ وتُقَسِّمُه، ولَمَّا كان المحمولُ مُختلفًا -كما تقدَّمَ- قال جامِعًا لذلك: ﴿أَمْرًا﴾ أي: مِن الرَّحمةِ أو العذابِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤٧).

أُمِّه أربَعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ في ذلك عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ في ذلك مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يُرسَلُ الملَكُ فيَنفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِه، وأجَلِه، وعَمَلِه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ))(١).

وعن حُذَيْفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا مَرَّ بالنُّطفةِ ثِنتانِ وأربعونَ لَيلةً بَعَث اللهُ إليها مَلَكًا، فصَوَّرها، وخَلَق سَمْعَها وبَصَرَها، وجِلْدَها ولَحْمَها وعِظامَها، ثمَّ قال: يا رَبِّ، أذَكَرٌ أم أُنثى؟ فيَقضي ربُّك ما شاء، ويَكتُبُ الملَكُ، ثمَّ يقولُ: يا رَبِّ، أجَلُه؟ فيقولُ رَبُّك ما شاء، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يقولُ: يا رَبِّ، رِزقُه؟ فيَقضي رَبُّك ما شاء، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يَخرُجُ المَلَكُ بالصَّحيفةِ في يَدِه، فلا يَزيدُ على ما أُمِرَ ولا يَنقُصُ))(٢).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِصَّةِ ذَهابِه إلى الطَّائِفِ: ((قال جِبريلُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد سَمِعَ قَولَ قَومِك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بَعَث إليك مَلَكَ الجِبالِ؛ لِتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسلَّمَ علَيَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا ملَكُ الجِبالِ، وقد بَعَثَني ربُّك إليك؛ لِتَأمُرَني بأمْرِك))(٣).

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ٥﴾.

أي: إنَّ الَّذي يَعِدُكم اللهُ به -أيُّها النَّاسُ- وَعدٌ صادِقٌ لا كَذِبَ فيه مُطلَقًا(٤).

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٨)، ومسلمٌ (٢٦٤٣) واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أجَلُ وَعيدِهم وما يَتعَلَّقُ بالجَزاءِ: يومَ القيامةِ، وكانوا يُنكِرونَه؛ قال[١]:

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾.

أي: وإنَّ حِسابَ اللهِ لِعبادِه ومُجازاتَهم لَشَيءٌ كائِنٌ وواقِعٌ لا مَحالةَ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قيل: في جميعِ السُّوَرِ الَّتي أقسَمَ اللهُ في ابتِدائِها بغيرِ الحُروفِ المُقطَّعةِ، كان القَسَمُ لإثباتِ أحَدِ الأُصولِ الثَّلاثةِ، وهي: الوَحدانيَّةُ، والرِّسالةُ، والحَشرُ[٣].

= سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦، ١١٧).

قال ابنُ القيِّم في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾: (يجوزُ أن تكونَ «ما» مَوصولةً، والعائدُ مَحذوفٌ، والمعنى: الَّذي تُوعَدونَه لَصادِقٌ، أي: كائِنٌ وثابتٌ، وأن تكونَ مَصدريَّةً، أي: إنَّ وَعْدَكم لَحَقٌّ وصِدقٌ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (﴿تُوعَدُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الإيعادِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الوَعدِ، وأيَّها كان فالوَصفُ له بالصِّدقِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٠)، ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٧٥).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا * فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أقسَمَ سُبحانَه بهذه الأُمورِ الأربَعةِ؛ لِمَكانِ العِبرةِ والآيةِ، والدَّلالةِ الباهِرةِ على رُبوبيَّتِه ووَحدانيَّتِه وعِظَمِ قُدرتِه؛ ففي الرِّياحِ مِن العِبَرِ: هُبوبُها وسُكونُها، ولِينُها وشِدَّتُها، واختِلافُ طبائعِها وصِفاتِها ومَهابِّها، وتَصريفُها، وتنَوُّعُ مَنافِعِها، وشِدَّةُ الحاجةِ إليها. فلِلمَطَرِ خَمسةُ رِياحٍ: ريحٌ يَنشُرُ سَحابَه، ورِيحٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَه، وريحٌ تُلَقِّحُه، وريحٌ تَسوقُه حيثُ يُريدُ اللهُ، وريحٌ تَذْرُو ماءَه وتُفَرِّقُه، وللنَّباتِ رِيحٌ، وللسُّفُنِ رِيحٌ، وللرَّحمةِ رِيحٌ، وللعَذابِ رِيحٌ، إلى غَيرِ ذلك مِن أنواعِ الرِّياحِ، وذلك يَقضِي بوجودِ خالِقٍ مُصَرِّفٍ لها، مُدَبِّرٍ لها يُصَرِّفُها كيف يَشاءُ، ويَجعَلُها رُخاءً تارَةً، وعاصِفةً تارةً، ورحمةً تارةً، وعذابًا تارةً؛ فتارةً يُحيي بها الزَّرعَ والثِّمارَ، وتارةً يَقطَعُها بها، وتارةً يُنَجِّي بها السُّفُنَ، وتارةً يُهلِكُها بها، وتارةً تُرَطِّبُ الأبدانَ، وتارةً تُذيبُها، وتارةً عَقيمًا، وتارةً لاقِحةً، وتارةً جَنوبًا، وتارةً دَبورًا، وتارةً صَبًا، وتارةً شَمالًا، وتارَةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً، وهي مع غايةِ قُوَّتِها ألطَفُ شَيءٍ، وأقبَلُ المخلوقاتِ لكُلِّ كَيفيَّةٍ، سَريعةُ التَّأثُّرِ والتَّأثيرِ، لطيفةُ المسارِبِ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، إذا قُطِعَ عن الحَيوانِ الَّذي على وَجهِ الأرضِ هَلَك كبَحرِ الماءِ الَّذي إذا فارَقَه حيوانُ الماءِ هَلَك، يَحبِسُها اللهُ سُبحانَه إذا شاء، ويُرسِلُها إذا شاء، تَحمِلُ الأصواتَ إلى الآذانِ، والرَّائحةَ إلى الأنفِ، والسَّحابَ إلى الأرضِ الجُرُزِ، وهي مِن رَوحِ اللهِ تأتي بالرَّحمةِ، ومِن عُقوبتِه تأتي بالعَذابِ، وهي أقوى خَلْقِ اللهِ. والمقصودُ أنَّ الرِّياحَ مِن أعظَمِ آياتِ الرَّبِّ الدَّالَّةِ على عَظَمتِه ورُبوبيَّتِه وقُدرتِه[١].

٣- سَلِ الجارياتِ يُسْرًا مِنَ السُّفُنِ مَن أمسَكَها على وجهِ الماءِ، وسَخَّر لها

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٩-٢٨١).

البَحرَ؟ ومَن أرسَل لها الرِّياحَ الَّتي تَسوقُها على الماءِ سَوْقَ السَّحابِ على مُتونِ الرِّياحِ؟ ومَن حَفِظَها في مَجْراها ومُرْساها مِن طُغيانِ الماءِ وطُغيانِ الرِّيحِ؟ فمَنِ الَّذي جعَل الرِّيحَ لها بقَدْرٍ لو زاد عليها لأغرَقَها، ولو نَقَص عنه لَعاقَها؟ ومَنِ الَّذي عَلَّم الخَلقَ الضَّعيفَ صَنعةَ هذا البَيتِ العَظيمِ الَّذي يمشي على الماءِ، فيَقطَعُ المسافةَ البعيدةَ ويعودُ إلى بَلَدِه يَشُقُّ الماءَ ويَمخَرُه مُقبِلًا ومُدبِرًا بريحٍ واحِدةٍ تجري في مَوجٍ كالجبالِ؟

وسَلِ الجارياتِ يُسْرًا مِنَ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ مَنِ الَّذي خَلَقَها وأحسَنَ خَلْقَها، ورَفَع مَكانَها، وزَيَّن بها قُبَّةَ العالَمِ، وفاوَتَ بيْنَ أشكالِها ومَقاديرِها وألوانِها وحَرَكاتِها وأماكِنِها مِن السَّماءِ؟ وأنت إذا تأمَّلْتَ أحوالَ هذه الكواكِبِ وَجَدْتَها تَدُلُّ على المَعادِ كما تدُلُّ على المبدَأِ، وتدُلُّ على وُجودِ الخالِقِ وصِفاتِ كَمالِه ورُبوبيَّتِه وحِكمتِه ووَحدانيَّته أعظَمَ دَلالةٍ، وكُلُّ ما دَلَّ على صِفاتِ جَلالِه ونُعوتِ كَمالِه دَلَّ على صِدقِ رُسُلِه، فكما جَعَل اللهُ النُّجومَ هدايةً في طريقِ البَرِّ والبَحرِ فهي هدايةٌ في طُرُقِ العِلمِ بالخالِقِ سُبحانَه وقُدرتِه، وعِلْمِه وحِكْمَتِه، والمبدأِ والمَعادِ والنُّبُوَّةِ. ودَلالتُها على هذه المطالِبِ لا تَقصُرُ عن دَلالتِها على طُرُقِ البَرِّ والبَحرِ، بل دَلالتُها للعُقولِ على ذلك أظهَرُ مِن دَلالتِها على الطُّرُقِ الحِسِّيَّةِ، فهي هدايةٌ في هذا وهذا[1]. وذلك على أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾: الكواكِبُ.

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ أقسَمَ بالسَّحابِ وهو مِن أعظَمِ آياتِ اللهِ في الجَوِّ في غايةِ الخِفَّةِ، ثمَّ يَحمِلُ الماءَ والبَرَدَ، فيَصيرُ أثقَلَ شَيءٍ، فيأمُرُ الرِّياحَ فتَحمِلُه على مُتونِها وتسيرُ به حيث أُمِرَت، فهو مُسَخَّرٌ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، حامِلٌ لأرزاقِ العِبادِ والحيوانِ، فإذا أفرَغَه حيثُ أُمِرَ به اضمَحَلَّ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٢-٢٨٤).

وتلاشى بقُدرةِ اللهِ؛ فإنَّه لو بَقِيَ لأضَرَّ النَّباتَ والحيوانَ، فأنشَأه سُبحانَه في زَمنٍ يَصلُحُ إنشاؤُه فيه، وحَمَّلَه مِنَ الماءِ ما يَحمِلُه، وساقَه إلى بلَدٍ شَديدِ الحاجةِ إليه. فَسَلِ السَّحابَ مَن أنشَأه بَعدَ عَدَمِه؟ وحمَّله الماءَ والثَّلجَ والبَرَدَ؟ ومَن حمَلَه على ظُهورِ الرِّياحِ؟ ومَن أمسَكَه بيْنَ السَّماءِ والأرضِ بغيرِ عِمادٍ؟ ومَن أغاث بقَطْرِه العِبادَ، وأحيا به البلادَ، وصَرَّفه بيْن خَلْقِه كما أراد؟ وأخرَج ذلك القَطْرَ بقَدَرٍ مَعلومٍ، وأنزَلَه منه وأفناه بعدَ الاستِغناءِ عنه، ولو شاء لأدامَه عليهم فلم يَستطيعوا إلى دَفْعِه سَبيلًا، ولو شاء لأمسَكَه عنهم فلا يَجدونَ إليه وُصولًا؟ فإنْ لم يُجبْك جَوابًا حِوارًا، أجابك اعتِبارًا. وسَلِ الرِّياحَ مَن أنشأها بقُدرتِه، وصَرَّفَها بحِكْمَتِه، وسَخَّرَها بمَشيئتِه، وأرسَلَها بُشْرًا بيْنَ يَدَي رَحمتِه، جعَلَها سَببًا لتَمامِ نِعمتِه، وسُلطانًا على مَن شاء بعُقوبتِه؟ ومَن جَعَلَها رُخاءً وذاريةً ولاقِحةً ومُثيرةً ومُؤَلِّفةً، ومُغَذِّيةً لأبدانِ الحَيوانِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، وجعَلَها قاصِفًا وعاصِفًا ومُهلِكةً وعاتيةً، إلى غيرِ ذلك مِن صِفاتِها؟ فهل ذلك لها مِن نَفْسِها وذاتِها، أم تَدبيرُ مُدَبِّرٍ شَهِدَت الموجوداتُ برُبوبيَّتِه، وأقرَّت المصنوعاتُ بوَحدانيَّتِه، بيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ، وله الخَلقُ والأمرُ. تبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ[1].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۞ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۞ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ الارتباطُ بيْنَ هذه الثَّلاثةِ: أنَّ الرِّياحَ تُثيرُ السَّحابَ، وتُلقِّحُ السَّحابَ بالماءِ، وأنَّ السُّحُبَ تَحملُ الأمطارَ، فتَنزِلُ إلى الأرضِ، فيَكونُ الرِّزقُ للمَواشي والآدميِّينَ، والجارياتُ -أي: السُّفُنُ- هي أيضًا تَحمِلُ الأرزاقَ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ، فلا يُمكِنُ أن تَصِلَ الأرزاقُ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ أُخرى بَيْنَها وبيْنَها بَحرٌ إلَّا عن طريقِ السُّفُنِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۞ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۞ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۞ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨١، ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

أَمۡرًا﴾ هذه الأقسامُ جاز أن يُقسِمَ اللهُ تعالى بها، ولا يجوزُ أن يُقسِمَ الخَلقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ قَسَمَ الخَلقِ استِشهادٌ على صِحَّةِ قَولِهم بمَن يَعلَمُ السِّرَّ والعَلانيةَ، وليس ذلك إلَّا اللهَ؛ وقَسَمَ الخالِقِ إرادةٌ لتأكيدِ الخَبرِ في نُفوسِهم مِمَّا جرت به العادةُ بيْنَهم؛ فيُقسِمُ ببَعضِ خَلْقِه على وَجهٍ يُوجِبُ الاعتِبارَ، وإحضارَ القَلبِ عندَ التَّنبيهِ على عجائِبِ الفِطرةِ، وبدائِعِ القُدرةِ[1]. وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القَسَمِ، كأنَّه استدَلَّ باقتِدارِه على هذه الأشياءِ العَجيبةِ المُخالِفةِ لِمُقتَضى الطَّبيعةِ، على اقتِدارِه على البَعثِ؛ للجَزاءِ المَوعودِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا * فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ هذه الأشياءُ كُلُّها دليلٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى على الإعادةِ، فإنْ قيلَ: فلِمَ أخرَجَها مُخرَجَ الأَيْمانِ؟

الجوابُ: لأنَّ المتكَلِّمَ إذا شَرَع في أوَّلِ كَلامِه يَحلِفُ، يَعلَمُ السَّامِعُ أنَّه يريدُ أن يتكَلَّمَ بكلامٍ عَظيمٍ؛ فإنَّه يُصغي إليه أكثَرَ مِن أن يُصغِيَ إليه حيثُ يَعلَمُ أنَّ الكلامَ ليس بمُعتَبَرٍ؛ فبدأ بالحَلِفِ، وأدرَجَ الدَّليلَ في صُورةِ اليَمينِ، حتَّى أقبَلَ القَومُ على سَماعِه؛ فخَرَج لهم البُرهانُ المُبينُ والتِّبيانُ المَتينُ في صُورةِ اليَمينِ[3].

٨- الملائكةُ هم رُسُلُ اللهِ في تدبيرِ العالَمِ[4]، فكلُّ حَركةٍ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن حَرَكاتِ الأفلاكِ والنُّجومِ، والشَّمسِ والقَمَرِ، والرِّياحِ والسَّحابِ، والنَّباتِ والحَيوانِ: فهي ناشِئةٌ عنِ الملائِكةِ الموكَّلِينَ بالسَّمَواتِ والأرضِ، كما

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٥).

قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ٥]، وقال: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا * فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا * فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ فيه افتِتاحُ هذه السُّورةِ بالقَسَمِ، والقَسَمُ المُفتتَحُ به مُرادٌ منه تَحقيقُ المُقسَمِ عليه، وتأكيدُ وُقوعِه، وقد أقسَمَ اللهُ بعَظيمٍ مِن مَخلوقاتِه، وهو في المَعنى قَسَمٌ بقُدْرتِه وحِكمتِه، ومُتضمِّنٌ تَشريفَ تلك المَخلوقاتِ بما في أحوالِها مِن نِعَمٍ ودَلالةٍ على الهُدَى والصَّلاحِ، وفي ضِمنِ ذلك تَذْكيرٌ بنِعمةِ اللهِ فيما أوجَدَ فيها. والمُقسَمُ بها الصِّفاتُ تَقتضي مَوصوفاتِها، فآلَ إلى القسَمِ بالمَوصوفاتِ مِن أجْلِ تلك الصِّفاتِ العظيمةِ، وفي ذلك إيجازٌ دَقيقٌ، على أنَّ في طَيِّ ذِكرِ المَوصوفاتِ تَوفيرًا لِما تُؤذِنُ به الصِّفاتُ مِن مَوصوفاتٍ صالحةٍ بها؛ لِتَذهَبَ أفهامُ السَّامِعينَ في تَقديرِها كلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ[2].

- وفي تَخصيصِ الأُمورِ المذْكورةِ بالإقسامِ بها رمْزٌ إلى شَهادتِها بتَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ المُقسَمِ عليها، مِنْ حيثُ إنَّها أُمورٌ بَديعةٌ مُخالِفةٌ لمُقتضَى الطَّبيعةِ، فمَنْ قدَرَ عليها فهُو قادرٌ على البَعثِ المَوعودِ[3].

- والمُناسَبةُ بيْن المُقسَمِ به والمُقسَمِ عليه: أنَّ أحوالَ الرِّياحِ المذكورةَ هنا -على قولٍ في التَّفسيرِ- مَبْدَؤُها: نفْخٌ، فتَكوينٌ، فإحياءٌ، وكذلك البَعثُ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦).

مَبْدَؤُه: نفْخٌ في الصُّورِ، فالْتِئامُ أجسادِ النَّاسِ الَّتي كانت مَعدومةً أو مُتفرِّقةً، فبَثُّ الأرْواحِ فيها فإذا هم قِيامٌ يَنظُرون، وقد يكونُ قولُه تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ إشارةً إلى ما يُقابِلُه في المثالِ مِن أسبابِ الحياةِ، وهو الرُّوحُ؛ لقولِه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] [الإسراء: ٨٥].

- وإنْ حُمِلَت الأوصافُ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ على ذَواتٍ مُختلِفةٍ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ الإقسامِ بها باعتِبارِ ما بيْنَها مِن التَّفاوُتِ في الدَّلالةِ على كَمالِ القدْرةِ، أو يُرادُ بالكلِّ الرِّياحُ؛ تَنزيلًا لاختِلافِ الصِّفةِ مَنزِلةَ اختِلافِ الذَّاتِ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ الأفعالِ؛ إذ الرِّيحُ -مثلًا- تَذْرو الأبخِرةَ إلى الجوِّ حتَّى تَنعقِدَ سَحابًا، فتَحمِلُه فتَجْري به باسِطةً له إلى حيث أُمِرَت به، فتَقسِمُ المطَرَ[2].

- ونُصِبَ ﴿ذَرْوًا﴾ على المفعولِ المطلَقِ؛ لإرادةِ تَفخيمِه بالتَّنوينِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا بمَعنى المفعولِ، أي: المَذْرُوَّ، ويكونَ نصْبُه على المَفعولِ به[3].

- قولُه: (الْحَامِلَاتِ وِقْرًا) على القولِ بأنَّ المرادَ الرِّياحُ حينَ تَجمَعُ السَّحابَ وقد ثقُلَ بالماءِ؛ شُبِّهَ جمْعُها إيَّاه بالحِملِ؛ لأنَّ شأْنَ الشَّيءِ الثَّقيلِ أنْ يَحمِلَه الحاملُ[4].

- قولُه: ﴿يُسْرًا﴾، أي: جَرْيًا ذا يُسْرٍ، أي: سُهولةٍ، فـ﴿يُسْرًا﴾ مَصدرٌ وُصِفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

به على تَقديرِ مَحذوفٍ[(١)].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ الصَّادقُ وصْفٌ للواعِدِ، لا لِما يُوعَدُ؛ فوصَفَ ما يُوعَدُ به بالصِّدقِ مُبالَغةً، والمَعْنَى: (لَصِدْقٌ)؛ فوَضَعَ الاسمَ مكانَ المَصْدَرِ. أو هو بمَعنى مَصدوقٍ، كـ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، و﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[(٢)] [الطارق: ٦]. وقيل: لَمَّا كان ما تُوُعِّدوا به -لتحَقُّقِ وُقوعِه وقُربِه- كأنَّه موجودٌ يُخاطِبُهم عن نَفْسِه، عَبَّرَ عن المصدَرِ باسمِ الفاعِلِ؛ فقال: ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي: مُطابِقٌ الإخبارُ به للواقِعِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ الدِّين: الجزاءُ، ومعنَى ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ واقعٌ في المُستقبَلِ، بقرينةِ جعْلِه مُرتَّبًا في الذِّكرِ على ما يُوعَدونَ، وإنَّما يكونُ حُصولُ الموعودِ به في الزَّمنِ المستقبَلِ، وفي ذِكرِ الجزاءِ -زِيادةً على الكِنايةِ به عن إثباتِ البعثِ- تَعريضٌ بالوعيدِ على إنْكارِ البعثِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

قال ابن القيِّم: (وَصفُ الوَعدِ بكَونِه صادِقًا أبلَغُ مِن وَصفِه بكَونِه صِدقًا، ولا حاجةَ إلى تَكَلُّفِ جَعلِه بمعنى «مَصدوق فيه»، بل هو صادِقٌ نَفْسُه، كما يُوصَفُ المتكلِّمُ بأنَّه صادِقٌ في كَلامِه، فيُوصَفُ كلامُه بأنَّه صادِقٌ، وهذا مِثْلُ قَولِهم: سِرٌّ كاتِمٌ، وليلٌ قائمٌ، ونهارٌ صائِمٌ، وماءٌ دافِقٌ، ومنه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، وليس ذلك بمَجازٍ ولا مُخالِفٍ لِمُقتضى التَّركيبِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

الآيات (٧-١٤)

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ
(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)
ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْحُبُكِ﴾: أي: الطَّرائِقِ الحَسَنةِ المُحْكَمةِ البِناءِ، وأصلُ (حبك): يدُلُّ على إحكامِ شَيءٍ في امتدادٍ واطِّرادٍ[١].

﴿يُؤْفَكُ﴾: أي: يُصرَفُ، والإفكُ: كُلُّ ما صُرِفَ عن وَجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ، وصَرفِه عن جِهتِه[٢].

﴿الْخَرَّاصُونَ﴾: أي: الكَذَّابونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنِّي فيما لا يَستيقِنُه، يُقالُ: خرَصْتُ النَّخلَ، إذا حزَرْتَ ثمرَه، وكلُّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يقالُ: خَرْصٌ، سواءٌ كان مطابقًا للشيءِ أو مخالفًا له، وقيلَ للكَذِبِ: خَرصٌ؛ لِما يَدخُلُه من الظُّنونِ الكاذِبةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

﴿غَمْرَةٍ﴾: أي: غَفلةٍ وعَمًى وجَهالةٍ، وأصلُ (غمر): يدُلُّ على تَغطيةٍ وسَترٍ[(١)].

﴿سَاهُونَ﴾: أي: لاهُونَ غافِلونَ، والسَّهوُ: الغَفلةُ عن الشَّيءِ، وذَهابُ القَلبِ عنه، وأصلُ (سهو): يدُلُّ على غَفلةٍ[(٢)].

﴿أَيَّانَ﴾: أي: متى، وهو عِبارةٌ عن وَقتِ الشَّيءِ. وقيل: أصلُ (أيَّانَ): أيُّ أوانٍ، فخَفَّفوا (الياءَ) مِن (أيٍّ)، وتَركوا همزةَ (أوان)، فالتَقَتْ ياءٌ ساكِنةٌ بَعْدَها واوٌ، فأُدغِمَت (الواوُ) في (الياءِ)؛ فصارَ (أيَّانَ)[(٣)].

﴿يُفْتَنُونَ﴾: أي: يُعَذَّبون ويُحرَقون، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه، واستُعمِلَ في إدخالِ الإنسانِ النَّارَ[(٤)].

المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ تعالى قَسَمًا آخَرَ بالسَّماءِ ذاتِ الخَلْقِ الحَسَنِ المُتقَنِ المُحكَمِ البناءِ على أنَّ المُشرِكينَ لَفي أقوالٍ مُختَلِفةٍ مُتناقِضةٍ، كوَصفِهم القُرآنَ بأنَّه سِحرٌ وشِعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، ووَصْفِهم النَّبيَّ بأنَّه ساحِرٌ ومَجنونٌ وشاعِرٌ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ١٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

يُصرَفُ عن الإيمانِ بسَببِ هذا القولِ المختلِفِ مَن صُرِفَ وحُرِمَ منه؛ بسَبَبِ تلك الأقوالِ المُختَلِفةِ الكاذِبةِ الَّتي يَفتَرونَها لِرَدِّ الحَقِّ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سوءَ عاقِبةِ المكذِّبينَ، فيقولُ: لُعِنَ أولئك الكذَّابونَ الَّذين يَقولونَ الباطِلَ، والَّذين هم في غَفلةٍ وعَمًى وجَهالةٍ عن الحَقِّ.

ثمَّ يبيِّنُ ما كانوا عليه مِن سوءِ أدبٍ، فيقولُ: يَسألُ أولئك المُكَذِّبونَ بالبَعثِ استِهزاءً: متى يَقَعُ هذا اليَومُ الَّذي نُحاسَبُ فيه؟!

ويرُدُّ الله تعالى عليهم مبيِّنًا سوءَ مصيرِهم، فيقولُ: يَقَعُ الجزاءُ عليهم يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ، فيُحرَقونَ بها ويُعَذَّبونَ، ويُقالُ لهم: ذُوقُوا حَريقَكم وعَذابَكم؛ جزاءَ كُفرِكم وتَكذيبِكم، هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَ تَعجيلَه في الدُّنيا؛ استِهزاءً به!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ٧﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ الخَلْقِ الحَسَنِ المُتقَنِ المُحكَمِ البِناءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤، ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ١١٧).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ فيه للعُلَماءِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ لا يُكَذِّبُ بَعضُها بعضًا؛ فذَهَب بَعضُ أهلِ العِلمِ إلى أنَّ الحُبُكَ جَمعُ حَبيكةٍ أو حِباكٍ، وعليه فالمعنى: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الطَّرائِقِ، فما يَبدو على سطحِ الماءِ السَّاكِنِ أو الرَّملِ مِن الطَّرائقِ إذا ضرَبَتْه الرِّيحُ هو الحُبُكُ، وهو جمعُ حَبيكةٍ أو حِباكٍ، قالوا: ولِبُعْدِ السَّماءِ لا تُرى طرائقُها المُعَبَّرُ عنها بالحُبُكِ... وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي: ذات الخَلْقِ الحسَنِ المُحكَم، ومِمَّن قال به: ابنُ عَبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ... وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾: أي: الزِّينةِ... وقال بعضُ =

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- لَفي أقوالٍ مُختَلِفةٍ مُتناقِضةٍ مُضطَرِبةٍ في شَأنِ تَكذيبِكم بالحَقِّ، كوَصفِكم القُرآنَ بأنَّه سِحرٌ وشِعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، أو وَصْفِكم النَّبيَّ بأنَّه ساحِرٌ ومَجنونٌ وشاعِرٌ(١)!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾.

أي: يُصرَفُ عن الإيمانِ بسببِ هذا القولِ المُختلِفِ مَن سبَق في عِلمِ الله أنَّه مصروفٌ(٢).

= العُلَماءِ: ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الشِّدَّةِ... والآيةُ تَشملُ الجَميعَ، فكُلُّ الأقوالِ حَقٌّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٢).

ونَسَب الواحديُّ القولَ بأنَّها ذاتُ الخَلْقِ الحَسَنِ المُستَوي إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٤).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذَكَر الأقوالَ في معنى الحُبُك: (وكُلُّ هذه الأقوالِ تَرجِعُ إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو الحُسْنُ والبهاءُ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما؛ فإنَّها مِن حُسْنِها مُرتَفِعةٌ شَفَّافةٌ صَفيقةٌ شديدةُ البناءِ، مُتَّسِعةُ الأرجاءِ، أنيقةُ البَهاءِ، مُكَلَّلةٌ بالنُّجومِ الثَّوابِتِ والسَّيَّاراتِ، مُوشَّحةٌ بالشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ الزَّاهِراتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٨).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أظهَرُ الأقوالِ فيه عندي، ولا يَنبغي العُدولُ عنه في نَظَري: أنَّ لفظةَ «عن» في الآيةِ سَبَبيَّةٌ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣].

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾.

أي: لُعِنَ أولئك الكذَّابونَ الَّذين يَقولونَ الباطِلَ في الدِّينِ، ظنًّا منهم بلا يَقينٍ[1]!

= [هود: ٥٣]، أي: بسَبَبِ قَولِك، ومِن أَجْلِه، والضَّميرُ المجرورُ بـ «عن» راجعٌ إلى القَولِ المُختَلِفِ، والمعنى: ﴿يُؤْفَكُ﴾ أي: يُصرَفُ عن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه. ﴿عَنْهُ﴾ أي: عن ذلك القَولِ المُختَلِفِ، أي: بَسَبَبِه. ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: مَن سَبَقَت له الشَّقاوةُ في الأَزَلِ، فحُرِمَ الهُدى وأُفِكَ عنه؛ لأنَّ هذا القَولَ المُختَلِفَ يُكَذِّبُ بَعضُه بعضًا ويُناقِضُه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿عَنْهُ﴾ قيل: إنَّ الضَّميرَ يعودُ على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: يُصرَفُ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن صُرِفَ مِنَ النَّاسِ. وقيل: إنَّ الضَّميرَ يعودُ على القَولِ، وعلى هذا القَولِ: تكونُ «عن» بمعنى الباءِ -أي: في إفادَتِها السَّببيَّةَ-، أي: يُؤفَكُ بهذا القَولِ مَن أُفِكَ، يُصْرَفُ بهذا القَولِ عن الحَقِّ مَن صُرِفَ، وهما -أي: المَعنَيانِ- مُتلازِمانِ، والأقرَبُ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه ﴿عَنْهُ﴾ يعودُ على القَولِ؛ لأنَّه أقرَبُ مَذكورٍ، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ أي: عن هذا القَولِ، أي: بسَبَبِه ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: مَن صُرِفَ عن الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٨). ويُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

قال السَّمْعاني: (وقولُه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أي: لُعِنَ الكذَّابون، وهذا هو المُتَّفَقُ عليه من أهلِ التَّفسيرِ. وعن بعضِهم: أنَّه لا يُعرَفُ «قُتِل» بمعنى «لُعِن» في اللُّغة، ومعناه: أنَّ الخرَّاصينَ قد =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)﴾.

أي: الَّذين هم في الباطِلِ غارِقونَ، وعن الحَقِّ غافِلونَ، وعن الآخِرةِ لاهُونَ[1].

= أتَوا بما يَستَحِقُّونَ [به] القتلَ، ولَعنةُ الله إيَّاهم إهلاكٌ لهم، فهو قتلهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٢).

وممَّن قال إنَّ معنى «قُتِل»: «لُعِن» مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٣).

قال الواحدي: (قالوا جميعًا: لُعِنَ الكَذَّابون. قال ابنُ الأَنْباري: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لعَنَه الله كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٢).

وقال القرطبي: (معنى ﴿قُتِلَ﴾ أي: هؤلاء ممَّن يجِبُ أن يُدعَى عليهم بالقَتلِ على أيدي المؤمِنينَ. وقال الفَرَّاءُ: معنى ﴿قُتِلَ﴾ لُعِنَ، قال: و﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذَّابون الَّذين يتخرَّصون بما لا يَعلَمونَ، فيقولونَ: إنَّ مُحمَّدًا مجنونٌ كَذَّابٌ ساحِرٌ شاعِرٌ! وهذا دُعاءٌ عليهم؛ لأنَّ مَن لَعَنه اللهُ فهو بمنزلةِ المقتولِ الهالِكِ. قال ابنُ الأنباري: علَّمَنا الدُّعاءَ عليهم، أي: قولوا: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٣).

وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ دعاءٌ عليهم، كما تقولُ: قاتَلَك اللهُ، وقتَلَك اللهُ، وعَقْرَى حَلْقَى، ونحوه. وقال بعضُ المفسِّرينَ: معناه: لُعِن الخَرَّاصونَ. وهذا تفسيرٌ لا تُعطيه اللَّفظةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣).

وقال ابن عثيمين: (كثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ يُفَسِّرُها بلُعِنَ، واللَّعنُ هو الطَّردُ والإبعادُ عن رحمةِ الله، ولكِنَّ الصَّحيحَ أنَّها بمعنى أُهلِكَ؛ لأنَّه لا داعيَ أن نَصرِفَها عن ظاهِرِها، وظاهِرُها صَحيحٌ مُستقيمٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يَسألُ أولئك المُكَذِّبونَ بالبَعثِ؛ استِهزاءً به، واستِبعادًا لوُقوعِه: متى يَقَعُ هذا اليَومُ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه عِبادَه لِمُحاسَبتِهم ومُجازاتِهم على أعمالِهم[1]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٥، ٢٦].

وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ - ٣].

= الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابن كثير: (﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ وإنَّما يقولون هذا تكذيبًا وعِنادًا، وشَكًّا واستِبعادًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

وقال أبو السعود: (﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أيْ: مَتَى وُقوعُ يومِ الجزاءِ، لكنْ لا بطريقِ الاستِعلامِ حقيقةً، بلْ بطريقِ الاستِعجالِ استِهزاءً). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٧).

وقال ابن الجوزي: (أي: يَقولونَ: يا محمَّدُ، متى يَومُ الجزاءِ؟! تكذيبًا منهم واستِهزاءً). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (يَقولونَ: متى يومُ الدِّينِ؟ على معنَى التَّكذيبِ، وجائزٌ أن يَقترِنَ بذلك مِن بعضِهم هُزءٌ وألَّا يَقترِنَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: يَقعُ الجزاءُ عليهم يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ فيُحرَقونَ بها ويُعذَّبونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٥، ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٢).
قال ابنُ عطية: (﴿يُفْتَنُونَ﴾ معناه: يُحرَقونَ ويُعذَّبونَ في النَّارِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والجَميعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٤).
وقال ابنُ القيِّمِ: (المشهورُ في تفسيرِ هذا الحَرفِ أنَّه بمعنى: يُحرَقونَ، ولكِنَّ لفظةَ ﴿عَلَى﴾ تُعطي معنًى زائدًا على ما ذَكَروه، ولو كان المرادُ نفْسَ الحَرْقِ لَقيلَ: «يومَ هم في النَّارِ يُفتَنونَ»؛ ولهذا لَمَّا عَلِمَ هؤلاء ذلك قال كثيرٌ منهم: «على» بمعنى «في»، كما تكونُ «في» بمعنى «على». والظَّاهِرُ أنَّ فِتنتَهم على النَّارِ قبْلَ فِتنتِهم فيها! فلَهم عندَ عَرْضِهم عليها ووُقوفِهم عليها فِتنةٌ، وعندَ دُخولِهم والتَّعذيبِ بها فِتنةٌ أشَدُّ منها... وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ الفِتنةَ تُطلَقُ على العَذابِ وسَبَبِه؛ ولهذا سَمَّى اللهُ الكُفرَ فِتنةً؛ فهم لَمَّا أتَوْا بالفِتنةِ -الَّتي هي أسبابُ العذابِ- في الدُّنيا سَمَّى جزاءَهم فِتنةً؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾، وكان وُقوفُهم على النَّارِ وعَرضُهم عليها مِن أعظَمِ فِتنَتِهم، وآخِرُ هذه الفتنةِ دُخولُ النَّارِ والتَّعذيبُ بها، ففُتِنوا أوَّلًا بأسبابِ الدُّنيا وزينتِها، ثمَّ فُتِنوا بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم، ثمَّ فُتِنوا بمُخالَفتِهم وتكذيبِهم، ثمَّ فُتِنوا بعذابِ الدُّنيا، ثمَّ فُتِنوا بعذابِ الموتِ، ثمَّ يُفتَنونَ في مَوقِفِ القيامةِ، ثمَّ إذا حُشِروا إلى النَّارِ وَوُقِفوا عليها وعُرِضوا عليها، وذلك مِن أعظَمِ فِتنَتِهم، ثمَّ الفِتنةُ الكُبرى الَّتي أنسَتْهم جميعَ الفِتَنِ قَبْلَها!). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٢).

فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤﴾.

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾.

أي: يُقالُ لهم وهم يُعَذَّبونَ حينَها في النَّارِ: ذُوقُوا حَريقَكم وعَذابَكم؛ جزاءَ كُفرِكم وتَكذيبِكم[1].

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَ تعجيلَه في الدُّنيا؛ استِهزاءً به، وتَكذيبًا واستِبعادًا لِوُقوعِه[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الكُفَّارُ بالأنبياءِ مِن عاداتِهم أن تقولَ كُلُّ طائفةٍ في النَّبيِّ قَولًا يُناقِضُ قَولَ الطَّائِفةِ الأُخرى، وكذلك قَولُهم في الكِتابِ الَّذي أُنزِلَ عليه، وأقوالُهم كُلُّها أقوالٌ مُختَلِفةٌ باطِلةٌ، وهذا هو الاختِلافُ المذمومُ الَّذي ذكَرَه اللهُ تعالى في قَولِه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وفي قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذَّارِيات: ٨، ٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥، ٣٤٦).
قال ابن كثير: (يُقالُ لهم ذلك؛ تقريعًا وتوبيخًا، وتحقيرًا وتصغيرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٦).

ﭐلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[١] [البقرة: ١٧٦].

٢- الحَقُّ لا يَنقُضُ بَعضُه بَعضًا، بل يُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، بخِلافِ الباطِلِ؛ فإنَّه مُختَلِفٌ مُتناقِضٌ، كما قال تعالى في المُخالِفينَ للرُّسُلِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۞ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۞ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾، وإنَّ ما عُلِمَ بمَعقولٍ صَريحٍ لا يُخالِفُه قَطُّ لا خَبَرٌ صَحيحٌ، ولا حِسٌّ صَحيحٌ! وكذلك ما عُلِمَ بالسَّمعِ الصَّحيحِ لا يُعارِضُه عَقلٌ ولا حِسٌّ، وكذلك ما عُلِمَ بالحِسِّ الصَّحيحِ لا يُناقِضُه خَبَرٌ ولا مَعقولٌ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۞ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۞ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ فاختِلافُ قَولِهم في الرَّسولِ وفي القرآنِ، ووَصْفُهما بأوصافٍ مُتناقِضةٍ معَ الواقعِ، ومعَ بعضِهم البعضِ دَليلٌ على فَسادِه وبُطلانِه، كما أنَّ الحَقَّ الَّذي جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّفِقٌ يُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، لا تَناقُضَ فيه ولا اختِلافَ، وذلك دليلٌ على صِحَّتِه وأنَّه مِن عندِ اللهِ ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٣] [النساء: ٨٢]. وإنَّهم لَمَّا كذَّبوا بالحَقِّ اختَلَفتْ مَذاهِبُهم وآراؤُهم، وطرائِقُهم وأقوالُهم؛ فإنَّ الحَقَّ شَيءٌ واحِدٌ، وطَريقٌ مُستقيمٌ؛ فمَن خالفَه اختلفَت به الطُّرُقُ والمذاهِبُ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مُختلِطٍ مُلتَبِسٍ[٤]. وكلُّ مَن خالَفَ الرَّسولَ فلا بُدَّ أنَّه يَتناقَضُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۞ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾، وقال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٥] [النساء: ٨٢].

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٩٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ * يَسۡـَٔلُونَ﴾ أي: حِينًا بعدَ حين على سَبيلِ الاستِمرارِ استِهزاءً، بقَولِهم: ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى وأيَّ حينٍ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: وُقوعُ الجزاءِ الَّذي يُخبِرُنا به؟ ولولا أنَّهم بهذه الحالةِ لَتذكَّروا مِن أنفُسِهم أنَّه ليس أحَدٌ منهم يَبُثُّ عَبيدَه أو أُجراءَه في عَمَلٍ مِنَ الأعمالِ إلَّا وهو يُحاسِبُهم على أعمالِهم، ويَنظُرُ قَطعًا في أحوالِهم، ويَحكُمُ بيْنَهم في أقوالِهم وأفعالِهم، فكيف يُظَنُّ بأحكَمِ الحاكِمينَ أن يَترُكَ عَبيدَه الَّذين خلَقَهم على هذا النِّظامِ المُحكَمِ، وأبدَعَ لهم هذَينِ الخافِقَينِ، وهيَّأ مِن أجْلِهم فيهما ما لا ضَرورةَ لهم في التَّزَوُّدِ للمَعادِ إلى سِواه؛ فيَترُكَهم سُدًى، ويُوجِدَهم عَبَثًا[١]؟!

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ جَوابًا عن قَولِهم: «أيَّانَ يقَعُ؟»، وحينَئذٍ كما أنَّهم لم يَسألوا سُؤالَ مُستَفهِمٍ طالِبٍ لحُصولِ العِلمِ، كذلك لم يُجِبْهم جوابَ مُجيبٍ مُعْلِمٍ مُبيِّنٍ؛ حيثُ قال: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾! وجَهْلُهم بالثَّاني أقوى مِن جَهلِهم بالأوَّلِ، ولا يجوزُ أن يكونَ الجَوابُ بالأخفى، فلو قال قائلٌ: متى يَقْدَمُ زَيْدٌ؟ فلو أُجيبَ بقولِه: «يَومَ يَقدَمُ رفيقُه»، ولا يَعلَمُ يومَ قُدومِ الرَّفيقِ؛ لم يَصِحَّ هذا الجوابُ إلَّا إذا كان الكلامُ في صورةِ جوابٍ ولا يكونُ جوابًا، كقولِ القائلِ لِمَن يَعِدُ عِدَاتٍ ويُخلِفُها: «إلى متى هذا الإخلافُ؟»، فيَغضَبُ ويقولُ: «إلى أَشْأَمِ يَومٍ عليك»؛ فالكلامانِ في صورةِ سؤالٍ وجوابٍ، ولا يُريدُ الأوَّلُ بكلامِه السُّؤالَ، ولا الثَّاني يريدُ به الجَوابَ؛ فكذلك هاهنا قال: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾؛ مُقابَلةً لاستِهزائِهم بالإيعادِ لا على وَجهِ الإتيانِ. ويحتَمِلُ أن يكونَ ذلك ابتداءَ كَلامٍ، تَمامُه في قَولِه تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٦٥، ٦٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أنَّ مِن إطلاقاتِ الفِتنةِ: الإحراقَ بالنَّارِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قَسَمٌ لتَحقيقِ اضْطِرابِ أقوالِهم في الطَّعنِ في الدِّينِ، وهو كالتَّذْييلِ للَّذي قبْلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه خاصٌّ بإثباتِ الجَزاءِ، وهذا يعُمُّ إبطالَ أقوالِهم الضَّالَّةِ؛ فالقَسَمُ لتأكيدِ المُقسَمِ عليه؛ لأنَّهم غيرُ شاعِرينَ بحالِهم المُقسَمِ على وُقوعِه، ومُتهالِكونَ على الاستِزادةِ منه، فهم مُنكِرون لِما في أقوالِهم مِن اختِلافٍ واضطرابٍ، جاهِلون به جَهلًا مُركَّبًا، والجَهلُ المركَّبُ إنكارٌ للعِلمِ الصَّحيحِ(٢).

- وإجراءُ هذا الوصْفِ ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ على السَّماءِ: إدماجٌ(٣)؛ أُدمِجَ به الاستِدلالُ على قُدْرةِ اللهِ تعالى معَ الامتِنانِ بحُسْنِ المَرْأى(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -من مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحَمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤١).

- قولُه: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ كِنايةٌ عن لازمِ الاختِلافِ، وهو التَّردُّدُ في الاعتقادِ، ويَلزَمُه بُطلانُ قَولِهم، وذلك مَصَبُّ التَّأكيدِ بالقَسَمِ وحرْفِ (إنَّ) واللَّامِ(١).

- وَلفظُ ﴿قَوۡلٖ﴾ يَقتضي شيئًا مَقولًا في شأنِه؛ فإذ لم يُذكَرْ بعْدَ ﴿قَوۡلٖ﴾ ما يدُلُّ على مَقولٍ صلَحَ لِجَميعِ أقوالِهم الَّتي اختَلَقوها في شأْنِ القرآنِ، ودَعوةِ الإسلامِ(٢).

- وجُملةُ ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ في مَحلِّ صِفةٍ ثانيةٍ لـ﴿قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الذَّارِيات: ٦]؛ فتكونَ جُملةُ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ * إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ مُعترِضةً بيْنَ الجُملةِ البَيانيَّةِ والجُملةِ المُبيَّنِ عنها(٣).

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ المشرِكونَ المَصروفونَ عن الإيمانِ، والمُرادُ بالَّذي فعَلَ الإفكَ المجهولَ المشرِكون الصَّارِفون لقَومِهم عن الإيمانِ، وهما الفريقانِ اللَّذانِ تَضمَّنهما قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وإنَّما حُذِفَ فاعلُ ﴿يُؤۡفَكُ﴾، وأُبهِمَ مفعولُه بالمَوصوليَّةِ؛ للاستيعابِ، معَ الإيجازِ(٤)، وذلك على قول في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ كِنايةٌ عن مَوصوفٍ، وهو المكذِّبُ الجاحدُ للحقِّ. وفائدةُ الكِنايةِ هنا أنَّه لَمَّا خصَّصَ هذا بأنَّه هو الَّذي صُرِفَ، أفهَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ غَيرَه لم يُصْرَفْ، فكأنَّه قال: لا يَثبُتُ الصَّرفُ في الحَقيقةِ إلَّا لهذا، وكلُّ صَرفٍ دَونَه يُعدُّ كالمَعدومِ بالنِّسبةِ إليه(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ * يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾

- قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ قيل: هو دُعاءٌ بالهلاكِ على أصحابِ ذلك القولِ المُختلِفِ؛ لأنَّ المقصودَ بقَتْلِهم أنَّ اللهَ يُهلِكُهم؛ ولذلك يَكثُرُ أنْ يُقالَ: قاتَلَه اللهُ، ثم أُجرِيَ مُجرى اللَّعنِ والتَّحقيرِ والتَّعجيبِ مِن سُوءِ أحوالِ المدعوِّ عليه بمِثلِ هذا(٢). وجُملةُ الدُّعاءِ لا تُعطَفُ؛ لأنَّها شَديدةُ الاتِّصالِ بما قبْلَها؛ ممَّا أوجَبَ ذلك الوصفَ لدُخولِهم في هذا الدُّعاءِ، كما كان تَعقيبُ الجُمَلِ الَّتي قبْلَها بها إيماءً إلى أنَّ ما قبْلَها سَببٌ للدُّعاءِ عليهم، وهذا مِن بَديعِ الإيجازِ(٣).

- والخَرْصُ: الظَّنُّ الَّذي لا حُجَّةَ لصاحبِه على ظنِّه، وذلك كِنايةٌ عن الضَّلالِ عَمْدًا أو تَساهُلًا؛ فالخرَّاصونَ هم أصحابُ القولِ المُختلِفِ، فأفاد أنَّ قولَهم المختلِفَ ناشئٌ عن خَواطرَ لا دَليلَ عليها(٤).

- وهذه الجُملةُ ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن ضَميرِ ﴿ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾، ويَجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن جُملةِ ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ أفادَت تَعجيبًا مِن سُوءِ عُقولِهم وأحوالِهم؛ فهو مَثارُ سُؤالٍ في نفْسِ السامعِ يَتطلَّبُ البيانَ، فأُجيبَ بأنَّهم يَسأَلون عن يومِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدِّينِ سُؤالَ مُتهكِّمينَ، يَعنون أنَّه لا وُقوعَ ليوم الدِّينِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لأنَّ في فِعلِ السُّؤالِ معنى القولِ، فتَقديرُ الكلامِ: يقولون: أيَّانَ يَومُ الدِّينِ؟ ويجوزُ جعْلُ جُملةِ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ بدَلًا من جُملةِ ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لتفْصيلِ إجمالِه، وهو مِن نَوعِ البدَلِ المُطابقِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ جَوابٌ لسُؤالِهم جرَى على الأسلوبِ الحَكيمِ[٣] مِن تَلقِّي السَّائلِ بغَيرِ ما يَتطلَّبُ؛ إذ هم حينَ قالوا: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، أرادوا التَّهكُّمَ والإحالةَ، فتُلُقِّيَ كَلامُهم بغَيرِ مُرادِهم؛ لأنَّ في الجوابِ ما يَشفي وَقْعَ تَهكُّمِهم، والمعنى: يومُ الدِّينِ يقَعُ يومَ تُصْلَونَ النَّارَ ويُقالُ لكم: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾[٤].

- قولُه: ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ الفَتْنُ: التَّعذيبُ والتَّحريقُ، أي: يومَ هم يُعذَّبون في نارِ جهنَّمَ، وأصلُ الفَتْنِ الاختبارُ، وشاع إطلاقُه على مَعانٍ؛ منها إذابةُ الذَّهبِ على النَّارِ في البُوتَقةِ[٥] لاختبارِ ما فيه مِن مَعدِنٍ غَيرِ ذهَبٍ، ولا يُذابُ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٣) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٥) البُوتَقةُ: الوِعاءُ الَّذي يُذابُ فيه المَعدِنُ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٧٥)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ٢٦٠).

بحَرارةِ نارٍ شديدةٍ؛ فهو هنا كِنايةٌ عن الإحراقِ الشَّديدِ(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه الخِطابُ، أي: يقالُ لهم حينَئذٍ، أو مَقولًا لهم: ذُوقوا فِتنَتَكم، أي: عذابَكم(٢).

- والأمرُ في قولِه: ﴿ ذُوقُوا۟ ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنكيلِ(٣).

- والذَّوقُ: مُعبَّرٌ به عن الإحساسِ القويِّ؛ لأنَّ اللِّسانَ أشَدُّ الأعضاءِ إحساسًا(٤).

- وإضافةُ فِتنةٍ إلى ضَميرِ المُخاطَبين مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه. وفي الإضافةِ دَلالةٌ على اختِصاصِها بهم؛ لأنَّهم استحَقُّوها بكُفْرِهم. ويجوزُ أن تكونَ الإضافةُ مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعِلِه. والمعنى: ذُوقوا جزاءَ فِتنتِكم. ويُجعَلَ الكلامُ مُوجَّهًا بتَذكيرِ المُخاطَبينَ في ذلك اليَومِ بما كانوا يَفتِنون به المؤمنينَ مِن التَّعذيبِ. وجُعِلَ المَذوقُ فِتنتَهم؛ إظهارًا لِكَونِه جَزاءً عن فِتنَتِهم المؤمنينَ؛ لِيَزدادوا نَدامةً(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لفظُ الذَّوقِ يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُحِسُّ به [الإنسانُ]، ويجدُ ألَمَه أو لَذَّتَه، فدعوَى المدَّعي اختِصاصَ لَفظِ الذَّوقِ بما يكونُ بالفَمِ تحَكُّمٌ منه، لكنَّ ذاك مُقيَّدٌ، فيُقالُ: ذُقتُ الطَّعامَ، وذُقتُ هذا الشَّرابَ؛ فيَكونُ معه مِن القيودِ ما يدُلُّ على أنَّه ذوقٌ بالفَمِ، وإذا كان الذَّوقُ مُستعمَلًا فيما يُحِسُّه الإنسانُ بباطنِه أو بظاهِرِه حتَّى الماءُ الحَميمُ يُقالُ: ذاقه؛ فالشَّرابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يقالُ: ذُقتُ حَرَّه وبَرْدَه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ إلى الشَّيءِ الحاضِرِ نُصبَ أعيُنِهم؛ لاستِحضارِ صُورةِ العذابِ(١).

- وجُملةُ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استِئنافٌ في مَقامِ التَّوبيخِ وتَعديدِ المَجارمِ، كما يُقالُ للمُجرمِ: فعلْتَ كذا، وهي مِن مَقولِ القولِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥-١٩)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَهْجَعُونَ﴾: أي: يَنامونَ، والهُجوعُ: النَّومُ باللَّيلِ دونَ النَّهارِ، وأصلُ (هجع): يدُلُّ على نَومٍ[1].

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾: جَمعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيلِ، وأصلُ (سحر) هنا: يدُلُّ على وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).
قال السمينُ الحلبي: (واختلَف أهلُ اللُّغةِ في السَّحَرِ: أيُّ وقتٍ هو؟ فقال جماعةٌ منهم الزَّجَّاجُ: إنَّه الوقتُ قبْلَ طُلوعِ الفَجرِ... قال الرَّاغبُ: السَّحَرُ: اختِلاطُ ظلامِ آخِرِ اللَّيلِ بضياءِ النَّهارِ، وجُعِل اسمًا لذلك الوقتِ... وقال بعضُهم: السَّحَرُ مِن ثُلُثِ اللَّيلِ الأخيرِ إلى طُلوعِ الفَجرِ. وقال بعضُهم أيضًا: السَّحَرُ عندَ العرَبِ مِن آخِرِ اللَّيلِ، ثمَّ يَستَمِرُّ حُكمُه إلى الإسفارِ، كلُّه يُقالُ له: سَحَرٌ. قيل: وسُمِّيَ السَّحَرُ سَحَرًا؛ لِخَفائِه، ومنه قيل لِلسِّحْرِ: سِحْرٌ؛ لِلُطْفِه وخَفائه). ((الدر المصون)) (٣/ ٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٣٨٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٠١).
ونقَل ابنُ عطيَّةَ قولَ مَن قال عن السَّحَرِ: هو قبْلَ طُلوعِ الفَجرِ، ثمَّ علَّق عليه فقال: (وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ ما بعدَ الفَجرِ هو مِن اليومِ لا مِن اللَّيلةِ). ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١).

﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: أي: الفقيرِ المتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ، وأصلُ (حرم): يدُلُّ على مَنعٍ وتَشديدٍ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ فيه أوجُهٌ:

أحَدُها: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا يَهۡجَعُونَ﴾ مَزيدةً للتَّأكيدِ، و﴿يَهۡجَعُونَ﴾ خَبَرَ كان. والتَّقديرُ: كانوا يَهجَعونَ مِن اللَّيلِ هُجوعًا أو زَمَنًا قليلًا؛ فـ﴿قَلِيلٗا﴾ نَعتٌ لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ، أو لظَرفٍ محذوفٍ.

الثَّاني: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، وهي مع مَدخولِها في محَلِّ رَفعٍ فاعِلٌ بـ﴿قَلِيلٗا﴾، ويُنصَبُ ﴿قَلِيلٗا﴾ على أنَّه خبَرُ «كان»، والتَّقديرُ: كانوا قَليلًا هُجوعُهم.

الثَّالِثُ: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، وهي مع مَدخُولِها في محَلِّ رَفعٍ بدَلٌ مِن اسمِ كان «واوِ الجَماعةِ» بدَلَ اشتِمالٍ، أي: كان هُجوعُهم قليلًا. وقيلَ غَيرُ ذلك[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المتَّقينَ، بعدَ بيانِه سوءَ مصيرِ المكذِّبينَ: إنَّ المتَّقينَ ربَّهم بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه: في بَساتينَ عَظيمةٍ وعُيونٍ جاريةٍ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩).

آخِذينَ في الجنَّاتِ ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ والخَيراتِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أعمالَهم الَّتي أوصَلَتْهم إلى ذلك النَّعيم، فيقولُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا مُحسِنينَ؛كانوا يَنامونَ قليلًا مِنَ اللَّيلِ، ويَقومونَ بيْنَ يدَيْ رَبِّهم يَطلُبونَ منه المَغفِرةَ لِذُنوبِهم، وفي أموالِهم حقٌّ ثابِتٌ للسَّائِلِ، وللمَحرومِ مِن المالِ الَّذي لا يَسألُهم منه شَيئًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله سبحانَه حالَ الكُفَّارِ؛ ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ[1].

وأيضًا فالله سُبحانَه ذكَرَ جزاءَ مَن خَلَص مِن تلك الفِتَنِ بالتَّقوى، وهو الجنَّاتُ والعُيونُ، فقال[2]:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ تعالى وعَذابَه بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه: لَمُستقِرُّونَ في الدَّارِ الآخِرةِ في بَساتينَ عَظيمةٍ، وعُيونٍ جاريةٍ[3].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١، ٥٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٣، ١٢٤).

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البَراءِ -وهي أمُّ حارِثةَ ابنِ سُراقةَ- أتت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، ألَا تُحَدِّثُني عن حارِثةَ؟ -وكان قُتِلَ يومَ بَدرٍ، أصابه سَهمٌ غَرْبٌ[١]- فإنْ كان في الجنَّةِ صَبرْتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتهَدْتُ عليه في البُكاءِ، قال: يا أُمَّ حارِثةَ، إنَّها جِنانٌ في الجنَّة، وإنَّ ابنَك أصابَ الفِردَوسَ الأعلى!))[٢].

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾.

أي: آخِذينَ في الجنَّاتِ ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ والخَيراتِ[٣].

---

(١) سهمٌ غَرْبٌ: أي: لا يُدرى مَن رماه. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٤).

قال السمعاني: (ومعنى الأخْذِ هو دُخولُهم الجنَّةَ، ووُصولُهم إلى ما وُعِدوا مِن الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٣).

وقال ابن عطيَّة: (﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: محصِّلينَ لِنِعَمِ الله الَّتي أعطاهم مِن جَنَّتِه ورِضوانِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤).

وقال الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والألوسي، وابنُ عاشور: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾: قابِلينَ لِكُلِّ ما أعطاهم، راضينَ به. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

قال الزمخشري: (يعني أنَّه ليس فيما آتاهم إلَّا ما هو مُتلَقًّى بالقَبولِ، مَرضيٌّ غيرُ مَسخوطٍ؛ لأنَّ جميعَه حسَنٌ طَيِّبٌ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، أي: يَقْبَلُها ويَرضاها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨).

وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المعنى: عامِلينَ في الدُّنيا بما أمَرَهم به اللهُ مِنَ الفرائضِ. وتابَعه مكِّيٌّ، =

كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور: ١٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيك(١)، والخَيرُ في يدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيَقولونَ: وما لَنا لا نَرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيْتَنا ما لم تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِك؟! فيَقولُ: ألَا أُعطيكم أفضَلَ مِن ذلك؟! فيقولونَ: يا رَبِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيَقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بَعْدَه أبَدًا))(٢).

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾.

= ورُويَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ بإسنادٍ ضَعَّفه ابنُ كثيرٍ، وقال: (والَّذي فسَّر به ابنُ جريرٍ فيه نظَرٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حالٌ مِن قَولِه: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٠، ٥٠١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٦).

قال السعدي: (﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ يحتملُ أنَّ المعنى: أنَّ أهلَ الجنَّة قد أعطاهم مَولاهم جميعَ مُناهُم، مِن جميعِ أصنافِ النَّعيمِ، فأخَذوا ذلك راضينَ به، قد قرَّتْ به أعيُنُهم، وفرِحَتْ به نُفوسُهم، ولم يَطلُبوا منه بدَلًا، ولا يَبْغونَ عنه حِوَلًا، وكلٌّ قد ناله مِن النَّعيمِ، ما لا يَطلُبُ عليه المَزيدَ.

ويحتملُ أنَّ هذا وصْفُ المتَّقينَ في الدُّنيا، وأنَّهم آخِذون ما آتاهم اللهُ مِن الأوامرِ والنَّواهي، أي: قد تلَقَّوْها بالرُّحبِ، وانشِراحِ الصَّدرِ، مُنقادينَ لِما أمَرَ اللهُ به، بالامتثالِ على أكمَلِ الوُجوهِ، ولِما نهى عنه، بالانزِجارِ عنه لله، على أكمَلِ وجْهٍ؛ فإنَّ الَّذي أعطاهم الله مِن الأوامرِ والنَّواهي هو أفضَلُ العَطايا، الَّتي حقُّها أن تُتلَقَّى بالشُّكرِ [لله] عليها، والانقيادِ.

والمعنى الأوَّلُ ألْصَقُ بسياقِ الكلامِ؛ لأنَّه ذكَر وصْفَهم في الدُّنيا، وأعمالَهم بقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ الوقتِ الَّذي وصَلوا به إلى النَّعيمِ ﴿مُحۡسِنِينَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(١) لَبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دَوامًا بعدَ دوامٍ، وأُقيمُ على طاعتِك إقامةً بعدَ إقامةٍ، مِن: أَلَبَّ بالمكانِ: إذا أقام به. وسَعْدَيْك: أي: ساعَدْتُ طاعتَك يا ربِّ مُساعدةً بعدَ مساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمسارعةُ، أو أسعَدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعدَ سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر جَزاءَهم؛ ذَكَر السَّبَبَ الَّذي أوصَلَهم إلى ذلك[(١)]، فقال:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ المُتَّقينَ كانوا في الدُّنيا مُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، مُحسِنينَ إلى عبادِ اللهِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وفي حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في قِصَّةِ سُؤالِ جِبريلَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: أخبِرْني عن الإحسانِ، قال: ((أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك))[(٣)].

﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إحسانَهم؛ فسَّره مُعَبِّرًا عنه بما هو في غايةِ المُبالَغةِ، فقال تعالى[(٤)]:

﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٤).

ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ إحسانَهم يتضمَّنُ عبادتَه وحْدَه لا شريكَ له، والقيامَ بحقوقِه، وحُقوقِ عبادِه. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ يقولُ: إنَّهم كانوا قبْلَ أن يَفرِضَ عليهم الفرائضَ ﴿مُحۡسِنِينَ﴾، يقولُ: كانوا لله قبْلَ ذلك مُطيعينَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٦).

أي: كانوا يَنامونَ قليلًا مِنَ اللَّيلِ، فهم يُكابِدونَ السَّهَرَ في اللَّيلِ؛ لِعبادةِ رَبِّهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢ - ٤].

وقال جَلَّ جَلالُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٤، ٥٠٨، ٥٠٩)، ((فضل قيام الليل)) للآجُرِّي (ص: ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).

قال ابن تيميَّةَ: (هذا على أصَحِّ الأقوالِ معناه: كانوا يَهجَعونَ قليلًا، فـ﴿قَلِيلٗا﴾ مَنصوبٌ بـ﴿يَهۡجَعُونَ﴾ و﴿مَا﴾ مُؤكِّدةٌ. وهذا مِثلُ قَولِه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقولُه: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ هو مُفَسَّرٌ في سُورةِ المُزَّمِّلِ بقَولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢ - ٤]؛ فهذا المُستثنى مِنَ الأمرِ هو القليلُ المذكورُ في تلك السُّورةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٥). ويُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١ - ٢٩٣).

وقال الشوكاني: (المعنى: كانوا قليلًا ما يَنامونَ مِنَ اللَّيلِ، و﴿مَا﴾ زائدةٌ، ويجوزُ أن تكونَ مَصدريَّةً أو مَوصولةً، أي: كانوا قليلًا مِنَ اللَّيلِ هُجوعُهم، أو ما يَهجَعونَ فيه... وقيل: ﴿مَا﴾ نافيةٌ، أي: ما كانوا يَنامون قليلًا مِنَ اللَّيلِ، فكيف بالكثيرِ منه؟! وهذا ضعيفٌ جِدًّا. وهذا قولُ مَن قال: إنَّ المعنى: كان عَدَدُهم قليلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٠، ١٠١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أيُّها النَّاسُ، أفْشُوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصَلُّوا والنَّاسُ نِيامٌ؛ تَدخُلوا الجنَّةَ بسَلامٍ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها، فقال أبو موسى الأَشْعَريُّ: لِمَن هي يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات للهِ قائمًا والنَّاسُ نِيامٌ))[٢].

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: وهم في آخِرِ اللَّيلِ يَطلُبونَ مِنَ اللهِ المَغفِرةَ لِذُنوبِهم، أو لِتَقصيرِهم في عبادةِ رَبِّهم[٣].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٤٨٥)، وابنُ ماجَه (١١٠٥) وأحمدُ (٢٣٧٨٤)، والدَّارميُّ (١٥٠١).
صحَّحه الترمذيُّ، والذهبيُّ في ((تاريخ الإسلام)) (٢/ ٣٤)، وجَوَّد إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (٣٠٧)، وحَسَّنه ابنُ الملَقِّنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ٤٢)، وحَسَّن الحديثَ ابنُ حَجَر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٧٧)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦١٥) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٤/ ٨٠) (١٤٦٨٧)، والحاكمُ (٢٧٠).
صَحَّحه على شَرطِ الشَّيخَينِ الحاكِمُ، وحَسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢٣٢). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١١١)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٦١٧): (حَسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).
قال الماوَرْدي: (﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه وجْهانِ: =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَنزِلُ رَبُّنا تبارك وتعالى كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبقى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يَقولُ: مَن يَدْعوني فأستَجيبَ له؟ مَن يَسألُني فأُعطِيَه؟ مَن يَستَغفِرُني فأغفِرَ له؟))[(١)].

﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مُعامَلتَهم للخالِقِ؛ أتْبَعه المُعامَلةَ للخلائِقِ؛ تَكميلًا لحقيقةِ الإحسانِ[(٢)]، فلمَّا وَصَفهم بالصَّلاةِ؛ ثنَّى بوَصْفِهم بالزَّكاةِ والبرِّ والصِّلَةِ[(٣)]، فقال:

﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾.

أي: وفي أموالِ أولئك المتَّقينَ المُحسِنينَ نَصيبٌ ثابِتٌ للمُحتاجِ الَّذي يَسألُهم، وللمَحرومِ مِن المالِ الَّذي لا يَسألُهم منه شَيئًا[(٤)].

= أحَدُهما: وبالأسحارِ هم يُصَلُّونَ. قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّاني: أنَّهم كانوا يُؤَخِّرونَ الاستِغفارَ مِن ذُنوبِهم إلى السَّحَرِ لِيَستَغفِروا فيه. قاله الحسَنُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٦).

وقال الواحدي: (قال عَطاءٌ، والكَلْبيُّ، ومُقاتِلٌ، ومجاهِدٌ: يُصَلُّونَ، ففَسَّروا الاستِغفارَ بالصَّلاةِ، على أنَّ صَلاتَهم بالأسحارِ طَلَبٌ منهم مَغفِرةَ اللهِ تعالى. وذهب آخَرونَ إلى ظاهِرِ الاستِغفارِ باللِّسانِ، وهو قولُ ابنِ مَسعودٍ، والحسَنِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦١٩)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١١٣) و(٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(١) أخرجه البخاريُّ (١١٤٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١١، ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٨، ٣٩)، ((التبيان =

= في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي: أنَّه الَّذي قد حُرِمَ الرِّزقَ فاحتاج؛ وقد يكونُ ذلك بذَهابِ مالِه وثَمَرِه، فصار مِمَّن حرَمَه اللهُ ذلك، وقد يكونُ بسَبَبِ تعَفُّفِه وتَرْكِه المسألةَ، ويكونُ بأنَّه لا سَهمَ له في الغَنيمةِ؛ لِغَيبتِه عن الوَقعةِ؛ فلا قَولَ في ذلك أَولى بالصَّوابِ مِن أنْ يُعَمَّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٨).

وقال ابنُ عاشور: (المحرومُ: الفَقيرُ الَّذي لا يُعطَى الصَّدَقةَ؛ لظَنِّ النَّاسِ أنَّه غيرُ مُحتاجٍ؛ مِن تعَفُّفِه عن إظهارِ الفَقرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

وقال الجصَّاصُ: (فَرَّق اللهُ تعالى في الآيةِ بيْنَ السَّائِلِ والمحروم؛ لأنَّ الفَقيرَ قد يَحرِمُ نَفْسَه بتَركِه المسألَةَ، وقد يَحرِمُه النَّاسُ بتَركِ إعطائِه، فإذا لم يَسألْ فقد حَرَم نفْسَه بتَركِ المسألةِ؛ فسُمِّيَ مَحرومًا مِن هذا الوَجهِ؛ لأنَّه يَصيرُ مَحرومًا مِن وَجهَينِ: مِن قِبَلِ نفْسِه، ومِن قِبَلِ النَّاسِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٤٨).

وقال ابن عطيَّة: (اختلف النَّاسُ في المحرومِ اختلافًا هو عندي تخليطٌ مِن المتأخِّرينَ؛ إذِ المعنى واحدٌ، وإنَّما عبَّر علماءُ السَّلفِ في ذلك بعباراتٍ على جهةِ المثالاتِ، فجعَلها المتأخِّرونَ أقوالًا، وحصَرها مكِّيٌّ ثمانيةً. والمحرومُ هو الَّذي تَبعُدُ عنه مُمكناتُ الرِّزقِ بعدَ قُربِها منه، فيَنالُه حِرمانٌ وفاقةٌ، وهو معَ ذلك لا يَسألُ؛ فهذا هو الَّذي له حَقٌّ في أموالِ الأغنياءِ كما للسَّائلِ حَقٌّ... والمعنى الجامعُ لهذه الأقوالِ: أنَّه الَّذي لا مالَ له؛ لِحِرمانٍ أصابه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٥).

وقال ابنُ الفَرَسِ بعدَ أن ذكَرَ الأقوالَ في معنى المحروم: (وهذه الأقوالُ كُلُّها ترجِعُ إلى معنًى واحدٍ من العُدْمِ والاحتياجِ، وبعضُ النَّاسِ يَسوقونَها على أنَّها اختِلافٌ، وليس بصَحيحٍ، وإنَّما ساق العُلَماءُ كُلَّ قولٍ مِن ذلك على جهةِ المثالِ للمعنى العامِّ المرادِ بالآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٠٦).

وقال الشوكاني: (والَّذي يَنبغي التَّعويلُ عليه ما يدُلُّ عليه المعنى اللُّغَويُّ، والمحرومُ في اللُّغةِ: الممنوعُ، مِنَ الحِرمانِ، وهو المنعُ، فيَدخُلُ تحتَه مَن حُرِمَ الرِّزقَ مِنَ الأصلِ، ومَن أُصيبَ مالُه بجائحةٍ أذهَبَتْه، ومَن حُرِمَ العطاءَ، ومَن حُرِمَ الصَّدَقةَ لِتَعفُّفِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١).

وقال القرطبي: (روى ابنُ وَهبٍ عن مالِكٍ: أنَّه الَّذي يُحرَمُ الرِّزقَ. وهذا قَولٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه يَعُمُّ جميعَ الأقوالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٩). =

= وقال القاسمي: (ويَدخُلُ في «المحروم» كُلُّ مَن لا مالَ له، ومَن هَلَك مالُه بآفةٍ، ومَن حُرِمَ الرِّزقَ واحتاجَ، إلَّا أنَّ أهَمَّ أفرادِه المُتعَفِّفُ؛ ولذا عوَّل عليه الأكثَرُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩).

وقال الجصَّاصُ: (في المالِ حَقٌّ سِوى الزَّكاةِ باتِّفاقِ المُسلِمينَ؛ منه ما يلزَمُ مِن النَّفَقةِ على والِدَيه إذا كانا فقيرَينِ، وعلى ذَوي أرحامِه، وما يلزَمُ مِن طعامِ المُضطَرِّ، وحَمْلِ المُنقَطِعِ به، وما جرى مَجرى ذلك مِنَ الحُقوقِ اللَّازِمةِ عندَ ما يَعرِضُ مِن هذه الأحوالِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٤٧). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٨٨) و (٢/ ٤٨٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (وأمَّا الزَّكاةُ فإنَّها تجبُ حقًّا لله في مالِه؛ ولهذا يُقالُ: ليس في المالِ حقٌّ سِوى الزَّكاةِ، أي: ليس فيه حقٌّ يجبُ بسببِ المالِ سِوى الزَّكاةِ، وإلَّا ففيه واجباتٌ بغيرِ سببِ المالِ؛ كما تجبُ النَّفَقاتُ للأقاربِ، والزَّوجةِ، والرَّقيقِ، والبهائمِ، ويجبُ حمْلُ العاقِلةِ، ويجبُ قضاءُ الدُّيونِ، ويجبُ الإعطاءُ في النَّائبةِ، ويجبُ إطعامُ الجائعِ، وكِسْوةُ العاري فرضًا على الكفايةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الواجباتِ الماليَّةِ، لكنْ بسبَبٍ عارِضٍ، والمالُ شرطُ وُجوبِها، كالاستِطاعةِ في الحجِّ؛ فإنَّ البدَنَ سببُ الوُجوبِ، والاستِطاعةَ شرطٌ، والمالُ في الزَّكاةِ هو السَّببُ والوُجوبُ معه، حتَّى لو لم يكُنْ في بلَدِه مَن يَستحِقُّها حمَلَها إلى بلدٍ أخرى، وهي حقٌّ وجَب لله تعالى). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٣١٦).

وقيل: المرادُ بالحَقِّ هنا: الزَّكاةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الْكِيَا الهَرَّاسي، وابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٨٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٦).

وقيل: الحَقُّ هنا هو على وَجهِ النَّدبِ، لا على وَجهِ الفَرضِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الفَرَس، وابن جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١).

وقيل: الحَقُّ هنا يَشملُ الإنفاقَ الواجِبَ والمُستَحَبَّ. وممَّن ذهب إلى هذا: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦).

وقال ابن عاشور: (وحقُّ السَّائلِ والمَحرومِ: هو النَّصيبُ الَّذي يُعطُونه إيَّاهما؛ أُطلِقَ عليه لَفظُ الحقِّ؛ إمَّا لأنَّ اللهَ أوجَبَ على المسلمينَ الصَّدقةَ بما تَيسَّرَ قبْلَ أنْ يُفرَضَ عليهم الزَّكاةُ؛ فإنَّ الزَّكاةَ فُرِضَت بعدَ الهجرةِ، فصارتِ الصَّدقةُ حقًّا للسَّائلِ والمحرومِ، أو لأنَّهم ألْزَموا ذلك أنفُسَهم، حتَّى صار كالحقِّ للسَّائلِ والمَحرومِ، وبذلك يُتأوَّلُ قولُ مَن قال: إنَّ هذا الحقَّ هو =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ وَصْفَ أهلِ الجنَّةِ في هذه السُّورةِ بالأعمالِ الَّتي قَدَّموها يتضَمَّنُ أمْرَ المُكَلَّفينَ بمِثلِ ما جُعِلَ خَبرًا عنهم أنَّهم فَعَلوه[1].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ أحسَنوا في عبادةِ ربِّهم، بأنْ عبَدوه كأنَّهم يَرَوْنَه، فإنْ لم يَكونوا يَرَوْنَه فإنَّه يَراهم، وأحسَنوا إلى عِبادِ اللهِ ببَذْلِ النَّفعِ، والإحسانِ مِن مالٍ أو عِلمٍ، أو جاهٍ أو نصيحةٍ، أو أمْرٍ بمَعروفٍ أو نَهيٍ عن مُنكَرٍ، أو غيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإحسانِ وطُرُقِ الخَيراتِ. وأحسَنوا بالقولِ، والكلامِ اللَّيِّنِ، وأحسَنوا إلى المماليكِ، والبَهائمِ المَملوكةِ، وغيرِ المملوكةِ، ومِن أفضَلِ أنواعِ الإحسانِ في عبادةِ الخالِقِ: صَلاةُ اللَّيلِ الدَّالَّةُ على الإخلاصِ، وتَواطُؤِ القَلبِ واللِّسانِ، ولهذا قال: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه تعالى مدَحَهم بقِلَّةِ الهُجوعِ، ولم يمدَحْهم بكثرةِ السَّهَرِ، فما قال: «كانوا كثيرًا مِنَ اللَّيلِ ما يَسهَرونَ»! فما الحِكمةُ فيه، مع أنَّ السَّهَرَ هو الكُلفةُ والاجتِهادُ لا الهُجوعَ؟!

الجوابُ: إشارةً إلى أنَّ نَومَهم عبادةٌ؛ حيثُ مدَحَهم اللهُ تعالى بكَونِهم

= الزَّكاةُ)). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

هاجِعينَ قَليلًا، وذلك الهُجوعُ أورَثَهم الاشتِغالَ بعِبادةٍ أُخرى، وهي الاستِغفارُ في وُجوهِ الأسحارِ، ومَنْعُهم مِن الإعجابِ بأنفُسِهم والاستِكبارِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ استِحبابُ قيامِ اللَّيلِ، وذَمُّ نَومِه كُلِّه(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هذا كالمِثالِ لأعظَمِ إحسانِهم؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن أعمالِهم دالٌّ على شِدَّةِ طاعتِهم لله؛ ابتِغاءَ مَرضاتِه، ببَذْلِ أشَدِّ ما يُبذَلُ على النَّفْسِ، وهو شَيئانِ؛ أوَّلُهما: راحةُ النَّفْسِ في وَقتِ اشتِدادِ حاجتِها إلى الرَّاحةِ، وهو اللَّيلُ كُلُّه، وخاصَّةً آخِرَه؛ إذ يكونُ فيه قائمُ اللَّيلِ قد تَعِبَ، واشتَدَّ طَلَبُه للرَّاحةِ. وثانيهما: المالُ الَّذي تَشِحُّ به النُّفوسُ غالِبًا، وقد تضَمَّنَت هذه الأعمالُ الأربعةُ أصْلَيْ إصلاحِ النَّفْسِ وإصلاحِ النَّاسِ، وذلك جِماعُ ما يَرمي إليه التَّكليفُ مِنَ الأعمالِ؛ فإنَّ صَلاحَ النَّفسِ تزكيةُ الباطِنِ والظَّاهِرِ، ففي قيامِ اللَّيلِ إشارةٌ إلى تزكيةِ النَّفسِ باستِجلابِ رِضا اللهِ تعالى، وفي الاستِغفارِ تَزكيةُ الظَّاهِرِ بالأقوالِ الطَّيِّبةِ الجالِبةِ لِمَرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي جَعْلِهم الحَقَّ في أموالِهم للسَّائلينَ نَفعٌ ظاهِرٌ للمُحتاجِ المُظهِرِ لحاجتِه، وفي جَعْلِهم الحَقَّ للمَحرومِ نَفعُ المحتاجِ المتعَفِّفِ عن إظهارِ حاجتِه، الصَّابرِ على شِدَّةِ الاحتياجِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا يَتهَجَّدونَ ويَجتَهِدونَ، يُريدونَ أن يكونَ عَمَلُهم أكثَرَ مِن ذلك وأخلَصَ منه، ويَستَغفِرونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٨، ٣٤٩).

مِنَ التَّقصيرِ، وهذه سِيرةُ الكريمِ؛ يأتي بأبلَغِ وُجوهِ الكَرَمِ ويَستَقِلُّه، ويَعتَذِرُ مِنَ التَّقصيرِ! واللَّئيمُ يأتي بالقَليلِ ويَستَكثِرُه، ويَمُنُّ به(١)!

٧- أحسَنُ ما خُتِمت به الأعمالُ: التَّوبةُ والاستِغفارُ(٢)، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فهذا مِن حُسْنِ عَمَلِهم، وعَدَمِ إعجابِهم بأنفُسِهم، وكَونِهم يَشعُرونَ بأنَّهم وإنِ اجتَهَدوا فهم مُقَصِّرُون، فيَستَغفِرونَ اللهَ بعدَ فِعلِ الطَّاعةِ؛ جَبرًا لِمَا حَصَلَ فيها مِن خَللٍ، ويُشرَعُ في نهايةِ العباداتِ أن يَستغفِرَ الإنسانُ ربَّه ممَّا قد يكونُ فيها مِن خَلَلٍ؛ فبَعْدَ الصَّلاةِ يَستغفِرُ الإنسانُ ربَّه ثلاثًا، وبعدَ الحجِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، فهم يَسألونَ المغفرةَ بعدَ تهجُّدِهم وقيامِهم(٣)، فهذا ونحوُه مما يُبيِّنُ حقيقةَ الأمرِ، وأنَّ كلَّ أحدٍ محتاجٌ إلى مغفرةِ اللهِ ورحمتِه، وأنَّه لا سبيلَ إلى النَّجاةِ بدونِ مغفرتِه ورحمتِه أصلًا(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ فيها الدَّلالةُ المعروفةُ عِندَ أهلِ الأُصولِ بدَلالةِ الإيماءِ والتَّنبيهِ(٥) على أنَّ سَبَبَ نَيلِ هذه الجَنَّاتِ والعُيونِ هو تَقْوى اللهِ، والسَّبَبُ الشَّرعيُّ هو العِلَّةُ الشَّرعيَّةُ على الأصَحِّ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٧).

(٥) دلالةُ الإيماءِ والتَّنبيهِ ضابطُها: أن يُذكرَ وصْفٌ مُقتَرِنٌ بحُكمٍ في نصٍّ مِن نصوصِ الشَّرعِ على وجهٍ لو لم يكُنْ ذلك الوصفُ علَّةً لذلك الحُكمِ لَكان الكلامُ معيبًا. يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٩).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَعُيُونٍ﴾ يَقتَضي أن يكونَ المتَّقي فيها، ولا لذَّةَ في كَونِ الإنسانِ في ماءٍ أو غيرِ ذلك مِنَ المائعاتِ.

الجوابُ: أنَّ معناه: في خِلالِ العُيونِ، وذلك بيْنَ الأنهارِ؛ بدَليلِ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ ليس معناه إلَّا بينَ جَنَّاتٍ، وفي خِلالِها؛ لأنَّ الجنَّةَ هي الأشجارُ، وإنَّما يكونُ بَيْنَها، كذلك القَولُ في العُيونِ(١).

٣- أنَّ الصَّلاةَ باللَّيلِ مِن مُوجِباتِ الجنَّةِ، وقد دلَّ عليه قَولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، فوَصَفهم بالتَّيَقُّظِ باللَّيلِ، والاستِغفارِ بالأسحارِ، وبالإنفاقِ مِن أموالِهم(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دليلٌ على أُمورٍ؛ منها: قَبولُهم له، ومنها: رِضاهم به، ومنها: وُصولُهم إليه بلا مانِعٍ ولا عائِقٍ، ومنها: أنَّ جَزاءَهم مِن جِنسِ أعمالِهم؛ فكما أَخذوا ما أمَرَهم به في الدُّنيا وقابَلوه بالرِّضا والتَّسليمِ وانشِراحِ الصَّدْرِ، أَخذوا ما آتاهم مِن الجَزاءِ كذلك(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فَضلُ اختِصاصِ اللَّيلِ، وكذا في قَولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، وقَولِه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

ومِنَ السُّنَّةِ قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا كان ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ يَنزِلُ رَبُّنا إلى سَماءِ الدُّنيا)) الحديثَ[1]. وهذا يدُلُّ على أنَّ اللَّيلَ أخَصُّ بالنَّفَحاتِ الإلهيَّةِ، وبتجَلِّياتِ الرَّبِّ سُبحانَه لعبادِه؛ وذلك لِخُلُوِّ القَلبِ، وانقِطاعِ الشَّواغِلِ. وسُكونُ اللَّيلِ ورَهبتُه أقوى على استِحضارِ القَلبِ وصَفائِه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا يُخْلُونَ وَقتًا عن العِبادةِ؛ فإنَّهم باللَّيلِ لا يَهجَعونَ، ومع أوَّلِ جُزءٍ مِنَ السَّحَرِ يَستَغفِرونَ؛ فيَكونُ فيه بيانُ كَونِهم مُستَغفِرينَ مِن غَيرِ أن يَسبِقَ منهم ذَنبٌ[3]!

٧- الزَّكاةُ واجِبةٌ في عُروضِ التِّجارةِ عندَ أكثرِ أهلِ العِلمِ، وهو القَولُ الصَّحيحُ المُتعيِّنُ، والدَّليلُ على ذلك: دُخولُها في عُمومِ قَولِه تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[4].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ تأمَّلْ حِكمةَ الرَّبِّ تعالى في كَونِه حَرَمه بقَضائِه، وشَرَعَ لأصحابِ الجِدَةِ إعطاءَه، وهو أغنى الأغنياءِ، وأجودُ الأجوَدِينَ! فلم يَجْمَعْ عليه بيْنَ الحِرمانِ بالقَدَرِ وبالشَّرْعِ،

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٦/ ١٣٨).

تجبُ الزَّكاةُ في عُروضِ التِّجارةِ باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحَنابِلَة. يُنظر: ((تبيين الحقائق للزيلعي مع حاشية الشلبي)) (١/ ٢٧٩)، ((الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٧٢)، ((المجموع)) للنووي (٦/ ٤٧)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٢/ ٢٤٠).

وقد حُكِيَ في ذلك الإجماعُ. يُنظر: ((الأموال)) لأبي عبيد (ص: ٥٢٥)، ((الإشراف)) لابن المنذر (٣/ ٨١).

فشَرَعَ عَطاءَه بأمرِه، وحَرَمه بقَدَرِه، فلم يَجْمَعْ عليه حِرمانَين[1]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ...﴾ اعتراضٌ قابَلَ به حالَ الكافرين في يوم الدِّينِ، جَرَى على عادةِ القرآنِ في إتْباعِ النِّذارةِ بالبِشارةِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[2].

- قَولُه: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ جُمِعَتْ باعتبارِ أنواعِها وأصنافِها، وقد جاءتْ في القُرآنِ مُفرَدةً، مثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، فهي مُفردةٌ باعتبارِ الجِنسِ، ومَجموعةٌ باعتِبارِ النَّوعِ[3]. وقيل: جُمِعَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ باعتِبارِ جَمْعِ المُتَّقينَ، وهي جَنَّاتٌ كثيرةٌ مُختلِفةٌ، وتنْكيرُها للتَّعظيمِ[4]. وقيل: لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدُّنيا وبالإضافةِ إلى جِنانِها جَنَّاتٌ لا يَحصُرُها عَدَدٌ، ووحَّدها لأنَّها لاتِّصالِ المنازلِ والأشجارِ والأنهارِ كجنَّةٍ واحدةٍ، وقد ثنَّاها في قولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ فقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ جنسَينِ من الجنَّاتِ، وقد ذُكِرَت الجنَّاتُ في القُرآنِ بصيغةِ الجمْعِ غيرَ مرَّةٍ، فالمرادُ جنسانِ من الجنَّاتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ التَّثنيةُ مُستعمَلةً كِنايةً عن التَّعدُّدِ، وإيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ هنا لمُراعاةِ الفواصلِ السَّابِقةِ واللَّاحقةِ؛ فقد بُنِيَت قرائنُ السُّورة عليها، والقرينةُ ظاهرةٌ،

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

وعلى هذا فجَميعُ ما أُجرِيَ بصِيغةِ التَّثنيةِ في شأنِ الجنَّتينِ فمُرادٌ به الجمْعُ. وقيل: المرادُ بالجنَّتينِ جنَّةٌ واحدةٌ، وإنَّما ثَنَّى مُراعاةً للفواصلِ(١). وقيل غيرُ ذلك(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ختمَ الآيةَ هنا بقوله: ﴿وَعُيُونٍ﴾، وقال: ﴿ءَاخِذِينَ﴾، وقالَ في سُورةِ (الطُّورِ): ﴿وَنَعِيمٍ ۞ فَـٰكِهِينَ﴾ [الطور: ١٧، ١٨]، وليس ذلك بتَكرارٍ؛ لأنَّ ما هنا مُتَّصِلٌ بما به يصِلُ الإنسانُ إلى الجنَّاتِ، وهو قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذَّاريات: ١٦] الآياتِ، وما في (الطُّورِ) مُتَّصِلٌ بما يَنالُه الإنسانُ فيها، وهو قولُه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [الطور: ١٨، ١٩] الآياتِ(٣).

- قولُه: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، أي: قابِلون ما أعْطاهم، أي: راضُون به؛ فالأخذُ مُستعمَلٌ في صَريحِه وكِنايتِه كِنايةً رَمْزيةً عن كَونِ ما يُؤتَونَه أكمَلَ في جِنسِه؛ لأنَّ مَدارِكَ الجماعاتِ تَختلِفُ في الاستِجادةِ، حتَّى تَبلُغَ نِهايةَ الجَودةِ، فيَستوي النَّاسُ في استِجادتِه، وهي كِنايةٌ تَلْويحيَّةٌ(٤)، أي: رمزيَّةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥) و(٢٩/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٤).

(٤) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ؛ نحو قولِك للمؤْذي: «المسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمون مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ =

عن المقصودِ[١].

- وفي إيثارِ التَّعبيرِ عن الجَلالةِ بوَصْفِ (رب) مُضافًا إلى ضَميرِ المُتَّقينَ ﴿رَبُّهُمْ﴾: مَعنًى مِن اختِصاصِهم بالكرامةِ، والإيماءُ إلى أنَّ سَببَ ما آتاهم هو إيمانُهم برُبوبيَّتِه المُختصَّةِ بهم، وهي المُطابِقةُ لِصفاتِ اللهِ تعالى في نفْسِ الأمرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: كان ذلك جَزاءً لهم عن إحسانِهم[٣].

- وفائدةُ الظَّرفِ في قولِه: ﴿قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أنْ يُؤتَى بالإشارةِ إلى ما ذُكِرَ مِن الجنَّاتِ والعيونِ، وما آتاهم ربُّهم ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلْبِ بشَرٍ؛ فيَحصُلُ بسَببِ تلك الإشارةِ تَعظيمُ شأنِ المُشارِ إليه، ثمَّ يُفادُ بقولِه: ﴿قَبْلَ ذَلِكَ﴾ -أي: قبْلَ التَّنعُّمِ به- أنَّهم كانوا مُحسِنينَ، أي: عامِلينَ الحَسَناتِ، كما فسَّرَه قولُه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ...﴾ الآياتِ؛ فالمعنى: أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُطيعينَ للهِ تعالى، واثِقينَ بوَعْدِه ولم يَرَوْه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ

= الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي تدلُّ على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الأكَلةِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي تدلُّ على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥-١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ بدَلَ بَعضٍ مِن كلٍّ؛ لأنَّ هذه الخِصالَ الثَّلاثَ هي بَعضٌ مِن الإحسانِ في العَملِ[١].

- قَولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ خَصَّه بذلك؛ لأنَّ النَّومَ القَليلَ بالنَّهارِ قد يُوجَدُ مِن كُلِّ أحَدٍ، وأمَّا اللَّيلُ فهو زَمانُ النَّومِ، ولا يَسهَرُه في الطَّاعةِ إلَّا مُتعَبِّدٌ مُقبِلٌ[٢].

- وحرْفُ (ما) في قَولِه: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: كانوا يَهجَعون قليلًا مِن اللَّيلِ، أو كانُوا يَهجَعونَ في طائفةٍ قليلةٍ مِنَ اللَّيلِ، أو مَصدريَّةٌ، أو مَوصولةٌ، أي: في قليلٍ مِن اللَّيلِ هُجوعُهم، أو ما يَهجَعون فيه[٣].

- وقد اشتمَلَت جُملةُ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على خَصائصَ مِن البلاغةِ:

أُولاها: فِعلُ الكَونِ في قولِه: (كانوا) الدَّالُّ على أنَّ خبرَها سُنَّةٌ مُتقرِّرةٌ.

الثَّاني: العُدولُ عن أنْ يُقالَ: كانوا يُقيمونَ اللَّيلَ، أو كانوا يُصَلُّون في جَوفِ اللَّيلِ، إلى قولِه: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ لأنَّ في ذِكرِ الهُجوعِ تَذكيرًا بالحالةِ الَّتي تَميلُ إليها النُّفوسُ فتَغلِبُها وتَصرِفُها عن ذِكرِ اللهِ تعالى، فكان في الآيةِ إطنابٌ اقتَضاهُ تَصويرُ تلك الحالةِ، والبليغُ قد يُورِدُ في كَلامِه ما لا تَتوقَّفُ عليه استِفادةُ المَعنى إذا كان يَرْمي بذلك إلى تَحصيلِ صُوَرِ الألفاظِ المَزيدةِ.

الثَّالثُ: التَّصريحُ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ للتَّذكيرِ بأنَّهم ترَكوا النَّومَ في الوقتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩).

الَّذي مِن شَأنِه استِدعاءُ النُّفوسِ للنَّومِ فيه؛ زيادةً في تَصويرِ جَلالِ قِيامِهم اللَّيلَ، وإلَّا فإنَّ قولَه: (كانوا قليلًا ما يَهجَعون) يُفيدُ أنَّه مِن اللَّيلِ.

الرَّابعُ: تَقييدُ الهُجوعِ بالقليلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لا يَستكمِلون مُنتهى حَقيقةِ الهُجوعِ، بلْ يأخُذون منه قليلًا.

الخامسُ: المُبالَغةُ في تَقليلِ هُجوعِهم؛ لإفادةِ أنَّه أقَلُّ ما يَهْجَعُه الهاجِعُ[(١)].

- وفي بِناءِ الفعلِ على الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم أحِقَّاءُ بذلك؛ لِوُفورِ عِلْمِهم باللهِ، وخَشْيتِهم منه، فكأنَّهم المُختصُّون به؛ لاستِدامتِهم له، وإطنابِهم فيه[(٢)]. وقيل: صِيغَ استِغفارُهم بأُسلوبِ إظهارِ اسمِ المسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾، دونَ ضَميرِه -حيثُ لم يقُلْ: (وَبالْأَسْحَارِ يَستغفِرون)-؛ لقصْدِ إظهارِ الاعتناءِ بهم، ولِيقَعَ الإخبارُ عن المُسنَدِ إليه بالمُسنَدِ الفعليِّ، فيُفيدَ تَقوِّيَ الخبَرِ؛ لأنَّه مِن النُّدرةِ بحيثُ يَقتضي التَّقويةَ؛ لأنَّ الاستِغفارَ في السَّحَرِ يَشُقُّ على مَن يقومُ اللَّيلَ؛ لأنَّ ذلك وقتُ إعيائِه[(٣)].

- والأسحارُ: جمْعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيلِ، وخُصَّ هذا الوقتُ؛ لكَونِه يَكثُرُ فيه أنْ يَغلِبَ النَّومُ على الإنسانِ فيه، فصَلاتُهم واستِغفارُهم فيه أعجَبُ مِن صَلاتِهم في أجزاءِ اللَّيلِ الأُخرى. وجُمِعَ الأسحارُ باعتبارِ تَكرُّرِ قِيامِهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠، ٣٥١).

كلِّ سَحَرٍ[(١)].

- وتَقديمُ ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ على ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾؛ للاهتِمامِ به[(٢)].

- قولُه: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ في قولِه: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أضافَ المالَ إليهم، وقال في مَواضِعَ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٤٧]، وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]؛ فأضافَ الرِّزقَ إليه سُبحانَه؛ وسبَبُ هذا أنَّ في تلك المواضِعِ كان الذِّكرُ للحَثِّ، فذُكِرَ معه ما يَدفَعُ الحثَّ ويَرفَعُ المانِعَ؛ فقال: هو رِزقُ اللهِ، واللهُ يرزُقُكم، فلا تَخافوا الفقْرَ وأعْطُوا، وأمَّا هاهنا فمَدْحٌ على ما فَعَلوه؛ فلم يكُنْ إلى الحِرصِ حاجةٌ[(٣)].

- قيل: لَمَّا كان مَآلُ أمرِ مَن لم يَسألِ النَّاسَ إلى ما يؤولُ إليه أمْرُ المحرومِ أُطلِقَ عليه لَفظُ المحرومِ تَشبيهًا به، في أنَّه لا تَصِلُ إليه مُمكِناتُ الرِّزقِ بعدَ قُربِها منه؛ فكأنَّه نالَه حِرمانٌ. والمقصودُ مِن هذا الإطلاقِ تَرقيقُ النُّفوسِ عليه، وحثُّ النَّاسِ على البحثِ عنه ليَضَعوا صَدقاتِهم في مَوضعٍ يُحِبُّ اللهُ وضْعَها فيه[(٤)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، وقال في سُورةِ (المعارِجِ): ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]؛ فزِيدَت الصِّفةُ في سُورةِ (المعارج) ﴿مَّعۡلُومٞ﴾، وسقَطَت مِن (الذَّارياتِ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (المعارِجِ) قد تَقدَّمَها مُتَّصِلًا بها قولُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، والمرادُ بالصَّلاةِ هنا المكتوبةُ، وأيضًا يُقرَنُ بها في آيِ الكتابِ الزَّكاةُ المفروضةُ، وبها فُسِّرَ الحقُّ المعلومُ في آيةِ (المعارِجِ)؛ وهذا لأنَّها مُقدَّرةٌ مَعلومةٌ، وليس في المالِ حقٌّ مُقدَّرٌ مَعلومٌ وقْتًا ونِصابًا ووُجوبًا غيرَها، فلمَّا أُرِيدَ بالحقِّ هنا الزَّكاةُ، أُتبِعَ بوَصْفٍ يُحرِزُ المَقصودَ. ولَمَّا قُصِدَ في آيةِ (الذَّارياتِ) غيرُ هذا المَقصِدِ؛ بدَليلِ ما تَقدَّمَها مِن وصَفِ هؤلاء بطُولِ صَلاتِهم وتَهجُّدِهم ومُداومتِهم الاستِغفارَ في الأسحارِ؛ فذُكِروا بزِيادةٍ مِن التَّطوُّعِ والنَّفلِ على ما فُرِضَ عليهم -على أحدِ الأقوالِ-؛ فناسَبَ هذا الإطلاقُ الواردُ في إنفاقِهم ليُفهِمَ الزِّيادةَ على ما فُرِضَ عليهم مِن الزَّكاةِ المُقدَّرةِ، ولم يكُنْ لِيُناسِبَ هنا الإشارةُ إلى قدْرِ المَنْفوقِ كما في سُورةِ (المعارِجِ)، ولم يكُنْ عكْسُ الواردِ لِيُناسِبَ، واللهُ أعلَمُ[1].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٥٠).

الآيات (٢٠-٢٣)

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)﴾.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ فيه أوجُهٌ:

أحدُها: أنَّ ﴿مِثْلَ﴾ نَعتٌ لـ (حَقٌّ) مبنيٌّ على الفَتحِ في مَحَلِّ رَفعٍ، وإنَّما بُنِيَ لإضافتِه إلى مَبنيٍّ وهو ﴿أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾، وعليه فـ﴿مَا﴾ زائِدةٌ للتَّأكيدِ.

الثَّاني: أنَّ ﴿مِثْلَ﴾ نَعتٌ مَنصوبٌ لِمَصدرٍ محذوفٍ، أي: لَحَقٌّ حَقًّا مِثلَ نُطقِكم.

الثَّالِثُ: أنَّه حالٌ مَنصوبٌ مِنَ الضَّميرِ المرفوعِ في ﴿لَحَقٌّ﴾ أو مِن نفْسِ (حَقٌّ) وإن كان نَكرةً، على مَذهَبِ سِيبَوَيه. و﴿مَا﴾ على هذه الوُجوهِ المتقَدِّمةِ زائِدةٌ أيضًا، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ في محَلِّ جَرٍّ بإضافةِ ﴿مِثْلَ﴾ إليه، والتَّقديرُ: إنَّه لحَقٌّ مِثلَ نُطقِكم. وقيل في توجيهِ ﴿مِثْلَ﴾ غيرُ ذلك(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى داعيًا عبادَه إلى التَّفكُّرِ والاعتبارِ: وفي الأرضِ دَلائِلُ وعَلاماتٌ على تَوحيدِ اللهِ وقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، للمُوقِنينَ به، وفي أنفُسِكم دَلائِلُ وعَلاماتٌ على توحيدِ اللهِ وقُدرتِه، أفلا تُبصِرونَ تلك الدَّلائِلَ الَّتي في نُفوسِكم؟!

وفي السَّماءِ رِزقُكم مِنَ الأمطارِ، وصنوفِ الأقدارِ المكتوبةِ، وفيها ما وُعِدْتُم به.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٧).

ثمَّ يقولُ تعالى مُقسِمًا: فورَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّه لحَقٌّ ثابتٌ لا شَكَّ فيه، كما أنَّكم تَنطِقونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾

بعدَ أن ذكَر أوصافَ المتَّقينَ، بيَّن أنَّه قد لاحَتْ لهم الأدِلَّةُ الأرضيَّةُ والسَّماويَّةُ الَّتي بها أخْبَتوا إلى ربِّهم، وأنابوا إليه، فقال(١):

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠)﴾

أي: وفي الأرضِ دَلائِلُ وعَلاماتٌ على تَوحيدِ اللهِ وحِكمتِه، ورَحمتِه وقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، وغَيرِها مِن صِفاتِ كَمالِه، وذلك للمُوقِنينَ باللهِ ولِقائِه وصِدقِ رُسُلِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٥- ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

قال الشوكاني: (﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي: دلائِلُ واضِحةٌ وعلاماتٌ ظاهِرةٌ مِنَ الجِبالِ، والبَرِّ والبَحرِ، والأشجارِ والأنهارِ والثِّمارِ، وفيها آثارُ الهَلاكِ للأُمَمِ الكافِرةِ المكَذِّبةِ لِما جاءت به رُسُلُ اللهِ، ودَعَتْهم إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤١).

وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦].

وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال جَلَّ شَأنُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشار إلى آياتِ الآفاقِ؛ أتْبَعَها آياتِ الأنفُسِ، فقال[1]:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وفي أنفُسِكم دَلائِلُ وعَلاماتٌ على توحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه ورَحمتِه وحِكمتِه، وغَيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه، أفلا تُبصِرونَ تلك الدَّلائِلَ الَّتي في نُفوسِكم[2]؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٠)، ((تفسير =

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وفي السَّماءِ رِزقُكم مِن الأمطارِ، وصُنوفِ الأقدارِ المكتوبةِ[1]، وفي السَّماءِ

= البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠٣- ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٨، ١٢٩).

قيل: المعنى: وفي خَلْقِ أنفُسِكم حينَ كانت نُطْفةً ثمَّ عَلَقةً ثمَّ مُضْغةً ثمَّ عَظْمًا ثمَّ لَحْمًا إلى أن نُفِخَ فيها الرُّوحُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٤).

قال السَّمْعاني: (الأَولى أن يُقالَ: هو سائرُ الآياتِ الَّتي في النَّفْسِ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ لها خالِقًا وصانِعًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥).

وقال القاسمي: (﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: في حالِ ابتِدائِها وتنَقُّلِها مِن حالٍ إلى حالٍ، واختِلافِ ألسِنَتِها وألوانِها، وما جُبلَت عليه مِنَ القُوى والإراداتِ، وما بيْنَها من التَّفاوُتِ في العُقولِ والأفهامِ، وما في تراكيبِ أعضائِها مِنَ الحِكَمِ في وَضعِ كُلِّ عُضوٍ منها في المحَلِّ المُفتَقِرِ إليه، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحصيه قَلَمُ كاتبٍ، ولا لِسانُ بَليغٍ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٩).

والخِطابُ قيل: إنَّه مُوَجَّهٌ إلى المُشرِكين. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: المطَرُ -ومِنهم مَن ذكَر معه الثَّلجَ-: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والنسفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨).

ونَسَب ابنُ الجوزيِّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٩).

قال الثعلبي: (يعني: المطَرَ والثَّلجَ اللَّذينِ بهما تُخرِجُ الأرضُ النَّباتَ الَّذي هو سَبَبُ الأقواتِ. وقال بعضُ أهلِ المعاني: معناه: وفي المطَرِ والنَّباتِ سَبَبُ رِزقِكم، فسُمِّيَ المطَرُ سَماءً؛ لأنَّه =

ما وُعِدْتُم به كذلك[1].

= عن السَّماءِ يَنزِلُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٣).

وقال البِقاعي: (قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جهةِ العُلُوِّ ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾ بما يأتي مِن المطَرِ والرِّياحِ والحَرِّ والبَردِ وغيرِ ذلك مِمَّا رَتَّبه سبحانه لِمَنافِعِ العِبادِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٥٨).

وقال السعدي: (وقولُه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: مادَّةُ رِزقِكم، مِنَ الأمطارِ، وصُنوفِ الأقدارِ؛ الرِّزقُ الدِّينيُّ والدُّنْيويُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (إنَّ في السَّماءِ رِزقًا مِنَ المطَرِ، وما كتَبَه اللهُ لنا في اللَّوحِ المحفوظِ مِنَ المصالِحِ والمنافِعِ الجَسَديَّةِ مِن أموالٍ وبَنينَ وغَيرِ ذلك، فيكونُ هذا القَولُ أشمَلَ وأعَمَّ، فنأخُذُ بالأعَمِّ؛ لأنَّ الأعَمَّ يَدخُلُ فيه الأخَصُّ، ولا عَكْسَ، فالمرادُ بالرِّزقِ ما هو أعَمُّ مِن المطَرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٠، ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢١، ٤٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٠-١٣٢).

في معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أقوالٌ؛ منها: أنَّه أمْرُ السَّاعةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الرَّبيعُ، وابنُ سِيرينَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٣).

ومنها: أنَّ المرادَ: العذابُ السَّماويُّ؛ لأنَّ مؤاخَذاتِ المكذِّبينَ الأوَّلينَ كانت مِن جِهَتِها، والخِطابُ لِمُشركي مكَّةَ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠).

ومنها: أنَّه كُلُّ ما وُعِدَ به العِبادُ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وثَوابٍ أو عِقابٍ، في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

قال السعدي: (﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ الجَزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّه يَنزِلُ من عندِ اللهِ، كسائِرِ الأقدارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ في الجملةِ: مُجاهِدٌ، وعطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٣).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائِقِ قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ))(١).

= وقيل: المرادُ: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ الجوزي، وابنُ القيِّم، والنَّيسابوريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: سفيانُ بنُ عُيَيْنةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١).

وقال الرَّازي: (﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ إمَّا من الجنَّةِ والنَّارِ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الذاريات: ١٣] وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ [الذاريات: ١٥]؛ فيَكونُ إيعادًا عامًّا، وإمَّا من العذابِ؛ وحينَئذٍ يكونُ الخِطابُ مع الكفَّارِ، فيَكونُ كأنَّه تعالى قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ كافيةٌ، وأمَّا أنتم أيُّها الكافِرون ففي أنفُسِكم آياتٌ هي أظهَرُ الآياتِ، وتَكفُرون بها لِحُطامِ الدُّنيا، وحُبِّ الرِّياسةِ، وفي السَّماءِ الأرزاقُ، فلو نظَرْتُم وتأمَّلْتُم حقَّ التَّأمُّلِ لَمَا ترَكْتُم الحقَّ لأجْلِ الرِّزقِ؛ فإنَّه واصلٌ بكلِّ طريقٍ، ولَاجْتَنَبْتُم الباطِلَ؛ اتِّقاءً لِما تُوعَدونَ مِن العذابِ النَّازِلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

قال الشَّوكاني: (والأَولى الحَملُ على ما هو أعَمُّ مِن هذه الأقوالِ؛ فإنَّ جزاءَ الأعمالِ مَكتوبٌ في السَّماءِ، والقَضاءُ والقَدَرُ يَنزِلُ منها، والجنَّةُ... فيها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه الآياتِ، ونَبَّه عليها تنبيهًا يَنتَبِهُ به الذَّكيُّ اللَّبيبُ؛ أقسَمَ تعالى على أنَّ وَعْدَه وجَزاءَه حَقٌّ، وشَبَّه ذلك بأظهَرِ الأشياءِ لنا، وهو النُّطقُ، فقال: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾، فكما لا تَشُكُّونَ في نُطقِكم فكذلك لا يَنبغي الشَّكُّ في البَعثِ بعدَ المَوتِ[(١)].

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣ ﴾.

أي: أُقسِمُ برَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّه لحَقٌّ ثابِتٌ لا شَكَّ فيه، كما أنَّكم تَنطِقونَ حَقيقةً بلا خيالٍ ولا سِحرٍ، ودونَ أدنى شَكٍّ منكم في ذلك[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١، ٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٥، ١٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

قال الشوكاني: (﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ أي: ما أُخبِرُكم به في هذه الآياتِ. قال الزَّجَّاجُ: هو ما ذُكِرَ مِن أمرِ الرِّزقِ والآياتِ. قال الكلبيُّ: يعني: ما قَصَّ في الكتابِ. وقال مقاتلٌ: يعني: مِن أمرِ السَّاعةِ. وقيل: إنَّ «ما» في قولِه: ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ مُبتدأٌ، وخَبَرُه ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾؛ فيكونُ الضَّميرُ لـ «ما»). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٦).

واختار الرَّازي أن الضَّميرَ راجِعٌ إلى القرآنِ، أي: إنَّ القرآنَ حَقٌّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ دَعوةٌ منه سُبحانَه لعبادِه إلى التَّفَكُّرِ والاعتِبارِ، فقولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ شامِلٌ لِنَفْسِ الأرضِ وما فيها مِن جِبالٍ وبِحارٍ، وأنهارٍ وأشجارٍ، ونباتٍ: تدُلُّ المتفكِّرَ فيها المُتأمِّلَ لِمَعانيها على عَظَمةِ خالِقِها، وسَعةِ سُلطانِه، وعَميمِ إحسانِه، وإحاطةِ عِلْمِه بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، وكذلك في نفْسِ العَبدِ مِنَ العِبَرِ والحِكمةِ والرَّحمةِ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ وَحْدَه الأحَدُ الفَردُ الصَّمَدُ، وأنَّه لم يَخلُقِ الخَلْقَ سُدًى[1]! فهي دَعوةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لِعبادِه أنْ يَتبَصَّروا في الآياتِ، فمَن لم يَتبَصَّرْ في الآياتِ فلْيَعلَمْ أنَّه مَحرومٌ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما نَظَرَ في الآياتِ الكونيَّةِ الَّتي هي المخلوقاتُ، ازداد عِلمًا بخالِقِه ومَعبودِه[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَنبيهٌ منه سُبحانَه لنا على فِعْلِه

= قال ابنُ عثيمين: ((﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ الفاءُ عاطِفةٌ، والواوُ للقَسَمِ، ورَبُّ السَّماءِ والأرضِ: هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، أقسَمَ بنَفْسِه تبارك وتعالى بمُقتَضى ربوبيَّتِه للسَّماءِ والأرضِ أنَّ ما يُوعَدونَ حَقٌّ؛ لأنَّه قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، أي: ما تُوعَدونَ. ويَحتَمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا للقُرآنِ، ويحتمِلُ أيضًا أنَّه عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعاني الثَّلاثةُ كُلُّها مُتلازِمةٌ)). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٩).

فينا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّه مِن معناه: أنَّك لا تَشتَغِلْ برِزقٍ؛ فإنَّه في السَّماءِ، ولا سَبيلَ لك إلى العُروجِ إليها، واشتَغِلْ بما كُلِّفْتَه مِن الخِدمةِ لِمَن عِندَه الرِّزقُ؛ ففي السَّماءِ الرِّزقُ، وإليها يُرفَعُ العَمَلُ، فإنْ أردْتَ أن يَنزِلَ إليك رِزقُك فأَصعِدْ إليها الصَّالِحَ مِن عَمَلِك؛ ولهذا قالوا: «الصَّلاةُ قَرعُ بابِ الرِّزقِ»، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾[٢] [طه: ١٣٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ لم يُبَيِّنِ اللهُ هذه الآياتِ، بل جاءتْ مُنَكَّرَةً؛ لِيَشملَ كلَّ آيةٍ في الأرضِ؛ سواءٌ كانتِ الآياتُ فيما يَحدثُ فيها مِن الحوادثِ، أو كانت في نَفْسِ طبيعةِ الأرضِ وتركيبِ الأرضِ؛ فإنَّ فيها آياتٍ عظيمةً مِن حيثُ التَّركيبُ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤]، فتَجِدُ الحَجَرَ الواحدَ يَشتمِلُ على عدَّةِ مَعادِنَ، وهو حَجَرٌ واحدٌ! وترى أحيانًا كقَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]! وتَجِدُ فيها الأرضَ اللَّيِّنَةَ الرِّخْوةَ، والأرضَ الصُّلبةَ إلى غيرِ ذلك ممَّا يَعرِفُه عُلَماءُ (الجيولوجيا) مِن الآياتِ العظيمةِ، وفيها آياتٌ مِن جهةِ الحوادثِ الَّتي تَحدُثُ فيها مِن الزَّلازلِ والبراكينِ وغيرِها، وفيها آياتٌ أيضًا مِن جهةِ طبيعةِ الجوِّ مِن حَرٍّ وبرْدٍ، ورياحٍ عاصفةٍ، ورياحٍ باردةٍ، ورياحٍ دافئةٍ، وغيرِ ذلك ممَّا إذا تأمَّلَه الإنسانُ عَرَف به قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مِن جهةٍ، وعَرَف حِكمتَه ورحمتَه أيضًا مِن جِهةٍ أخرى؛ لأنَّ آياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يَتبَصَّرُ بها الإنسانُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٩).

مِن حيثُ القدرةُ والعَظَمةُ، ومِن حيثُ الحِكمةُ والرَّحمةُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ تَجِدُه مُناسِبًا لِمَكانِه وزَمانِه، وكلَّ شيءٍ تَجِدُه مِن آثارِ رحمةِ اللهِ تبارك وتعالى، فكلمةُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ نَكِرةٌ عامَّةٌ لكلِّ ما يَحدُثُ في الأرضِ مِن آياتٍ، ولكلِّ ما فيها مِن طبيعتِها، وتركيبِها، وغيرِ ذلك[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أنَّ الآياتِ المرموقةَ مِن أحوالِ الأرضِ صالِحةٌ للدَّلالةِ أيضًا على تفَرُّدِه تعالى بالإلهيَّةِ في كيفيَّةِ خَلْقِها ودَحْوِها للحَيوانِ والإنسانِ، وكيف قُسِّمَت إلى سَهلٍ وجَبَلٍ وبَحرٍ، ونظامِ إنباتِها الزَّرعَ والشَّجَرَ، وما يَخرُجُ مِن ذلك مِن منافِعَ للنَّاسِ؛ ولهذا حُذِفَ تَقييدُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بمتعَلَّقٍ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ ما تَصلُحُ الآياتُ الَّتي في الأرضِ أن تدُلَّ عليه[٢].

٣- في الآياتِ الثَّلاثِ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ له أمورٌ يَحتاجُ إليها لا بُدَّ مِن سَبْقِها حتَّى يُوجَدَ هو في نَفْسِه، وأمورٌ تُقارِنُه في الوُجودِ، وأمورٌ تَلحَقُه وتُوجَدُ بَعْدَه؛ لِيبقَى بها؛ فالأرضُ هي المكانُ، وإليه يحتاجُ الإنسانُ، ولا بُدَّ مِن سَبْقِها؛ فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ﴾، ثمَّ في نَفْسِ الإنسانِ أمورٌ مِن الأجسامِ والأعراضِ؛ فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، ثمَّ بقاؤُه بالرِّزقِ؛ فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾، ولولا السَّماءُ لَمَا كان للنَّاسِ البَقاءُ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أنَّها لا لكُلِّ إنسانٍ، بل للمُوقِنِ، أمَّا الشَّاكُّ والمترَدِّدُ والكافِرُ فإنَّه لن يَنتفِعَ بهذه الآياتِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أنَّ هذا التَّكوينَ العَجيبَ كما يدُلُّ على إمكانِ الإيجادِ بعدَ المَوتِ يدُلُّ على تفرُّدِ مُكوِّنِه تعالى بالإلهيَّةِ؛ إذ لا يَقدِرُ على إيجادِ مِثلِ الإنسانِ غيرُ اللهِ تعالى؛ فإنَّ بواطِنَ أحوالِ الإنسانِ وظواهِرَها عجائِبُ مِن الانتِظامِ والتَّناسُبِ، وأعجَبُها خَلقُ العَقلِ وحَرَكاتِه، واستِخراجُ المعاني، وخَلقُ النُّطقِ، والإلهامُ إلى اللُّغةِ، وخَلقُ الحواسِّ، وحَرَكةُ الدَّورةِ الدَّمَويَّةِ، واتِّساقُ الأعضاءِ الرَّئيسةِ وتفاعُلُها، وتسويةُ المفاصِلِ والعَضَلاتِ والأعصابِ والشَّرايينِ، وحالُها بيْنَ الارتخاءِ واليُبسِ؛ فإنَّه إذا غَلَب عليها التَّيبُّسُ جاء العَجزُ، وإذا غَلَب الارتِخاءُ جاء الموتُ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى عَلامةِ الصَّنعةِ الموجودةِ في الإنسانِ؛ مِن يَدَينِ يَبطِشُ بهما، ورِجلَينِ يَمشي بهما، وعَينٍ مُبْصِرةٍ، وأُذُنٍ يَسمَعُ بها، ولِسانٍ يتكلَّمُ به، وأضراسٍ تَحدُثُ له عندَ غِناه عنِ الرَّضاعِ، وحاجتِه إلى الغِذاءِ، ومَعِدةٍ أُعِدَّتْ لطَبخِ الغِذاءِ، وكبِدٍ يَسلُكُ إليها صَفْوُه، وعُروقٍ ومَعابِرَ يَنفُذُ منها إلى الأطرافِ، وأمعاءٍ يَرسُبُ إليها بَقيَّةُ الغِذاءِ، ويَبرُزُ عن أسفَلِ البَدَنِ[٢]!

٧- قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ في إيثارِ صِيغةِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ خُصوصيَّةٌ مِن خصائصِ إعجازِ القرآنِ؛ فإنَّ هذه الصِّيغةَ صالِحةٌ لأنْ تَكونَ مَصوغةً مِن الوعدِ؛ فيَكونَ وزْنُ (تُوعَدون): (تُفعَلون)، وهو مُضارِعُ (وعَدَ) مَبنيًّا للنَّائبِ، وصالِحةٌ لأنْ تكونَ مِن الإيعادِ، ووزنُه حينَئذٍ: (تُؤَفْعَلون)، مِثلُ تَصريفِ أُكرِمَ يُكرَمُ، وبذلك صار (تُوعَدون) مِثلَ تُكرَمونَ؛ فاحتمَلَت البِشارةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٥٠٦، ٥٠٧).

والإنذارَ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ ما أُوعِدوه يأْتيهم مِن قِبَلِ السَّماءِ -على قولٍ في التَّفسيرِ في معنى ﴿تُوعَدُونَ﴾-؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]؛ فإنَّ ذلك الدُّخانَ كان في طَبقاتِ الجوِّ[٢]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخانِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه أقسَمَ مِن قَبْلُ بالأُمورِ الأرضيَّةِ -وهي الرِّياحُ-، وبالسَّماءِ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذَّارِيات: ٧]، ولم يُقسِمْ برَبِّها، وهاهنا أقسَمَ برَبِّها. ووَجهُ ذلك: أنَّه كذلك التَّرتيبُ؛ يُقسِمُ المتكَلِّمُ أوَّلًا بالأدنى، فإنْ لم يُصَدَّقْ به يرتقي إلى الأعلى[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى ضَمِنَ أرزاقَ عبادِه، وتَكفَّلَ بها، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٤] [هود: ٦].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّ الجنَّةَ في السَّماءِ، وليست في الأرضِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، يعني: وفيه الَّذي تُوعدونَ، والَّذي نُوعدُ: الجنَّةُ، ولهذا قال اللهُ تعالى في قِصَّةِ آدمَ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٠).

والهبوطُ يكونُ مِن أعلى إلى أسفَلَ؛ فالجنَّةُ في السَّماءِ[١]. وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾: الجنَّةُ.

١٢- يجوزُ للمُفتي والمناظِرِ أنْ يَحلِفَ على ثُبوتِ الحُكمِ عندَه، وإنْ لم يكُنْ حَلِفُه مُوجِبًا لثُبوتِه عندَ السَّائلِ والمُنازِعِ؛ لِيَشعُرَ السَّائلُ والمُنازِعُ له أنَّه على ثِقةٍ ويَقينٍ ممَّا قال له، وأنَّه غيرُ شاكٍّ فيه؛ قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾، وقد أمر اللهُ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَحلِفَ على ثُبوتِ الحَقِّ الَّذي جاء به، في ثلاثةِ مَواضِعَ مِن كِتابِه؛ في سورةِ يُونُسَ الآية (٥٣): ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، وسورةِ سَبَأٍ الآية (٣): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وسُورةِ التَّغابُنِ الآية (٧): ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾[٢].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ هاهنا أمرٌ يَنبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أنَّ الرَّبَّ تعالى شَهِد بصِحَّةِ ما أخبَرَ به، وهو أصدَقُ الصَّادِقينَ، وأقسَمَ عليه، وهو أبرُّ المُقسِمينَ، وأكَّدَه بتَشبيهِه بالواقِعِ الَّذي لا يَقبَلُ الشَّكَّ بوَجهٍ، وأقام عليه مِنَ الأدِلَّةِ العِيانيَّةِ والبُرهانيَّةِ ما جعله مُعايَنًا مُشاهَدًا بالبصائِرِ، وإنْ لم يُعايَنْ بالأبصارِ، ومع ذلك فأكثَرُ النُّفوسِ في غَفلةٍ عنه، لا تَستعِدُّ له، ولا تأخُذُ له أُهبَةً، والمُستَعِدُّ له الآخِذُ له أُهبةً لا يُعطيه حَقَّه منهم إلَّا الفَردُ بعدَ الفَردِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢).
ويُنظر للخِلافِ في الجنَّةِ الَّتي أُسكِنَها آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُهبِط منها: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ مُتَّصِلٌ بالقَسَمِ وجوابِه مِن قولِه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾، إلى قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ [الذَّاريات: ١ - ٧]؛ فبعْدَ أنْ حُقِّقَ وُقوعُ البَعثِ بتأكيدِه بالقسَمِ، انتُقِلَ إلى تَقريبِه بالدَّليلِ لإبطالِ إحالتِهم إيّاه، فيكونُ هذا الاستِدلالُ كقولِه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ [فصلت: ٣٩]، وما بيْنَ هاتَينِ الجُملتَينِ اعتِراضٌ؛ فجُملةُ ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ جَوابِ القسَمِ، وهي ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ [الذَّاريات: ٥]، والمعنى: وفيما يُشاهَدُ مِن أحوالِ الأرضِ آياتٌ للمُوقنينَ، وهي الأحوالُ الدَّالَّةُ على إيجادِ مَوجوداتٍ بعدَ إعدامِ أمْثالِها وأُصولِها، مِثلُ إنباتِ الزَّرعِ الجديدِ بعْدَ أنْ بادَ الَّذي قبْلَه وصار هَشيمًا. وهذه دَلائلُ واضحةٌ مُتكرِّرةٌ لا تَحتاجُ إلى غَوصِ الفِكرِ؛ فلذلك لم تُقرَنْ هذه الآياتُ بما يَدْعو إلى التَّفكُّرِ كما قُرِنَ قولُه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1] [الذَّاريات: ٢١].

- وتَقديمُ الخبَرِ ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على المبتدأِ ﴿ءَايَٰتٞ﴾؛ للاهتِمامِ بالأرضِ باعتِبارِها آياتٍ كثيرةً، والتَّشويقِ إلى ذِكرِ المبتَدأِ ﴿ءَايَٰتٞ﴾[2].

- واللَّامُ في ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ مُعلَّقٌ بقولِه: ﴿ءَايَٰتٞ﴾. وخُصَّتِ الآياتُ بـ ﴿لِّلۡمُوقِنِينَ﴾؛ لأنَّهم الَّذين انتَفَعوا بدَلالتِها، فأكسَبَتْهم الإيقانَ بوُقوعِ البعثِ. وأُوثِرَ وصْفُ الموقِنينَ هنا دونَ (الَّذين أيْقَنوا)؛ لإفادةِ أنَّهم عُرِفوا بالإيقانِ. وهذا الوصفُ يَقْتَضي مَدْحَهم بثُقوبِ الفَهمِ؛ لأنَّ الإيقانَ لا يكونُ إلَّا عن دليلٍ، ودلائلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٢، ٣٥٣).

هذا الأمرِ نَظريَّةٌ، ومَدْحَهم أيضًا بالإنصافِ وترْكِ المكابَرةِ؛ لأنَّ أكثَرَ المنكِرينَ لِلحقِّ تَحمِلُهم المُكابرةُ أو الحسَدُ على إنكارِ حقٍّ مَن يَتوجَّسونَ منه أنْ يَقضيَ على مَنافِعِهم(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾، وقال في سُورةِ (يس): ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [يس: ٣٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا جعَلَ الآيةَ للمُوقِنينَ جمَعَها؛ لأنَّ الموقِنَ لا يَغفُلُ عن اللهِ تعالى في حالٍ، ويَرى في كلِّ شيءٍ آياتٍ دالَّةً، وأمَّا الغافلُ فلا يَتنبَّهُ إلَّا بأُمورٍ كثيرةٍ؛ فيكونُ الكلُّ له كالآيةِ الواحدةِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الذَّارِيات: ٢٠]، فالتَّقديرُ: وفي أنفُسِكم آياتٌ، أفلا تُبْصِرون، تَفريعًا على هذه الجُملةِ المَعطوفةِ، فيُقدَّرُ الوقفُ على ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، وتَقديمُ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ على مُتعلِّقِه المَحذوفِ؛ للاهتِمامِ بالنَّظَرِ في خلْقِ أنفُسِهم(٣).

- والخِطابُ قيل: إنه مُوجَّهٌ إلى المُشركين. والاستِفهامُ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إنكاريٌّ، أنكَرَ عليهم عدَمَ الإبصارِ للآياتِ(٤)، وإنَّما أتَى بصيغةِ الخِطابِ؛ لأنَّها أظهَرُ؛ لِكَونِ عِلمِ الإنسانِ بما في نَفْسِه أتَمَّ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ بعْدَ أنْ ذكَرَ دلائلَ الأرضِ ودلائلَ الأنفُسِ الَّتي هي مِن عَلائقِ الأرضِ، عطَفَ ذِكرَ السَّماءِ للمُناسَبةِ، وتمْهيدًا للقَسَمِ الَّذي بعْدَه بقولِه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [الذَّارِيات: ٢٣]، ولِمَا في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

السَّماءِ مِن آيةِ المطَرِ الَّذي به تُنبِتُ الأرضُ بعدَ الجَفافِ، فالمعْنى: وفي السَّماءِ آيةُ المطَرِ؛ فعُدِلَ عن ذِكرِ المطَرِ إلى الرِّزقِ إدماجًا[1] للامتِنانِ في الاستِدلالِ؛ فإنَّ الدَّليلَ في كَونِه مَطَرًا يُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها، وهذا قِياسُ تمْثيلٍ[2] للنَّبتِ، أي: في السَّماءِ المطَرُ الَّذي تُرزَقون بسَبَبِه[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتقديمُ المجرورِ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿رِزْقُكُمْ﴾؛ للتَّشويقِ، وللاهتمامِ بالمكانِ، وللرَّدِّ على الفاصلةِ[4].

- وجاءتِ السَّماءُ مُفرَدةً في قولِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؛ فالرِّزقُ المطَرُ -على قولٍ-، وما وُعِدْنا به الجنَّةُ -على قولٍ-، وكِلاهما في هذه الجِهةِ، لا أنَّهما في كلِّ واحدةٍ واحدةٍ مِن السَّمواتِ؛ فكان لَفظُ الإفرادِ ألْيقَ بها[5].

- وعطْفُ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ إدماجٌ بيْنَ أدلَّةِ إثباتِ البَعثِ؛ لقصْدِ المَوعظةِ الشاملةِ للوعيدِ على الإشراكِ، والوعْدِ على الإيمانِ إنْ آمنوا -على قولٍ-، تَعجيلًا بالموعظةِ عندَ سُنوحِ فُرصتِها[6].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ بعدَ أنْ

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٥).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّة الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦، ١١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

أكَّدَ الكلامَ بالقَسَمِ بالذَّارياتِ وما عُطِفَ عليها؛ فرَّعَ على ذلك زِيادةَ تأْكيدٍ بالقَسَمِ بخالقِ السَّماءِ والأرضِ على أنَّ ما يُوعَدون حقٌّ؛ فهو عطفٌ على الكلامِ السَّابقِ، ومُناسبَتُه قولُه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] [الذَّارِيات: ٢٢].

- وفيه مِن البَلاغةِ ما يُعرَفُ بالقسَمِ، وهو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ الحلِفَ على شَيءٍ، فيَحلِفَ بما يكونُ فيه فخْرٌ له، أو تَعظيمٌ لشأْنِه، أو تَنويهٌ بقدْرِه، أو ما يكونُ ذمًّا لغَيرِه، أو جاريًا مَجرى الغزَلِ والتَّرقُّقِ، أو خارجًا مَخرَجَ الموعظةِ والزُّهدِ؛ فقد أقسَمَ سبحانَه بقسَمٍ يُوجِبُ الفَخرَ لتضمُّنِه التَّمدُّحَ بأعظَمِ قُدرةٍ، وأجلِّ عَظَمةٍ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾[2].

- وإظهارُ اسمِ (السَّماءِ والأرضِ) دونَ ذِكرِ ضَميرِهما؛ لإدخالِ المَهابةِ في نُفوسِ السَّامِعينَ بعَظَمةِ الربِّ سُبحانه[3].

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ عائدٌ إلى (مَا تُوعَدُونَ)، وهذا مِن ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[4]؛ لأنَّه ردٌّ على قولِه أوَّلَ السُّورةِ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾[الذَّارِيات: ٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٤) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصدير-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة =

وانتَهى الغرَضُ[١].

- وقولُه: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ زِيادةُ تقريرٍ لوُقوعِ ما أُوعِدوه، بأنْ شُبِّهَ بشَيءٍ مَعلومٍ كالضَّرورةِ لا امتِراءَ في وُقوعِه، وهو كَونُ المخاطَبينَ يَنطِقونَ، وهو مِن التَّمثيلِ بالأُمورِ المحسوسةِ[٢].

- قولُه: ﴿مِّثۡلَ﴾ بالنَّصبِ على أنَّه صِفةُ حالٍ مَحذوفٍ قُصِدَ منه التَّأكيدُ، والتَّقديرُ: إنَّه لَحَقٌّ حقًّا مِثلَ ما أنَّكم تَنطِقون[٣]. على أحدِ الأقوالِ.

- و(ما) الواقعةُ بعْدَ (مِثلَ) صِلةٌ للتَّوكيدِ، وأُردِفَت بحرْفِ (أنَّ) المُفيدِ للتَّأكيدِ؛ تقويةً لتَحقيقِ حَقِّيَّةِ ما يُوعَدون[٤].

- واجتِلابُ المضارِعِ في ﴿تَنطِقُونَ﴾ دونَ أنْ يقالَ: (نُطقكم): يُفيدَ التَّشبيهَ بنُطقِهم المُتجدِّدِ، وهو أقوى في الوُقوعِ؛ لأنَّه مَحسوسٌ[٥].

- وخَصَّ النُّطقَ دونَ سائرِ الأعمالِ الضَّروريَّةِ؛ لِكَونِه أبْيَنَ وأظهَرَ، ومِنَ الاحتِمالِ أبْعَدَ، وفيه إيماءٌ إلى استِجلابِ رأسِ الشُّكرِ؛ فذِكْرُ النِّعمةِ باللِّسانِ، والثَّناءُ على مُولِيها أشْيَعُ لها مِن الاعتقادِ وآدابِ الجوارحِ؛ لأنَّ النُّطقَ يُفصِحُ عن كلِّ خفِيٍّ، ويُجلي كلَّ مُشتَبهٍ[٦].

= في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٢).

الآيات (٢٤-٣٠)

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ
مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرَاغَ﴾: أي: مالَ في خُفيةٍ، وأصلُ (روغ): يدُلُّ على مَيلٍ، وقِلَّةِ اسْتِقْرارٍ(١).

﴿فَأَوْجَسَ﴾: أي: أضمرَ وأحَسَّ، والوَجْسُ: الصَّوتُ الخفيُّ، وأصلُه يدُلُّ على إحساسٍ بِشَيءٍ وتَسَمُّعٍ له(٢).

﴿صَرَّةٍ﴾: أي: ضجَّةٍ، وشِدَّةِ صِياحٍ، ومنه أُخِذَ صَريرُ البابِ، وهو صوتُه، وأصلُ (صرر): يدُلُّ على صَوتٍ(٣).

﴿فَصَكَّتْ﴾: أي: لَطَمت وضَربَت، وأصلُ (صكك): يدُلُّ على تلاقي شَيئَينِ بقُوَّةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، =

﴿عَقِيمٌ﴾: أي: لا تَحمِلُ ولا تَلِدُ؛ مِن العُقم: وهو القَطعُ والمَنعُ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾

﴿سَلَٰمًا﴾: مَفعولٌ به مَنصوبٌ بـ (قَالُوا)، أي: قالوا هذا اللَّفظَ بعَينِه، وهو التَّحيَّةُ المعهودةُ. أو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: نُسَلِّمُ، وذلك الفِعلُ في محلِّ نصبٍ بالقَولِ، تقديرُه: قالوا: نُسَلِّمُ سلامًا.

﴿سَلَٰمٌ﴾: مُبتدَأٌ، وخبَرُه محذوفٌ، أي: سَلامٌ عليكم. أو خبَرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: أمري أو قَولي سلامٌ.

﴿قَوۡمٌ﴾: خبَرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: أنتم قَومٌ، أو: هؤلاءِ قومٌ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾

قَولُه: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محَلِّ نَصبٍ على النِّيابةِ عن المَصدَرِ؛ لِوُقوعِه نَعتًا لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ بـ ﴿قَالَ﴾ الثَّانيةِ، أي: قال ربُّكِ قَولًا مِثلَ ذلك القَولِ الَّذي أخبَرْناكِ به[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ اللهُ تعالى جانبًا مِن قصصِ أنبيائِه، ويَبتدِئُ بأبي الأنبياءِ إبراهيمَ عليه

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٣١٤).

السَّلامُ، فيقولُ: هل أتاك -يا محمَّدُ- خبَرُ ضُيوفِ إبراهيمَ مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ، حينَ دَخَل أولئك الملائِكةُ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فقالوا له: سَلامًا، قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ عليكم، قَومٌ غيرُ مَعروفينَ! فمالَ إبراهيمُ إلى أهلِ بَيتِه في خُفيةٍ عن ضُيوفِه، فأحضَر لهم عِجلًا سَمينًا، فقرَّبه إليهم، فلم تمتَدَّ أيديهم للطَّعامِ، فقال لهم: ألَا تأكُلونَ!

فشَعَر إبراهيمُ في نَفْسِه بخَوفٍ منهم حينَ امتَنَعوا عن تناوُلِ الطَّعامِ، فقالوا مُطَمْئِنينَ له: لا تخَفْ، وبَشَّروه بغُلامٍ عَليمٍ، وهو إسحاقُ عليه السَّلامُ، فأقبَلَت امرأةُ إبراهيمَ في صَيحةٍ حينَ سَمِعَت تلك البِشارةَ، فضَرَبت وَجْهَها؛ تعَجُّبًا مِمَّا سَمِعَتْه، وقالت: أنا عَجوزٌ عقيمٌ، فكيف ألِدُ الآنَ؟! قالت الملائِكةُ لها: هكذا قال ربُّكِ، إنَّه سُبحانَه هو الحَكيمُ العليمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِنَ الإنذارِ والمَوعِظةِ والاستِدلالِ، إلى الاعتِبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الماضيةِ المُماثِلةِ للمُخاطَبينَ المُشرِكينَ في الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ[١]؛ ففيه تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتبشيرٌ له بالفَرَجِ[٢]، والبِشارةُ بإكرامِ المصَدِّقِ، وإهانةِ المكَذِّبِ[٣].

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦١).

أي: أَلَمْ يأتِكَ -يا محمَّدُ- خبَرُ ضُيوفِ إبراهيمَ مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ عندَ اللهِ، وعندَ إبراهيمَ وأهلِه بحُسنِ ضيافتِهم[1]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٤)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

قال الماوَرْدي: (في قَولِه: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ وجْهانِ:

أحَدُهما: أنَّهم عندَ اللهِ المُعظَّمون.

الثَّاني: مُكْرَمونَ لإكرامِ إبراهيمَ لهم حينَ خدَمَهم بنَفْسِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٩).

وممَّن قال بالوَجهِ الأوَّلِ؛ أي: أنَّهم مُكرَمونَ عندَ اللهِ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والنسفي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ العزيزِ بنُ يحيى الكِنانيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٩).

وممَّن قال بالوَجهِ الثَّاني؛ أي: لإكرامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لهم، وخدمتِه إيَّاهم بنفْسِه: ابنُ جرير، والماتُريدي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٦).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٧(، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٩).

ومِمَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: ابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦١).

قال ابنُ القيِّم: (لا تَنافيَ بيْنَ القولَينِ؛ فالآيةُ تدُلُّ على المعنيَينِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٧١).

وقال السعدي: (﴿مُّكْرَمُونَ﴾: أي: أكرَمَهم إبراهيمُ، ووَصَفَ اللهُ ما صَنَع بهم مِنَ الضِّيافةِ قَولًا وفِعلًا، ومُكْرَمونَ أيضًا عندَ اللهِ تعالى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فحَسْبُ، بل له، ولكلِّ مَن يَتأتَّى =

قال تعالى عن الملائكةِ: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾.

أي: وذلك حينَ دَخَل أولئك الملائِكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له: نُسَلِّمُ عليك سَلامًا[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا ...﴾ [الحجر: ٥١، ٥٢].

﴿قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ دائمٌ عليكم، قَومٌ غيرُ مَعروفينَ[2]!

= خِطابُه ويصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه، كأنَّه قال: هل أتاك أيُّها المُخاطَبُ ﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾. ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥، ٥٢٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المعنى أنَّهم قَومٌ غُرَباءُ لم يَعرِفْهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٥).

وقيل: إنَّهم قَدِموا عليه في صورةٍ وهَيئةٍ مُختلِفةٍ عمَّا يكونُ عليه النَّاسُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرَّازيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠). =

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ ﴾.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾.

أي: فانسَلَّ إبراهيمُ ومالَ إلى أهلِ بَيتِه في خُفيةٍ عن ضُيوفِه؛ لِيُبادِرَ بإكرامِهم(١)!

﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾.

أي: فأحضَر لهم عِجلًا مِن البَقَرِ سَمينًا مَشويًّا؛ لِيُكرِمَهم به(٢)!

= وقيل: كان هذا سُؤالًا لهم، كأنَّه قال: أنتم قومٌ مُنكَرونَ فعَرِّفوني: مَن أنتم؟ يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّه أنكَرَهم لكَونِهم ابتَدؤوا بالسَّلامِ ولم يكنْ ذلك معهودًا عندَ قَومِه. وقيل: لأنَّه رأى فيهم ما يخالِفُ بعضَ الصُّوَرِ البَشَريَّةِ. وقيل: لأنَّه رآهم على غيرِ صُورةِ الملائكةِ الَّذين يَعرِفُهم. وقيل غيرُ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (المُنكَرُ: الَّذي يُنكِرُه غَيرُه، أي: لا يَعرِفُه، وأُطلِقَ هنا على مَن يُنكَرُ حالُه، ويُظَنُّ أنَّه حالٌ غيرُ مُعتادٍ، أي: يُخشى أنَّه مُضمِرُ سُوءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨). ويُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٢).

قيل: إنَّه قال هذا في نَفْسِه، ولم يُخاطِبْ أضيافَه به؛ لأنَّ ذلك يخالِفُ الإكرامَ. وقيل: إنَّه قال ذلك لِمَن كان معَه مِن أتْباعِه وغِلمانِه بحيثُ لا يَسمعونَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

من المفسِّرينَ مَن فسَّر الرَّوغانَ بأنَّه الذَّهابُ بسرعةٍ، بالإضافةِ إلى كونِه خُفْيةً؛ ومنهم: الرَّازيُّ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فقرَّب إبراهيمُ العِجْلَ إليهم، فلم تمتَدَّ أيديهم لأَكْلِه! فقال عارِضًا عليهم الطَّعامَ بلُطفٍ: ألَا تأكُلونَ[(١)]!

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

أي: فشَعَر إبراهيمُ في نَفْسِه بخَوفٍ منهم حينَ امتَنَعوا عن تناوُلِ الطَّعامِ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾.

أي: فقالوا مُطَمْئِنينَ له: لا تخَفْ منَّا[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨)، ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٦، ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٧).

قال الواحديُّ: (قال عامَّةُ المفسِّرينَ: لَمَّا رآهم إبراهيمُ شَبابًا أقوياءَ، ولم يتحَرَّموا بطعامِه =

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣].

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

أي: وبَشَّرَتْه الملائِكةُ بِولادةِ زَوجِه سارةَ غُلامًا يكونُ مِن أهلِ العِلمِ باللهِ وبدِينِه، وهو إسحاقُ عليه السَّلامُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٣].

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾.

أي: فأقبَلَت امرأةُ إبراهيمَ في صَيحةٍ حينَ سَمِعَت تلك البِشارةَ(٢)!

= [يُقالُ: تحرَّمتُ بطعامِك، أي: حرُم عليك منِّي بسببِه ما كان لك أخذُه]، لم يأمَنْ أن يكونوا جاؤوا لبلاءٍ؛ وذلك أنَّ سُنَّتَهم كانت في ذلك الدَّهرِ إذا وَرَد عليهم القَومُ فأتَوا بالطَّعامِ فلم يَمَسُّوه ظَنُّوا أنَّهم عَدُوٌّ أو لُصوصٌ، فهنالك أَوجَسَ في نَفْسِه فَزَعًا، ورأَوا علامةَ ذلك في وَجْهِه، فقالوا له: لا تَخَفْ). ((البسيط)) (١١/ ٤٧٣).

وقال القُرطبيُّ: (أعلَموه أنَّهم ملائِكةُ اللهِ ورُسُلُه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠).

قال السَّمْعانيُّ: (أجمَعَ المفَسِّرون على أنَّه إسحاقُ عليه السَّلامُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾.

أي: فضَرَبت وَجْهَها بيَدِها؛ تعَجُّبًا مِمَّا سَمِعَتْه(١)!

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أي: وقالت: أنا عَجوزٌ عَقيمٌ لم أَلِدْ في شبابي، فكيف أَلِدُ الآنَ بعدَ كِبَرِ سِنِّي، وعَدَمِ صَلاحِيَتي للحَملِ(٢)؟!

= (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال ابنُ عطيَّة: (يحتَملُ أن يكونَ قَرُبَت إليهم مِن ناحيةٍ مِن نواحي المنزِل، ويحتَملُ أن يكونَ هذا الإقبالَ، كما تقولُ: أقبَلَ فُلانٌ يَشتُمُني، أو يَفعَلُ كذا: إذا جَدَّ في ذلك وتلَبَّس به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

والصَّرَّةُ: الصَّيحةُ، قيل: هي صَيحةُ فَرَحٍ وسُرورٍ بالبِشارةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال القرطبي: (أي: في صَيحةٍ وضَجَّةٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه، ومنه أُخِذَ صَريرُ البابِ، وهو صَوتُه. وقال عِكْرِمةُ وقَتادةُ: إنَّها الرَّنَّةُ والتَّأَوُّهُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال ابنُ جرير: (قد قيل: إنَّ صَكَّها وَجْهَها: أنْ جَمَعَت أصابِعَها، فضَرَبت بها جَبهتَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال السعدي: (أي: أنَّى ليَ الولَدُ وأنا عجوزٌ قد بلغتُ مِنَ السِّنِّ ما لا تَلِدُ معه النِّساءُ، ومع ذلك فأنا عقيمٌ غيرُ صالحِ رَحمي للوِلادةِ أصلًا؟! فثَمَّ مانِعانِ كُلٌّ منهما مانِعٌ مِن الولَدِ، وقد ذكَرَت =

كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢].

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لها: هكذا قال ربُّكِ إنَّك ستَلِدينَ غُلامًا كما بشَّرْناكِ[1]!

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو الحَكيمُ في أفعالِه وخَلْقِه، وشَرْعِه وقَدَرِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، البالِغُ العِلمِ بكُلِّ شَيءٍ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أنَّ مِنَ الحِكمةِ قَصَّ اللهِ على عبادِه نَبَأَ الأخيارِ والفُجَّارِ؛ لِيَعتَبِروا بحالِهم، وأين وصَلَت بهم الأحوالُ[3].

= المانِعَ الثَّالِثَ في سورةِ هودٍ بقَولِها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢]. ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أنَّ الضَّيفَ يُكرَمُ بأنواعِ الإكرامِ؛ بالقَولِ والفِعلِ؛ لأنَّ اللهَ وَصَف أضيافَ إبراهيمَ بأنَّهم مُكْرَمونَ، وذكَر ما أكرَمهم به إبراهيمُ مِنَ الضِّيافةِ قَولًا وفِعلًا(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ * فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ اشتملَتْ هذه الآياتُ على عددٍ مِن آدابِ الضِّيافةِ:

منها: الإكرامُ أوَّلًا مِمَّن جاءه ضَيفٌ قبْلَ أن يجتَمِعَ به ويُسَلِّمَ أحَدُهما على الآخَرِ؛ أنواعٌ مِن الإكرامِ: وهي اللِّقاءُ الحَسَنُ، والخُروجُ إليه، والتَّهَيُّؤُ له.

ومنها: السَّلامُ مِنَ الضَّيفِ على الوَجهِ الحَسَنِ، فسَلَكوا طريقَ الأدبِ في الابتِداءِ بالسَّلامِ، فردَّ عليهم إبراهيمُ سلامًا أكمَلَ مِن سلامِهم وأتَمَّ، فقولُه لهم: ﴿سَلَٰمٞ﴾ بالرَّفعِ، وهم سَلَّموا عليه بالنَّصبِ، والسَّلامُ بالرَّفعِ أكمَلُ؛ فإنَّه يدُلُّ على الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والتَّجدُّدِ، والمنصوبُ يدُلُّ على الفِعليَّةِ الدَّالَّةِ على الحُدوثِ والتَّجدُّدِ؛ فإبراهيمُ حَيَّاهم أحسَنَ مِن تحيَّتِهم؛ فإنَّ قولَهم: ﴿سَلَٰمٗا﴾ يدُلُّ على «سَلَّمْنا سلامًا»، وقولَه: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: سَلامٌ عليكم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) قال ابن القيِّم: (وعندي فيه جوابٌ أحسَنُ من هذا، وهو أنَّه لم يَقصِدْ حكايةَ سلام الملائكة، فنصَبَ قولَه: ﴿سَلَٰمٗا﴾ انتصابَ مَفعولِ القولِ المُفرَدِ، كأنَّه قيل: قالوا قولًا سلامًا، وقالوا سَدادًا وصَوابًا، ونحو ذلك؛ فإنَّ القولَ إنَّما تُحكى به الجُمَلُ، وأمَّا المُفرَدُ فلا يكونُ مَحكيًّا به، بل منصوبٌ به انتِصابَ المفعولِ به، ومِن هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ليس المرادُ أنَّهم قالوا هذا اللَّفظَ المُفرَدَ المنصوبَ، وإنَّما معناه: قالوا قولًا سَلامًا، مِثل: سَدادًا وصَوابًا، وسُمِّيَ القولُ سَلامًا؛ لأنَّه يؤدِّي معنى السَّلامِ ويَتضَمَّنُه، مِن رفْعِ الوَحشةِ، وحُصولِ الاستِئناسِ. وحُكيَ عن إبراهيمَ لَفظُ سَلامِه، فأتى به على لَفظِه مَرفوعًا بالابتِداءِ، مَحكيًّا بالقَولِ، ولولا قَصْدُ الحكايةِ لَقال: سلامًا، بالنَّصبِ؛ لأنَّ ما بعدَ القولِ إذا =

ومنها: أدبُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ولُطفُه في الكلامِ؛ فإنَّه حَذَفَ المُبتدَأَ مِن قَولِه: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾؛ فإنَّه لَمَّا أنكَرَهم ولم يَعرِفْهم احتشَمَ مِن مواجهتِهم بلَفظٍ يُنَفِّرُ الضَّيفَ لو قال: أنتم قَومٌ مُنكَرونَ؛ فحَذفُ المبتدأِ هنا مِن ألطفِ الكلامِ.

ومنها: أنَّه بنى الفِعلَ للمَفعولِ وحَذَفَ فاعِلَه، فقال: ﴿مُّنكَرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: إنِّي أُنكِرُكم. وهو أحسَنُ في هذا المقامِ، وأبعدُ مِن التَّنفيرِ والمُواجَهةِ بالخُشونةِ.

ومنها: المُبادَرةُ إلى الضِّيافةِ، والإسراعُ بها، وتَعجيلُ القِرَى الَّذي دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ [هود: ٦٩]، وقَولُه هاهنا ﴿فَرَاغَ﴾؛ فإنَّ الرَّوَغانَ يدُلُّ على السُّرعةِ(١)، وذلك على قولٍ في معنى الرَّوَغانِ.

ومنها: أنَّه راغَ إلى أهلِه لِيَجيئَهم بنُزُلِهم، والرَّوَغانُ أيضًا هو الذَّهابُ في اختِفاءٍ، بحيثُ لا يَكادُ يَشعُرُ به الضَّيفُ، وهذا مِن كَرَمِ ربِّ المَنزِلِ المُضيفِ: أنْ يَذهبَ في اختِفاءٍ بحيثُ لا يَشعُرُ به الضَّيفُ فيَشُق عليه ويَستحي(٢)؛ فلا يَشعُرُ به إلَّا وقد جاءَه بالطَّعامِ، بخِلافِ مَن يُسمِعُ ضيفَه ويقولُ له أو لِمَن حَضَرَ: مكانَكم حتَّى آتيَكم بالطَّعامِ، ونحوَ ذلك مما يُوجِبُ حياءَ الضَّيفِ واحتِشامَه.

= كان مرفوعًا فعَلى الحكايةِ ليس إلَّا، فحصَل مِن الفَرقِ بيْن الكلامَين في حكايةِ سَلامِ إبراهيم ورفْعِه، ونصْبِ ذلك: إشارةٌ إلى معنًى لطيفٍ جدًّا، وهو أنَّ قولَه: «سَلامٌ عليكم» مِن دينِ الإسلامِ المُتلَقَّى عن إمامِ الحُنفاءِ، وأبي الأنبياءِ، وأنَّه مِن مِلَّةِ إبراهيمَ الَّتي أمَرَ اللهُ بها وباتِّباعِها؛ فحكى لَنا قولَه لِيَحصُلَ الاقتِداءُ به، والاتِّباعُ له، ولم يَحْكِ قولَ أضيافِه، وإنَّما أخبَرَ به على الجُملةِ دونَ التَّفصيلِ، واللهُ أعلَمُ. فزِنْ هذا الجوابَ والَّذي قبْلَه بميزانٍ غيرِ جائرٍ؛ يَظهَرْ لك أقْواهما، وباللهِ التَّوفيقُ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٥٨).

(١) وأيضًا: عَطفُ ﴿فَجَآءَ﴾ على ﴿فَرَاغَ﴾ يدُلُّ على سُرعةِ مجيئِه بالقِرَى. ويُنظر ما سيأتي في بَلاغةِ الآياتِ (ص: ١٠٩).

(٢) قال ابن عاشور: (انتَزَع منه الزَّمخشريُّ أنَّ إخفاءَ إبراهيمَ مَيْلَه إلى أهلِه: مِن حُسنِ الضِّيافةِ؛ كي لا يُوهِمَ الضَّيفَ أنَّه يُريدُ أن يُحضِرَ لهم شيئًا، فلعَلَّ الضَّيفَ أن يَكُفَّه عن ذلك ويَعذِرَه، وهذا مَنزَعٌ لَطيفٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

ومنها: غَيبةُ المُضيفِ عن الضَّيفِ؛ لِيَستريحَ، ويأتيَ بما يمنَعُه الحياءُ منه.

ومنها: أنَّه ذَهَبَ إلى أهلِه فجاء بالضِّيافةِ؛ فدَلَّ على أنَّ ذلك كان مُعَدًّا عندَهم مُهَيَّأً للضِّيفانِ، ولم يَحتَجْ أنْ يَذهَبَ إلى غيرِهم مِن جيرانِه أو غَيرِهم، فيَشتريَه أو يَستقرِضَه.

ومنها: خِدمتُه للضَّيفِ بنَفْسِه، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾، ولم يَقُلْ: فأَمَرَ لهم، بل هو الَّذي ذَهَبَ وجاء به بنَفْسِه، ولم يَبعَثْه مع خادِمِه، وهذا أبلَغُ في إكرامِ الضَّيفِ.

ومنها: أنَّه جاء بعِجلٍ كاملٍ ولم يأتِ ببَضْعةٍ منه، لِيَتخيَّروا مِن أطيَبِ لحمِه ما شاؤوا، وهذا مِن تمامِ كَرَمِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

ومنها: اختيارُ الأجوَدِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿سَمِينٖ﴾، فهو سَمينٌ لا هَزيلٌ، ومَعلومٌ أنَّ ذلك مِن أفخَرِ أموالِهم، ومِثلُه يُتَّخَذُ للاقتناءِ والتَّربيةِ، فآثَرَ به ضيفانَه.

ومنها: أنَّه قَرَّبَه إليهم بنَفْسِه، ولم يأمُرْ خادِمَه بذلك.

ومنها: تقديمُ الطَّعامِ إليهم، لا نَقلُهم إلى الطَّعامِ، فقد قَرَّبَه إليهم في المكان الَّذي هم فيه، ولم يُقَرِّبْهم إليه، فهذا أيسَرُ عليهم وأحسَنُ، وأبلَغُ في الكرامةِ: أنْ يُجلِسَ الضَّيفَ ثمَّ يُقَرِّبَ الطَّعامَ إليه، ويَحملَه إلى حَضْرتِه، ولا يَضَعَ الطَّعامَ في ناحيةٍ ثمَّ يأمُرَ الضَّيفَ بأن يَتقرَّبَ إليه؛ لأنَّ مَن قَدَّم الطَّعامَ إلى قَومٍ يكونُ كُلُّ واحدٍ مُستَقِرًّا في مَقَرِّه لا يختَلِفُ عليه المكانُ؛ فإنْ نَقَلَهم إلى مكانِ الطَّعامِ رُبَّما يحصُلُ هناك اختِلافُ جُلوسٍ، فيُقَرَّبُ الأدنى، ويُضَيَّقُ على الأعلى(١)!

(١) وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الأظهرَ أنَّ تقريبَ الطَّعامِ إلى الضُّيوفِ يختلِفُ باختِلافِ الأحوالِ والعاداتِ، وأنَّه إذا كان مِن الإكرامِ أنْ تأتيَ بالطَّعامِ إلى مَحَلِّ جلوسِهم فأْتِ به، وإذا كان مِن الإكرامِ أنْ تجعلَه في مَحَلٍّ آخَرَ فافعَلْ؛ لأنَّ عُمومَ قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن =

ومنها: حُسنُ ملاطفةِ الضَّيفِ في الكلامِ اللَّيِّنِ، خصوصًا عندَ تقديمِ الطَّعامِ إليه؛ فإنَّ إبراهيمَ عرَض عليهم عرضًا لطيفًا[1]، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، ولم يقلْ: (كلوا) أو: (مُدُّوا أيديَكم) ونحوَه مِن الألفاظِ الَّتي غيرُها أَولى منها، بل أتَى بأداةِ العَرضِ لا الأمرِ، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فيَنبغي للمُقتدي به أن يَستعمِلَ مِن الألفاظِ الحسَنةِ ما هو المناسِبُ واللَّائقُ بالحالِ، كقولِه لأضيافِه: (ألَا تأكلون) أو: (ألَا تتفضَّلون علينا وتُشرِّفوننا وتُحسِنون إلينا) ونحوِه، وهذا مِمَّا يَعلَمُ النَّاسُ بعُقولِهم حُسنَه ولُطفَه.

ومنها: أنَّه إنَّما عَرَضَ عليهم الأكلَ؛ لأنَّه رآهم لا يأكُلونَ، ولم يكُنْ ضُيوفُه يحتاجونَ معه إلى الإذنِ في الأكلِ، بل كان إذا قُدِّمَ إليهم الطَّعامُ أكَلوا، وهؤلاء الضُّيوفُ لَمَّا امتنَعوا مِن الأكلِ قال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ ولهذا أوجَسَ منهم خِيفةً، أي: أَحَسَّها وأضْمَرها في نفْسِه، ولم يُبْدِها لهم.

ومنها: كَونُ المُضيفِ مَسرورًا بأكْلِهم، غيرَ مَسرورٍ بتَركِهم الطَّعامَ، كما يُوجَدُ في بَعضِ البُخَلاءِ المتكَلِّفينَ الَّذين يُحضِرونَ طَعامًا كَثيرًا، ويكونُ نَظَرُه ونَظَرُ أهلِ بَيتِه في الطَّعامِ متى يُمسِكُ الضَّيفُ يَدَه عنه؛ يدُلُّ عليه قَولُه تعالى:

= كان يؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضَيْفَه)) [البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه] يدُلُّ على إكرامِهم بما جَرَتِ العادةُ بإكرامِهم به. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٦).

(١) قال أبو حيَّان: (إنَّ في ذلك تأنيسًا للآكِلِ، بخِلافِ مَن قَدَّمَ طعامًا ولم يَحُثَّ على أكلِه؛ فإنَّ الحاضِرَ قد يَتوهَّمُ أنَّه قَدَّمَه على سَبيلِ التَّجَمُّلِ عسى أن يمتَنِعَ الحاضِرُ مِن الأكلِ، وهذا موجودٌ في طِباعِ بَعضِ النَّاسِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

وقال ابنُ عاشور: (والعَرْضُ على الضَّيفِ عَقِبَ وَضعِ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه زيادةٌ في الإكرامِ، بإظهارِ الحِرصِ على ما يَنفَعُ الضَّيفَ، وإن كان وَضْعُ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه كافيًا في تمكينِه منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾.

فقد جمَعتْ هذه الآياتُ آدابَ الضِّيافةِ الَّتي هي أشرَفُ الآدابِ، وما عَداها مِن التَّكَلُّفاتِ -الَّتي هي تَخَلُّفٌ وتَكَلُّفٌ- إنَّما هي مِن أوضاعِ النَّاسِ وعوائِدِهم، وكفى بهذه الآدابِ شَرَفًا وفَخرًا! فصَلَّى اللهُ على نبِيِّنا وعلى إبراهيمَ وعلى آلِهما وعلى سائِرِ النَّبيِّينَ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ مَشروعيَّةُ تعَرُّفِ مَن جاء إلى الإنسانِ، أو صار له فيه نَوعُ اتِّصالٍ؛ لأنَّ في ذلك فوائِدَ كَثيرةً(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أنَّ الذَّبيحةَ الحاضِرةَ الَّتي قد أُعِدَّت لِغَيرِ الضَّيفِ الحاضِرِ، إذا جُعِلَت له ليس فيها أقَلُّ إهانةٍ، بل ذلك مِنَ الإكرامِ، كما فَعَل إبراهيمُ عليه السَّلامُ، وأخبَرَ اللهُ أنَّ ضَيفَه مُكْرَمونَ(٣)، ففيه إشعارٌ بأنَّ كرامةَ الضَّيفِ معدَّةٌ حاصِلةٌ عندَ أهلِه، وأنَّه لا يحتاجُ أنْ يستقرِضَ مِن جيرانِه، ولا يذهَبَ إلى غيرِ أهلِه إذ قِرَى الضَّيفِ حاصِلٌ عندَهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦، ١٧٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١-٢٧٤)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٣-٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧).

قال أبو حيَّان: (كَوْنُه عَطفَ ﴿فَجَآءَ﴾ على ﴿فَرَاغَ﴾ يدُلُّ على سرعةِ مجيئه بالقِرَى، وأنَّه كان مُعَدًّا عِندَه لِمَنْ يَرِدُ عليه. وقال في سورةِ هُودٍ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩]، وهذا يدُلُّ أيضًا على أنَّه كان العِجلُ سابِقًا شَيُّهُ قبْلَ مَجيئِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥).

وقال الألوسي: (اختُلِف في هذا العِجلِ: هل كان مُهَيَّأً قبْلَ مَجيئِهم، أو أنَّه هُيِّئَ بعدَ أن جاؤوا؟ قَولانِ، اختار أبو حيَّانَ أوَّلَهما؛ لِدَلالةِ السُّرعةِ بالإتيانِ به على ذلك، ويختارُ الفقيرُ ثانيَهما؛ لأنَّه أزْيَدُ في العِنايةِ، وأبلَغُ في الإكرامِ). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٩١).

٦- قال تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ في مجيئِه بالعِجلِ كلِّه معَ أنَّهم -بحسَبِ الظَّاهرِ- يَكفيهم بعضُه؛ دَليلٌ على أنَّه يُحضَرُ للضَّيفِ أكثَرُ مِمَّا يأكُلُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أنَّ أكْلَ الضَّيفِ أَمَنةٌ، ودليلٌ على انبِساطِ نَفْسِه، وللطَّعامِ حُرمةٌ وذِمامٌ، والامتِناعُ منه وَحْشةٌ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فيه مِن أدَبِ الضَّيفِ أُمورٌ:

منها: أنَّه إذا أكَلَ حَفِظَ حَقَّ المُؤاكَلةِ؛ يدُلُّ عليه أنَّه خافَهم حيثُ لم يأكُلوا.

ومنها: وُجوبُ إظهارِ العُذرِ عندَ الإمساكِ؛ يدُلُّ عليه قَولُهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾.

ومنها: تحسينُ العبارةِ في العُذرِ؛ وذلك لأنَّ مَن يكونُ مُحتَمِيًا وأُحضِرَ لديه الطَّعامُ؛ فهناك أمْرانِ، أحَدُهما: أنَّ الطَّعامَ لا يَصلُحُ له؛ لِكَونِه مُضِرًّا به. الثَّاني: كَونُه ضَعيفَ القُوَّةِ عن هَضمِ ذلك الطَّعامِ؛ فيَنبغي ألَّا يَقولَ الضَّيفُ: هذا طَعامٌ غَليظٌ لا يَصلُحُ لي! بل الحَسَنُ أن يأتيَ بالعبارةِ الأُخرى ويقولَ: لي مانِعَ مِن أكلِ الطَّعامِ، وفي بيتي لا آكُلُ أيضًا شَيئًا؛ بل بشَّروه بالولدِ؛ إشعارًا بأنَّهم ملائكةٌ، يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾؛ حيثُ فَهَّموه أنَّهم ليسُوا ممَّن يأكُلونَ[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ أنَّ مَن خاف مِنَ الإنسانِ لِسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ فإنَّ عليه أن يُزيلَ عنه الخَوفَ، ويَذكُرَ له ما يُؤَمِّنُ رَوْعَه، ويُسَكِّنُ جَأشَه، كما قالت الملائِكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا خافَهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، وأخبَروه بتلك البِشارةِ السَّارَّةِ بعدَ الخَوفِ منهم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّ التَّبشيرَ مطلوبٌ فيما يَسُرُّ مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا(١). فيُستحَبُّ للمُسلِمِ أنْ يُبادِرَ إلى مَسَرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه، ومِن ذلك استِحبابُ بِشارةِ مَن وُلِدَ له ولدٌ وتَهنِئتِه(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أدَبٌ في البِشارةِ: ألَّا يُخبِرَ الإنسانَ بما يَسُرُّه دَفْعةً؛ فإنَّه يُورِثُ مَرَضًا؛ يدُلُّ عليه أنَّهم جَلَسوا واستأنَسَ بهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ، ثمَّ قالوا: نُبَشِّرُك، ثمَّ ذكَروا أشرَفَ النَّوعَينِ -وهو الذَّكَرُ-، ولم يقتَنِعوا به حتَّى وصَفوه بأحسَنِ الأوصافِ(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّهم ترَكوا سائِرَ الأوصافِ؛ مِنَ الحُسنِ والجَمالِ، والقُوَّةِ والسَّلامةِ، واختاروا العِلمَ؛ إشارةً إلى أنَّ العِلمَ رأسُ الأوصافِ، ورَئيسُ النُّعوتِ(٤).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ حُسنُ أدبِ المرأةِ عندَ خِطابِ الرِّجالِ، واقتِصارُها مِنَ الكلامِ على ما تتأدَّى به الحاجةُ؛ فإنَّها حَذَفتِ المبتدَأَ ولم تَقُلْ: أنا عَجوزٌ عقيمٌ! واقتَصَرتْ على ذِكْرِ السَّبَبِ الدَّالِّ على عَدَمِ الوِلادةِ، ولم تذكُرْ غيرَه، وأمَّا في سورةِ (هودٍ) فذكرتِ السَّبَبَ المانِعَ منها ومِن إبراهيمَ، وصَرَّحَتْ بالعَجَبِ(٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ فَضلُ إبراهيمَ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

الخَليلِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث ابتدأ اللهُ تعالى قِصَّتَه بما يدُلُّ على الاهتِمامِ بشَأنِها، والاعتِناءِ بها(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ مَشروعيَّةُ الضِّيافةِ، وأنَّها مِن سُنَنِ إبراهيمَ الخَليلِ الَّذي أمرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَّتَه أن يتَّبِعوا مِلَّتَه، وساقها اللهُ في هذا الموضِعِ على وَجهِ المَدحِ له والثَّناءِ(٢).

٣- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ افتتحَ سُبحانَه القِصَّةَ بصيغةٍ مَوضوعةٍ للاستِفهامِ؛ وليس المرادُ بها حقيقةَ الاستِفهامِ! ولكنْ في وُرودِ الكلامِ في مِثلِ هذا بصيغةِ الاستِفهامِ سِرٌّ لطيفٌ، ومعنًى بديعٌ؛ فإنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أنْ يُخْبِرَ المخاطَبَ بأمرٍ عجيبٍ -يَنبغي الاعتِناءُ به، وإحضارُ الذِّهنِ له- صَدَّرَ له الكلامَ بأداةِ الاستِفهامِ لتنبيه سمْعِه وذِهْنِه للمُخبَرِ به، فتارةً يُصَدِّرُه بـ «أَلَا»، وتارةً يُصَدِّرُه بـ «هل»، فيقولُ: هل عَلِمتَ ما كان مِن كَيْتَ وكَيْتَ؟ إمَّا مذكِّرًا به، وإمَّا واعظًا له مخوِّفًا، وإمَّا منبِّهًا على عظَمةِ ما يُخبِرُ به، وإمَّا مقرِّرًا له، فقولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥]، و﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ [ص: ٢١]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ متضمِّنٌ لتعظيم هذه القصصِ، والتَّنبيهِ على تدبُّرِها، ومعرفةِ ما تضَمَّنَتْه، وفيه أمرٌ آخَرُ؛ وهو التَّنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك عَلَمٌ مِن أعلامِ النُّبوَّةِ، فإنَّه مِن الغَيبِ الَّذي لا تَعلَمُه أنت ولا قَومُك؛ فهل أتاك مِن غيرِ إعلامِنا وإرسالِنا وتعريفِنا؟ أمْ لم يأتِك إلَّا مِن قِبَلِنا؟ فانظُرْ ظُهورَ هذا الكلامِ بصيغةِ الاستِفهامِ، وتأمَّلْ عِظَمَ مَوقعِه من

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جميعِ مَوارِدِه يَشْهَد أنَّه مِن الفصاحةِ في ذُروتِها العُلْيا(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان المرادُ مِن حَديثِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ التَّسليةَ والإنذارَ، فأيُّ فائدةٍ في حِكايةِ الضِّيافةِ؟

الجوابُ: لِيَكونَ ذلك إشارةً إلى الفَرَجِ في حَقِّ الأنبياءِ، والبَلاءِ على الجَهَلةِ والأغبياءِ إذا جاءهم مِن حيثُ لا يُحتَسَبُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢]، فلم يكُنْ عندَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ خَبَرٌ مِن إنزالِ العَذابِ مع ارتِفاعِ مَكانتِه(٢)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سُؤالٌ: كيف سَمَّاهم سُبحانَه ضَيفًا، ولم يكونوا؟

الجَوابُ: لَمَّا حَسِبَهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ ضَيفًا لم يُكَذِّبْه اللهُ تعالى في حِسْبانِه؛ إكرامًا له(٣)، أو جعَلَهم ضَيفًا؛ لأنَّهم كانوا في صُورةِ الضَّيفِ(٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الملائِكةَ أُرسِلَت بالعَذابِ، بدَليلِ قَولِهم: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الذَّارِيات: ٣٢]، فما الحِكمةُ في مَجيئِهم إلى إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَيخُ المُرسَلينَ، ولُوطٌ مِن قَومِه،

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

ومِن عادةِ المَلِكِ إذا أرسَلَ رَسولًا لمَلِكٍ، وفي طَريقِه مَن هو أكبَرُ منه، يقولُ له: اعبُرْ على فُلانٍ المَلِكِ، وأخبِرْه برِسالتِك، وخُذْ فيها رَأيَه.

الثَّاني: أنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان شديدَ الشَّفَقةِ حَليمًا، فكان يَشُقُّ عليه إهلاكُ أمَّةٍ عَظيمةٍ، وكان ذلك مِمَّا يَحزُنُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ شَفَقةً منه على العِبادِ؛ فقال لهم: بَشِّروه بغُلامٍ يَخرُجُ مِن صُلبِه أضعافُ مَن يَهلِكُ، ويكونُ مِن صُلبِه خُروجُ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ: أنَّ الملائِكةَ أحياءٌ ناطِقةٌ قائِمةٌ بأنفُسِها، ليست أعراضًا قائِمةً بغَيرِها، وأنَّهم يأتُونَ بأخبارِ الأُمورِ الغائِبةِ، وأنَّهم يَفعَلونَ أفعالًا خارِجةً عن قُدرةِ البَشَرِ(٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ التَّنافي في الظَّاهِرِ ما بيْنَ هذا النَّعتِ ومَنعوتِه؛ لأنَّ النَّعتَ ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ صيغةُ جَمعٍ، والمنعوتَ ﴿ضَيْفِ﴾ لَفظٌ مُفرَدٌ.

الجَوابُ: أنَّ لَفظةَ «الضَّيف» تُطلَقُ على الواحِدِ والجَمعِ؛ لأنَّ أصلَها مَصدَرُ «ضاف»، فنُقِلَت من المَصدريَّةِ إلى الاسميَّةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢١).

قال ابنُ عاشور: (الضَّيفُ: اسمٌ يُقالُ للواحِدِ وللجَمعِ؛ لأنَّ أصلَه مَصدَرُ ضافَ: إذا مالَ، فأُطلِقَ على الَّذي يَميلُ إلى بَيتِ أحَدٍ لِيَنزِلَ عِندَه، ثمَّ صار اسمًا؛ فإذا لُوحِظَ أصلُه أُطلِقَ على الواحِدِ وغَيرِه ولم يُؤَنِّثوه، ولا يَجمَعونَه، وإذا لُوحِظَ الاسمُ جَمَعوه للجَماعةِ وأنَّثوه للأُنثى، فقالوا أضيافٌ، وضُيوفٌ، وامرأةٌ ضَيفةٌ، وهو هنا اسمُ جَمعٍ؛ ولذلك وُصِفَ بـ ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قد كان بَيتُه مأوًى للطَّارِقينَ والأضيافِ؛ لأنَّهم دَخَلوا عليه مِن غيرِ استِئذانٍ[١]، فلم يَذكرِ اللهُ استئذانَهم؛ ففي هذا دليلٌ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان قد عُرِفَ بإكرامِ الضِّيفانِ، واعتيادِ قِراهم؛ فبقيَ مَنزِلُه مَضْيفةً، مَطروقًا لِمَن وَرَدَه، لا يَحتاجُ إلى الاستِئذانِ، بلِ استئذانُ الدَّاخلِ دُخولُه، وهذا غايةُ ما يكونُ مِن الكَرَمِ[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أنَّ السَّلامَ مِن سُنَنِ الرُّسُلِ والملائِكةِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أنَّ حذفَ الرَّادِّ «الواوَ»، فيَقولُ: «عليك السَّلامُ» هو ردٌّ صَحيحٌ، كما لو كان بـ«الواوِ»، ولكِنْ حَسُنَ الحَذفُ في الرَّدِّ هنا؛ مِن أجْلِ الحَذفِ في الابتِداءِ[٤].

١٢- إنْ قِيل: قولُه في سُورةِ (هُودٍ): ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] دلَّ على أنَّ إنكارَه حصَلَ بعْدَ تقريبِ العِجلِ إليهم، وهاهنا قال: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ -بفاءِ التَّعقيبِ-، وذلك يدُلُّ على تَقريبِ الطَّعامِ منهم بعْدَ حُصولِ إنكارِه؛ فما وَجْهُه؟

فالجوابُ: أنْ يُقالَ: لعلَّهم كانوا مُخالِفينَ لصِفةِ النَّاسِ في الشَّكلِ والهَيئةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٣٨٦).

والعلَّةُ البَلاغيَّةُ هنا حيث حسُن الفصلُ ولم يَحسُنِ الوصلُ، أي: العطفُ بالواوِ؛ لأنَّه عبارةٌ عن جوابٍ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، تقديرُه: فماذا قال إبراهيمُ؟ وهو ما يُعرَفُ في البلاغةِ بشِبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وهو معنى كلامِ ابنِ القيِّمِ: مِن أجْلِ الحذفِ في الابتداءِ.

ولذلك قال: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾، أي: عندَ كلِّ أحدٍ، ثمَّ لَمَّا امتَنَعوا عن الطَّعام تأكَّدَ الإنكارُ؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تفرَّدَ بمُشاهَدةِ إمساكِهم؛ فنَكِرَهم فوقَ الإنكارِ الأوَّلِ[1].

١٣- وُصِفَ العِجلُ هنا بـ﴿سَمِينٖ﴾، ووُصِفَ في سُورةِ (هودٍ) بـ﴿حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩]، أي: مَشويٍّ؛ فهو عِجلٌ سَمينٌ شَواهُ وقرَّبَه إليهم[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ هذا الغُلامُ إسحاقُ لا إسماعيلُ؛ لأنَّ امرأتَه عَجِبَتْ مِن ذلك، فقالت: عَجوزٌ عَقيمٌ لا يُولَدُ لِمثْلي! فأنَّى لي بالوَلَدِ؟! وأمَّا إسماعيلُ فإنَّه مِن سُرِّيَّتِه هاجرَ، وكان بِكْرَه، وأوَّلَ وَلَدِه، وقد بَيَّنَ سُبحانَه هذا في سُورةِ (هودٍ) في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهذه هي القِصَّةُ نفْسُها[3].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فائِدةٌ في تقديمِ البِشارةِ على الإخبارِ عن إهلاكِهم قَومَ لُوطٍ؛ لِيَعلَمَ أنَّ اللهَ تعالى يُهلِكُهم إلى خَلَفٍ، ويأتي ببَدَلِهم خَيرًا منهم[4].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أنَّه سيَكونُ عَليمًا، وفيه تَبشيرٌ بحَياتِه حتَّى يكونَ مِنَ العُلَماءِ[5].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ شِدَّةُ فَرَحِ سارَةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).
(٣) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

امرأةِ إبراهيمَ، حتَّى جرَى منها ما جرَى؛ مِن صَكِّ وَجْهِها، وصَيحَتِها غيرِ المَعهودةِ[١].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ مُتضَمِّنٌ لإثباتِ صِفةِ القَولِ له تعالى[٢].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أضاف الرُّبوبيَّةَ هنا إلى هذه المرأةِ العَجوزِ العَقيمِ الكَبيرةِ؛ إشارةً إلى أنَّ هذا مِن عنايةِ اللهِ بها؛ لأنَّ إضافةَ الرُّبوبيَّةِ إلى الشَّخصِ المعيَّنِ تكونُ ربوبيَّةً خاصَّةً، وهي تقتضي عنايةً خاصَّةً، والرُّبوبيَّةُ العامَّةُ تكونُ لكلِّ أحدٍ، فاللهُ ربُّ كلِّ شيءٍ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]؛ الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[٣].

٢٠- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ القُرآنُ إذا جمَعَ اللهُ فيه بيْنَ هذَينِ الاسمَينِ الكريمَينِ: العَليمِ والحَكيمِ؛ يُقَدَّمُ غالبًا العَليمُ، لكِنْ هنا قُدِّمَ الحَكيمُ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضي هنا تقديمَ الحِكمةِ على العِلمِ. والحِكمةُ هنا في شَيئَينِ:

أوَّلًا: تأخيرُ الوِلادةِ بالنِّسبةِ لهذه المرأةِ: أنَّ اللهَ لم يُؤَخِّرْ ولادتَها إلى أنْ تَبلُغَ العَجزَ إلَّا لحِكمةٍ.

ثانيًا: كَونُها وَلَدتْ بعدَ أنْ أَيِسَت واعتقَدَت أنَّها عقيمٌ، فهاهنا حِكمتانِ: حِكمةٌ سابِقةٌ، وحِكمةٌ لاحِقةٌ؛ ومِن ثَمَّ قُدِّمَ اسمُ «الحكيم» على اسمِ «العليم»[٤].

٢١- قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مُتضَمِّنٌ لإثباتِ صِفةِ الحِكمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٩).

والعِلمِ اللَّذَينِ هما مَصدَرُ الخَلقِ والأمرِ؛ فجَميعُ ما خَلَقَه سُبحانَه صادِرٌ عن عِلمِه وحِكمتِه، وكذلك أمْرُه وشَرعُه مَصدَرُه عن عِلمِه وحِكمتِه، والعِلمُ والحِكمةُ مُتضَمِّنانِ لجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ؛ فالعِلمُ يتضَمَّنُ الحياةَ ولوازِمَ كمالِها مِنَ القَيُّوميَّةِ والقُدرةِ والبَقاءِ، والسَّمعِ والبَصَرِ وسائِرِ الصِّفاتِ الَّتي يَستلزِمُها العِلمُ التَّامُّ، والحِكمةُ تتضَمَّنُ كَمالَ الإرادةِ مِن العَدلِ، والرَّحمةِ، والإحسانِ، والجُودِ والبِرِّ، ووَضْعِ الأشياءِ في مَواضِعِها على أحسَنِ وُجوهِها، وتتضَمَّنُ إرسالَ الرُّسلِ، وإثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ. كُلُّ هذا يُعلَمُ مِن اسمِه الحَكيمِ كما هي طريقةُ القُرآنِ في الاستِدلالِ على هذه المطالِبِ العَظيمةِ بصِفةِ الحِكمةِ، والإنكارِ على مَن يَزعُمُ أنَّه خَلَق الخَلقَ عَبَثًا وسُدًى وباطِلًا؛ فحينَئِذٍ صِفةُ حِكمتِه تتضَمَّنُ الشَّرْعَ والقَدَرَ، والثَّوابَ والعِقابَ[1].

٢٢- قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اختَصَّت هذه القِصَّةُ بذِكرِ هذَينِ الاسمَينِ؛ لاقتِضائِها لهما؛ لتعَجُّبِ النُّفوسِ مِن توَلُّدِ مولودٍ بيْنَ أبوَينِ لا يُولَدُ لِمثلِهما عادةً، وخَفاءِ العِلمِ بسَبَبِ هذا الإيلادِ، وكَونِ الحِكمةِ اقتَضَت جريانَ هذه الولادةِ على غَيرِ العادةِ المعروفةِ؛ فذَكَر في الآيةِ اسمَ العِلمِ والحِكمةِ المتضَمِّنَ لعِلْمِه سُبحانَه بسَبَبِ هذا الخَلقِ وغايتِه، وحِكمتِه في وَضْعِه مَوضِعَه مِن غيرِ إخلالٍ بموجَبِ الحِكمةِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وغُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن خِطابِ المُنذَرينَ مُواجَهةً إلى أُسلوبِ التَّعريضِ؛ تَفَنُّنًا بذِكرِ قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لِتَكونَ تَوطئةً للمَقصودِ مِن ذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

ما حَلَّ بقَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ حينَ كذَّبوا رَسولَهم؛ فالمقصودُ هو ما بعدَ قولِه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[1] [الذاريات: ٣١].

- وكان في الابتِداءِ بذِكرِ قَومِ لُوطٍ في هذه الآيةِ على خِلافِ التَّرتيبِ الَّذي جَرَى عليه اصطلاحُ القرآنِ في تَرتيبِ قَصَصِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ بابتدائِها بقَومِ نُوحٍ، ثمَّ عادٍ، ثمَّ ثَمودَ، ثمَّ قَومِ لوطٍ؛ أنَّ المناسَبةَ للانتِقالِ مِن وَعيدِ المشركينَ إلى العِبرةِ بالأُمَمِ الماضيةِ: أنَّ المشركينَ وُصِفوا آنِفًا بأنَّهم في غَمْرةٍ ساهونَ، فكانوا في تلك الغَمْرةِ أشبَهَ بقَومِ لوطٍ؛ إذ قالَ اللهُ فيهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، ولأنَّ العذابَ الَّذي عُذِّبَ به قومُ لوطٍ كان حِجارةً أُنزِلَت عليهم مِن السَّماءِ مُشبَّهةً بالمَطرِ، وقد سُمِّيَت مَطَرًا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقولِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، ولأنَّ في قصَّةِ حُضورِ الملائكةِ عندَ إبراهيمَ وزَوجِه عِبرةً بإمكانِ البَعثِ؛ فقد تَضمَّنَت بِشارَتَها بمَولودٍ يُولَدُ لها بعدَ اليأسِ مِن الوِلادةِ، وذلك مِثلُ البعثِ بالحياةِ بعدَ المَماتِ[2].

وقيل: بدأ بقِصَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإن كانت مُتأخِّرةً عن قِصَّةِ عادٍ؛ هزًّا للعَرَبِ؛ إذ كان أباهم الأعلى، ولِكَونِ الرُّسُلِ الَّذين وَفَدوا عليه جاؤوا بإهلاكِ قَومِ لُوطٍ إذ كَذَّبوه؛ ففيه وعيدٌ للعَرَبِ، وتهديدٌ واتِّعاظٌ، وتَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما يَجري عليه مِن قَومِه[3].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ؛ لتَجتمِعَ نفْسُ المخاطَبِ، كما تَبدأُ المرءَ إذا أردتَ أنْ تُحدِّثَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤).

بعجيبٍ، فتُقرِّرَه هلْ سمِعَ ذلك أم لا؟ فكأنَّك تَقْتضي أنْ يقولَ: لا، ويَطلُبَ منك الحديثَ. وفيه تَفخيمٌ للحديثِ، وتَنبيهٌ على أنَّه ليس مِن عِلمِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما عرَفَه بالوحْيِ[1].

- ولَمَّا وُجِّهَ الخِطابُ ﴿هَلْ أَتَاكَ ...﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عُرِفَ أنَّ المقصودَ الأصليَّ تَسليتُه على ما لَقِيَه مِن تَكذيبِ قَومِه، ويَتبَعُ ذلك تَهديدٌ وتَعريضٌ بالسَّامِعينَ حينَ يُقرَأُ عليهم القرآنُ -أو يَبْلُغُهم- بأنَّهم صائِرونَ إلى مِثلِ ذلك العذابِ؛ لاتِّحادِ الأسبابِ[2].

- ووَصْفُ الضَّيفِ بأنَّهم مُكرَمونَ كَلامٌ مُوجَّهٌ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ ذلك لإكرامِ إبراهيمَ إيَّاهم كما جرَتْ عادتُه مع الضَّيفِ، وهو الذي سَنَّ القِرَى[3]، والمقصودُ: أنَّ اللهَ أكرَمَهم برفْعِ الدَّرجةِ؛ لأنَّ الملائكةَ مُقرَّبون عندَ اللهِ تعالى[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿سَلَامًا﴾ مَصدرٌ سادٌّ مَسدَّ الفِعلِ مُستغنًى به عنه، وأصلُه: نُسلِّمُ عليكم سلامًا، وأمَّا ﴿سَلَامٌ﴾ فمَعدولٌ به إلى الرَّفعِ على الابتِداءِ، وخبَرُه مَحذوفٌ، مَعناهُ: عليكم سلامٌ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ السَّلامِ، كأنَّه قصَدَ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧).

(٣) القِرَى: ضِيافةُ الضَّيفِ والإحسانُ إليه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨).

يُحيِّيَهم بأحسَنَ ممَّا حَيَّوهُ به؛ فإنَّ تحيتَهم باسمٍ مَنصوبٍ مُتضمِّنٌ لجُملةٍ فِعليَّةٍ، تقديرُه: سلَّمْنا عليك سلامًا. وتَحيةَ إبراهيمَ لهم باسمٍ مرفوعٍ مُتضمِّنٌ لجُملةٍ اسميَّةٍ، تقديرُه: سلامٌ دائمٌ، أو ثابتٌ أو مستقِرٌّ عليكم، ولا ريبَ أنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ تَقتضي الثُّبوتَ واللُّزومَ، والفِعليَّةَ تقتضي التَّجدُّدَ والحدوثَ؛ فكانتْ تحيةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أكملَ وأحسنَ[1].

- وفي قولِه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، فقيلَ: إنَّ الَّذي يُناسِبُ حالَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه لا يُخاطِبُهم بذلك؛ إذ فيه مِن عدَمِ الأُنسِ ما لا يَخفَى، بل يَظهَرُ أنَّه يكونُ التَّقديرُ: هؤلاء قومٌ مُنكَرونَ، وقال ذلك مع نفْسِه أو لِمَن كان معَه مِن أتْباعِه وغِلمانِه، بحيثُ لا يَسمَعُ ذلك الأضيافُ[2]. فحذَفَ المبتدَأَ، ولم يُواجِهْهم بهذا؛ لِما فيه مِن الاستِيحاشِ. وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُواجِهُ أحدًا بما يَكرَهُه، بل يقولُ: وما بالُ أقْوامٍ يَقولون كذا ويَفعَلون كذا[3]؟! وأيضًا قولُه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فيه حذْفُ فاعِلِ الإنكارِ، وهو الَّذي كان أنكَرَهم، كما قال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠]، ولا ريبَ أنَّ قولَه: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ألطَفُ مِن أنْ يقولَ: أنكَرْتُكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيِّم (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٥).

(٣) مِن ذلك قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما بالُ أقوامٍ يَشترِطونَ شُروطًا ليست في كتابِ اللهِ)). [البخاري (٢٧٣٥)، ومسلم (١٥٠٤)].

وقولُه: ((ما بالُ أقوامٍ يَرْفَعونَ أبصارَهُم إلى السَّماءِ في صَلاتِهم)). [البخاري (٧٥٠)].

وقولُه: ((ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا)). [مسلم (١٤٠١)].

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦، ٦٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ؛ مُفصِحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذِفَت؛ ثِقةً بدَلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بكَمالِ سُرعةِ المجيءِ بالطَّعامِ، أيْ: فذَبَح عِجلًا فحَنَذَه، فجاءَ به(١).

- ومَجيءُ الفاءِ لعطفِ أفعالِ ﴿فَرَاغَ﴾ ﴿فَجَآءَ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الأفعالَ وقعَتْ في سُرعةٍ، والإسراعُ بالقِرى مِن تَمامِ الكرَمِ(٢).

- الهمزةُ في قولِه: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ للعرْضِ والحثِّ على الأكْلِ على طَريقةِ الأدَبِ، إنْ قالَه أوَّلَ ما وضَعَه، أو للاستِفهامِ؛ للإنكارِ إنْ قاله حِينَما رَأى إعْراضَهم، وكأنَّه ثَمَّ مَحذوفٌ تَقديرُه: فامتَنَعوا مِن الأكْلِ، فأنكَرَ عليهم ترْكَ الأكلِ، فقال: ألَا تأكُلون(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ جاء قولُه هنا: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بغيرِ فاءٍ، وفي سُورةِ (الصَّافَّاتِ) جاء قولُه: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بالفاءِ؛ وذلك لأنَّ ما في سُورةِ (الصَّافَّاتِ) جُملةٌ اتَّصَلَت بخمْسِ جُمَلٍ كلُّها مَبْدوءةٌ بالفاءِ على التَّوالي، وهي: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ...﴾ الآياتِ إلى قولِه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الصافات: ٨٧- ٩١]، وفي (الذَّارياتِ) مُتَّصِلٌ بمحذوفٍ -على قولٍ- تَقديرُه: فقَرَّبَه إليْهم فلمْ يأْكُلوا، فلمَّا رآهُم لا يأْكُلون

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠).

قال ابن عاشور: («ألَا» كَلمةٌ واحدةٌ، وهي حرْفُ عرْضٍ، أي: رَغْبةٍ في حُصولِ الفِعلِ الَّذي تَدخُلُ عليه. وهي هنا مُتعيِّنةٌ للعَرْضِ؛ لوُقوعِ فِعلِ القولِ بَدلًا مِن فِعلِ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، ولا يَحسُنُ جَعْلُها كَلمتينِ مِن همزةِ استِفهامٍ للإنكارِ مع «لا» النَّافيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩، ٣٦٠).

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ فجاء في كلِّ مَوضِعٍ بما يُلائِمُه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فَصيحةٌ؛ لإفصاحِها عن جُملةٍ مُقدَّرةٍ يَقْتضيها ربْطُ المعنى، أي: فلمْ يَأْكُلوا فأوجَسَ منهم خِيفةً، وقد صُرِّح بذلك في سُورةِ (هودٍ): ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ -أي: إلى العِجلِ- ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[٢] [هود: ٧٠].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

- الإشارةُ في قولِ الملائكةِ: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ إلى الحادثِ، وهو التَّبشيرُ بغُلامٍ، والكافُ للتَّشبيهِ، أي: مِثلَ قَولِنا قال ربُّكِ، فنحن بلَّغْنا ما أُمِرْنا بتَبليغِه[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ تَعليلٌ لكَلامِ الملائكةِ المُقتضي أنَّ الملائكةَ ما أخبَروا إبراهيمَ إلَّا تَبليغًا مِن اللهِ، وأنَّ اللهَ صادقٌ وَعْدَه، وأنَّه لا مَوقِعَ لتعجُّبِ امرأةِ إبراهيمَ؛ لأنَّ اللهَ حكيمٌ يُدبِّرُ تكوينَ ما يُريدُه، وعليمٌ لا يَخفَى عليه حالُها مِن العَجْزِ والعُقمِ[٤].

- ولم تكُنْ هذه المُفاوَضةُ معَ سارةَ فقطْ، بلْ معَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أيضًا حسَبَما جاء في سُورةِ (الحِجرِ)، وإنَّما لمْ يُذكَرْ هاهُنا اكتِفاءً بما ذُكِرَ هناك، كما أنَّه لم يُذكَرْ هناك سارةُ اكتِفاءً بما ذُكِرَ هاهنا وفي سُورة (هُودٍ)[٥].

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١).

الآيات (٣١-٣٧)

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا
وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَطْبُكُمْ﴾: أي: أمرُكم وشأنُكم المُهِمُّ، وأصلُ (خطب) هنا: يدُلُّ على الكلامِ بيْنَ اثنَينِ، وسُمِّيَ بذلك لِمَا يَقَعُ فيه مِن التَّخاطُبِ والمُراجَعةِ(١).

﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أي: مُعلَّمةً؛ مِن السِّيماءِ: أي: العلَامةِ(٢).

﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: أي: المُتعَدِّينَ حُدودَ اللهِ، والسَّرَفُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُه: يدُلُّ على تعدِّي الحَدِّ(٣).

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا عرَف حقيقةَ ضيوفِه، وأنَّهم ملائكةٌ؛ أخَذ يسألُهم: قال لهم: فما الشَّأنُ الخَطيرُ الَّذي أرسَلَكم اللهُ مِن أجْلِه؟ قالوا له: إنَّا أُرسِلْنا إلى قومٍ كافِرينَ -وهم قَومُ لُوطٍ عليه السَّلامُ-؛ لِنُمطِرَ عليهم حِجارةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

مِن طينٍ، مُعلَّمةً عندَ ربِّك لِلَّذين تعَدَّوا حُدودَ اللهِ.

ثمَّ يقولُ تعالى: فأخرَجْنا مَن كان في هذه القَريةِ مِنَ المُؤمِنينَ، فما وَجَدْنا في تلك القَريةِ غَيرَ أهلِ بَيتٍ واحِدٍ مِن المُسلِمينَ، وأبقَيْنا في تلك القَريةِ عَلامةً دالَّةً على سُوءِ عاقِبةِ أهلِها، للَّذين يَخافونَ عَذابَ اللهِ؛ لِيَتَّعِظوا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن مُحاورَتِهم فيما ذُكِرَ في هذه الآيةِ، وما ورَدَ ذِكْرُه في آياتٍ أُخرى أنَّهم مَلائكةٌ مُرسَلونَ مِن عندِ اللهِ؛ سأَلَهم عن الشَّأنِ الَّذي أُرسِلوا مِن أجْلِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان الخَليلُ عليه السَّلامُ أعلَمَ أهلِ زَمانِه بالأُمورِ الإلهيَّةِ؛ عَلِمَ أنَّ اجتِماعَ الملائِكةِ على تلك الهَيئةِ الَّتي يَراهم فيها ليس لهذه البِشارةِ فقط؛ فلذلك استأنفَ تعالى الجوابَ لِمَن كان كأنَّه قال: ما كان مِن حالِه وحالِهم بعدَ هذا؛ بقَولِه[2]:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٣١﴾.

أي: قال إبراهيمُ للمَلائكةِ بعدَ تَلَقِّي بِشارتِهم له بالوَلَدِ: فما الشَّأنُ الخَطيرُ الَّذي أرسَلَكم اللهُ مِن أجْلِه[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾.

أي: قالوا له: إنَّا أرسَلَنا اللهُ إلى قَومٍ كافِرينَ فاسِدينَ، وهم قَومُ لُوطٍ عليه السَّلامُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ * وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤].

﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾.

أي: لنُمطِرَ عليهم مِنَ السَّماءِ حِجارةً أصلُها مِن طينٍ، فنَرجُمَهم بها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا

= (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

قال ابنُ عطية: (الخَطبُ: الأمرُ المُهِمُّ، وقَلَّما يُعبَّرُ به إلَّا عن الشَّدائدِ والمكارِه، حتَّى قالوا: خُطوبُ الزَّمانِ، ونحوُ هذا، فكأنَّه يقولُ لهم: ما هذه الطَّامَّةُ الَّتي جِئتُم لها؟). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (قد عَلِمَ إبراهيمُ أنَّ نُزولَ الملائِكةِ بتلك الصُّورةِ لا يكونُ لمجَرَّدِ بشارتِه بابنٍ يُولَدُ له ولِزَوجِه؛ إذْ كانت البِشارةُ تَحصُلُ له بالوَحيِ؛ فكان مِن عِلمِ النُّبُوَّةِ أنَّ إرسالَ الملائكةِ إلى الأرضِ بتلك الصُّورةِ لا يكونُ إلَّا لخَطبٍ! قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤٩).

كَانُوا۟ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾.

أي: حِجارةً مُعلَّمةً عندَ اللهِ تعالى، قد أُعِدَّت لأولئك القَومِ الَّذين تعَدَّوا حُدودَ اللهِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُهلِكَ المُجرِمينَ، مَيَّزَ المؤمِنينَ بقَولِه تعالى(٢):

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨).

قال القرطبي: (﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمةً. قيل: كانت مُخطَّطةً بسَوادٍ وبَياضٍ. وقيل: بسَوادٍ وحُمرةٍ. وقيل: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مَعروفةً بأنَّها حِجارةُ العذابِ. وقيل: على كُلِّ حَجَرٍ اسمُ مَن يَهلِكُ به. وقيل: عليها أمثالُ الخواتيمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨).

وقد ذهب ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين: إلى أنَّ المعنى أنَّ كلَّ حجرٍ عليه اسمُ صاحِبِه. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٠).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: الرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: أنَّها بجُملتِها مَعلومةٌ عندَ رَبِّك لهذا المعنى، مُعَلَّمةٌ له، لا أنَّ كُلَّ واحدٍ منها له علامةٌ خاصَّةٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٢).

أي: فلَمَّا أرَدْنا إهلاكَ قَومِ لُوطٍ أخرَجْنا مَن كان في بَلَدِهم مِنَ المُؤمِنينَ باللهِ تعالى[1].

كما قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٩، ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فما وَجَدْنا في تلك القَريةِ غَيرَ أهلِ بَيتٍ واحِدٍ مِن أهلِ الإسلامِ[2].

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إبقاءُ آثارِ المُهلَكينَ أدَلَّ على قُدرةِ مَن أهلَكَهم؛ قال[3]:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: وأبقَيْنا في تلك القَريةِ عَلامةً دالَّةً على سُوءِ عاقِبةِ أهلِها، للَّذين يخافونَ عَذابَ اللهِ المُؤلِمَ المُوجِعَ، فيَستَدِلُّونَ بذلك على قُدرةِ اللهِ تعالى وانتِقامِه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٦).

قال الواحدي: (قال مجاهِدٌ ومُقاتِلٌ والمفَسِّرونَ: يعني: لوطًا وبِنتَيه). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٥٣).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٧).

المُجرِمينَ، ويَعتَبِرونَ ويتَّعِظونَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أنَّه إنَّما سألَهم بعدَ أنْ قَراهم؛ جَريًا على سُنَّةِ الضِّيافةِ: ألَّا يُسألَ الضَّيفُ عن الغَرَضِ الَّذي أورَدَه ذلك المَنزِلَ إلَّا بعدَ استِعدادِه للرَّحيلِ؛ كيلا يَتوهَّمَ سآمةَ مُضَيِّفِه مِن نُزولِه به، ولِيُعينَه على أمرِه إن كان مُستطيعًا[(٢)]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أتَى الملائكةُ هنا بما هو مِن آدابِ الصَّديقِ الَّذي لا يُسِرُّ عن الصَّديقِ شيئًا، لا سيَّما وكان ذلك بإذنِ اللهِ تعالى لهم في إطلاعِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ على إهلاكِهم، وجَبْرِ قَلْبِه بتَقديمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥١).

قال ابن كثير: (أي: جعَلْناها عِبرةً لِمَا أنزَلْنا بهم مِنَ العَذابِ والنَّكالِ، وحِجارةِ السِّجِّيلِ، وجعَلْنا مَحَلَّتَهم بُحيرةً مُنتِنةً خَبيثةً؛ ففي ذلك عِبرةٌ للمُؤمنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾: أنَّ القَريةَ بَقِيَتْ خرابًا لم تَعمُرْ، فكان ما فيها من آثارِ الخَرابِ آيةً للَّذين يخافونَ عَذابَ اللهِ؛ قال تعالى في سورةِ «الحِجْرِ»: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

البِشارةِ بأبي الأنبياءِ إسحاقَ عليه السَّلامُ[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ ألَّا يَجزَعَ إذا دَعَا فلم يَستجِبْ لدعوته إلَّا القليلُ؛ فالرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد يبقَونَ في أُمَمِهم دُهورًا كثيرةً ولا يَتَّبِعُهم إلَّا القَليلُ، هذا لوطٌ عليه السَّلامُ ظلَّ يدعو قَريةً كامِلةً إلى توحيدِ اللهِ وإلى تَركِ الفاحشةِ فما اتَّبَعَه مِن القَريةِ أحَدٌ، وتَخَلَّفَ عن دَعوتِه مَن تَخَلَّفَ، حتَّى أهلُ بيتِه لم يخلصوا؛ فيهم مَن لم يؤمِنْ به عليه السَّلامُ! قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أنَّ الغَيبَ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى؛ فهذا نبيُّ اللهِ إبراهيمُ -وهو مَن هو- ذَبَحَ عِجْلَه، وتَعِبَ هو وامرأتُه بإنضاجِ العِجلِ وحَمْلِه -وذلك على أنَّه هُيِّئ بعدَ مجيئِهم-، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، ولم يَدْرِ أنَّ الَّذين يُنضِجُ لهم عِجْلَه مَلائِكةٌ كِرامٌ لا يأكُلونَ! ومِن أجْلِ عَدَمِ عِلمِه بذلك لَمَّا لم يأكلوا خاف منهم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وما هذا إلَّا لأنَّه لا يَعلَمُ بحَقيقتِهم، وما درَى عن الأمرِ حتَّى أخبَروه، فسألَهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كانت الحِجارةُ مُسَوَّمةً للمُسرِفينَ، فكيف قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ...﴾ مع أنَّ المُسرِفَ غيرُ المُجرِمِ في اللُّغةِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٨٨).

الجوابُ: المُجرِمُ هو الآتي بالذَّنْبِ العَظيمِ؛ لأنَّ الجُرمَ فيه دَلالةٌ على العِظَمِ، ومنه: جِرْمُ الشَّيءِ؛ لعَظَمةِ مِقدارِه، والمُسرِفُ هو الآتي بالكَبيرةِ، ومَن أسرف ولو في الصَّغائرِ يَصيرُ مُجرِمًا؛ لأنَّ الصَّغيرَ إلى الصَّغيرِ إذا انضَمَّ صار كبيرًا، ومَن أجرَمَ فقد أسرَفَ؛ لأنَّه أتى بالكَبيرةِ ولو دَفعةً واحِدةً؛ فالوَصفانِ اجتَمَعا فيهم[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ سُؤالٌ: أيُّ حاجةٍ إلى قَومٍ مِن الملائِكةِ، وواحِدٌ منهم كان يَقلِبُ المدائِنَ برِيشةٍ مِن جَناحِه؟!

الجوابُ مِن جِهتَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ المَلِكَ القادِرَ قد يأمُرُ الحَقيرَ بإهلاكِ الرَّجُلِ الخَطيرِ، ويأمُرُ الرَّجُلَ الخَطيرَ بخِدمةِ الشَّخصِ الحَقيرِ؛ إظهارًا لِنَفاذِ أمْرِه، فحيث أهلَكَ الخَلقَ الكَثيرَ بالقُمَّلِ والجَرادِ والبَعوضِ، بل بالرِّيحِ الَّتي بها الحياةُ؛ كان أظهَرَ في القُدرةِ، وحيث أمَرَ آلافًا مِنَ الملائكةِ بإهلاكِ أهلِ بَدرٍ مع قِلَّتِهم، كان أظهَرَ في نفاذِ الأمرِ.

الثَّاني: أنَّ مَن يكونُ تحتَ طاعةِ مَلِكٍ عَظيمٍ، ويَظهَرُ له عَدُوٌّ، ويَستعينُ بالمَلِكِ فيُعينُه بأكابِرِ عَسكَرِه؛ يكونُ ذلك تعظيمًا منه له، وكُلَّما كان العَدُوُّ أكثَرَ، والمَدَدُ أوفَرَ؛ كان التَّعظيمُ أتَمَّ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ استُدِلَّ به على رَجْمِ اللَّائِطِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٨).

قال الشنقيطي: (وحجَّةُ مَن قال: إنَّ قتلَه بالرَّجمِ هو ... روايةُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه يُرجَمُ، وما ذكره البَيْهَقيُّ وغيرُه عن عليٍّ أنَّه رجَم لوطيًّا، ويُستأنَسُ لذلك بأنَّ الله رمَى أهلَ تلك الفاحشةِ بحجارةِ السِّجِّيلِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٥). ويُنظر: ((السنن الكبرى)) =

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ متى اتَّصَلت «أَرسَلَ» بـ «على» فهي بمعنى المُبالَغةِ في المُباشَرةِ والعَذابِ، ومتى اتَّصَلت بـ «إلى» فهي أخَفُّ، وانظُرْ ذلك تَجِدْه مُطَّرِدًا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٖ﴾ سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في تأكيدِ الحِجارةِ بكَونِها مِن طِينٍ؟

الجوابُ: لأنَّ بَعضَ النَّاسِ يُسَمِّي البَرَدَ حِجارةً؛ فقَولُه: ﴿مِّن طِينٖ﴾ يَدفَعُ ذلك التَّوهُّمَ[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ لَمَّا كانوا قد رأَوُا اهتِمامَه عليه السَّلامُ بالعِلمِ بخَبَرِهم؛ خَشيةً مِن أن يَكونوا أُرسِلوا لِعَذابِ أحَدٍ يَعِزُّ عليه أمْرُه؛ أمَّنوا خَوفَه بوَصفِ الإحسانِ، فقالوا: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: المُحسِنِ إليك بهذه البِشارةِ وغَيرِها[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بيانُ أنَّه ببَركةِ المُحسِنِ يَنجو المُسيءُ؛ فإنَّ القَريةَ ما دام فيها المؤمِنُ لم تَهلِكْ[٤].

= للبيهقي (٨/ ٤٠٤).

وقال ابن كثير: (وقد ذهَب الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله إلى أنَّ اللَّائطَ يُلْقى من شاهِقٍ، ويُتبَعُ بالحجارةِ، كما فُعِل بقَومِ لوطٍ. وذهب آخرون من العلماءِ إلى أنَّه يُرجَمُ، سواءٌ كان مُحصَنًا أو غيرَ مُحصَنٍ. وهو أحدُ قَولَي الشَّافعيِّ رحمه الله... وقال آخَرون: هو كالزَّاني؛ فإن كان مُحصَنًا رُجِم، وإن لم يكُنْ مُحصَنًا جُلِد مِئةَ جَلْدةٍ. وهو القولُ الآخَرُ للشَّافعيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عَبَّرَ عنهم بـ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إيمانَهم هو سَبَبُ نَجاتِهم[١].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فُرِّقَ بيْنَ الإسلامِ والإيمانِ هنا لِسِرٍّ اقتضاه الكلامُ؛ فإنَّ الإخراجَ هنا عبارةٌ عن النَّجاةِ، فهو إخراجُ نجاةٍ مِن العذابِ، ولا ريبَ أنَّ هذا مختَصٌّ بالمؤمِنينَ المتَّبِعينَ للرُّسُلِ ظاهِرًا وباطنًا، وقولُه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لَمَّا كان الموجودونَ مِن المخرَجينَ أوقَعَ اسمَ الإسلامِ عليهم؛ لأنَّ امرأةَ لوطٍ كانت مِن أهلِ هذا البيتِ، وهي مُسلِمةٌ في الظَّاهِرِ؛ فكانت في البيتِ بينَ الموجودينَ، لا في القَومِ النَّاجِينَ، وقد أخبَرَ سُبحانَه عن خيانةِ امرأةِ لوطٍ، وخيانتُها أنَّها كانت تدُلُّ قومَها على أضيافِه وقلْبُها معهم، وليست خيانةَ فاحشةٍ؛ فكانت مِن أهلِ البيتِ المُسلِمينَ ظاهرًا، وليست مِن المؤمِنينَ النَّاجِينَ، وبهذا خَرَجَ الجوابُ عن السُّؤالِ المشهورِ وهو: أنَّ الإسلامَ أعمُّ مِن الإيمانِ، فكيفَ استثنَى الأعمَّ مِن الأخصِّ، وقاعدةُ الاستثناءِ تقتضي العَكسَ[٢]؟ والمقصودُ أنَّ امرأةَ لوطٍ لم تكُنْ مؤمنةً، ولم تكُنْ مِن النَّاجينَ المخرَجينَ، فلم تدخُلْ في قولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانت مِن أهلِ البيتِ المسلمينَ، وممَّن وُجِد فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. وبهذا تظهَرُ حِكمةُ القرآنِ حيثُ ذكَر الإيمانَ لَمَّا أخبَر بالإخراجِ، وذكَر الإسلامَ لما أخبَر بالوجودِ[٣].

١١- الإسلامُ والإيمانُ: تارةً يُرادُ بالإسلامِ كُلُّ الدِّينِ فيَدخُلُ فيه الإيمانُ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فهذا يَشملُ الإسلامَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٤).

الَّذي هو الشَّرائِعُ الظَّاهِرةَ، والإيمانَ الَّذي هو أعمالُ القُلوبِ وأقوالُ القُلوبِ، وكذلك إذا أُطلِقَ الإيمانُ، مِثلُ قَولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] يَشملُ حتَّى المُسلِمينَ، أمَّا إذا قيل: مُؤمِنٌ ومُسلِمٌ؛ فالإيمانُ في القَلبِ، والإسلامُ في الجوارحِ، والإيمانُ أكمَلُ مِن الإسلامِ، والدَّليلُ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ويدُلُّ عليه أيضًا قولُ الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنَّ اللهَ أنجى لوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه، وكانت امرأتُه معه في البَيتِ مُسلِمةً، ظاهِرُها أنَّها مُؤمِنةٌ باللهِ ورَسولِه، لكِنَّها تُبطِنُ الكُفرَ؛ فسَمَّى اللهَ البَيتَ بَيتَ إسلامٍ، سَمَّى اللهُ أهلَه مُسلِمينَ كُلَّهم، ولكِنَّه لم يَنجُ منه إلَّا المُؤمِنُ؛ لأنَّ امرأةَ لُوطٍ -كما ذكَرَ اللهُ في القُرآنِ- قد خانَتْه، فكَفَرَت كُفرًا لم يَعلَمْ به؛ فصارتْ بذلك مِنَ المُنافِقينَ.

وعلى هذا فنَقولُ: كُلُّ مُؤمِنٍ مُسلِمٌ دونَ عَكسٍ، وليس كُلُّ مُسلِمٍ مُؤمِنًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾(١) [الحجرات:١٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الكُفرَ إذا غَلَب، والفِسقَ إذا فشا؛ لا تَنفَعُ معه عِبادةُ المُؤمِنينَ، بخِلافِ ما لو كان أكثَرُ الخَلقِ على الطَّريقةِ المُستَقيمةِ، وفيهم شِرْذِمةٌ يَسيرةٌ يَسرِقونَ ويَزنُونَ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أبقَى آياتٍ -وهي: العَلاماتُ والدَّلالاتُ- فدَلَّ ذلك على أنَّ ما يَخُصُّه من أخبارِ المؤمِنينَ، وحُسْنِ عاقبتِهم في الدُّنيا، وأخبارِ الكُفَّارِ، وسُوءِ عاقبتِهم في

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

الدُّنيا: هو مِن بابِ الآياتِ والدَّلالاتِ الَّتي يُستدَلُّ بها ويُعتبَرُ بها عِلمًا ووَعظًا؛ فيُفيدُ مَعرِفةَ صِحَّةِ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ، ويُفيدُ التَّرغيبَ والتَّرهيبَ، ويدُلُّ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى يرضَى عن أهلِ طاعتِه ويُكرِمُهم، ويَغضَبُ على أهلِ مَعصيتِه ويُعاقِبُهم(١).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دَليلٌ على أنَّ آياتِ اللهِ سُبحانَه، وعَجائِبَه الَّتي فَعَلَها في هذا العالَمِ، وأبقَى آثارَها دالَّةً عليه وعلى صِدْقِ رُسُلِه: إنَّما يَنتفِعُ بها مَن يُؤمِنُ بالمَعادِ، ويخشَى عذابَ اللهِ تعالى(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- حُكِيَ فِعلُ القولِ ﴿قَالَ﴾ بدُونِ عاطفٍ؛ لأنَّه في مُقاوَلةِ مُحاوَرةٍ بيْنَه وبيْنَ ضَيفِه(٣).

- الفاءُ فيما حُكِيَ مِن كَلامِ إبراهيمَ في قولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فَصيحةٌ مُؤْذِنةٌ بكلامٍ مَحذوفٍ ناشئٍ عن المُحاوَرةِ الواقعةِ بيْنَه وبيْنَ ضَيفِه، وهو مِن عطْفِ كَلامٍ على كَلامِ مُتكلِّمٍ آخَرَ؛ فإبراهيمُ خاطَبَ الملائكةَ بلُغتِه ما يُؤدَّى مِثلُه بفَصيحِ الكلامِ العربيِّ بعِبارةِ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وتَقديرُ المَحذوفِ: إذ كُنتُم مُرسَلينَ مِن جانبِ اللهِ تعالى، فما خطْبُكم الَّذي أُرسِلْتُم مِن أجْلِه(٤)؟

- وخاطَبَهم بقولِه: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ لأنَّه لا يَعرِفُ ما يُسمِّيهم به إلَّا وصْفَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٤).

أنَّهم المُرسَلون، والمُرسَلون مِن صِفاتِ الملائكةِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾

- الإرسالُ الَّذي في قَولِه: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ مُستعمَلٌ في الرَّمْيِ، كما يُقال: أرسَلَ سَهمَه على الصَّيدِ(٢).

- قولُه: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ عبَّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كثرةِ إحسانِه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه إنَّما أمَرَه بالإنذارِ رحمةً لأمَّتِه التي جعَلَها خيرَ الأُمَم، وسيجعَلُها أكثَرَ الأمَمِ، ولا يُهلِكُها كما أهلَكَهم(٣).

- قولُه: ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المسرِفون: المُفرِطون في العِصيانِ، وذلك بكُفْرِهم وشُيوعِ الفاحشةِ فيهم؛ فالمُسرِفون القومُ المُجرِمون، وعُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الوصْفِ الظَّاهِرِ ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ لتَسجيلِ إفراطِهم في الإجرامِ(٤).

- وسمَّاهم مُسرِفينَ، كما سمَّاهم عادِينَ في قولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٦]؛ لإسْرافِهم وعُدوانِهم في عَمَلِهم، حيثُ لم يَقنَعوا بما أُبيحَ لهم(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ هذه الجُملةُ ليستْ مِن حِكايةِ كَلامِ الملائكةِ، بلْ هي تَذييلٌ لقصَّةِ مُحاوَرةِ الملائكةِ مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

- والفاءُ في ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ هو ما ذُكِرَ في سُورةِ (هُودٍ) مِن مَجيءِ الملائكةِ إلى لُوطٍ عليه السَّلامُ وما حدَثَ بيْنه وبيْن قَومِه، فالتَّقديرُ: فحَلُّوا بقَرْيةِ لُوطٍ، فأمَرْناهم بإخراجِ مَن كان فيها مِن المؤمنينَ، فأخْرَجوهم[١].

- وضَميرُ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ضَميرُ عظَمةِ الجَلالةِ. وإسنادُ الإخراجِ إلى اللهِ؛ لأنَّه أمَرَ به الملائكةَ أنْ يُبلِّغوه لُوطًا عليه السَّلامُ، ولأنَّ اللهَ يسَّرَ إخراجَ المؤمنينَ ونَجاتَهم؛ إذ أخَّرَ نُزولَ الحجارةِ إلى أنْ خرَجَ المؤمِنون[٢].

- قولُه: ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أيْ: في قُرى قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، وأضْمَرَها بغَيرِ ذِكرٍ؛ لشُهْرتِها، ولكَونِها مَعلومةً مِن آياتٍ أُخرى، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾[٣] [الفرقان: ٤٠].

- و(مِن) في ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ صِلةٌ؛ لتأكيدِ النَّفيِ[٤].

- قولُه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ التَّرْكُ: مُفارَقةُ شَخصٍ شيئًا حصَلَ معه في مكانٍ، ففارَقَ ذلك المكانَ، وأبْقَى منه ما كان معه، والتَّرْكُ في الآيةِ كِنايةٌ عن إبقاءِ الشَّيءِ في مَوضعٍ دونَ مُفارَقةِ التَّارِكِ[٥].

- وقال: ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ هم المؤمِنونَ بالبَعثِ والجزاءِ مِن أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكتابِ دونَ المُشرِكين؛ فإنَّهم لَمَّا لمْ يَنتفِعوا بدَلالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨، ٩).

مَواقعِ الاستِئصالِ على أسبابِ ذلك الاستئصالِ، نُزِّلَت دَلالةُ آيتِه بالنِّسبةِ إليهم مَنزِلةَ ما ليس بآيةٍ، والمعنى: أنَّ الَّذين يَخافون اتَّعَظوا بآيةِ قَومِ لوطٍ، فاجتَنَبوا مِثلَ أسبابِ إهلاكِهم، وأنَّ الَّذين أشْرَكوا لا يتَّعِظون فيُوشِكُ أنْ يَنزِلَ عليهم عذابٌ أليمٌ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وقال في سُورةِ (العَنكبوتِ): ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وبيْنَهما في اللَّفظِ فرْقٌ؛ قال هاهنا: ﴿ءَايَةً﴾، وقال هناك: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾، وقال هناك: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقال هاهنا: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ آيةَ سُورةِ (العنكبوتِ) مَذْكورةٌ بأبلَغِ وَجْهٍ، يدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ حيثُ وصَفَها بالظُّهورِ، وكذلك ﴿مِنْهَآ﴾ و﴿فِيهَآ﴾؛ فإنَّ (مِن) للتَّبعيضِ؛ فكأنَّه تعالى قال: مِن نفْسِها لكمْ آيةً باقيةً، وكذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ فإنَّ العاقلَ أعمُّ مِن الخائفِ؛ فكانت الآيةُ هناك أظهَرَ، وسَببُه: أنَّ القصْدَ هناك تَخويفُ القَومِ، وهاهنا تَسليةُ القلْبِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

الآيات (٢٨-٤٦)

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩
فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا
تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣
فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ
مُنتَصِرِينَ ٤٥ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصلُ السُّلطانِ: يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ والتَّسلُّطِ(١).

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: أي: فأدبَرَ وأعرَضَ؛ فـ(التَّولِّي) إذا عُدِّيَ بـ(عن) لَفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ(٢).

﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾: أي: بجانِبِه، وبما يَركَنُ إليه مِنَ القُوَّةِ في نَفْسِه وأعوانِه وجُنودِه، وأصلُ (ركن): يدُلُّ على قُوَّةٍ(٣).

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾: أي: طرَحْناهم وألقَيْناهم، والنَّبذُ: إلقاءُ الشَّيءِ وطَرحُه؛ لقِلَّةِ الاعتِدادِ به(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، =

﴿ٱلۡيَمِّ﴾: أي: البَحرِ[١].

﴿مُلِيمٌ﴾: أي: مُسيءٌ، مُذنِبٌ، آتٍ بما يُلامُ عليه، وأصلُ (لوم): يدُلُّ على عَتْبٍ[٢].

﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾: أي: الَّتي لا خَيرَ فيها؛ فلا تأتي بمطرٍ ولا سحابٍ، ولا تُلقِحُ شجرًا، إنَّما هي للإهلاكِ، وأصلُ (عقم): يدُلُّ على غُمُوضٍ وضِيقٍ وشِدَّةٍ[٣].

﴿تَذَرُ﴾: أي: تَترُكُ وتَدَعُ، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لِقلَّةِ اعتِدادِه به[٤].

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالشَّيءِ الهالِكِ البالي. والرَّميمُ: ما يَبِسَ مِن نَباتِ الأرضِ وتفَتَّتَ ودِيسَ، وأصلُ (رمم) هنا: يدُلُّ على بَلاءِ الشَّيءِ[٥].

﴿فَعَتَوۡاْ﴾: أي: تكَبَّروا وتجَبَّروا، والعُتُوُّ: الخُروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُه يدُلُّ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٧٤-٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠).

على استِكبارٍ[١].

﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ الَّتي يموتُ مَن يَسمعُها، أو يُغشَى عليه. وقيل: كُلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ. وقيل: الصَّاعِقةُ: الصَّوتُ الشَّديدُ مِنَ الرَّعدِ، يَسقُطُ معها قِطعةُ نارٍ، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّة الصَّوتِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ اللهُ تعالى جانبًا مِن قصصِ موسى وهودٍ وصالحٍ ونوحٍ -عليهم السَّلامُ- معَ أقوامِهم، فيقولُ: وفي قِصَّةِ مُوسى آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْناه إلى فِرعَونَ بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، فأعرَضَ فِرعَونُ مُستَقْويًا بجُنْدِه، وقال لموسى: أنت ساحِرٌ أو مَجنونٌ!

فأخَذَ اللهُ فِرعَونَ وجُنودَه، فطَرَحَهم في البَحرِ، فغَرِقوا والحالُ أنَّ فِرعَونَ قد أتَى بما يُلامُ عليه مِنَ الكُفرِ والظُّلمِ.

وفي قِصَّةِ عادٍ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْنا عليهم الرِّيحَ العقيمَ الَّتي لا خَيرَ فيها، فما تَركَت تلك الرِّيحُ شَيئًا ممَّا مَرَّت عليه إلَّا صَيَّرَتْه باليًا مُفتَّتًا!

وفي قِصَّةِ ثَمودَ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ قال لهم نَبيُّهم صالحٌ: تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وَقتِ انتِهاءِ آجالِكم، فأعرَضوا عن أمرِ اللهِ وتكَبَّروا، فأخَذَتْهم صاعِقةُ العَذابِ، وهم يَنظُرونَ إلى عُقوبةِ اللهِ النَّازِلةِ بهم، فما استَطاعوا أن يَفِرُّوا مِن عَذابِ اللهِ، ولا أنْ يَدفَعوه عن أنفُسِهم، وما كانوا مُنتَصِرينَ!

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

وأهلَكْنا قَومَ نُوحٍ مِن قَبلِ تلك الأُمَمِ؛ إنَّهم كانوا قَومًا كافِرينَ، خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: وفي قِصَّةِ مُوسى آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْناه إلى فِرعَونَ بحُجَّةٍ واضِحةٍ ظاهِرةٍ دالَّةٍ على صِدقِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩، ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أي: في قِصَّةِ موسى آيةٌ أيضًا. هذا قَولُ الأكثَرينَ، ومنهم مَن لم يذكُرْ غَيرَه، كأبي الفَرَجِ [ابن الجوزي]. وقيل: هو عَطفٌ على قَولِه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠] ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾، وهو ضَعيفٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧١).

وقال الشَّوكاني: (قوله: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ مَعطوفٌ على «فيها» مِن قَولِه ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ ﴾ [الذاريات: ٣٧] بإعادةِ الخافِضِ، والتَّقديرُ: وترَكْنا في قِصَّةِ موسى آيةً، أو معطوفٌ على ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الذاريات: ٢٠] والتَّقديرُ: وفي الأرضِ وفي موسى آياتٌ. قاله الفرَّاءُ وابنُ عطيَّةَ والزمخشريُّ. قال أبو حيَّانَ: وهو بَعيدٌ جِدًّا، يُنَزَّهُ القرآنُ عن مِثْلِه... والوَجهُ الأوَّلُ هو الأَوْلى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابنُ عطيَّةَ)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٧، ٥٥٨).

وقال السَّمينُ الحلبي تعليقًا على كلامِ أبي حيان: (ووَجْهُ استِبعادِه له: بُعْدُ ما بَيْنَهما). ((الدر المصون)) (١٠/ ٥٣).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ في قِصَّةِ موسى وفِرعونَ آيةً للَّذين يَخافونَ العذابَ الأليمَ، فيَجتَنبونَ مِثلَ أسبابِ ما حَلَّ بفِرعَونَ وقَومِه مِن العذابِ، وهي الأسبابُ الَّتي ظهرَت في مُكابَرةِ فِرعَونَ عن تصديقِ الرَّسولِ الَّذي أُرسِلَ إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾.

أي: فأعرَضَ فِرعَونُ بجانبِه عن الحقِّ واتِّباعِه، مُستَقْوِيًا بجُنْدِه الَّذين يَعتمِدُ عليهم، ويَركَنُ إليهم في شَدائِدِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

قال ابن عثيمين: (﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي: بقوَّتِه وسُلطانِه وجُندِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٥٣).

وقال البِقاعي: (﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: بسَبَبِ ما يَركَنُ إليه مِنَ القُوَّةِ في نَفْسِه، وبأعوانِه وجُنودِه، أو بجَميعِ جُنودِه؛ كنايةً عن المبالَغةِ في الإعراضِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٦٩).

وقيل: المعنى: أعرَض بجانبِه عن الحَقِّ رَفضًا له وعِنادًا وكِبرًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

قال الواحدي: (وقولُه: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتلٌ: أي: بجَمْعِه وجُنْدِه ورَهْطِه. وعلى هذا سَمَّى جَمْعَه رُكنًا له؛ لأنَّه يَتقوَّى بهم، كالبُنْيانِ يتقوَّى برُكنِه. والباءُ يكونُ في ﴿بِرُكْنِهِ﴾ للتَّعْديةِ، أي: جعَلَهم يَتولَّونَ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: تولَّى هو بسَبَبِ جُنْدِه، أي: بقُوَّتِهم وشَوكَتِهم، كما تقولُ: فعَلتُ هذا بقُوَّةِ فُلانٍ. وقال الفَرَّاءُ: أعرَضَ بقُوَّتِه في نَفْسِه، وعلى هذا رُكْنُه: قُوَّتُه. وهذا راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ لأنَّ قُوَّتَه بجُنْدِه. وقال أبو عُبَيدةَ: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ وبجانِبِه: سَواءٌ، إنَّما هي ناحيتُه. وهو اختيارُ ابنِ قُتَيْبَةَ، قال: فتَوَلَّى برُكْنِه، ونأى بجانِبِه: سَواءٌ. وعلى هذا رُكْنُه: نَفْسُه. وهو قولُ المؤرِّجُ، قال: برُكْنِه: بجانِبِه). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٥٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢).

قال الألوسي: (﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ فأعرَضَ عن الإيمانِ بموسى عليه السَّلامُ، على أنَّ رُكنَه جانبُ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ: إمَّا أنَّ موسى ساحِرٌ يَسحَرُ النَّاسَ، أو هو مَجنونٌ لا عَقْلَ له[1]!

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾.

أي: فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه، فطَرَحْناهم في البَحرِ، فغَرِقوا والحالُ أنَّ فِرعَونَ قد أتى بما يُلامُ عليه مِنَ الكُفرِ والظُّلمِ، فاستحقَّ عذابَ اللهِ تعالى[2].

﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتِقالٌ إلى العِبرةِ بأُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ العَربيَّةِ -وهم عادٌ-، وهم أشهَرُ العَرَبِ البائِدةِ[3]؛ ....

= بدَنِه وعِطْفِه... والباءُ للتَّعديةِ؛ لأنَّ معناه: ثَنى عِطْفَه، أو للمُلابَسةِ. وقال قَتادةُ: تَولَّى بقَومِه، على أنَّ الرُّكنَ بمعنَى القَومِ؛ لأنَّه يَركَنُ إليهم، ويَتقوَّى بهم، والباءُ للمُصاحَبةِ أو المُلابَسةِ، وكَوْنُها للسَّببيَّةِ غيرُ وجيهٍ. وقيل: تولَّى بقوَّتِه وسُلطانِه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٦). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

قال ابن عثيمين: (البَحرُ الَّذي هَلَك فيه فِرعَونُ هو البَحرُ الأحمرُ، الَّذي بيْنَ آسيا وأفريقيا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

تَسليةً لِنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: وفي قِصَّةِ عادٍ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْنا عليهم الرِّيحَ الشَّديدةَ الَّتي لا خَيرَ ولا بَرَكةَ فيها؛ فلا تُلقِحُ شَجَرًا، ولا تَسوقُ مَطَرًا[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبَا[(٣)]، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[(٤)]))[(٥)].

﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ما تَترُكُ تلك الرِّيحُ العَقيمُ شَيئًا ممَّا تمُرُّ عليه إلَّا صَيَّرَتْه كالشَّيءِ البالي اليابِسِ المُفتَّتِ[(٦)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٥).

(٣) الصَّبا: هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٨).

(٤) الدَّبُور: هي الرِّيحُ الغَربيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢).

قال ابنُ عاشور: (هذا العُمومُ مُخَصَّصٌ بدليلِ العَقلِ؛ لأنَّ الرِّيحَ إنَّما تُبلِي الأشياءَ الَّتي تمُرُّ =

كما قال الله سبحانَه وتعالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وفي قِصَّةِ ثَمودَ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ قال لهم نَبيُّهم صالحٌ: تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وَقتِ انتِهاءِ آجالِكم(١)!

= عليها إذا كان شأنُها أن يتطَرَّقَ إليها البِلَى؛ فإنَّ الرِّيحَ لا تُبلي الجبالَ ولا البِحارَ ولا الأوديةَ وهي تمُرُّ عليها، وإنَّما تُبلي الدِّيارَ والأشجارَ والنَّاسَ والبَهائِمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (ومعروفٌ مِن كلامِ العرَبِ الإتيانُ بلَفظِ العُمومِ والمرادُ به الخُصوصُ، ألَا ترى إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهذه الإشارةُ في النَّاسِ إنَّما هي إلى رجُلٍ واحدٍ أخبَرَ أصحابَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ قُرَيْشًا جمعَتْ لهم، وجاء اللَّفظُ كما ترى على العُمومِ. ومِثلُه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾، ومِثلُ هذا كثيرٌ لا يَجهَلُه إلَّا مَن لا عنايةَ له بالعِلمِ). ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) (٢١/ ٢٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورة الأحقاف الآية (٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨).

قال السمرقندي: (قال لهم نبيُّهم صالحٌ عليه السَّلامُ: عِيشوا إلى مُنتهى آجالِكم، ولا تَعصوا أمْرَ اللهِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (إلى آجالِكم بغيرِ عذابٍ إن آمَنْتُم، وإن عصَيْتُم عُذِّبْتُم). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩).

وقد ذهب الفرَّاءُ، والواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عثيمين: إلى أنَّ المرادَ بالتَّمَتُّعِ المذكورِ هنا: التَّمتُّعُ في ديارِهم ثلاثةَ أيَّامٍ بعدَ أنْ عَقَروا النَّاقةَ، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا =

﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾.

أي: فترَك كُفَّارُ ثَمودَ أمْرَ اللهِ، وأعرَضوا عن امتِثالِه؛ تكبُّرًا منهم(1).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾[الشمس: ١١ - ١٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

أي: فأخَذَتْهم صاعِقةُ العَذابِ والحالُ أنَّهم يَنظُرونَ إلى عُقوبةِ اللهِ النَّازِلةِ

= فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]. وضعَّف هذا القَولَ: الرَّازيُّ وأبو حيَّانَ وابنُ عاشور؛ لأنَّ قولَه تعالى بَعْدَها: ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الذاريات: ٤٤] بحَرفِ (الفاء) يدُلُّ على أنَّ العُتُوَّ كان بعدَ قَولِه: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٧).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿حِينٍ﴾ زَمَنٌ مُبهَمٌ، جُعِلَ نِهايةً لِما مُتِّعوا به مِنَ النِّعَمِ؛ فإنَّ نِعَمَ الدُّنيا زائلةٌ، وذلك الأجَلُ: إمَّا أنْ يُرادَ به أجَلُ كُلِّ واحدٍ منهم الَّذي تنتهي إليه حياتُه، وإمَّا أن يُرادَ به أجَلُ الأُمَّةِ الَّذي يَنتهي إليه بقاؤُها، وهذا نحوُ قَولِه تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[هود: ٣]، فكما قاله اللهُ للنَّاسِ على لسانِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعَلَّه قاله لِثَمودَ على لسانِ صالحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

قال ابن جُزَي: (﴿حَتَّى حِينٍ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ الحِينَ هي الثَّلاثةُ الأيَّامُ بعدَ عَقْرِهم النَّاقةَ. والآخَرُ. أنَّ الحينَ مِن بَعدِ ما بُعِث صالحٌ عليه السَّلامُ إلى حينِ هَلاكِهم، وعلى هذا يكونُ ﴿ فَعَتَوْا﴾ مُترتِّبًا بعدَ تمتُّعِهم، وأمَّا على الأوَّلِ فيَكونُ إخبارًا عن حالِهم، غيرَ مرتَّبٍ على ما قبْلَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

بهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥)﴾.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾.

أي: فما استَطاعوا أن يَفِرُّوا مِن عَذابِ اللهِ، ولا أن يَدفَعوه عن أنفُسِهم[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣، ١٤).

قال ابن عطيَّة: (قَولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ: فَجأةً وهم يُبصِرونَ بعُيونِهم حالَهم...، ويحتَمِلُ أن يريدَ: وهم يَنتظِرونَ ذلك في تلك الأيَّامِ الثَّلاثةِ الَّتي أُعلِموا به فيها، ورَأَوا علاماتِه في تلَوُّنه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٠).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: يَرَوْنَ ذلك ويُبصِرونَه ويُعاينونَه: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَنتظِرون: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٢).

وقال البِقاعي: (﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بسَبَبِ عُتُوِّهم أخْذَ قَهرٍ وعَذابٍ ﴿الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الصَّيحةُ العَظيمةُ الَّتي حمَلَتْها الرِّيحُ، فأوصَلَتْها إلى مَسامِعِهم بغايةِ العَظَمةِ، ورَجَّت ديارَهم رَجَّةً أزالت أرواحَهم بالصَّعْقِ، وقَولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ دالٌّ على أنَّها كانت في غَمامٍ، وكان فيها نارٌ، ويجوزُ -مع كَونِه مِنَ النَّظَرِ- أنْ يكونَ أيضًا مِنَ الانتِظارِ؛ فإنَّهم وُعِدوا نُزولَ العذابِ بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وجُعِلَ لهم في كُلِّ يومٍ عَلامةٌ وَقَعت بهم، فتحَقَّقوا وُقوعَه اليومَ الرَّابعَ!). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن =

= كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).
قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ يحتَمِلُ وَجهَين؛ أحَدُهما: أنَّه لِبَيانِ عَجْزِهم عن الهَرَبِ والفِرارِ على سَبيلِ المُبالَغةِ؛ فإنَّ مَن لا يَقدِرُ على قيامٍ كيف يَمشي فضلًا عن أن يَهرُبَ... الوجهُ الثَّاني: هو أنَّ المرادَ ﴿مِن قِيَامٍ﴾ القيامُ بالأمرِ، أي: ما استطاعوا مِن قيامٍ به). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥).
وقال القرطبي: (﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ قيل: معناه: مِن نُهوضٍ. وقيل: ما أطاقوا أن يَستَقِلُّوا بعذابِ اللهِ، وأنْ يتحَمَّلوه ويَقوموا به، ويَدفَعوه عن أنفُسِهم، تقولُ: لا أقومُ لهذا الأمرِ، أي: لا أُطيقُه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١).
ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ عِبارةٌ عن جُثومِهم، وأنَّه كقولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والنيسابوري، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧).
وقال جلال الدين المحلي: (ما قَدَروا على النُّهوضِ حِينَ نُزولِ العذابِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٥)، وذكر نحوَه: الرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٠٩).
وقال السمعاني: (وَقَعوا وُقوعًا لم يَستطيعوا بعدَه القيامَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦١).
وقال الشوكاني: (﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: لم يَقدِروا على القيامِ. قال قَتادةُ: مِن نُهوضٍ، يعني: لم يَنهَضوا مِن تلك الصَّرْعةِ، والمعنى: أنَّهم عَجَزوا عن القيامِ، فضْلًا عن الهَرَبِ، ومِثلُه قَولُه: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩).
وقال ابنُ جرير: (فما استَطاعوا مِن دِفاعٍ لِما نزَل بهم مِن عذابِ اللهِ، ولا قدَروا على نُهوضٍ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).
وممَّن اختار أنَّ المعنى: ما استَطاعوا أن يَقوموا لعذابِ اللهِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبةَ، والسَّمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧).
وممَّن اختار أنَّ المعنى: فما قاموا بعدَ نُزولِ العذابِ بهم، ولا قدَروا على نُهوضٍ به ولا دفاعٍ: الثعلبيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٧).

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنسانُ قد لا يَتمَكَّنُ مِن القِيامِ؛ لعارِضٍ في رِجْلَيه، ويَنتَصِفُ مِن عَدُوِّه بما يُرَتِّبُه مِن عَقْلِه، ويُدَبِّرُه برَأيِه- قال[1]:

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

أي: وما كان كُفَّارُ ثَمودَ قادِرينَ على الانتِصارِ بأيِّ وَسيلةٍ كانت[2]!

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ قِصَّةَ مَن أُهلِكوا بما مِن شَأنِه الإهلاكُ -وهو الصَّاعِقةُ-؛ أتْبَعَهم قِصَّةَ مَن أُهلِكوا بما مِن شأنِه الإحياءُ، وهو الماءُ[3].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَقَوْمِ﴾ بكَسرِ الميمِ، على معنى: وفي قَومِ نُوحٍ آيةٌ وعِبرةٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٤) قرأ بها أبو عَمرٍو، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٠، ٦٨١).

٢- قِراءةُ ﴿وَقَوْمَ﴾ بفَتحِ الميمِ، على معنى: أهلَكْنا قَومَ نُوحٍ، أو أغرَقْناهم، أو اذكُرْ قَومَ نوحٍ[1].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾.

أي: وأهلَكْنا قَومَ نُوحٍ مِن قَبلِ تلك الأُمَمِ؛ فهم أوَّلُ مَن كذَّبوا بالحَقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

أي: إنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ عُصاةً، خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى[3].

كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ بِشارةُ المُؤمِنينَ. وَجهُه: أنَّ مَن التقَمَه الحوتُ وهو مُليمٌ، نجَّاه اللهُ

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠).

تعالى بتَسبيحِه(١)، ومَن أهلَكَه اللهُ بتَعذيبِه لم ينفَعْه إيمانُه حينَ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾(٢) [يونس: ٩٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ فيه دَلالةٌ على غايةِ عِظَمِ شأنِ القُدرةِ الرَّبَّانيَّةِ، ونِهايةِ ذِلَّةِ فِرعونَ وقَومِه(٣).

٢- أنَّ الشَّيءَ الواحِدَ قد يكونُ خيرًا وقد يكونُ شَرًّا بحَسَبِ آثارِه ونتائِجِه؛ فالرِّياحُ في موضعٍ هي: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [النمل: ٦٣]، وعلى عادٍ ونَحوِهم عذابٌ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، والكلُّ مِن فِعلِه تبارك وتعالى(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ دَليلٌ على أنَّ سائِرَ الرِّياحِ تُلَقِّحُ الأشجارَ، وتُودِعُها الثِّمارَ بإذنِ الجبَّارِ؛ فكانت تلك وَحْدَها عَقيمًا أُثيرَتْ للعَذابِ لا لمنافِعِ العِبادِ في أشجارِهم وزُروعِهم(٥).

٤- ذُكِرتِ الرِّياحُ في القُرآنِ جَمعًا ومُفرَدةً؛ فحيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتتْ مجموعةً، وحيثُ وقَعَتْ في سياقِ العَذابِ أتتْ مُفرَدةً؛ وسِرُّ ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمةِ مُختَلِفةُ الصِّفاتِ والمهابِّ والمَنافِعِ، وأمَّا في العذابِ فإنَّها تأتي من وجهٍ واحدٍ وصِمَامٍ واحدٍ لا يقومُ لها شَيءٌ، ولا يعارِضُها غيرُها حتَّى تنتهيَ

(١) كما في قوله تعالى عن يونسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ * فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ * فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٧).

إلى حيث أُمِرَتْ؛ ولهذا وَصَفَ سُبحانَه الرِّيحَ الَّتي أَرسلَها على عادٍ بأنَّها عقيمٌ، فقال سُبحانَه: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾، وهي الَّتي لا تُلقِحُ[1]، ولا خيرَ فيها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ سؤالٌ: هل في هذا تخصيصٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ به المُبالَغةُ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ وصْفٌ لِقَولِه: ﴿شَىْءٍ﴾، كأنَّه قال: كُلَّ شَيءٍ أتت عليه، أو كُلَّ شَيءٍ تأتي عليه. ولا يدخُلُ فيه السَّمَواتُ؛ لأنَّها ما أتت عليه، وإنَّما يَدخُلُ فيه الأجسامُ الَّتي تَهَبُّ عليها الرِّياحُ[3].

---

(١) أي: لا تُلقِحُ شَجرًا، ولا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تَحمِلُ مطرًا، إنَّما هي ريحُ الإهلاكِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٨٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨).

قال ابن عطية: (الرِّياحُ جَمعُ رِيحٍ، وجاءت في القُرآنِ مَجموعةً مع الرَّحمةِ، مُفرَدةً مع العذابِ، إلَّا في «يُونُسَ» في قَولِه تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، وهذا أغلَبُ وُقوعِها في الكَلامِ). ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٣).

وقال ابنُ القيِّم في توجيهِ إفرادِ الرَّحمةِ في سورةِ «يونس»: (ذكَرَ ريحَ الرَّحمةِ الطَّيِّبةَ بلفظِ الإفرادِ؛ لأنَّ تمامَ الرَّحمةِ هناك إنَّما تَحصُلُ بوَحدةِ الرِّيحِ، لا باختِلافِها؛ فإنَّ السَّفينةَ لا تَسيرُ إلَّا بريحٍ واحدةٍ من وجهٍ واحدٍ تُسَيِّرُها، فإذا اختلفَتْ عليها الرِّياحُ وتصادمَتْ وتقابلَتْ فهو سببُ الهلاكِ، فالمطلوبُ هناك ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، وأُكِّد هذا المعنى بوصفِها بالطِّيبِ؛ دفْعًا لِتَوهُّمِ أن تكونَ ريحًا عاصفةً، بل هي ممَّا يُفرَحُ بها؛ لِطيبِها). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١١٩).

وقال ابنُ عاشور: (الرِّياحُ حيثُما وقَعت في القُرآنِ فهي مُقترِنةٌ بالرَّحمةِ، كقَولِه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وأكثَرُ ذِكرِ الرِّيحِ المُفرَدةِ أن تكونَ مُقترِنةً بالعَذابِ، كقَولِه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ونحوِ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٧).

فإن قيل أنَّ الجِبالَ والصُّخورَ أتتْ عليه وما جعَلَتْه كالرَّميم.

فالجوابُ: أنَّ المرادَ: أتتْ عليه قاصِدةً له، وهو عادٌ وأبنِيتُهم وعُروشُهم؛ لأنَّها كانت مأمورةً بأمرٍ مِن عندِ اللهِ، فكأنَّها كانت قاصِدةً لهم، فما ترَكَت شَيئًا مِن تلك الأشياءِ إلَّا جعَلَتْه كالرَّميم[1].

٦- قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ تأمَّلِ الآيةَ؛ كيف أنَّ قَومَ عادٍ قَومٌ أقوياءُ أشِدَّاءُ، حتى إنَّهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]! فقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فهَلَكوا بهذه الرِّيحِ اللَّطيفةِ الَّتي لا ترَى لها جِسمًا، وإنَّما تُحِسُّ بها بدون أنْ ترى شيئًا! ومع ذلك قَضَتْ عليهم بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، فهذا فيه آياتٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، أَرسلَ اللهُ عليهم هذه الرِّيحَ فأهلكَتْهم عن آخِرِهم[2]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ لطيفةٌ لَفظيةٌ؛ فإنَّ الاستِطاعةَ دونَ القُدرةِ؛ لأنَّ في الاستِطاعةِ دَلالةَ الطَّلَبِ، وهو يُنبِئُ عن عَدَمِ القُدرةِ والاستِقلالِ، فمَنِ استَطاع شيئًا كان دونَ مَن يَقدِرُ عليه[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ عطْفٌ على ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ [الذَّاريات: ٢٠] -على قولٍ-؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا ذمَّ الخَرَّاصينَ الأفَّاكينَ، ووصَفَهم بما به أوقَعوا أنفُسَهم في تلك الوَرَطاتِ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥).

أنَّهم في غَمَراتِ الجَهلِ، وسَكراتِ السَّهوِ، يَتورَّطون فيما لا يَعنِيهم مِن السُّؤالِ عن أيَّانِ السَّاعةِ، مع إنْكارِ مَجيئِها، والامتناعِ مِن الاستعدادِ لها، وأوعَدَهم على ذلك بقولِه: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذَّاريات: ١٤]، وجعَلَه مُخلِّصًا إلى ذِكرِ أضْدادِهم، وذِكرِ ما به فازَوا إلى النَّعيمِ المُقيمِ؛ مِن أخْذِ التَّأهُّبِ للمَعادِ، والتَّهيُّؤِ لاستعدادِ زادِ يومِ التَّنادِ -أتَى بعْدَ ذلك بدَليلٍ للآفاقِ والأنفُسِ؛ تنْبيهًا لهم، وإيقاظًا مِن سِنةِ الغفْلةِ، وعُطِفَ عليه قصَّةُ مُوسى وفِرعونَ اتِّعاظًا وتَخويفًا، وأمَّا قصَّةُ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السَّلامُ، فمُعترِضَتانِ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ تَسليةً لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَكذيبِهم، ووعْدًا له بإهلاكِ أعدائِه الأفَّاكينَ كما أُهلِكَ قومُ لُوطٍ[1].

أو قولُه: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ ...﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿فِيهَآ ءَايَةً﴾ [الذَّاريات: ٣٧]، والتَّقديرُ: وترَكْنا في مُوسى آيةً؛ فهذا العطْفُ مِن عطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ، لتَقديرِ فِعْلِ: (ترَكْنا) بعدَ واوِ العطْفِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، أي: في قصَّةِ مُوسى حينَ أرسَلْناهُ إلى فِرعونَ بسُلطانٍ مُبينٍ فتَولَّى... إلخ، فيكونُ التَّرْكُ المُقدَّرُ في حرْفِ العطْفِ مُرادًا به جَعْلُ الدَّلالةِ باقيةً، فكأنَّها مَتروكةٌ في الموضعِ لا تُنقَلُ منه[2].

- قيل: أُعقِبَتْ قصَّةُ قَومِ لوطٍ بقصَّةِ مُوسى وفِرعونَ؛ لشُهرةِ أمْرِ مُوسى وشَريعتِه، ولِما بيْنَهما مِن تَناسُبٍ في أنَّ العذابَ الَّذي عُذِّبَ به الأُمَّتانِ عَذابٌ أرضيٌّ؛ إذ عُذِّبَ قومُ لوطٍ بالحِجارةِ الَّتي هي مِن طِينٍ، وعُذِّبَ قومُ فِرعونَ بالغرَقِ في البحْرِ، ثمَّ ذُكِرَ عادٌ وثمودُ، وكان عذابُهما سَماويًّا؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٧، ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩).

عُذِّبَت عادٌ بالرِّيحِ، وثمودُ بالصَّاعقةِ[(١)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ تَمثيلٌ لهَيئةِ رفْضِ فِرعونَ دَعوةَ مُوسى بهَيئةِ المُنصرِفِ عن شخْصٍ، وبإيرادِ قولِه: ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ تمَّ التَّمثيلُ، والمعنى: أنَّ في قصَّةِ مُوسى وفِرعونَ آيةً للَّذين يَخافونَ العذابَ الأليمَ، فيَجتنبونَ مِثلَ أسبابِ ما حلَّ بفِرعونَ وقومِه مِن العَذابِ، وهي الأسبابُ الَّتي ظهَرَتْ في مُكابَرةِ فِرعونَ عن تَصديقِ الرَّسولِ الَّذي أُرسِلَ إليه، وأنَّ الَّذين لا يَخافون العذابَ ولا يُؤمنون بالبَعثِ والجَزاءِ لا يتَّعِظون بذلك؛ لأنَّهم لا يُصدِّقون بالنَّواميسِ الإلهيَّةِ، ولا يَتدبَّرون في دَعوةِ أهلِ الحقِّ، فهمْ لا يَزالون مُعرِضينَ ساخِرينَ عن دَعوةِ رَسولِهم، مُتكبِّرين عليه، مُكابِرينَ في دَلائلِ صِدْقِه، فيُوشِكُ أنْ يَحُلَّ بهم مِن مِثلِ ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه؛ لأنَّ ما جاز على المِثلِ يَجوزُ على المُماثِلِ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿فِيهَآ ءَايَةً﴾ [الذَّارِيات: ٣٧]، والتَّقديرُ: وترَكْنا في عادٍ آيةً، فهذا العطْفُ مِن عطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ؛ لتَقديرِ فِعْلِ: (ترَكْنا) بعدَ واوِ العطْفِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، أي: في قصَّةِ عادٍ حِينَ أرسَلْنا عليهمُ الرِّيحَ العقيمَ... إلخ؛ فيكونُ التَّرْكُ المُقدَّرُ في حرْفِ العطْفِ مُرادًا به جَعلُ الدَّلالةِ باقيةً، فكأنَّها مَتروكةٌ في الموضعِ لا تُنقَلُ منه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٠، ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١).

- قولُه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وُصِفتْ الرِّيحُ بالعُقْمِ؛ لأنَّها أهلكَتْهم، وقطَعَتْ دابِرَهم، أوْ لأنَّها لم تَتضمَّنْ خيرًا ما؛ مِنْ إنشاءِ مطَرٍ، أو إلْقاحِ شجَرٍ. والعرَبُ يَكرَهونَ العُقْمَ في مَواشِيهم، فالرِّيحُ كالنَّاقةِ العَقيمِ لا تُثمِرُ نسْلًا ولا درًّا؛ فوصْفُ الرِّيحِ بالعَقيمِ تَشبيهٌ بَليغٌ في الشُّؤمِ[1].

- وجُملةُ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ، فهو ارتقاءٌ في مَضرَّةِ هذه الرِّيحِ؛ فإنَّها لا تَنفعُ، وأنَّها تضُرُّ أضرارًا عظيمةً[2].

- وصِيغَ ﴿تَذَرُ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ، و﴿شَيْءٍ﴾ في مَعنى المفعولِ لـ ﴿تَذَرُ﴾؛ فإنَّ (مِن) لتأْكيدِ النَّفيِ، والنَّكرةُ المجرورةُ بـ (مِن) هذه نصٌّ في نفْيِ الجِنسِ، ولذلك كانت عامَّةً، إلَّا أنَّ هذا العُمومَ مُخصَّصٌ بدَليلِ العقْلِ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ أُتبِعَتْ قصَّةُ عادٍ بقِصَّةِ ثَمودَ؛ لتَقارُنِهما غالبًا في القرآنِ؛ مِن أجْلِ أنَّ ثَمودَ عاصَرَت عادًا وخلَفَتْها في عَظَمةِ الأُمَمِ؛ قال تعالَى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، ولاشتِهارِهما بيْنَ العرَبِ، ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ عطْفٌ على (فِي عَادٍ) [الذَّارِيات: ٤١]، أو على (تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً) [الذَّارِيات: ٣٧]، والمعنى: وترَكْنا آيةً للمؤمنينَ في ثَمودَ في حالِ قدْ أخذَتْهم الصَّاعقةُ، أي: في دَلالةِ أخْذِ الصَّاعقةِ إيَّاهم، على أنَّ سَبَبَه هو إشراكُهم وتَكذيبُهم وعُتوُّهم عن أمْرِ ربِّهم، فالمؤمِنونَ اعتبَروا بتلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣٢) و(ص: ١٤٠).

فسَلَكوا مَسلكَ النَّجاةِ مِن عَواقِبِها، وأمَّا المُشرِكون فإصْرارُهم على كُفرِهم سيُوقِعُهم في عَذابٍ مِن جِنسِ ما وقَعَت فيه ثَمودُ[1].

- وهذا القولُ الَّذي ذُكِر هنا ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو كَلامٌ جامعٌ لِمَا أنذَرَهم به صالحٌ رسولُهم، وذكَّرَهم به، مِن نحوِ قَولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقولِه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨]، وقولِه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّهم أُعْطُوا ما هو مَتاعٌ، أي: نفْعٌ في الدُّنيا؛ فإنَّ مَنافعَ الدُّنيا زائلةٌ، فكانتْ الأقوالُ الَّتي قالَها رسولُهم -تَذكيرًا بنعمةِ اللهِ عليهم- يَجمَعُها ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾، على أنَّه يَجوزُ أنْ يكونَ رَسولُهم قال لهم هذه الكلمةَ الجامعةَ، ولم تُحْكَ في القرآنِ إلَّا في هذا الموضعِ؛ فإنَّ أخبارَ الأُمَمِ تأْتي مُوزَّعةً على قَصَصِهم في القرآنِ؛ فقولُه: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ أمْرٌ مُستعمَلٌ في إباحةِ المَتاعِ[2].

- والمُرادُ بلفظِ ﴿حِينٍ﴾ زمَنٌ مُبهَمٌ، جُعِلَ نِهايةً لِما مُتِّعوا به مِن النِّعَمِ؛ فإنَّ نِعَمَ الدُّنيا زائلةٌ[3].

- وليس قولُه: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ بمُشيرٍ إلى قولِه في الآيةِ الأخرى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ونحوِه؛ لأنَّ ذلك الأمْرَ مُستعمَلٌ في الإنذارِ والتَّأييسِ مِن النَّجاةِ بعْدَ ثَلاثةِ أيَّامٍ؛ فلا يكونُ لقولِه بعْدَه: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ مُناسَبةٌ لتَعقيبِه به بالفاءِ؛ لأنَّ التَّرتيبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢، ١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٣).

الَّذي تُفِيدُه الفاءُ يَقْتضي أنَّ ما بعْدَها مُرتَّبٌ في الوُجودِ على ما قبْلَها[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ ﴾ جاء العطْفُ بالفاءِ المُقتضيةِ تأخُّرَ العُتوِّ عمَّا أُمِروا به، فهو مُطابِقٌ لفْظًا ووُجودًا[٢].

- وضُمِّنَ (عَتَوا) معنى (أعرَضُوا)، فعُدِّيَ بـ (عن)، أي: فأعْرَضوا عمَّا أمَرَهم اللهُ على لِسانِ رَسولِه صالحٍ عليه السَّلامُ[٣]. وقيل: عُدِّيَ فِعلُ «عتا» بـ «عن»؛ لأنَّ فيه معنى الاستِكبارِ، كقَولِه: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾[٤] [الأنبياء: ١٩].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾، أي: أخذَتْهم في حالِ نَظَرِهم إلى نُزولِها -على قولٍ-؛ لأنَّهم لَمَّا رَأَوا بَوارِقَها الشَّديدةَ، عَلِموا أنَّها غيرُ مُعتادةٍ، فاستَشْرَفوا يَنظُرون إلى السَّحابِ، فنزَلَت عليهم الصَّاعقةُ وهم يَنظُرون، وذلك هولٌ عظيمٌ عندَ الصَّاعقةِ زِيادةً في العذابِ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى النِّقمةِ يَزيدُ صاحبَها ألَمًا، كما أنَّ النَّظَرَ إلى النِّعمةِ يَزيدُ المُنعَّمَ مَسرَّةً[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴾

- عبَّر بقولِه: ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ ولم يقُلْ: (فما قَدَروا)؛ لأنَّ نفْيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣، ١٤).

الاستطاعةِ أبلَغُ مِن نفْيِ القُدْرة[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أبلَغُ مِن نفْيِ الانتِصارِ، أي: فما قَدَروا على الهرَبِ، ولا كانوا ممَّن يَنتصِرُ لنفْسِه، فيَدفَعَ ما حلَّ به[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ (قومَ) مَنصوبٌ بتَقديرِ (اذكُرْ)، أو بفِعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما ذُكِرَ مِن القصصِ قبْلَه، تَقديرُه: وأهلَكْنا قومَ نُوحٍ، وهذا مِن عطْفِ الجُمَلِ، وليس مِن عطْفِ المُفرَداتِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، وتَقديرِ كَونِهم آيةً للَّذين يَخافون العذابَ مِن كَونِهم عُوقِبوا، وأنَّ عِقابَهم لأنَّهم كانوا قومًا فاسقينَ[٤].

- وأُخِّرَ الكلامُ على قَومِ نُوحٍ لِمَا عَرَضَ مِن تَجاذُبِ المُناسَباتِ فيما أُورِدَ مِن آياتِ العذابِ للأُمَمِ المذكورةِ آنفًا؛ ولذلك كان قولُه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ تنْبيهًا على وجْهِ مُخالَفةِ عادةِ القُرآنِ في تَرتيبِ حِكايةِ أحوالِ الأُمَمِ على حسَبِ تَرتيبِهم في الوجودِ، وقد أومَأَ قولُه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ إلى هذا[٥].

- قيل: ذكَرَ الأُمَمَ الأربعَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللهَ عذَّبَهم بما هو مِن أسبابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥).

وُجودِهم، وهو التُّرابُ والماءُ والهواءُ والنَّارُ، وهي عناصرُ الوُجودِ، فأهلَكَ قَومَ لُوطٍ بالحِجارةِ، وهي مِن طِينٍ، وأهلَكَ قومَ فِرعونَ بالماءِ، وأهلَكَ عادًا بالرِّيحِ، وهو هواءٌ، وأهلَكَ ثمودَ بالنَّارِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦).

الآيات (٤٧-٥١)

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِأَيۡيْدٖ﴾: أي: بقُوَّةٍ وَقُدرةٍ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[1].

﴿لَمُوسِعُونَ﴾: أي: قادِرونَ، مُطيقونَ، ذَوُو سَعةٍ، يقال: أوسَعَ الرَّجُلُ، أي: صار ذا سَعةٍ وغِنًى، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ[2].

﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾: المُهَيِّئُونَ المُوَطِّئُونَ، يقالُ: مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْدًا: أي: بَسطْتُه ووطَّأْتُه، وتمهيدُ الأمورِ: تَسويتُها وإصلاحُها، ومنه المِهادُ: أي: الفِراشُ والمكانُ المُمهَّدُ المُوطَّأُ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا مظاهِرَ قدرتِه، وسَعةَ رحمتِه، ومُنَبِّهًا على خَلقِ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفليِّ: وبَنَيْنا السَّماءَ بقوَّةٍ وقُدرةٍ عَظيمةٍ، وإنَّا لَموسِعونَ لأرجاءِ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

السَّماءِ، موسِعونَ على خَلقِنا بالرِّزقِ، قادِرونَ على خَلقِ ما نشاءُ خَلْقَه، وبَسَطْنا الأرضَ وجعَلْناها كالفِراشِ؛ لِيَسهُلَ على الخَلْقِ الانتِفاعُ بها، فنِعْمَ الماهِدونَ نحنُ؛ حيثُ سَوَّيْنا الأرضَ وأصلَحْناها! وخَلَقْنا مِن كُلِّ شَيءٍ صِنفَينِ؛ لعَلَّكم تَتذَكَّرونَ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: فقُلْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- اهرُبوا إلى اللهِ تعالى؛ بالإيمانِ به، والعَمَلِ بطاعتِه، والتَّوبةِ إليه؛ إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، ولا تجعَلوا مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل أخْلِصوا العِبادةَ له؛ إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت شُبهةُ نُفاةِ البَعثِ قائِمةً على توَهُّمِ استِحالةِ إعادةِ الأجسامِ بعدَ فَنائِها؛ أُعقِبَ تَهديدُهم بما يُقَوِّضُ توَهُّمَهم، فوُجِّهَ إليهم الخِطابُ يُذَكِّرُهم بأنَّ اللهَ خَلَق أعظَمَ المخلوقاتِ، ولم تكُنْ شَيئًا، فلا تُعَدُّ إعادةُ الأشياءِ الفانيةِ بالنِّسبةِ إليها إلَّا شَيئًا يَسيرًا، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(١) [غافر: ٥٧].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾.

أي: وبَنَيْنا السَّماءَ بقوَّةٍ وقُدرةٍ عَظيمةٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

أي: وإنَّا لَموسِعونَ لأرجاءِ السَّماءِ، موسِعونَ على خَلقِنا بالرِّزقِ، قادِرونَ على خَلقِ ما نشاءُ خَلْقَه[1].

= قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ ليس من آيات الصِّفات المعروفةِ بهذا الاسمِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿بِأَيْيدٍ﴾ ليس جمعَ يَدٍ، وإنَّما الأيْدُ: القُوَّةُ، فوَزْنُ قَولِه هنا ﴿بِأَيْيدٍ﴾ فَعْلٌ، ووَزْنُ الأيدي: أَفْعُلٌ؛ فالهمزةُ في قَولِه: ﴿بِأَيْيدٍ﴾ في مكانِ الفاءِ، والياءُ في مكانِ العَينِ، والدَّالُ في مكانِ اللَّامِ، ولو كان قَولُه تعالى: ﴿بِأَيْيدٍ﴾ جمعَ يَدٍ، لَكان وزنُه أَفْعُلًا، فتكونُ الهمزةُ زائدةً، والياءُ في مكانِ الفاءِ، والدَّالُ في مكانِ العَينِ، والياءُ المحذوفةُ -لِكَونه مَنقوصًا- هي اللَّامَ. والأيْدُ والآدُ في لغةِ العرَبِ، بمعنى: القُوَّة، ورَجُلٌ أيِّدٌ: قَويٌّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي: قَوَّيْناه به، فمَن ظَنَّ أنَّها جَمعُ يدٍ في هذه الآيةِ فقد غَلِطَ غَلَطًا فاحِشًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٤٢). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).

قال ابن القيِّم: (قال تعالى: ﴿... وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: ذَوو سَعةٍ وقدرةٍ وملكٍ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٨٣).

وقال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه وُجوهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مِنَ السَّعَةِ، أي: أوسَعْناها بحيثُ صارت الأرضُ وما يُحيطُ بها مِنَ الماءِ والهواءِ بالنِّسبةِ إلى السَّماءِ وسَعَتِها كحَلْقةٍ في فَلاةٍ، والبِناءُ الواسِعُ الفَضاءِ عَجيبٌ؛ فإنَّ القُبَّةَ الواسِعةَ لا يَقدِرُ عليها البَنَّاؤونَ؛ لأنَّهم يَحتاجونَ إلى إقامةِ آلةٍ يَصِحُّ بها استدارتُها، ويُثبِّتُ بها تماسُكُ أجزائِها إلى أن يتَّصِلَ بَعضُها ببعضٍ.

ثانيها: قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لَقادِرونَ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي: قُدْرَتَها، والمُناسَبةُ حينَئذٍ ظاهِرةٌ، ويحتَمِلُ أن يُقالَ بأنَّ ذلك حينَئذٍ إشارةٌ إلى المقصودِ الآخَرِ، وهو الحَشرُ، كأنَّه يقولُ: بَنَيْنا السَّماءَ وإنَّا لَقادِرونَ على أن نَخلُقَ أمثالَها، =

= كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].
ثالِثُها: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الرِّزقَ على الخَلْقِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٨).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أنَّها مِنَ السَّعةِ، أي: أنَّه جَعَل بيْنَ السَّماءِ والأرضِ سَعَةً، ووَسَّعَ أرجاءَها: الزَّجَّاجُ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).
قال أبو حيان: (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: أي: بِناءَها، فالجُملةُ حاليَّةٌ، أي: بَنَيْناها مُوسِعِيها، كقَولِه: جاء زَيدٌ وإنَّه لَمُسرِعٌ، أي: مُسرِعًا، فهي بحيثُ إنَّ الأرضَ وما يحيطُ مِنَ الماءِ والهواءِ كالنُّقطةِ وسَطَ الدَّائرةِ. وقال ابنُ زَيدٍ قريبًا من هذا، وهو: أنَّ الوُسعَ راجِعٌ إلى السَّماءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠).
ومِمَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: لَذُو سَعَةٍ لِخَلْقِنا، أي: قادِرونَ على رِزْقِهم: الفَرَّاءُ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠).
ومِمَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائِها وأنحائِها، وإنَّا لَمُوسِعونَ أيضًا على عبادِنا، بالرِّزقِ الَّذي ما تَرَك اللهُ دابَّةً في مَهامِهِ القِفارِ، ولُجَجِ البِحارِ، وأقطارِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، إلَّا وأوصَلَ إليها من الرِّزقِ ما يَكفيها، وساق إليها من الإحسانِ ما يُغنِيها. فسُبْحانَ مَن عَمَّ بجُودِه جميعَ المخلوقاتِ، وتبارَكَ الَّذي وَسِعَت رَحمتُه جميعَ البَرِيَّاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).
ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: لَذو سَعَةٍ بخَلْقِها وخَلْقِ ما شاء أن يَخْلُقَه، وقُدرةٍ عليه: ابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩).
ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: نحن قادِرونَ على أن نُوسِعَها كما نُريدُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧).
ومِمَّن اختار العُمومَ: البِقاعي، فقال: (﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياءُ وقادِرونَ ذَوو سَعةٍ لا تَتناهى، أي: قُدرةٍ، مِنَ الوُسعِ، وهو اللَّطافةُ، وكذلك أوسَعْنا مِقدارَ جِرْمِها وما فيها مِنَ الرِّزقِ على أهلِها، فالأرضُ كُلُّها على اتِّساعِها كالنُّقطةِ في وَسَطِ دائرةِ السَّماءِ بما اقتضَتْه صِفةُ الإلهيَّةِ الَّتي لا يَصِحُّ فيها الشَّرِكةُ أصلًا، ومُطيقون لِما لا يُحصى من أمثالِ ذلك، ومِمَّا هو أعظَمُ منه مِمَّا لا يتناهى، =

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ٤٨﴾.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾.

أي: وبَسَطْنا الأرضَ وجعَلْناها كالفِراشِ؛ لِيَسهُلَ على الخَلْقِ الانتِفاعُ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].

﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الفِراشُ قد يكونُ صالِحًا للانتِفاعِ مِن كُلِّ وَجهٍ، وقد يكونُ مِن وَجهٍ دونَ وَجهٍ؛ أخبَرَ تعالى أنَّه مَهَّدَها أحسَنَ مِهادٍ، على أكمَلِ الوُجوهِ وأحسَنِها، وأثنَى على نَفْسِه بذلك؛ تذكيرًا بعَظَمتِه ونِعمتِه[2].

﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾

أي: فنِعْمَ الماهِدونَ نحنُ؛ حيث جعَلْنا الأرضَ مَهْدًا لأهْلِها، بتَسويتِها وإصلاحِها[3]!

= ومحيطون بكُلِّ شَيءٍ قُدرةً وعِلمًا، وجَديرون وحَقيقون بأن يكونَ ذلك مِن أوصافِنا، فنُوصَفُ به لِما يُشاهَدُ لنا مِن القُوَّةِ على كُلِّ ما نريدُ؛ فلَسْنا كمَنْ يُعرَفون مِن الملوكِ؛ لأنَّهم إذا فعَلوا لا يَقدِرونَ على أعظَمَ منه، وإن قَدَروا كان ذلك منهم بكُلفةٍ ومشَقَّةٍ، ... ومِن اتِّساعِنا جَعْلُها بلا عَمَدٍ، معَ ما هي عليه مِن العَظَمةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الخارقةِ للعوائِدِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أشعَرَ قولُه: ﴿ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذَّاريات: ٤٨] بأنَّ في ذلك نِعمةً على الموجوداتِ الَّتي على الأرضِ؛ أُتبِعَ ذلك بصِفةِ خلْقِ تلك الموجوداتِ؛ لِمَا فيه مِن دَلالةٍ على تَفرُّدِ اللهِ تعالى بالخلْقِ المُستلزِمِ لتفرُّدِه بالإلهيَّةِ، فقال[(١)]:

﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: وخَلَقْنا مِن كُلِّ شَيءٍ صِنفَينِ؛ لعَلَّكم تَتذكَّرونَ بذلك وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى، وكَمالَ قُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، أو غيرِ ذلك[(٢)].

= (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧- ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧-١٨).

قيل: المرادُ بالزَّوجَينِ هنا: الشَّيئانِ المُتقابِلانِ؛ كالذَّكَرِ والأُنثى، والشَّمسِ والقَمَرِ، والحَرِّ والبَردِ، والحُلوِ والحامِضِ، والسَّعادةِ والشَّقاوةِ، وغيرِ ذلك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيميَّة، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠، ١٦١).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧).

وقيل: المرادُ: الذَّكَرُ والأُنثى. وممَّن قال بهذا القولِ: الزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧، ١٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دعا العِبادَ إلى النَّظَرِ لآياتِه المُوجِبةِ لخَشيتِه، والإنابةِ إليه؛ أمَرَ بما هو المقصودُ مِن ذلك، وهو الفِرارُ إليه، فقال[1]:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك: فاهرُبوا إلى اللهِ تعالى؛ بالإيمانِ به، والعَمَلِ بطاعتِه، والتَّوبةِ إليه، والتَّوكُّلِ عليه[2].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((إذا أخَذْتَ مَضجَعَك فتَوَضَّأْ وُضوءَك للصَّلاةِ، ثمَّ اضطَجِعْ على شِقِّك الأيمنِ، ثمَّ قُلْ: اللَّهمَّ إنِّي أسلَمتُ وَجهي إليك، وفوَّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظَهري إليكَ؛ رَغبةً ورَهبةً إليك، لا مَلْجأَ ولا مَنجَى منك إلَّا إليك، آمَنْتُ بكِتابِك الَّذي

= ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦١، ١٦٢).

أنزَلْتَ، وبنَبِيِّكَ الَّذي أرسَلْتَ، واجعَلْهُنَّ مِن آخِرِ كَلامِك؛ فإنْ مِتَّ مِن لَيلتِكَ مِتَّ وأنت على الفِطرةِ))[1].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، فأُحَذِّرُكم وأخَوِّفُكم عِقابَه على الكُفرِ به ومَعصيتِه[2]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩].

ثمَّ ذَكَر اللهُ تعالى أعظَمَ ما يَجِبُ أن يَفِرَّ المرءُ منه، وهو الشِّرْكُ، فقال تعالى[3]:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

أي: ولا تَجعَلوا مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل أخْلِصوا له العِبادةَ، ولا تُشرِكوا به شَيئًا[4].

كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، فأُحَذِّرُكم وأُخَوِّفُكم مِن عِبادتِكم

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٧)، ومسلمٌ (٢٧١٠) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

غَيرَه[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كُلُّ ما يُصيبُ الإنسانَ مِن مِحَنِ الدُّنيا ومَصائِبِها، وأمراضِها وخُصوماتِها، ومِن جَميعِ بَلائِها: لا يُنْجيه مِن شَيءٍ منه إلَّا فِرارُه إلى اللهِ؛ ففي العَدالةِ الشَّرعيَّةِ ما يَقطَعُ كُلَّ نِزاعٍ، وفي المواعِظِ الدِّينيَّةِ ما يُهَوِّنُ كُلَّ مُصابٍ، وفي الهِدايةِ القُرآنيَّةِ والسِّيرةِ النَّبَويَّةِ ما يُنيرُ كُلَّ سَبيلٍ مِن سُبُلِ النَّجاةِ والسَّعادةِ في الحياةِ، يَعرِفُ ذلك الفُقَهاءُ القُرآنيُّونَ السُّنِّيُّونَ، واسألوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ[٢].

٢- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليس الفِرارُ مِن الأمراضِ بمُعالجتِها، ومِن المصائِبِ بمقاوَمتِها فِرارًا مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الأمراضَ هو قَدَّرَها، والأدويةَ هو وَضَعَها، ودعا إلى استِعمالِها والتَّعالُجِ بها، وكذلك المصائِبُ وما شُرِعَ مِن أسبابِ مُقاومتِها، فكُلُّها منه بقَدَرِه، والإنسانُ مأمورٌ منه بأن يُعالِجَ ويُقاوِمَ، فما فَرَّ مِن قَدَرِه إلَّا إلى قَدَرِه؛ ولهذا لَمَّا قال أبو عُبَيدةَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ الوَباءِ: (أفِرارًا مِن قَدَرِ اللهِ يا عُمَرُ؟! قال عُمَرُ: نَعَمْ، نَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ!)[٣]، وفي الحقيقةِ كان الفِرارُ مِن شَرٍّ في مخلوقٍ إلى اللهِ يرجو منه الخَيرَ في غَيرِه[٤].

٣- أنَّ العبدَ لا يَعصِمُه مِن اللهِ أحدٌ إنْ أراد به سُوءًا أو أراد به رَحمةً، وليس

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) مطوَّلًا.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

له مِن دونِ اللهِ وليٌّ ولا نَصيرٌ، فأين نَفِرُّ مِن أمْرِه وحُكْمِه ولا مَلْجأَ منه إلَّا إليه؟! قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، وهذا أمرٌ يَعرِفُه النَّاسُ مِن أهلِ طاعةِ اللهِ وأهلِ مَعصيتِه[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الفِرارُ إليه سُبحانَه، أي: الفِرارُ مِمَّا يَكرَهُه اللهُ ظاهِرًا وباطِنًا إلى ما يُحِبُّه ظاهِرًا وباطِنًا؛ فِرارٌ مِنَ الجَهلِ إلى العِلمِ، ومِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ، ومِنَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، ومِنَ الغَفلةِ إلى ذِكرِ اللهِ؛ فمَنِ استكمَلَ هذه الأُمورَ فقد استكمَلَ الدِّينَ كُلَّه، وقد زال عنه المرهوبُ، وحصَلَ له نِهايةُ المرادِ والمَطلوبِ[2].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليس المقصودُ بالفِرارِ مِنَ الدُّنيا تَرْكَ السَّعيِ والعَمَلِ وتعاطي الأسبابِ المشروعةِ لِتَحصيلِ القُوتِ، ورَغَدِ العَيشِ، وتَوسيعِ العُمرانِ، وتَشييدِ المَدَنيَّةِ!

بل المقصودُ: الفِرارُ مِن شُرورِها وفِتنتِها. وتناوُلُ ذلك كُلِّه على الوَجهِ المَشروعِ هو مِنَ الفِرارِ إليه، والدُّخولِ تحتَ شَرعِه، وقد ضَلَّ قَومٌ فزَعَموا ذلك طاعةً وعِبادةً؛ فعَطَّلوا الأسبابَ، وخالَفوا الشَّريعةَ، وحادوا عمَّا ثَبَت مِنَ السُّنَّةِ! وفيهم سُئِلَ إمامُ الحديثِ والسُّنَّةِ أحمدُ بنُ حَنبلٍ رَحِمه اللهُ؛ سُئِلَ عن القائِلِ: أجلِسُ لا أعمَلُ شَيئًا حتَّى يأتيَني رِزقي! فقال: «هذا رجُلٌ جَهِلَ العِلمَ؛ أمَا سَمِعَ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم...: ((تَغدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا[3]))[4]، وكان

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٣) أي: تَغْدو بُكرةً وهي جِياعٌ، وتَروحُ عِشاءً وهي مُمتَلِئةُ الأجوافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه مِن طُرقٍ مطوَّلًا: الترمذيُّ (٢٣٤٤)، وابنُ ماجه (٤١٦٤)، وأحمدُ (٣٧٠) مِن حديثِ =

الصَّحابةُ يَتَّجِرونَ في البَرِّ والبَحرِ، ويَعمَلونَ في نَخيلِهم، وبهم القُدوةُ[١].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ حَقيقةُ الفِرارِ: الهَرَبُ مِن شَيءٍ إلى شَيءٍ، وهو نَوعانِ: فِرارُ السُّعَداءِ، وفِرارُ الأشقياءِ؛ ففِرارُ السُّعَداءِ: الفِرارُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وفِرارُ الأشقياءِ: الفِرارُ منه لا إليه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ سَمَّى اللهُ تعالى الرُّجوعَ إليه فِرارًا؛ لأنَّ في الرُّجوعِ لِغَيرِه أنواعَ المَخاوِفِ والمَكارِهِ، وفي الرُّجوعِ إليه أنواعَ المحابِّ، والأمنَ والسُّرورَ، والسَّعادةَ والفَوزَ؛ فيَفِرُّ العَبدُ مِن قَضائِه وقَدَرِه إلى قَضائِه وقَدَرِه، وكُلُّ مَن خِفْتَ منه فرَرْتَ منه إلَّا الله تعالى؛ فإنَّه بحَسَبِ الخَوفِ منه يكونُ الفِرارُ إليه[٣]!

٨- قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۞ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا مِنَ الفِرارِ إلى اللهِ تعالى، بل هذا أصلُ الفِرارِ إليه؛ أن يَفِرَّ العَبدُ مِن اتِّخاذِ آلِهةٍ غَيرِ اللهِ؛ مِنَ الأوثانِ والأندادِ والقُبورِ، وغَيرِها مِمَّا عُبِدَ من دونِ اللهِ، ويُخلِصَ العَبدُ لرَبِّه العِبادةَ، والخَوفَ والرَّجاءَ، والدُّعاءَ والإنابةَ[٤].

= عمَرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ لا نَعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ)، وصحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٣٠)، وابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٧١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٦٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١/ ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ فيه أنَّ السَّماءَ مَبْنيَّةٌ، إذًا هي أجرامٌ، ولا شكَّ في هذا(١). وفيه دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ ما يَزعُمُه مَلاحِدةُ الكَفَرةِ، ومَن قَلَّدَهم مِن مَطموسي البَصائِرِ مِمَّن يَدَّعونَ الإسلامَ: أنَّ السَّماءَ فَضاءٌ لا جِرْمٌ مَبنيٌّ- أنَّه كُفرٌ وإلحادٌ وزَندَقةٌ، وتكذيبٌ لِنُصوصِ القُرآنِ العَظيمِ(٢)!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ كَرَّر عزَّ وجلَّ ذِكرَ البناءِ في السَّمَواتِ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [غافر: ٦٤]، فما الحِكمةُ فيه؟

الجَوابُ مِن وُجوهٍ:

منها: أنَّ البِناءَ باقٍ إلى قيامِ القيامةِ لم يَسقُطْ منه شَيءٌ، ولم يَعدَمْ منه جزءٌ، وأمَّا الأرضُ فهي في التَّبدُّلِ والتَّغيُّرِ، فهي كالفَرشِ الَّذي يُبسَطُ ويُطوى ويُنقَلُ، والسَّماءُ كالبِناءِ المبنيِّ الثَّابِتِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]، وأمَّا الأراضي فكَمْ منها ما صار بحرًا وعاد أرضًا مِن وَقتِ حُدوثِها.

ومنها: أنَّ السَّماءَ تُرى كالقُبَّةِ المَبنيَّةِ فوقَ الرُّؤوسِ، والأرضُ مَبسوطةٌ مَدْحُوَّةٌ، والبِناءُ بالمَرفوعِ أليَقُ، كما قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾(٣) [النازعات: ٢٨].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ إذا كان المقصودُ إثباتَ التَّوحيدِ، فكيف قال: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾، ولم يَقُلْ: «بَنَيتُها» أو «بَناها اللهُ»؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٧).

والجوابُ: أنَّ قولَه: «بَنَيْنا» أدلُّ على عَدَمِ الشَّريكِ في التَّصرُّفِ والتَّدبيرِ، وقَولُه: «بَنَيتُها» يُمكِنُ أن يكونَ فيه تشريكٌ، وتمامُ التَّقريرِ: هو أنَّ قولَه تعالى: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ لا يُورِثُ إيهامًا بأنَّ الآلهةَ الَّتي كانوا يَعبُدونَها هي الَّتي يَرجِعُ إليها الضَّميرُ في ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾؛ لأنَّ تلك إمَّا أصنامٌ مَنحوتةٌ، وإمَّا كواكِبُ جَعَلوا الأصنامَ على صُوَرِها وطبائِعِها؛ فأمَّا الأصنامُ المنحوتةُ فلا يَشُكُّونَ أنَّها ما بَنَت مِنَ السَّماءِ شَيئًا، وأمَّا الكواكِبُ فهي في السَّماءِ مُحتاجةٌ إليها؛ فلا تكونُ هي بانِيتَها، وإنَّما يمكِنُ أن يُقالَ: إنَّما بُنِيَت لها، وجُعِلَت أماكِنَها، فلمَّا لم يُتوَهَّمْ ما قالوا، قال: بَنَيْنا نحنُ، ونحن غيرُ ما يقولونَ ويَدَّعونَه، فلا يَصلُحونَ لنا شُركاءَ؛ لأنَّ كُلَّ ما هو غيرُ السَّماءِ ودونَ السَّماءِ في المَرتبةِ: لا يكونُ خالِقَ السَّماءِ وبانيَها؛ فإذَنْ عُلِمَ أنَّ المرادَ جَمعُ التَّعظيمِ، وأفاد النَّصُّ عَظَمتَه، فالعَظَمةُ أنفى للشَّريكِ؛ فثَبَت أنَّ قَولَه: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ أدَلُّ على نَفيِ الشَّريكِ مِن «بَنَيتُها» و«بناها اللهُ»[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ﴾، وقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، وقَولِه: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُناسَباتٌ في كُلٍّ منها؛ فإنَّه لَمَّا كانت السَّماءُ مُتلاحِمةَ الأجزاءِ في العَلاءِ، ثابتةً على حالةٍ مُستَمِرَّةٍ في هذه الدُّنيا على البَقاءِ؛ ناسبَها لفظُ البِناءِ، ولَمَّا كانت مَظهَرَ العَظَمةِ والجَلالِ ناسبها لَفظُ القُوَّة، ولَمَّا كانت الأرضُ يَطرَأُ عليها التَّبديلُ والتَّغييرُ بما يَنقُصُ البَحرُ مِن أطرافِها، وبما قد يتحَوَّلُ مِن سُهولِها وجبالِها، وبما يَتعاقَبُ عليها مِن حَرثٍ وغِراسةٍ، وخِصْبٍ وجَدْبٍ؛ ناسَبَها لَفظُ الفِراشِ الَّذي يُبسَطُ ويُطوَى، ويُبدَّلُ ويُغَيَّرُ، ولَمَّا كانت أسبابُ الانتِفاعِ بها المُيَسَّرةُ ضَروريَّةً للحياةِ عليها، وكُلُّها مُهَيَّأةٌ، وكَثيرٌ منها مُشاهَدٌ، وغَيرُه مُعَدٌّ يُتوصَّلُ إليه بالبَحثِ والاستِنباطِ؛ ناسَبَ ذِكرُ التَّمهيدِ، ولَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٧).

كانت الأزواجُ مُكوَّنًا بَعضُها مِن بَعضٍ ناسَبَها لَفظُ الخَلقِ، ولَمَّا كان النَّظَرُ في الزَّوجَينِ هو نَظَرٌ في أساسِ التَّكوينِ لتلك المذكوراتِ السَّابِقةِ، وهو مُحَصِّلٌ للعِلمِ الَّذي يَحصُلُ مِنَ النَّظَرِ فيها- قُرِنَ بلَفظِ التَّذَكُّرِ(١).

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ * وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ المقصودُ الأساسيُّ مِن الآياتِ هو تحذيرُ الخَلقِ مِن الهَلاكِ، وتَرغيبُهم في النَّجاةِ، ولا سَبيلَ إلى ذلك إلَّا بالفِرارِ إلى اللهِ تعالى؛ فمَهَّد لذلك بالآياتِ الثَّلاثِ الأُوَلِ؛ للتَّرغيبِ فيه، وخَتَم بالخامِسةِ؛ لبيانِ الفِرارِ الصَّحيحِ المُنَجِّي عندَ اللهِ(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ السَّماءَ كُرةٌ لا سَطحيَّةٌ؛ وَجهُ الدَّلالةِ: أنَّ قولَه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقتضي المُبالَغةَ في الاتِّساعِ؛ لأنَّه في مَقامِ الفَخرِ والامتِنانِ؛ والشَّكلُ الكُرويُّ أوسَعُ مِنَ المُسطَّحِ(٣)، فالسَّمَواتُ طِباقٌ؛ واحِدةٌ فَوقَ الأُخرى، وإذا كانت واحِدةٌ فَوقَ الأُخرى لَزِمَ أن تكونَ السَّماءُ الثَّانيةُ أوسَعَ مِنَ الأُولى؛ لأنَّها دائِرةٌ، والثَّالِثةُ أوسَعَ مِنَ الثَّانيةِ... وهَلُمَّ جَرًّا؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، كُلَّما ارتفَعْتَ في السَّمَواتِ اتَّسَعَت السَّمَواتُ(٤).

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ هذا استِدلالٌ بأثَرِ الخلْقِ الَّذي عايَنوا أثَرَه ولم يَشْهَدوا كَيفيَّتَه؛ لأنَّ أثَرَه يُنبِئُ عن عَظيمِ كَيفيَّتِه، وأنَّها أعظَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزخرف)) (ص: ٦٣).

ممَّا يُتصوَّرُ في كَيفيَّةِ إعادةِ الأجسامِ الباليةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ لَطيفةٌ: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّن عَظَمتَه بقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾، وهَيْبتَه بقَولِه: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [الذَّارِيات: ٤٠]، وقَولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذَّارِيات: ٤١]، وقَولِه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[٢] [الذَّارِيات: ٤٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ دَقيقةٌ كَونيَّةٌ؛ فإنَّ شأنَ الفِراشِ أن يكونَ ما تحتَه لا يَصلُحُ للجُلوسِ والنَّومِ عليه، وما تحتَ وَجهِ الأرضِ هو كذلك لا يَصلُحُ للحَياةِ فيه؛ فإنَّ تحتَ القِشرةِ العُليا مِنَ الأرضِ الموادَّ المصهورةَ، والمياهَ المَعدنيَّةَ، والأبخِرةَ الحارَّةَ؛ مِمَّا تَنطِقُ به البَراكينُ المُنتَشِرةُ على وَجهِ الأرضِ في أماكِنَ عَديدةٍ؛ فكانت القِشرةُ العُليا مِنَ الأرضِ مِثلَ الفِراشِ تمامًا[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ هو بعدَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّ بِناءَ البَيتِ يكونُ في العادةِ قبْلَ الفَرشِ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ دَلالةٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ إذ جَعَل الأرضَ مَبسوطةً -فيما يبدو للنَّاسِ من سطحِها، دونَ تعرُّضٍ إلى تكويرِها- لَمَّا أراد أن يَجعَلَ على سَطحِها أنواعَ الحَيوانِ يمشي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٨).

وآيةُ سورةِ (النَّازِعَات) تدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ بعدَ خَلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال فيها: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، ثُمَّ قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، لكنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلْقِ السَّماءِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤).

عليها ويَتوسَّدُها ويَضطَجِعُ عليها، ولو لم تكُنْ كذلك لَكانت مُحدَودِبةً تُؤلِمُ الماشيَ بَلْهَ المتوَسِّدَ والمُضطَجِعَ[(١)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ رَدٌّ على الفلاسِفةِ في قَولِهم: «لا يَنشَأُ عن الواحِدِ إلَّا واحِدٌ»[(٢)]!

١٣- تكوينُ هذه الخليقةِ هو مِن زَوجَينِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾؛ فكلُّ شيءٍ مِن الخليقةِ فلا بُدَّ لِتَركيبِه مِن زَوجَينِ، حتَّى المياهُ، وحتَّى الهواءُ، وكلُّ شَيءٍ[(٣)].

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ الزَّوجُ يُرادُ به النَّظيرُ المُماثِلُ، والضِّدُّ المخالِفُ، وهو النِّدُّ؛ فما مِن مخلوقٍ إلَّا له شَريكٌ ونِدٌّ، والرَّبُّ سُبحانَه وَحْدَه هو الَّذي لا شَريكَ له ولا نِدَّ، بل ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ[(٤)].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ فيه إنباءٌ عن سُرعةِ الإهلاكِ، كأنَّه يقولُ: الإهلاكُ والعَذابُ أسرَعُ وأقرَبُ مِن أن يَحتَمِلَ الحالُ الإبطاءَ في الرُّجوعِ؛ فافزَعوا إلى اللهِ سَريعًا وفِرُّوا[(٥)]!

١٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ﴾ في الرِّسالةِ أُمورٌ ثلاثةٌ: المُرسِلُ، والرَّسولُ، والمُرسَلُ إليه، وهاهنا ذَكَر الكُلَّ؛ فقَولُه: ﴿لَكُم﴾ إشارةٌ إلى المُرسَلِ إليهم، وقَولُه: ﴿مِّنۡهُ﴾ إشارةٌ إلى المُرسِلِ، وقَولُه: ﴿نَذِيرٞ﴾ بيانٌ للرَّسولِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٦٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٧- قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ في أمْرِه تعالَى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَأمُرَهم بالهرَبِ إليهِ تعالَى مِنْ عِقابِه، وتَعليلِه بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُنذِرُهم مِنْ جهتِه تعالَى لا مِنْ تِلْقاءِ نفْسِه: وعْدٌ كَريمٌ بنَجاتِهم مِن المَهروبِ، وفَوزِهم بالمطلوبِ[١].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ التَّحذيرُ مِن دُعاءِ إلهٍ مع اللهِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

- هذه الجُملةُ والجُمَلُ المعطوفةُ عليها إلى قَولِه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذَّارِيات: ٥١] مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ ...﴾ [الذَّارِيات: ٤٦] إلخ، وجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ [الذَّارِيات: ٥٢] الآيةَ. وابتُدِئَ بخلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّ السَّماءَ أعظَمُ مَخلوقٍ يُشاهِدُه النَّاسُ، وعُطِفَ عليه خلْقُ الأرضِ عطْفَ الشَّيءِ على مُخالِفِه؛ لاقترانِ المُتخالفَينِ في الجامعِ الخياليِّ، وعُطِفَ عليها خلْقُ أجناسِ الحيوانِ؛ لأنَّها قريبةٌ للأنظارِ، لا يُكلِّفُ النَّظرُ فيها والتَّدبُّرُ في أحوالِها ما يُرهِقُ الأذهانَ[٣].

- وتَقديمُ (السَّمَاءَ) على عامِلِه ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾؛ للاهتِمامِ به، ثمَّ بسُلوكِ طَريقةِ الاشتِغالِ[٤] زادَه تَقويةً؛ ليَتعلَّقَ المَفعولُ بفِعلِه مرَّتينِ: مرَّةً بنفْسِه، ومرَّةً

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٤) الاشتغالُ في مصطلَحِ النُّحاةِ معناه: إذا تَقدَّم اسمٌ على فِعلٍ صالحٍ لأنْ يَنصِبَه لفظًا أو محلًّا، وشُغِلَ الفِعلُ عن عمِلِه فيه بعمَلِه في ضميرِه، صحَّ في الاسمِ أنْ يُنصَبَ بفِعلٍ لا يَظهَرُ، مماثلٍ =

بضَميرِه؛ فإنَّ الاشتِغالَ في قُوَّةِ تكرُّرِ الجُملةِ، وزِيدَ تأْكيدُه بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ سَعةَ قُدْرةِ اللهِ تعالى؛ إذ أحالوا إعادةَ المَخلوقاتِ بعْدَ بِلاها[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾

- فيه تَقديمُ المفعولِ به ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ على عامِلِه ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾؛ للاهتِمامِ به، ثمَّ بسُلوكِ طَريقةِ الاشتغالِ زادَه تَقويةً؛ ليَتعلَّقَ المَفعولُ بفِعلِه مرَّتينِ: مرَّةً بنفْسِه، ومرَّةً بضَميرِه؛ فإنَّ الاشتغالَ في قُوَّةِ تَكرُّرِ الجُملةِ، وزِيدَ تأْكيدُه بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[3].

- واستُغْنِيَ هنا عن إعادةِ ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ [الذَّارِيات: ٤٧]؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه[4].

- قولُه: ﴿فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ لَمَّا كان في فرْشِها إرادةُ جَعلِها مَهدًا لِمَن عليها مِن الإنسانِ، أُتبِعَ ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ بتَفريعِ ثَناءِ اللهِ على نفْسِه على إجادةِ تَمْهيدِها فقال: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾؛ تذْكيرًا بعَظَمتِه ونِعمتِه، أي: فنِعمَ الماهِدون نحنُ. وصِيغةُ الجمْعِ ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ للتَّعظيمِ[5].

- وكذلِك رُوعِيَ في وصْفِ خلْقِ الأرضِ ما يَبْدو للنَّاسِ مِن سطْحِها؛ لأنَّه

= للظاهِرِ أو مُقارِبِه. وله أحوالٌ في إعرابِه. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن الناظم (ص: ١٧٢)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد الأزهري (١/ ٤٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذي يَهُمُّ النَّاسَ في الاستِدلالِ على قُدْرةِ اللهِ تعالى، وفي الامتِنانِ عليهم بما فيه لُطْفُهم والرِّفقُ بهم، دونَ تَعرُّضٍ إلى تَكويرِها؛ إذ لا يَبلُغون إلى إدراكِه، كما رُوعِيَ في ذِكرِ السَّماءِ ما يَبْدو مِن قُبَّةِ أجْوائِها دونَ بحْثٍ عن تَرامي أطْرافِها، وتَعدُّدِ عَوالِمِها لِمثلِ ذلك؛ ولذلك أُتبِعَ الاعتِراضُ بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ المُرادِ منه تلقينُ النَّاسِ الثَّناءَ على اللهِ فيما صنَعَ لهم فيها مِن مِنَّةٍ؛ لِيَشكُروه بذلك الثَّناءِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾

- هذا استِدلالٌ عليهم بخلْقٍ يُشاهِدونَ كَيفيَّاتِه وأطوارَه كلَّما لَفَتوا أبصارَهم، وقَدَحوا أفكارَهم، وهو خلْقُ الذَّكَرِ والأُنثى -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِيَكونَ منهما إنشاءُ خلْقٍ جديدٍ يَخلُفُ ما سلَفَه، وذلك أقرَبُ تَمثيلٍ لإنشاءِ الخلْقِ بعْدَ الفَناءِ، وهو البَعثُ الَّذي أنْكَروه؛ لأنَّ الأشياءَ تُقرَّبُ بما هو واضحٌ مِن أحوالِ أمْثالِها، ولذلك أتْبَعَه بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تَتفكَّرون في الفُروقِ بيْنَ المُمكناتِ والمُستحيلاتِ، وتَتفكَّرون في مَراتبِ الإمكانِ؛ فلا يَختلِطُ عليكم الاستبعادُ وقِلَّةُ الاعتيادِ بالاستِحالةِ، فتَتوهَّموا الغريبَ مُحالًا؛ فالتَّذكُّرُ مُستعمَلٌ في إعادةِ التَّفكُّرِ في الأشياءِ ومُراجعةِ أنفُسِهم فيما أحالوه؛ ليَعلَموا بعدَ إعادةِ النَّظرِ أنَّ ما أحالُوه مُمكِنٌ، ولكنَّهم لم يأْلَفوه، فاشتَبَه عليهم الغريبُ بالمُحالِ فأحالُوه، فلمَّا كان تَجديدُ التَّفكُّرِ المَغفولِ عنه شَبيهًا بتَذكُّرِ الشَّيءِ المَنْسيِّ، أُطلِق عليه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، وهذا في معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ * وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦٢]؛ فقد ذُيِّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

هنالك بالحثِّ على التَّذكُّرِ، كما ذُيِّلَ هنا برَجاءِ التَّذكُّرِ، فأفادَ أنَّ خلْقَ الذَّكَرِ والأُنثى مِن نُطفةٍ هو النَّشأةُ الأُولى، وأنَّها الدَّالَّةُ على النَّشأةِ الآخرةِ(١).

- وجُملةُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: رَجاءَ أنْ يكونَ في الزَّوجَينِ تذَكُّرٌ لكم، أي: دَلالةٌ مَغفولٌ عنها(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا فرَغَ مِن التَّعريضِ بالمكذِّبينَ الخرَّاصينَ في قولِه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الذَّاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ [الذَّاريات: ٣٨]، والتَّذكيرِ بشِدَّةِ سَطوتِه وكَمالِ قُدْرتِه في قَولِه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذَّاريات: ٤٧]؛ أمَرَ رسولَه صَلواتُ اللهِ عليه وسَلامُه بأنْ يقولَ لقَومِه: إذا ظهَرَ لكم شِدَّةُ قَهرِه وكَمالُ سَطوتِه، وما فعَلَ بالأُمَمِ المكذِّبةِ، وعرَفْتم كلَّ ذلك، وأنَّه إذا أخَذَ لا يُبْقي ولا يذَرُ؛ ففِرُّوا إلى اللهِ مِن اللهِ، واتْرُكوا العِنادَ، وخافُوا سُوءَ مَغبَّةِ تَكذيبِكم؛ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وتكريرُه إظهارًا للنَّصيحةِ، وأنَّه النَّذيرُ العُريانُ(٣)، وقولُه بعْدَ ذلك: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

ويجوزُ تعليقُ الفاءِ في ﴿فَفِرُّوا﴾ بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) هذا مَثَلٌ يُضرَبُ مبالغةً في صِدقِ النِّذارةِ؛ لأنَّه إذا كان عريانًا كان أبينَ، وأصلُه أنَّ الرَّجلَ إذا أراد إنذارَ قومِه وإعلامَهم بما يُوجِبُ المخافةَ نزَع ثوبَه، وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم؛ ليخبرَهم بما دهَمهم، وأكثرُ ما يفعَلُ هذا طليعةُ القومِ ورقيبُهم، قالوا: وإنَّما يفعلُ ذلك؛ لأنَّه أبينُ للنَّاظرِ وأغربُ وأشنعُ منظرًا، فهو أبلغُ في استحثاثِهم في التأهُّبِ للعدوِّ. وقيل: معناه النَّذيرُ الذي أدركَه جيشُ العدوِّ، فأخَذ ثيابَه، فهو يُنذِرُهم عريانًا. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قرقول (٤/ ٤١٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٨).

وتقريرُ ذلك: أنَّه تعالى لَمَّا أظْهَرَ القَهَّاريَّةَ بإهلاكِ الأُمَمِ الماضيةِ، وبيَّنَ الفَرْدانيَّةَ بقولِه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذَّاريات: ٤٩]، ونبَّه على ذلك بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ورتَّبَ عليه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ووضعَ الاسمَ الجامعَ مَوضعَ الضَّميرِ، يعني: إذا تفكَّرْتُم واعتبَرْتُم وتذكَّرْتُم، وتَبيَّن لكم أنَّه هو القهَّارُ الصَّمَدُ، وإليه المَرجِعُ والملْجأُ؛ فلُوذوا إليه، وتَوكَّلوا عليه، ولا تُشرِكوا به شيئًا، والعبادةُ مِن لَوازِمِ ذلك؛ ولذلك عقَّبَه بقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، وحينَ لم يكُنْ يَنجَعُ في المشركين تلك المواعظُ والتَّخويفُ والتَّذكيرُ، رجَعَ عَودًا إلى بَدْءٍ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ [الذَّاريات: ٥٢] إلى آخِرِه، مُسلِّيًا رسولَه صَلواتُ اللهِ عليه، وجُعِلَ التَّخلُّصُ إلى المَقصودِ مِن الخلْقِ قولُه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [الذَّاريات: ٥٥].

فبعْدَ أنْ بُيِّنَ ضَلالُ هؤلاء في تَكذيبِهم بالبَعثِ بَيانًا بالبُرهانِ السَّاطعِ، ومُثِّلَ حالُهم بحالِ الأُمَمِ الَّذين سَلَفوهم في التَّكذيبِ بالرُّسلِ وما جاؤوا به، جمْعًا بيْنَ الموعظةِ للضَّالِّينَ وتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، وكانتْ فيما مَضى مِن الاستدلالِ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ مُتفرِّدٌ بخلْقِ العالَمِ، وفي ذلك إبطالُ إشراكِهم مع اللهِ آلهةً أُخرى -أقبَلَ اللهُ على تَلقينِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَستخلِصُه لهم عقِبَ ذلك؛ بأنْ يَدعُوهم إلى الرُّجوعِ إلى الحقِّ بقولِه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فالجُملةُ المُفرَّعةُ بالفاءِ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: فقُلْ: فِرُّوا، دلَّ عليه قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنَّه كلامٌ لا يَصدُرُ إلَّا مِن قائلٍ، ولا يَستقيمُ أنْ يكونَ كَلامَ مُبلِّغٍ. وحذْفُ القولِ كَثيرُ الوُرودِ في القرآنِ، وهو مِن ضُروبِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨، ١٩).

إيجازِه، فالفاءُ مِن الكلامِ الَّذي يَقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُفادُها التَّفريعُ، وليست مُفرِّعةً فِعلَ الأمْرِ المحذوفَ؛ لأنَّ المُفرَّعَ بالفاءِ هو ما يُذكَرُ بعْدَها، فقولُه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مقدرٌ لقولٍ خُوطِبَ بِه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطريقِ التَّلوينِ، والفاءُ إمَّا لترتيبِ الأمرِ على ما حُكِيَ من آثارِ غضَبِه الموجِبةِ للفرارِ منها، ومِن أحكامِ رحمتِه المستدعيةِ للفرارِ إليها، كأنَّه قيلَ: قُلْ لهم: إذا كانَ الأمرُ كذلكَ فاهرُبوا إلى اللهِ الَّذي هذه شُؤونُه بالإيمانِ والطَّاعةِ؛ كيْ تَنجوا من عِقابِه، وتَفوزُوا بثَوابِه، وإمَّا للعَطفِ على جملةٍ مقدَّرةٍ مترتِّبةٍ على قولِه تعالَى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنَّه قيلَ: قُلْ لهم: فتَذكَّروا، ففِرُّوا إلى اللهِ... إلخ[(١)].

- وقد غُيِّر أُسلوبُ الموعظةِ إلى تَوجيهِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم هذه الموعظةَ؛ لأنَّ لتَعدُّدِ الواعظينَ تأثيرًا على نُفوسِ المُخاطَبينَ بالمَوعظةِ[(٢)]، فجاءت هذه الآيةُ كما يكونُ قَولُها مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنويعًا للخِطابِ وتفَنُّنًا؛ فإنَّه لَمَّا كان في هذه الآيةِ هو المقصودَ حوَّل أُسلوبَ الكلامِ مِنَ الإخبارِ إلى الأمرِ؛ تَجديدًا لنَشاطِ السَّامِعِ، وبَعْثًا لاهتِمامِ المُخاطَبينَ، وحَثًّا لهم، وتوكيدًا عليهم. وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما يَقولُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم مِثلُ ما يَقولُه اللهُ، في وُجوبِ الإيمانِ والامتثالِ[(٣)].

- وقولُه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بالدُّخولِ في الإيمانِ وطاعةِ اللهِ، وجُعِلَ الأمْرُ بذلك بلَفظِ الفِرارِ؛ ليُنبِّهَ على أنَّ وَراءَ الناسِ عِقابًا وعذابًا، وأمْرًا حقُّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦١).

أنْ يُفَرَّ منه، فجمَعَت لَفظةُ ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ بيْنَ التَّحذيرِ والاستِدعاءِ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بـ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ باعتبارِ أنَّ الغايةَ مِن الإنذارِ قصْدُ السَّلامةِ مِن العِقابِ؛ فصار الإنذارُ بهذا الاعتبارِ تَعليلًا للأمْرِ بالفِرارِ إلى اللهِ، أي: التَّوجُّهِ إليه وحْدَه. أو تَعليلٌ لوُجوبِ الامتثالِ بالفرارِ؛ فإنَّ كَونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنذِرًا منهُ تعالَى مُوجِبٌ عليهِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يأمُرَهُم بالفرارِ إليهِ، وعليهم أنْ يَمتثِلُوا به[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ عطْفُ قولِه: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ على ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ نهْيٌ عن نِسبةِ الإلهيَّةِ إلى أحدٍ غَيرِ اللهِ؛ فجُمِعَ بيْنَ الأمرِ والنَّهيِ مُبالَغةً في التَّأكيدِ بنفْيِ الضِّدِّ لإثباتِ ضِدِّه[3].

- وكُرِّرَ قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ مُرتَّبٌ على ترْكِ الإيمانِ والطَّاعةِ، والثَّاني على الإشراكِ. وقيل: فائدةُ التَّكرارِ: التَّنبيهُ على أنَّه لا تَنفَعُ العِبادةُ مع الإشراكِ؛ إذ حُكْمُ المشرِكِ حكْمُ الجاحِدِ المُعطِّلِ، أو المأمورُ به في الأوَّلِ الطَّاعةُ المُوظَّفةُ بعْدَ الإيمانِ، فتُوُعِّدَ تارِكُها بالوعيدِ المعروفِ دونَ الخُلودِ، فيكونُ وَعيدًا مُختلِفًا لا تَكرارًا[4].

أو فيه تأكيدٌ لِما قبْلَه مِنَ الأمْرِ بالفِرارِ مِن العِقابِ إليه تعالَى، لكنْ لا بطَريقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣).

التَّكريرِ كما قِيل، بل بالنَّهيِ عن سَببِه، وإيجابِ الفرارِ منه[(١)].

وقيل: أعادها هنا؛ لِيُبيِّنَ لهم أنَّ عِبادةَ اللهِ مع الإشراكِ به كتَعطيلِ عِبادتِه؛ فهَلاكُ المُشرِكِ كهَلاكِ الجاحِدِ، والنَّجاةُ أن تَعبُدوا اللهَ ولا تُشرِكوا به شَيئًا لا في رُبوبيَّتِه ولا في أُلوهيَّتِه[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٣).

الآيات (٥٢-٥٥)

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾: أي: أَأَوصى بَعضُهم بعضًا بهذه المقالةِ، وتواطَؤوا عليها، وأصلُ (وصي): يدُلُّ على وَصْلِ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه الوصِيَّةُ، كأنَّه كلامٌ يُوصَى، أيْ: يُوصَلُ[١].

﴿طَاغُونَ﴾: أي: مُتَجاوِزونَ حُدودَ اللهِ بالعِصيانِ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ[٢].

﴿فَتَوَلَّ﴾: أي: فأعرِضْ؛ فالتَّولِّي إذا عُدِّيَ بـ (عن) لَفظًا أو تقديرًا اقتَضى معنى الإعراضِ[٣].

﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾: أي: التَّذكيرَ، وأصلُ (ذكر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى مواقفَ الكفَّارِ -في الأممِ السَّابقةِ- مِن رُسلِهم، مسلِّيًا رسولَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)،((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٦) و(٢١/ ٥٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا ناله مِن تكذيبٍ مِن المشركين، فيقولُ: كَذَّبَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم مِثلَ تَكذيبِ قُرَيشٍ نَبيَّها، فقالت كُلُّ أُمَّةٍ منهم لِرَسولِهم: هو ساحِرٌ أو مَجنونٌ! فهل أوصى الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك القَولِ، فاتَّفَقت كَلِمتُهم على تَكذيبِ رُسُلِهم ووَصْفِهم بهذا الوَصفِ؟! بَلِ اتَّفَقَت أقوالُهم في هذا الشَّأنِ؛ لأنَّهم قَومٌ مُتعَدُّونَ أمْرَ اللهِ، مُتجاوِزونَ لحُدودِه.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى رسولَه بالإعراضِ عنهم، فيقولُ: فأَعرِضْ -يا محمَّدُ- عنهم؛ فلَسْتَ بمَلُومٍ مِنَ اللهِ؛ فقد بلَّغْتَ رِسالةَ رَبِّك، وذَكِّرْ؛ فإنَّ الذِّكْرى تنفَعُ المؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قَولَهم المُختَلِفَ الَّذي منه تَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونِسبتُه إلى السِّحرِ والجُنونِ وغَيرِ ذلك مِنَ الفُنونِ، ومنه الإشراكُ مع اعترافِهم بأنَّه لا خالِقَ إلَّا اللهُ، ولا كاشِفَ ضُرٍّ غَيرُه، إلى غَيرِ ذلك مِن أنواعِ الاضطِرابِ، وأخبَرَ بهلاكِهم على ذلك، وحَذَّرهم منه، ودَلَّ عليه إلى أنْ خَتَم بإنذارِ مَنِ اتَّخَذ إلهًا غيرَه- قال مُسَلِّيًا[١]:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾.

أي: مِثْلَ ما كذَّبَتْ قُرَيشٌ نَبيَّها ووصَفَتْه بأوصافٍ باطِلةٍ كَذَّبَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ مِن قبْلِ قُرَيشٍ رُسُلَهم، فقالت كُلُّ أُمَّةٍ منهم لِرَسولِهم: هو ساحِرٌ أو

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٨).

مَجنونٌ[(١)]!

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٥٣﴾.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾.

أي: هل أوصَى الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك القَولِ، فاتَّفَقت كَلِمتُهم على تَكذيبِ رُسُلِهم، ووَصْفِهم بالسِّحرِ أو الجُنونِ[(٢)]؟!

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أي: لم يُوصِ الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك، وإنَّما اتَّفَقَت أقوالُهم في هذا الشَّأنِ؛ لاشتِراكِهم في صِفةِ الطُّغيانِ، فجَميعُهم مُتعَدُّونَ أمْرَ اللهِ، مُتجاوِزونَ لحُدودِه، لا يأتَمِرونَ بأَمْرِه، ولا يَنتَهُونَ عن نَهْيِه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ٥٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه تَسليةٌ أُخرى؛ وذلك لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مِن كَرَمِ الأخلاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٣، ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢، ٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

يَنسُبُ نَفْسَه إلى تَقصيرٍ، ويقولُ: إنَّ عَدَمَ إيمانِهم لِتَقصيري في التَّبليغ! فيَجتَهِدُ في الإنذارِ والتَّبليغِ، فلَمَّا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يكادُ يُتلِفُ نفْسَه الشَّريفةَ؛ غَمًّا عليهم، وأسَفًا لتخَلُّفِهم عن الإسلامِ، وخَوفًا ألَّا يكونَ وَفَى بما عليه مِنَ التَّنبيهِ والإعلامِ- سَبَّب تعالى عن حالِهم قَولَه[١]:

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن هؤلاء المكَذِّبينَ المُعانِدينَ للحَقِّ رَغْمَ ظُهورِه، وقيامِ الحُجَّةِ عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٧٤].

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾.

أي: فلَسْتَ بمَلُومٍ مِنَ اللهِ؛ فقد بلَّغْتَهم رِسالةَ رَبِّهم، ونصَحْتَ لهم، ولم يقَعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (كُلُّ مَن لم يُصْغِ إليه [أي: النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم] ولم يَستَمِعْ لِقَولِه فإنَّه يُعرِضُ عنه، كما قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فهو إذا بلَّغ قَومًا الرِّسالةَ فقامت الحُجَّةُ عليهم، ثمَّ امتَنَعوا مِن سَماعِ كَلامِه، أعرَضَ عنهم؛ فإنَّ الذِّكرى حينَئِذٍ لا تَنفَعُ أحَدًا، وكذلك مَن أظهَرَ أنَّ الحُجَّةَ قامت عليه، وأنَّه لا يَهتَدي، فإنَّه لا يُكَرَّرُ التَّبليغُ عليه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (أي: أعرِضْ عن الإلحاحِ في جِدالِهم؛ فقد كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شَديدَ الحِرصِ على إيمانِهم، ويَغتَمُّ مِن أجْلِ عِنادِهم في كُفرِهم، فكان اللهُ يُعاوِدُ تَسليتَه الفَينةَ بعدَ الفَينةِ، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

مِنك تَفريطٌ في دَعوتِهم[١].

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

أي: وذكِّرْ -يا محمَّدُ- فإنَّ التَّذكيرَ يَنفَعُ حَقًّا أهلَ الإيمانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ الدَّاعيةَ لا بُدَّ أنْ يكونَ صابِرًا على ما يَعترِضُه مِن الأذى؛ لأنَّ الدَّاعيةَ لا بُدَّ أنْ يُؤذَى إمَّا بالقَولِ وإمَّا بالفِعلِ، وهاهُم الرُّسُلُ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- أُوذُوا بالقَولِ، وأُوذوا بالفِعلِ، اقرأْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾، ومع هذا فالرُّسُلُ صَبَروا على ما أُوذوا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآيةُ الكَريمةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

قال السعدي: (التَّذكيرُ نَوعانِ: تَذكيرٌ بما لم يُعرَفْ تَفصيلُه مِمَّا عُرِف مُجمَلُه بالفِطَرِ والعُقولِ؛ فإنَّ اللهَ فَطَرَ العُقولَ على محبَّةِ الخَيرِ وإيثارِه، وكراهةِ الشَّرِّ والزُّهدِ فيه، وشَرْعُه مُوافِقٌ لذلك، فكُلُّ أمرٍ ونَهيٍ مِنَ الشَّرعِ فإنَّه مِنَ التَّذكيرِ، وتمامُ التَّذكيرِ أن يُذكَّرَ بما في المأمورِ به مِنَ الخَيرِ والحُسنِ والمصالِحِ، وما في المنهيِّ عنه مِنَ المَضارِّ.

والنَّوعُ الثَّاني مِنَ التَّذكيرِ: تذكيرٌ بما هو معلومٌ للمُؤمِنينَ، ولكِنِ انسحَبَت عليه الغَفلةُ والذُّهولُ، فيُذَكَّرونَ بذلك، ويُكَرَّرُ عليهم؛ لِيَرسَخَ في أذهانِهم، ويَنتَبِهوا ويَعمَلوا بما تذَكَّروه مِن ذلك، ولِيُحدِثَ لهم نشاطًا وهِمَّةً تُوجِبُ لهم الانتِفاعَ والارتِفاعَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٣) يُنظر: ((زاد الداعية إلى الله)) لابن عثيمين (ص: ١٤).

تضَمَّنَتْ واحِدةً مِن حِكَمِ التَّذكيرِ، وهي رَجاءُ انتِفاعِ المذَكَّرِ به؛ لأنَّه تعالى قال هنا: ﴿وَذَكِّرْ﴾، ورتَّب عليه قولَه: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومِن حِكَمِ التَّذكيرِ أيضًا: خُروجُ المُذَكِّرِ مِن عُهدةِ التَّكليفِ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وقد جمَعَ اللهُ هاتينِ الحِكمَتينِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ومن حِكَمِ ذلك أيضًا النِّيابةُ عن الرُّسُلِ في إقامةِ حُجَّةِ اللهِ على خَلْقِه في أرضِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقد بيَّنَ هذه الحُجَّةَ في آخرِ سُورةِ (طه) في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤]، وأشار لها في (القَصَص) في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [القصص: ٤٧].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّه كُلَّما كان الإيمانُ أقوى كان الانتِفاعُ بالذِّكرى أعظَمَ وأشَدَّ، وذلك مِن قاعدةٍ مَعروفةٍ عندَ العُلَماءِ، وهي: «أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ ازداد بزيادتِه، ونَقَصَ بنُقصانِه»[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ التَّذكيرَ واجِبٌ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ الذِّكرى لا ينتَفِعُ بها

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).

كُلُّ النَّاسِ؛ فغَيرُ المؤمنِ الذِّكرى تُقيمُ عليه الحُجَّةَ لكِنْ لا تَنفَعُه؛ لا تنفَعُ الذِّكرى إلَّا المؤمنَ[(١)]، فهذه آيةٌ غَليظةٌ على مَن لا يَنتفِعُ بالموعِظةِ؛ لِمَا يُخشَى عليه مِنَ النِّفاقِ إذا زالت عنه مَنافِعُ المواعِظِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ طريقتُهم واحِدةٌ ولو تباعدَتْ أزمانُهم، ولو تباعدَتْ أقطارُهم؛ لأنَّ المُجرِمَ أخو المُجرِمِ؛ فالطَّريقةُ واحِدةٌ[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: أنَّ من الأنبياءِ مَن قَرَّر دينَ النَّبيِّ الَّذي كان قَبْلَه، وبَقِيَ القَومُ على ما كانوا عليه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ، وكيف وآدَمُ لَمَّا أُرسِلَ لم يُكَذَّبْ؟!

الجوابُ: أنَّا لا نُسَلِّمُ أنَّ المُقرَّرَ رَسولٌ، بل هو نَبيٌّ على دينِ رَسولٍ، ومَن كَذَّب رَسولَه فهو يُكَذِّبُه أيضًا ضَرورةً[(٤)]. وأمَّا آدمُ فنبيٌّ، وليس برسولٍ، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي حديثِ الشَّفاعةِ[(٥)]: ((فيَأْتونَ نُوحًا، فيَقولونَ: يا نوحُ، أنت أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ))[(٦)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١٨١).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).
(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٣١٦).

كُلَّهم قالوا: «ساحِرٌ»، والأمرُ ليس كذلك؛ لأنَّه ما مِن رَسولٍ إلَّا وآمنَ به قَومٌ، وهم ما قالوا ذلك!

الجوابُ: أنَّ ذلك ليس بعامٍّ؛ فإنَّه لم يَقُلْ: «إلَّا قال كُلُّهم»، وإنَّما قال: ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾[١]؛ فهو إسنادٌ باعتِبارِ أنَّه قَولُ أكثَرِهم؛ فإنَّ الأُمورَ الَّتي تُنسَبُ إلى الأقوامِ والقبائِلِ تجري على اعتِبارِ الغالِبِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَذكُرِ المصَدِّقينَ كما ذَكَر المُكَذِّبينَ، وقال: إلَّا بَعضُهم صَدَّق، وبَعضُهم كَذَّب؟

الجوابُ: لأنَّ المقصودَ التَّسليةُ، وهي على التَّكذيبِ؛ فكأنَّه تعالى قال: لا تَأْسَ على تَكذيبِ قَومِك؛ فإنَّ أقوامًا قَبْلَك كَذَّبوا، ورُسُلًا كُذِّبوا[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أنَّ الهوَى هو الَّذي أوجبَ لهم هذا التَّناقُضَ الظَّاهِرَ، سواءٌ كانت «أو» للتَّفصيلِ بأنَّ بَعضَهم قال واحِدًا، وبَعْضَهم قال آخَرَ، أو كانت للشَّكِّ؛ لأنَّ السَّاحِرَ يكونُ لَبيبًا فَطِنًا آتيًا بما يَعجِزُ عنه كثيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ والمَجنونُ بالضِّدِّ مِن ذلك[٤]! فتارةً يَصِفونه بغايةِ الحِذْقِ، والخِبرةِ، والمعرفةِ؛ فيَقولون: ساحرٌ، وتارةً بغايةِ الجهلِ، والغَباوةِ، والحُمقِ؛ فيَقولون: مجنونٌ[٥]!

٦- ما جاء رسولٌ صادِقٌ قَطُّ إلَّا قيل فيه: إنَّه ساحِرٌ أو مجنونٌ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٣٤).

هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾؛ وذلك أنَّ الرَّسولَ يأتي بما يخالِفُ عاداتِهم، ويَفعَلُ ما يَرَونَه غَيرَ نافعٍ، ويَترُكُ ما يَرَونَه نافِعًا. وهذا فِعلُ المجنونِ؛ فإنَّ المجنونَ فاسِدُ العِلمِ والقَصدِ. ومَن كان مَبلَغُه مِنَ العِلمِ إرادةَ الحياةِ الدُّنيا، كان عندَه مَن ترَك ذلك وطَلَب ما لا يَعلَمُه: مجنونًا!

ثمَّ الرَّسولُ مع هذا يأتي بأمورٍ خارجةٍ عن قُدرةِ النَّاسِ؛ مِن إعلامٍ بالغُيوبِ، وأمورٍ خارقةٍ لعاداتِهم، فيقولونَ: هو ساحِرٌ، وأيضًا فالسَّاحرُ لَمَّا كان يَتصرَّفُ في العقولِ والنُّفوسِ بما يُغَيِّرُها، وكان مَن سَمِع القُرآنَ وكلامَ الرَّسولِ خضَع له عقلُه ولُبُّه، وانقادتْ له نفْسُه وقلبُه؛ صاروا يقولون: ساحرٌ، وشَتَّانَ[1]. فقالوا: ﴿ سَاحِرٌ ﴾ باعتِبارِ تأثيرِه وبيانِه وبلاغتِه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا))[2]، ﴿ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ باعتبارِ تصرُّفاتِه؛ لأنَّ هذا التَّصرُّفَ في نظَرِ هؤلاءِ المكَذِّبينَ جُنونٌ. نسألُ اللهَ العافيةَ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ أنَّ قُلوبَ الكُفَّارِ مُتشابِهةٌ؛ فكانت أعمالُهم مُتشابِهةً، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾[4] [البقرة: ١١٨].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴾ نَفْيُه جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكَريمةِ لِلَّومِ عن نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يدُلُّ على أنَّه أدَّى الأمانةَ، ونَصَح للأمَّةِ، وقد أوضَحَ تعالى هذا المعنى في غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة: ٣]،

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٣٤، ١٠٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥٧٦٧) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٣).

وقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[1] [الرعد: ٤٠].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النَّفعُ الحاصِلُ مِنَ الذِّكرى هو رُسوخُ العِلمِ بإعادةِ التَّذكيرِ لِمَا سَمِعوه، واستِفادةُ عِلمٍ جَديدٍ فيما لم يَسمَعوه أو غَفَلوا عنه، وظُهورُ حُجَّةِ المُؤمِنينَ على الكافِرينَ يَومًا فيومًا، وتكَرُّرُ عَجزِ المُشرِكينَ عن المعارَضةِ، ووَفرةُ الكلامِ المُعجِزِ[2].

١٠- أنَّ اللهَ تعالى نَصَبَ مِن الأدِلَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه وصِفاتِ كَمالِه الأدِلَّةَ على اختِلافِ أنواعِها، ولا يُطيقُ حَصْرَها إلَّا اللهُ، ثمَّ رَكَز ذلك في الفِطرةِ، ووَضَعَه في العَقلِ جُملةً، ثمَّ بَعَثَ الرُّسُلَ مُذَكِّرينَ به؛ ولهذا يقولُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

- كلمةُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلُ خِطابٍ تدُلُّ على انتهاءِ حديثٍ والشُّروعِ في غَيرِه، أو الرُّجوعِ إلى حَديثٍ قبْلَه أتَى عليه الحديثُ الأخيرُ، والتَّقديرُ: الأمْرُ كذلك، والإشارةُ إلى ما مَضى مِن الحديثِ، ثمَّ يُورَدُ بعْدَه حديثٌ آخَرُ، والسَّامعُ يَرُدُّ كُلًّا إلى ما يُناسِبُه، فيكونُ ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مُتَّصلًا بأخبارِ الأُمَمِ الَّتي تَقدَّمَ ذِكرُها مِن قَومِ لوطٍ ومَن عُطِفَ عليهم؛ أُعقِبَ تَهديدُ المشركين بأنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بالأُمَمِ المُكذِّبين لرُسلِ اللهِ مِن قبْلِهم بتَنظيرِهم بهم في مَقالِهم، فقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلٌ، وجُملةُ ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ الآيةَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٨٠).

مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا. ويُمكِنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مَبدأَ استِئنافٍ، عَودًا إلى الإنحاءِ على المشركين في قَولِهم المُختلِفِ بأنواعِ التَّكذيبِ في التَّوحيدِ والبَعثِ وما يَتفرَّعُ على ذلك(١).

- وفي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا ...﴾ أُوثِرَ استخدامُ حرْفِ (مَا) على (لَمْ)؛ ليُؤذِنَ بانفصالِ ما صدَرَ بها على ما قبْلَه، واتِّصالِه بقَولِه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ إلى آخِرِ القصصِ، فلمَّا وُسِّطَ بيْنَهما الحديثُ في بَيانِ الآياتِ الدَّالَّةِ على التَّوحيدِ، ونفْيِ الشِّركِ والفِرارِ إلى اللهِ تعالى عمَّا سِواه؛ جِيءَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلًا للخِطابِ؛ ليُتخلَّصَ منه إلى ما سِيقَ له الكلامُ، ولو أُتِيَ بحرفِ (لَمْ) لَاختلَّ النَّظْمُ(٢).

- وزِيادةُ (مِنْ) في قَولِه: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ للتَّنصيصِ على إرادةِ العُمومِ، أي: أنَّ كلَّ رسولٍ قال فيه فريقٌ مِن قَومِه: هو ساحرٌ، أو مَجنونٌ، أي قال بعضُهم: ساحرٌ، وقال بعضُهم: مَجنونٌ، وهذا العُمومُ يُفيدُ أنَّه لم يَخْلُ قَومٌ مِن الأقوامِ المذكورينَ إلَّا قالوا لرَسولِهم أحَدَ القولَينِ، أو جمَعوا القولَينِ لهم(٣).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ القصْرُ المُستفادُ مِن الاستِثناءِ بـ(ما .. إلَّا) قصْرٌ ادِّعائيٌّ(٤)؛ لأنَّ للأُمَمِ أقوالًا غيرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه =

ذلك وأحوالًا أُخرى، وإنَّما قُصِروا على هذا اهتِمامًا بذِكرِ هذه الحالةِ العجيبةِ مِن البُهتانِ؛ إذ يَرْمُون أعقَلَ النَّاسِ بالجُنونِ، وأقوَمَهم بالسِّحرِ[(١)]!

– وإسنادُ القولِ إلى ضَميرِ الَّذين مِن قبْلِ مُشْركي العرَبِ الحاضرينَ إسنادٌ باعتبارِ أنَّه قولُ أكثَرِهم؛ فإنَّ الأمورَ الَّتي تُنسَبُ إلى الأقوامِ والقبائلِ تَجْري على اعتبارِ الغالِبِ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾

– قولُه: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن تَواطُئِهم على

= بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وترَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَين أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا القولِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: كأنَّهم أَوصَى بعضُهم بعضًا بأنْ يَقولوهُ؛ فالاستِفهامُ هنا كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو التَّعجيبُ؛ لأنَّ شأْنَ الأمْرِ العجيبِ أنْ يُسأَلَ عنه، والجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَماثُلَ هؤلاء الأُمَمِ في مَقالةِ التَّكذيبِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن مَنشَأِ هذا التَّشابُه. أو الاستِفهامُ لإنكارِ إجماعِهم على تلك الكلمةِ الشَّنيعةِ الَّتي لا تَكادُ تَخطُرُ ببالِ أحدٍ مِن العُقلاءِ، فضْلًا عن التَّفوُّهِ بها[1].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن مُفادِ الاستفهامِ مِن التَّشبيهِ، أو عن التَّواصي به، ببَيانِ سَببِ التَّواطؤِ على هذا القولِ؛ فإنَّه إذا ظهَرَ السَّببُ بطَلَ العجَبُ، أي: ما هو بتَواصٍ، ولكنَّه تَماثُلٌ في مَنشَأِ ذلك القولِ، أي سبَبُ تَماثُلِ المَقالةِ تَماثُلُ التَّفكيرِ والدَّواعي للمَقالةِ؛ إذ جَميعُهم قومٌ طاغونَ، فالجامعُ لهم على هذا القولِ مُشارَكتُهم في الطُّغيانِ الحاملِ عليه، وأنَّ طُغيانَهم وكِبرياءَهم يَصُدُّهم عن اتِّباعِ رسولٍ يَحسَبون أنفُسَهم أعظَمَ منه، وإذ لا يَجِدون وَصمةً يَصِمونه بها اختَلَقوا لتَنقيصِه عِلَلًا لا تَدخُلُ تحت الضَّبْطِ، وهي ادِّعاءُ أنَّه مَجنونٌ، أو أنَّه ساحرٌ، فاستَوَوا في ذلك بعِلَّةِ استوائِهم في أسبابِه ومَعاذيرِه[2].

- وفي إقحامِ كَلمةِ ﴿قَوْمٌ﴾ في قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الطُّغيانَ راسِخٌ في نُفوسِهم، بحيثُ يكونُ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[3].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢، ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ تَفريعٌ على قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ إلى قولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذَّارِيات: ٥٢، ٥٣]، وهو مُشعِرٌ بأنَّهم بُعَداءُ عن أنْ تُقنِعَهم الآياتُ والنُّذُرُ، أي: أعرِضْ عن الإلحاحِ في جِدالِهم؛ فقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَديدَ الحِرْصِ على إيمانِهم، ويَغتَمُّ مِن أجْلِ عِنادِهم في كُفْرِهم، فكان اللهُ يُعاوِدُ تَسليتَه الفَينةَ بعْدَ الفَينةِ[1].

- وفي قولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ فُرِّعَ على أمْرِه بالتَّولِّي عنهم إخبارُه بأنَّه لا لَومَ عليه في إعراضِهم عنه. وصِيغَ الكَلامُ في صِيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ دونَ (لا نَلومُك)؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ مَضمونِ الجُملةِ في النَّفيِ[2].

- وجِيءَ بضَميرِ المُخاطَبِ مُسنَدًا إليه، فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (فلا ملامَ عليك) أو نَحوَه؛ للاهتِمامِ بالتَّنويهِ بشأْنِ المُخاطَبِ وتَعظيمِه[3].

- وزِيدَت الباءُ في الخبَرِ المَنفيِّ ﴿بِمَلُومٖ﴾؛ لتَوكيدِ نفْيِ أنْ يكونَ مَلومًا[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- عطْفُ ﴿وَذَكِّرۡ﴾ على ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ احتراسٌ؛ كيْ لا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ الإعراضَ إبطالٌ للتَّذكيرِ، بل التَّذكيرُ باقٍ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذكَّرَ النَّاسَ بعْدَ أمْثالِ هذه الآياتِ، فآمَنَ بعضُ مَن لم يكُنْ آمَنَ مِن قبْلُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٤).

ولِيَكونَ الاستِمرارُ على التَّذكيرِ زِيادةً في إقامةِ الحُجَّةِ على المُعرِضين، ولئلَّا يَزدادوا طُغيانًا فيَقولوا: ها نحن أُولاءِ قد أفحَمْناهُ، فكفَّ عمَّا يَقولُه[١].

- والأمْرُ في ﴿وَذَكِّرْ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على التَّذكيرِ وتَجديدُه[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اقتُصِرَ في تَعليلِ الأمْرِ بالتَّذكيرِ على علَّةٍ واحدةٍ، وهي انتفاعُ المؤمنينَ بالتَّذكيرِ؛ لأنَّ فائدةَ ذلك مُحقَّقةٌ، ولإظهارِ العِنايةِ بالمؤمنينَ في المَقامِ الَّذي أُظهِرَت فيه قِلَّةُ الاكتِراثِ بالكافرين، ولذلك فوَصْفُ المؤمنينَ يُرادُ به المتَّصِفون بالإيمانِ في الحالِ كما هو شأْنُ اسمِ الفاعِلِ، وأمَّا مَن سيُؤمِنُ فعلَّتُه مَطويَّةٌ[٣].

- وخَصَّ المُؤمنينَ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بها[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٥).

الآيات (٥٦-٦٠)

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمَتِينُ﴾: أي: الشَّديدُ القَويُّ، وأصلُ (متن): يدُلُّ على صَلابةٍ[1].

﴿ذَنُوبًا﴾: أي: نَصيبًا وحَظًّا مِنَ العَذابِ، مَأخوذٌ مِن مُقاسَمةِ السُّقاةِ الماءَ بالذَّنُوبِ، والذَّنُوبُ في كَلامِ العَرَبِ: الدَّلْوُ العَظيمةُ، ولا تُسَمَّى ذَنُوبًا إلَّا إذا كانت مَلْأَى، وأصلُ (ذنب) هنا: يدُلُّ على الحَظِّ والنَّصيبِ[2].

﴿فَوَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا الغايةَ الَّتي خلَق الجنَّ والإنسَ مِن أجْلِها: وما خَلَقْتُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الراغب: (ومَن قال: «ويْلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مقرًّا مِنَ النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

الجِنَّ والإنسَ إلَّا مِن أجْلِ عِبادتي وَحْدي، ما أُريدُ مِنهم مِنْ رِزقٍ؛ لا لي، ولا لأنفُسِهم، ولا لغيرِهم، وما أريدُ منهم أن يُطعِموني، ولا أن يُطعموا أنفُسَهم ولا غيرَهم، إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الرَّزَّاقُ لجَميعِ خَلْقِه، صاحِبُ القُوَّةِ التَّامَّةِ، الشَّديدُ القُوَّةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقِبةِ الظَّالِمينَ، فيقولُ: فإنَّ للَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ نَصيبًا وافِرًا من عذابِ اللهِ تعالى مِثلَ نَصيبِ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فلا يَستعجِلوني بالعَذابِ.

فعَذابٌ وهَلاكٌ للَّذينَ كَفَروا مِنَ اليَومِ الَّذي يُوعَدونَ بنُزولِ العَذابِ عليهم فيه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

في تعَلُّقِ الآيةِ بما قَبْلَها وُجوهٌ:

منها: أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ [الذَّاريات: ٥٥] يعني: أقصى غايةِ التَّذكيرِ، وهو أنَّ الخَلْقَ ليس إلَّا للعبادةِ، فالمقصودُ مِن إيجادِ الإنسانِ العبادةُ، فذَكِّرْهم به، وأعلِمْهم أنَّ كُلَّ ما عَداه تضييعٌ للزَّمانِ.

ومنها: أنَّه لَمَّا بَيَّنَ حالَ مَن قَبْلَه مِنَ التَّكذيبِ؛ ذكَرَ هذه الآيَةَ؛ لِيُبَيِّنَ سُوءَ صَنيعِهم حيثُ تَرَكوا عبادةَ اللهِ، فما كان خَلْقُهم إلَّا للعِبادةِ(١).

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾.

أي: وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا مِن أجْلِ عِبادتي وَحْدي؛ لِيَتذلَّلوا ويَخضَعوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥).

لي بطاعتي[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَصَر سُبحانَه خَلْقَهم في إرادةِ العِبادةِ؛ صَرَّح بهذا المفهومِ بقَولِه[(٢)]:

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾.

أي: ما أُريدُ مِن الجِنِّ والإنسِ أيَّ رِزقٍ؛ لا لي، ولا لأنفُسِهم، ولا لغيرِهم، ولا أريدُ منهم أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنزَّهٌ عن الأكلِ، ولا أن يُطعِموا أنفُسَهم ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٦٨، ٤٧٣، ٤٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١، ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١).

غيرَهم، فلْيَشتَغِلوا بعبادتي[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧).
قيل: معنى ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾: ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا خَلْقي. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٤).
وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يَرزُقوا أنفُسَهم. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).
وقيل: المعنى: ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا أنفُسَهم ولا غَيرَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبغوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والخازن، وأبو حيَّان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٢).
وقيل: المعنى: ما أُريدُ منكم مِن رزقٍ لي؛ فلَستُ بحاجةٍ إلى ذلك، فاللهُ تعالى غنيٌّ عن خَلْقِه، فهذه الجملةُ فيها بيانُ استغنائِه سُبحانَه عن عبادِه. وهو في الجملةِ اختيارُ الزمخشريِّ، والرازيِّ، والبيضاوي، وابنِ تيميَّةَ، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، وابنِ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧).
قال ابنُ تيميَّةَ: (الرِّزقُ يَعُمُّ كُلَّ ما يَنتَفِعُ به المُرتَزِقُ؛ فالإنسانُ يُرزَقُ الطَّعامَ والشَّرابَ واللِّباسَ، وما يَنتَفِعُ بسَمْعِه وبَصَرِه وشَمِّه، ويُرزَقُ ما يَنتَفِعُ به باطِنُه مِن عِلمٍ وإيمانٍ، وفَرَحٍ وسُرورٍ، وقُوَّةٍ ونورٍ، وتأييدٍ، وغير ذلك. واللهُ سُبحانَه ما يريدُ مِنَ الخَلقِ مِن رِزقٍ؛ فإنَّهم لن يَبلُغوا ضُرَّه فيَضُرُّوه، ولن يَبلُغوا نَفْعَه فيَنفَعوه، بل هو الغَنيُّ، وهم الفُقَراءُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٥٥).
قال ابنُ جُزَي: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ أي: لا أريدُ أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنَزَّهٌ عن الأكلِ وعن =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دعا رجُلٌ مِنَ الأنصارِ مِن أهلِ قُباءٍ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فانطلَقْنا معه، فلمَّا طَعِمَ وغَسَل يَدَه أو يَدَيه قال: الحَمدُ للهِ الَّذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، مَنَّ علينا فهَدانا، وأطعَمَنا وسَقانا، وكُلَّ بلاءٍ حَسَنٍ أبلانا، الحَمدُ لله غيرَ مُودَّعٍ ولا مُكافَأٍ، ولا مَكفورٍ ولا مُستَغنًى عنه، الحَمدُ لله الَّذي أطعَمَ مِنَ الطَّعامِ، وسَقى مِنَ الشَّرابِ، وكسَا مِنَ العُرْيِ، وهَدى مِنَ الضَّلالةِ، وبصَّرَ مِنَ العَمَى، وفضَّلَ على كثيرٍ مِنْ خَلْقِه تَفضيلًا، الحَمدُ للهِ

= صِفاتِ البَشَرِ، وأنا غنيٌّ عن العالَمينَ. وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يُطعِموا عَبيدي، فحُذِفَ المُضافُ تجَوُّزًا... والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الرازيُّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: وما أُريدُ أن يُطعِموا أحدًا مِن خَلْقِي: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والبغويُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

قال ابن الجوزي: (وإنَّما أَسنَدَ الإطعامَ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الخَلْقَ عِيالُ اللهِ، ومَن أطعمَ عِيالَ أحَدٍ فقد أطعمَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

وممَّن جمَعَ بيْنَ الأقوالِ في الرِّزقِ والإطعامِ: جلالُ الدين المحلي، فقال: (﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ لي ولأنفُسِهم وغَيرِهم، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ ولا أنفُسَهم ولا غيرَهم). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦).

رَبِّ العالَمينَ))(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الرَّزَّاقُ لجَميعِ خَلْقِه؛ فهم المحتاجُونَ إليه في جميعِ أحوالِهم(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ [هود: ٦].

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

أي: وهو صاحِبُ القُوَّةِ التَّامَّة، الشَّديدُ القُوَّةِ(٣).

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾.

---

(١) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٣٣) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّان (٥٢١٩)، والحاكِمُ (٢٠٠٣).

صَحَّحه ابنُ حبَّانَ، والحاكمُ وقال: (على شرطِ مسلمٍ). وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦٥)، وصَحَّح إسنادَه على شرطٍ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٥٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٩).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه المسْتَغْني غِنًى مُطلَقًا، فلا يَحتاجُ إلى شَيءٍ، فلا يكونُ خلْقُه الخلْقَ لتَحصيلِ نفْعٍ له، ولكنْ لعُمْرانِ الكَونِ، وإجراءِ نِظامِ العُمْرانِ باتِّباعِ الشَّريعةِ الَّتي يَجمَعُها معنى العِبادةِ في قولِه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ مَن يَضَعُ نَفْسَه في مَوضِعِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ يكونُ وَضَع الشَّيءَ في غَيرِ مَوضِعِه، فيَكونُ ظالِمًا؛ فقال: إذا ثَبَت أنَّ الإنسَ مَخلوقونَ للعِبادةِ فإنَّ الَّذين ظَلَموا بعِبادةِ غيرِ الله لهم هلاكٌ مِثلُ هَلاكِ مَن تَقدَّمَ[(١)].

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: فإنَّ للَّذينَ ظَلَموا فأشرَكوا باللهِ مِن قُرَيشٍ أو غَيرِهم نَصيبًا وافِرًا مِن عذابِ اللهِ تعالى مِثلَ نَصيبِ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فلا يَستعجِلوني بالعَذابِ؛ فإنَّه نازِلٌ بهم في وَقتِه المُقَدَّرِ له لا مَحالةَ[(٢)].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ[(٣)] للَّذينَ كَفَروا بالحَقِّ مِنَ اليَومِ الَّذي وعَدَهم اللهُ بنُزولِ العَذابِ فيه[(٤)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠، ٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧٠).

ومالَ الرَّازيُّ إلى أنَّ الذَّنوبَ ليس بعذابٍ ولا هلاكٍ، وإنَّما هو رغَدُ العَيشِ، والمعنى: فإنَّ للَّذين ظلَموا مِن الدُّنيا وطَيِّباتِها ذَنوبًا، ولا يكونُ لهم في الآخرةِ من نصيبٍ، قال الرَّازيُّ: (وهو أليَقُ بالعربيَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧).

(٣) قال الشنقيطي: (كلمة «ويلٌ»، قال فيها بعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّها مَصدَرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، ومعناه: الهلاكُ الشَّديدُ. وقيل: هو وادٍ في جهنَّمَ تَستعيذُ مِن حَرِّه، والَّذي سَوَّغَ الابتِداءَ بهذه النَّكِرةِ أنَّ فيها معنى الدُّعاءِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٤ - ٢٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

= كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧١).

قال ابن جُزَي: (﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ يومَ القيامةِ، أو يومَ هَلاكِهم ببَدرٍ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِقَولِه في «المعارج»: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٤] يعني: يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠).

وقال الألوسي: (المرادُ بذلك اليَوم: قيل: يومُ بَدرٍ، ورُجِّح بأنَّه الأوفَقُ لِما قَبْلَه من حيثُ إنَّه ذَنوبٌ مِن العذابِ الدُّنيويِّ. وقيل: يومُ القيامةِ، ورُجِّح بأنَّه الأنسَبُ لِما في صَدرِ السُّورةِ الكريمةِ الآتيةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: إنَّه يومُ القيامةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧١).

ونسَبه ابنُ عطيَّةَ لجمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٤).

وممَّن قال به مِن السَّلَفِ: عَطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧١).

وممَّن ذهب إلى أنَّه يومُ بَدرٍ: الثعلبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

وقال البِقاعي: (﴿ مِن يَوْمِهِمُ ﴾ أضافه إليهم؛ لأنَّه خاصٌّ بهم دونَ المُؤمنينَ ﴿ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٨٣).

وقال تبارَك وتعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

وقال عزَّ شأنُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ فالحِكمةُ مِن خَلقِ الجِنِّ والإنسِ العِبادةُ؛ فلم يُخلَقوا مِن أجلِ أن يَعمُروا الأرضَ، ولا مِن أجْلِ أن يأكُلوا، ولا مِن أجْلِ أن يَشرَبوا، ولا أن يَتمَتَّعوا كما تتمَتَّعُ الأنعامُ، وإنَّما خُلِقوا لعبادةِ اللهِ، وخَلَق لهم ما في الأرضِ، فنحن مخلوقونَ للعبادةِ، وكُلُّ ما في الأرضِ مَخلوقٌ لنا ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، والعَجَبُ أنَّ قَومَنا الآنَ اشتَغَلوا فيما خُلِقَ لهم عمَّا خُلِقوا له! وهذا مِنَ السَّفَهِ؛ أن يَشتَغِلوا بشَيءٍ خُلِقَ لهم عن شَيءٍ خُلِقوا مِن أجْلِه[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أنَّ الإنسَ والجِنَّ مُكَلَّفونَ بعبادةِ اللهِ تعالى[٢]، فمَن لم يَعْبُدِ اللهَ، أو عَبَد مع اللهِ غيرَه، أو لم يَعبُدْ أحدًا؛ فإنَّه أضاع دِينَه ودُنياه؛ لأنَّه أضاع ما خُلِقَ مِن أجلِه[٣].

٢- خَلَق اللهُ الخَلْقَ وأوجَدَهم لعبادتِه الجامِعةِ لخَشيتِه ورَجائِه ومحَبَّتِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، وإنَّما يُعبَدُ اللهُ سُبحانَه بعدَ العِلْمِ به ومعرفتِه، فبذلك خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما للاستِدلالِ بهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧، ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٩٨).

على توحيدِه وعَظَمتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد عُلِمَ أنَّ العِبادةَ إنَّما تُبنى على ثلاثةِ أُصولٍ: الخَوفِ، والرَّجاءِ، والمحَبَّةِ. وكلٌّ منها فَرضٌ لازِمٌ، والجَمعُ بيْنَ الثَّلاثةِ حَتمٌ واجِبٌ؛ فلهذا كان السَّلَفُ يَذُمُّونَ مَن تعَبَّد بواحِدٍ منها، وأهمَلَ الآخَرينِ؛ فإنَّ بِدَعَ الخوارِجِ ومَن أشبَهَهم إنَّما حَدَثَت مِنَ التَّشديدِ في الخَوفِ، والإعراضِ عن المحبَّةِ والرَّجاءِ؛ وبِدَعَ المُرجِئةِ نَشَأت من التَّعلُّقِ بالرَّجاءِ وَحْدَه، والإعراضِ عن الخَوفِ؛ وبِدَعَ كَثيرٍ مِن أهلِ الإباحةِ والحُلولِ مِمَّن يُنسَبُ إلى التَّعبُّدِ نشَأَت مِن إفرادِ المحبَّةِ، والإعراضِ عن الخَوفِ والرَّجاءِ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ذمٌّ وتوبيخٌ لِمَن لم يَعبُدِ اللهَ منهم؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَه لشَيءٍ فلم يَفعلْ ما خُلِقَ له؛ ولهذا عَقَّبَها بقَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، فإثباتُ العبادةِ ونفْيُ هذا يُبيِّنُ أنَّه خَلَقَهم للعبادةِ، ولم يُرِدْ منهم ما يُريدُه السَّادةُ مِن عبيدِهم مِنَ الإعانةِ لهم بالرزقِ والإطعامِ[2].

٤- عِبادةُ اللهِ وَحْدَه حقٌّ استحَقَّه على الخَلقِ لِذاتِه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، فأخبرَ سُبحانَه أنَّه إنَّما خَلَق الخلْقَ لعبادتِه، وأخبرَ أنَّ الَّذي خَلَقه لهم، وأمَرَهم به، ورَضِيَه وأَحبَّه وأراده بأَمْرِه منهم: هو عبادتُه، لم يُرِدْ منهم رزقًا ولا أنْ يُطعِموه[3].

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١).
(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٣٦).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنَّه لا يَصِحُّ التَّوكيلُ في عبادةٍ مَحضةٍ، كالصَّلاةِ والصَّومِ ونَحوِهما؛ لأنَّ ذلك مَطلوبٌ مِن كُلِّ أحَدٍ بعَينِه؛ فلا يَنوبُ فيه أحَدٌ عن أحَدٍ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لا يُنافي ذلك عَدَمُ عِبادةِ الكافِرينَ؛ لأنَّ الغايةَ لا يَلزَمُ وُجودُها، كما في قَولِك: بَرَيتُ القَلَمَ لأكتُبَ به؛ فإنَّك قد لا تكتُبُ به، أو لأنَّ ذلك عامٌّ أريدَ به الخُصوصُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ومَن خُلِقَ لجَهنَّمَ لا يكونُ مَخلوقًا للعبادةِ(٢)! وأيضًا فالتَّعليلُ هنا ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ تعليلٌ شرعيٌّ، أي: مِن أجْلِ أنْ يَعبُدونِ، حيثُ آمُرُهم فيَمتَثِلونَ أمْري، وليستِ اللَّامُ هنا تَعليلًا قَدَريًّا؛ لأنَّه لو كان تَعليلًا قَدَريًّا لَلَزِمَ أنْ يَعبُدَه جميعُ الجِنِّ والإنسِ، لكِنَّ اللَّامَ هنا لبيانِ الحِكمةِ الشَّرعيَّةِ في خَلقِ الجِنِّ والإنسِ(٣). وقيل غيرُ ذلك(٤).

٧- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ دعا جميعَ النَّاسِ على ألسِنةِ رُسُلِه إلى الإيمانِ به وعبادتِه وَحْدَه، وأمَرَهم بذلك، وأمْرُه بذلك مُستلزِمٌ للإرادةِ الدِّينيَّةِ الشَّرعيَّةِ، ثمَّ إنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يَهدي مَن يشاءُ منهم، ويُضِلُّ مَن يشاءُ بإرادتِه الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، فيَصيرونَ إلى ما سَبَق به العِلمُ مِن شَقاوةٍ وسَعادةٍ، وبهذا تَعلَمُ وجْهَ الجَمعِ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٣٠).
ثمَّ قال: (أمَّا الحَجُّ عن الميِّتِ والمعضوبِ [أي: العاجزِ عجزًا لا يُرجى زوالُه]، والصومُ عن الميِّتِ: فقد دلَّت أدلَّةٌ أُخرُ على النِّيابةِ في ذلك، وإنْ خالَفَ كثيرٌ مِن العلماءِ في الصَّومِ عن الميِّتِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٧).

وقَولِه تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، وبيْنَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وإنَّما ذكَرْنا أنَّ الإرادةَ قد تكونُ دِينيَّةً شَرعيَّةً، وهي مُلازِمةٌ للأمرِ والرِّضا، وقد تكونُ كَونيَّةً قَدَريَّةً وليست مُلازِمةً لهما؛ لأنَّ اللهَ يأمُرُ الجَميعَ بالأفعالِ المرادةِ منهم دينًا، ويريدُ ذلك كَونًا وقَدَرًا مِن بَعضِهم دونَ بَعضٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فقَولُه: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فيما جاء به مِن عِندِنا؛ لأنَّه مَطلوبٌ مُرادٌ مِن المُكَلَّفينَ شَرعًا ودِينًا، وقَولُه: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لا يقَعُ مِن ذلك إلَّا ما أراده اللهُ كَونًا وقَدَرًا، واللهُ جَلَّ وعلا يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له))[١]. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ تنبيهٌ للمُشرِكينَ بأنَّ الجِنَّ غيرُ خارِجينَ عن العُبوديَّةِ لله تعالى، وقد حكى اللهُ عن الجِنِّ في سورةِ (الجِنِّ) قَولَ قائِلِهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾[٣] [الجن: ٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سؤالٌ عن الحِكمةِ في أنَّه لم يَذكُرِ الملائِكةَ مع أنَّهم مِن أصنافِ المكَلَّفينَ، وعبادتُهم أكثَرُ مِن عِبادةِ غَيرِهم مِنَ المكَلَّفينَ! قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) مطوَّلًا مِن حديثِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٨، ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الآيةَ سِيقَت لبَيانِ قُبحِ ما يَفعَلُه الكَفَرةُ مِن تَرْكِ ما خُلِقوا له، وهذا مُختَصٌّ بالجِنِّ والإنسِ؛ لأنَّ الكُفرَ موجودٌ في الجِنِّ والإنسِ، بخِلافِ الملائِكةِ.

الثَّاني: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مَبعوثًا إلى الجِنِّ والإنسِ، فلَمَّا قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾ [الذَّاريات: ٥٥] بَيَّنَ ما يُذكِّرُ به -وهو كَونُ الخَلقِ للعبادةِ-، وخَصَّصَ أُمَّتَه بالذِّكْرِ، أي: ذَكِّرِ الإنسَ والجِنَّ.

الثَّالثُ: أنَّ عُبَّادَ الأصنامِ كانوا يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى عظيمُ الشَّأنِ، خَلَق الملائِكةَ وجَعَلَهم مُقرَّبينَ، فهم يَعبُدونَ اللهَ، وخَلَقَهم لعبادتِه، ونحن لِنُزولِ درَجَتِنا لا نَصلُحُ لعِبادةِ اللهِ، فنَعبُدُ الملائِكةَ وهم يَعبُدونَ اللهَ! كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ولم يَذكُرِ الملائِكةَ؛ لأنَّ الأمرَ فيهم كان مُسَلَّمًا مِنَ القَومِ، فذَكَرَ المُتنازَعَ فيه.

الرَّابعُ: أنَّ فِعلَ الجِنِّ يَتناوَلُ الملائِكةَ؛ لأنَّ أصلَ الجِنِّ مِن الاستِتارِ، وهم مُستَتِرونَ عن الخَلْقِ، فذَكَر الجِنَّ لدُخولِ الملائكةِ فيهم[(١)].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ اعلَمْ أنَّ الآياتِ الدَّالَّةَ على حِكمةِ خَلْقِ اللهِ للسَّمَواتِ والأرضِ وأهلِهما وما بَيْنَهما قد يَظُنُّ غيرُ المتأمِّلِ أنَّ بَيْنَها اختِلافًا، والواقِعُ خِلافُ ذلك؛ لأنَّ كَلامَ اللهِ تعالى لا يُخالِفُ بَعضُه بَعضًا، وإيضاحُ ذلك أنَّ اللهَ تبارك وتعالى ذكَرَ في بعضِ الآياتِ أنَّ حِكمةَ خَلْقِه للسَّمَواتِ والأرضِ هي إعلامُ خَلْقِه بأنَّه قادرٌ على كُلِّ شَيءٍ، وأنَّه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا، وذلك في قَولِه تعالى في آخِرِ الطَّلاقِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٦).

وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وذكَرَ في مواضِعَ كثيرةٍ مِن كِتابِه أنَّه خَلَق الخَلْقَ لِيُبيِّنَ للنَّاسِ كَونَه هو المعبودَ وَحْدَه، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثمَّ أقام البُرهانَ على أنَّه إلهٌ واحِدٌ، بقَولِه بَعْدَه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى قَولِه: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولَمَّا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، بيَّنَ أنَّ خَلْقَهم بُرهانٌ على أنَّه المعبودُ وَحْدَه، بقَولِه بَعْدَه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، والاستِدلالُ على أنَّ المعبودَ واحِدٌ بكَونِه هو الخالِقَ- كثيرٌ جِدًّا في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا * وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ [الفرقان: ٢، ٣]، وقال تعالى أيضًا: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وذكَرَ في بعضِ الآياتِ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ لِيَبتليَ النَّاسَ، وذلك في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وذكَر في بعضِ الآياتِ أنَّه خلَقَهم لِيَجزيَهم بأعمالِهم، وذلك في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤]، وذكَر في آيةِ (الذَّارياتِ) هذه أنَّه ما خَلَق الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعبُدوه، فقد يَظُنُّ غيرُ العالِمِ أنَّ بيْنَ هذه الآياتِ اختِلافًا، مع أنَّها لا اختِلافَ بينَها؛ لأنَّ الحُكمَ المذكورَ فيها كُلِّها راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو مَعرفةُ اللهِ وطاعتُه، ومَعرِفةُ وَعْدِه ووَعيدِه، فقَولُه تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقَولُه: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ هو العِلمُ باللهِ؛ لأنَّ مَن عَرَف اللهَ أطاعه ووَحَّده. وهذا العِلمُ يُعَلِّمُهم اللهُ إيَّاه، ويُرسِلُ لهم الرُّسُلَ بمُقتَضاه؛

لِيَهلِكَ مَن هَلَك عن بَيِّنةٍ، ويحيا مَن حَيَّ عن بَيِّنةٍ، فالتَّكليفُ بعْدَ العِلمِ، والجزاءُ بعدَ التَّكليفِ، فظَهَر بهذا اتِّفاقُ الآياتِ؛ لأنَّ الجزاءَ لا بُدَّ له مِن تكليفٍ، وهو الابتلاءُ المذكورُ في الآياتِ، والتَّكليفُ لا بُدَّ له مِن عِلمٍ؛ ولذا دَلَّ بعضُ الآياتِ على أنَّ حِكمةَ الخَلقِ للمَخلوقاتِ هي العلمُ بالخالِقِ، ودَلَّ بَعضُها على أنَّها الابتِلاءُ، ودَلَّ بَعضُها على أنَّها الجزاءُ، وكُلُّ ذلك حَقٌّ لا اختِلافَ فيه، وبَعضُه مُرَتَّبٌ على بَعضٍ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ المَطالِبَ لا تَنحصِرُ فيما ذَكَره تعالى؛ فإنَّ السَّيِّدَ قد يَشتري العَبدَ لا لطلَبِ عَمَلٍ منه، ولا لطَلَبِ رِزقٍ، ولا للتَّعظيمِ، بل يَشتريه للتِّجارةِ!

الجوابُ: أنَّ عُمومَ قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ يتناوَلُ ذلك؛ فإنَّ مَن اشترى عبدًا لِيَتَّجِرَ فيه فقد طلَب منه رِزقًا[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ دليلٌ على أنَّ الرِّزقَ أعمُّ مِن الأكلِ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أنَّ «الرَّزَّاقَ» مِن أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأتت «الرَّزَّاقُ» بصيغةِ المبالغةِ؛ لكَثرةِ رِزقِه، وكَثرةِ مَن يَرزُقُه عزَّ وجلَّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، فما أكثَرَ الَّذين يَرزُقُهم اللهُ! ثمَّ المرزوقُ مِن عبادِ اللهِ رِزقُهُ كثيرٌ أيضًا؛ لو أحصَيتَ ما يَرزُقُك اللهُ عزَّ وجلَّ ما استطعتَ أنْ تحصِيَ له عَدَدًا[٤]!

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٣/ ١٩٧).

١٤- أسماءُ الرَّبِّ تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفاتِ كمالِه، فهي أسماءٌ، وهي أوصافٌ، وبذلك كانت حُسنَى؛ لأنَّها لو لم تَدُلَّ على مَعانٍ وأوصافٍ لم يَجُزْ أنْ يُخبَرَ عنها بمَصادرِها، ويُوصَفَ بها، لكِنَّ اللهَ أَخبرَ عن نفْسِه بمَصادرِها، وأَثبتَها لنفْسِه، وأَثبتَها له رَسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ القَويَّ مِن أسمائِه، ومعناه: الموصوفُ بالقُوَّة[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ لم يَقُل: القَويُّ، بل قال: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ تقريرُ ما تقدَّمَ مِن عَدَمِ إرادةِ الرِّزقِ وعَدَمِ الاستِعانةِ بالغَيرِ، وقُيِّد بـ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾؛ لأنَّ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ لا يدُلُّ إلَّا على أنَّ له قُوَّةً ما؛ فزاد في الوَصفِ المتانةَ -وهو الَّذي له ثباتٌ لا يتزلزَلُ[2]. وأيضًا فمِن خصائِصِ «ذو» أن تُضافَ إلى أمرٍ مُهِمٍّ؛ فعُلِمَ أنَّ القُوَّةَ هنا قُوَّةٌ خَليَّةٌ مِنَ النَّقائِصِ[3].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ وَجهُ مُناسَبةِ الذَّنُوب أنَّ العَذابَ مُنصَبٌّ عليهم كما يُصَبُّ الذَّنُوبُ؛ قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، والذَّنُوبُ كذلك؛ فكأنَّه قال: نَصُبُّ فوقَ رُؤوسِهم ذَنوبًا مِنَ العَذابِ كذَنُوبٍ صُبَّ فوقَ رُؤوسِ أولئك.

ووَجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ العَرَبَ يَستَقُونَ مِنَ الآبارِ على النَّوْبةِ ذَنوبًا فذَنوبًا، وذلك وَقتَ عَيشِهم الطَّيِّبِ، فكأنَّه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ مِنَ الدُّنيا وطَيِّباتِها ﴿ذَنُوبًا﴾ إذا مَلؤوه، ولا يكونُ لهم في الآخِرةِ مِن نَصيبٍ، كما كان عليه حالُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

أصحابِهم؛ استَقَوا ذَنوبًا وتَركوها، وعلى هذا فالذَّنُوبُ ليس بعَذابٍ ولا هَلاكٍ، وإنَّما هو رَغَدُ العَيشِ(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ سمَّى اللهُ تعالى السَّابقِينَ بأزمانٍ بعيدةٍ أصحابًا لهؤلاء؛ وذلك لاتِّفاقِهم في التَّكذيبِ، ورَمْيِ الرُّسُلِ بما لا يَستَحِقُّونَ، فهم أصحابٌ في الواقِعِ وإنْ تباعَدَتِ الأزمانُ والأماكِنُ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [الذَّاريات: ٥٢] الآيةَ، الَّتي هي ناشئةٌ عن قَولِه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّاريات: ٥٠، ٥١]، عطْفَ الغرَضِ على الغرَضِ لوُجودِ المُناسَبةِ؛ فبَعْدَ أنْ نظَّرَ حالَهم بحالِ الأُمَمِ الَّتي صمَّمَت على التَّكذيبِ مِن قبْلِهم؛ أعقَبَه بذِكرِ شَنيعِ حالِهم مِن الانحرافِ عمَّا خُلِقوا من أجْلِه وغُرِزَ فيهم؛ فقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالمشركين الَّذين انحَرَفوا عن الفِطرةِ الَّتي خُلِقوا عليها، فخالَفوا سُنَّتَها اتِّباعًا لتَضليلِ المُضلِّين(٣).

وقيل: هو استئنافٌ مُؤكِّدٌ للأمرِ، مُقرِّرٌ لمَضمونِ تَعليلِه؛ فإنَّ كَونَ خَلْقِهم مُغَيًّا بعِبادتِه تعالَى ممَّا يَدعُوه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى تَذكيرِهم، ويُوجِبُ عليهم التَّذكُّرَ والاتِّعاظَ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤، ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤).

- والحصْرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قصْرُ عِلَّةِ خلْقِ اللهِ الإنسَ والجنَّ على إرادتِه أنْ يَعبُدوه، قيل: إنَّه قصْرٌ إضافيٌّ، وإنَّه مِن قَبيلِ قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وإنَّه قصْرُ قلْبٍ باعتبارِ مَفعولِ ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلَّا لِيَعْبُدوني وَحْدي، أي: لا لِيُشرِكوا غَيري في العِبادةِ، فهو رَدٌّ للإشراكِ، وليس هو قصْرًا حَقيقيًّا[١]؛ فإنَّا وإنْ لم نَطَّلِعْ على مَقاديرِ حِكَمِ اللهِ تعالى مِن خلْقِ الخلائقِ، لكنَّا نَعلَمُ أنَّ الحِكمةَ مِن خلْقِهم ليست مُجرَّدَ أنْ يَعبُدوه؛ لأنَّ حِكَمَ اللهِ تعالى مِن أفعالِه كَثيرةٌ لا نُحيطُ بها، وذِكرُ بعضِها -كما هنا- لا يَقْتضي عَدَمَ وُجودِ حِكمةٍ أُخرى[٢].

- قيل: المقصودُ مِن هذا الإخبارِ هو الإنسُ، وإنَّما ذُكِرَ الجنُّ إدماجًا[٣]؛ فما ذكَرَ اللهُ الجنَّ هنا إلَّا لتَنبيهِ المشركينَ بأنَّ الجنَّ غيرُ خارجينَ عن العُبوديَّةِ للهِ تَعالى[٤].

- وتَقديمُ الجنِّ في الذِّكرِ؛ للاهتِمام بهذا الخبرِ الغريبِ عندَ المشركين الَّذين كانوا يَعبُدون الجنَّ؛ لِيَعلَموا أنَّ الجنَّ عُبَّادٌ للهِ تعالى[٥]. أو لعلَّ تقديمَ خلْقِ الجَنِّ في الذِّكرِ؛ لتَقدُّمِه على خَلْقِ الإنسِ في الوُجودِ[٦].

وقيل: لأنَّ الكُفرَ في الجِنِّ أكثَرُ، والكافِرُ منهم أكثَرُ مِن المؤمنِ. وقيل: الجِنُّ يتناوَلُ الملائكةَ؛ لأنَّ الجِنَّ أصلُه مِنَ الاستِتارِ، وهم مُستَتِرونَ عن الخَلقِ، وعلى

(١) يُنظر ما تقدَّم في تعريفِ القصرِ وأنواعِه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦، ٢٧).
(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤).

هذا فتَقديمُ الجِنِّ؛ لدُخولِ الملائكةِ فيهم، وكَونِهم أكثَرَ عِبادةً وأخلَصَها. وقيل غيرُ ذلك(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ تَقريرٌ لمَعنى ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، بإبطالِ بَعضِ العِلَلِ والغاياتِ الَّتي يَقصِدُها الصَّانِعون شيئًا يَصنَعونَه أو يَتَّخِذونَه؛ فإنَّ المعروفَ في العُرْفِ أنَّ مَن يَتَّخِذُ شيئًا إنَّما يتَّخِذُه لنفعِ نفْسِه، وليست الجُملةُ لإفادةِ الجانبِ المقصورِ دونَه بصِيغةِ القصْرِ؛ لأنَّ صِيغةَ القصْرِ لا تَحتاجُ إلى ذِكرِ الضِّدِّ، ولا يَحسُنُ ذِكرُ الضِّدِّ في الكلامِ البليغِ(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ الاحتِياجِ إليهم؛ لأنَّ أشدَّ الحاجاتِ في العُرْفِ حاجةُ النَّاسِ إلى الطَّعامِ واللِّباسِ والسَّكنِ، وإنَّما تَحصُلُ بالرِّزقِ، وهو المالُ؛ فلذلك ابتُدِئَ به، ثمَّ عُطِفَ عليه الإطعامُ، أي: إعطاءُ الطَّعامِ؛ لأنَّه أشدُّ ما يَحتاجُ إليه البشَرُ، وقد لا يجِدُه صاحبُ المالِ إذا قحَطَ الناسُ، فيَحتاجُ إلى مَن يُسلِفُه الطَّعامَ أو يُطعِمُه إيَّاه، وفي هذا تَعريضٌ بأهْلِ الشِّركِ؛ إذ يُهْدون إلى الأصنامِ الأموالَ والطَّعامَ تَتلقَّاه منهم سَدَنةُ الأصنامِ(٣).

- وقولُه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ فيه تَعريضٌ بأصنامِهم؛ فإنَّهم كانوا يَعمَلون معها ما يَنفَعُها، ويُحضِرون لها الأكلَ، فرُبَّما أكلَتْها الكِلابُ ثمَّ بالَتْ على الأصنامِ، ثمَّ لا يَصُدُّهم ذلك(٤)!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١، ٤٨٢).

- وفائدةُ تَكرارِ لَفظِ ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ إفادةُ حُكْمٍ زائدٍ على ما قبْلَه؛ إذ المعنى: ما أُرِيدُ منهم أنْ يُطعِموا أنفُسَهم، وما أُريدُ منهم أنْ يُطعِموا عَبيدي -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وإنَّما أضافَ تعالى الإطعامَ إلى نفْسِه؛ لأنَّ الخلْقَ عِيالُه وعَبيدُه، ومَن أطعَمَ عِيالَ غيرِه فكأنَّه أطعَمَه، ويُؤيِّدُه خبَرُ: ((إنَّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدَمَ، استطْعَمْتُك فلمْ تُطعِمْني))[١]، أي: استطعَمَك عَبْدي فلمْ تُطعِمْه[٢]. وقيل: لأنَّ السَّيِّدَ قد يَطلُبُ مِنَ العَبدِ الكَسْبَ له -وهو طَلَبُ الرِّزقِ منه-، وقد يكونُ للسَّيِّدِ مالٌ وافِرٌ يَستَغْني عن الكَسبِ، لكِنَّه يَطلُبُ منه قَضاءَ حوائِجِه بما له مِن المالِ، وإحضارَ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه مِن مالِه، فالسَّيِّدُ قال: لا أريدُ ذلك ولا هذا[٣].

- وفائِدةُ تَخصيصِه الإطعامَ بالذِّكرِ -مع أنَّ المقصودَ عَدَمُ طَلَبِ فِعلٍ منهم غيرِ التَّعظيمِ-، هو أنه لَمَّا عَمَّم في المَطلَبِ الأوَّلِ اكتفى بقَولِه: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ العُمومَ، وأشار إلى التَّعميمِ، فذكَرَ الإطعامَ؛ وذلك لأنَّ أدنَى دَرَجاتِ الأفعالِ أن يَستعينَ السَّيِّدُ بعَبدِه أو جاريتِه في تهيئةِ أمرِ الطَّعامِ، ونَفْيُ الأدنَى يَستَتبِعُه نَفيُ الأعلَى بطَريقِ الأَوْلى؛ فصار كأنَّه تعالى قال: ما أُريدُ منهم مِن عَينٍ ولا عَمَلٍ[٤].

- وتقديمُ طَلَبِ الرِّزقِ على طَلَبِ الإطعامِ مِن بابِ الارتقاءِ، كقَولِ القائِلِ: لا أطلُبُ منك الإعانةَ ولا ممَّن هو أقوى، ولا يَعكِسُ. ويقولُ: فُلانٌ يُكرِمُه الأمراءُ بل السَّلاطينُ، ولا يَعكِسُ؛ فقال هاهنا: لا أطلُبُ منكم رِزقًا ولا ما

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو دون ذلك، وهو تقديمُ طَعام بيْنَ يَدَي السَّيِّد؛ فإنَّ ذلك أمرٌ كثيرُ الطَّلَبِ مِنَ العبادِ، وإن كان الكَسبُ لا يُطلَبُ منهم[١].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّم مِن ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ و﴿يُطۡعِمُونِ﴾ للتَّخفيفِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ تَعليلٌ لِجُملتَيْ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾[٣] [الذَّاريات: ٥٧].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ إخراجٌ للكلامِ على خِلافِ مُقْتضى الظاهِرِ؛ لأنَّ مُقتضاهُ: إنِّي أنا الرَّزَّاقُ، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ؛ لتَكونَ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةً بالدَّلالةِ؛ لأنَّها سُيِّرَتْ مَسيرَ الكلامِ الجامعِ والأمثالِ[٤].

- وكَلمةُ (الرَّزَّاق) أبلَغُ مِن كَلمةِ (الرَّازق)؛ لأنَّ (الرَّزَّاق) صِيغةُ مُبالَغةٍ تدُلُّ على كَثرةِ الرِّزقِ، وعلى كثرةِ المرزوقِ، فرِزْقُ اللهِ تعالى كثيرٌ باعتبارِ كَثرةِ المرزوقينَ، فكلُّ دابَّةٍ في الأرضِ على اللهِ رِزقُها؛ مِن إنسانٍ وحيوانٍ، ومِن طائرٍ وزاحِفٍ، ومِن صَغيرٍ وكبيرٍ، ولا يُمكِنُ أنْ نُحصِيَ أنواعَ المخلوقاتِ على الأرضِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ قصْرٌ؛ لوُجودِ ضَميرِ الفصْلِ، أي: لا رزَّاقَ، ولا ذا قُوَّةٍ، ولا مَتينَ إلَّا اللهُ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٦]، أي: دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٨).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

الأصنامِ الَّتي يَعبُدونها، فالقصْرُ قصْرُ إفرادٍ[1] بتَنزيلِ المشرِكين في إشراكِهم أصنامَهم باللهِ مَنزِلةَ مَن يَدَّعِي أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في صِفاتِه الَّتي منها: الإرزاقُ، والقوَّةُ، والشِّدَّةُ، فأبطَلَ ذلك بهذا القصْرِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦] باعتبارِ أنَّ المقصودَ مِن سِياقِه إبطالُ عِبادتِهم غيرَ اللهِ، أي: فإذا لم يُفرِدْني المُشرِكون بالعِبادةِ، فإنَّ لهم ذَنوبًا مِثلَ ذَنوبِ أصحابِهم، وهو يُلمِحُ إلى ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ ما عُوقِبَتْ به الأُمَمُ السَّالفةُ مِن قولِه: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذَّاريات: ٣٢- ٤٦]، والمعنى: فإذ ماثَلَهم الَّذين ظَلَموا فإنَّ لهم نَصيبًا عَظيمًا مِن العذابِ مِثلَ نَصيبِ أولئك[3].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتقَد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَين بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩، ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠).

- والكلامُ تَمثيلٌ لِهَيئةِ تَساوي حَظِّ الَّذين ظَلَموا مِن العرَبِ بحُظوظِ الَّذين ظَلَموا مِن الأُمَمِ السَّالفةِ بهَيئةِ الَّذين يَسْتَقُون مِن قَليبٍ واحدٍ؛ إذ يَتساوونَ في أنصبائِهم مِن الماءِ، وهو مِن تَشبيهِ المَعقولِ بالمحسوسِ، وأُطلِقَ على الأُمَمِ الماضيةِ اسمُ وصْفِ أصحابِ الَّذين ظَلَموا باعتبارِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها؛ إذ هي هيئةُ جماعاتِ الوِرْدِ يكونونَ مُتصاحِبينَ، وهذا التَّمثيلُ قابلٌ للتَّوزيعِ؛ بأنْ يُشَبَّهَ المشركونَ بجماعةٍ ورَدَت على الماءِ، وتُشبَّهَ الأُمَمُ الماضيةُ بجَماعةٍ سبَقَتْهم للماءِ، ويُشبَّهَ نَصيبُ كلِّ جَماعةٍ بالدَّلْوِ الَّتي يأْخُذونَها مِن الماءِ[١].

- وفي الآيةِ مِن اللَّطائفِ تَمثيلُ ما سيُصِيبُ الَّذين كَفَروا بالذَّنوبِ، والذَّنوبُ يُناسِبُ القَليبَ، وقد كان مَثواهم يومَ بدْرٍ قَليبَ بدْرٍ الَّذي رُمِيَت فيه أشلاءُ سادتِهم[٢].

- وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ: أنْ يَسمَعَه المشرِكون، فهو تَعريضٌ. وبهذا الاعتِبارِ أُكِّدَ الخبَرُ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ بحرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم كانوا مُكذِّبينَ بالوعيدِ، ولذلك فُرِّعَ على التأْكيدِ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَستعجِلون بالعذابِ استِهزاءً، وإشعارًا بأنَّه وعْدٌ مَكذوبٌ، فهُم في الواقعِ يَستعجِلون اللهَ تعالى بوَعيدِه[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ عُدِّيَ الاستِعجالُ إلى ضَميرِ الجلالةِ، وهم إنَّما استَعْجلوه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لإظهارِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠، ٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١).

وسلَّم مُخبِرٌ عن اللهِ تعالى؛ تَوبيخًا لهم، وإنذارًا بالوعيدِ(١).

- وأيضًا هذا النَّهيُ ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ إظهارًا لغضَبِ اللهِ عليهم(٢).

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ في ﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾ للتَّخفيفِ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فُرِّعَ على وَعيدِهم إنذارٌ آخَرُ بالويلِ، أو إنشاءُ زَجرٍ(٤).

- وتَنكيرُ (ويل) للتَّعظيمِ(٥).

- والكلامُ يَحتمِلُ الإخبارَ بحُصولِ وَيلٍ، أي: عذابٌ وسُوءُ حالٍ لهم يومَ أُوعِدوا به، ويَحتمِلُ إنشاءَ الزَّجْرِ والتَّعجيبِ مِن سُوءِ حالِهم في يومٍ أُوعِدوه(٦).

- و(الذين كَفَروا) في قولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ همُ (الذين ظَلَموا) في قولِه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ وعُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهِرِ -حيثُ لم يقُلْ: (فإنَّ لهم)-؛ لِما فيه مِن تأْكيدِ الاسمِ السَّابقِ تأْكيدًا بالمُرادِفِ، مع ما في صِفةِ الكفرِ مِن الإيماءِ إلى أنَّهم لم يَشكُروا نِعمةَ خالِقِهم، وتَسجيلًا عليهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِنَ الكُفرِ، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكمِ(٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

- وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ الَّذين كَفَروا في قولِه: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِه بهم، أي: هو مُعيَّنٌ لجَزائِهم[(١)].

- وأوَّلُ هذه السُّورةِ وآخِرُها مُتناسِبانِ؛ حيث قال تعالى في أوَّلِها: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ﴾ [الذاريات: ٥]، وقال تعالى في آخِرِها: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾[(٢)]، وفيه ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ[(٣)]؛ ففيه إيذانٌ بانتِهاءِ السُّورةِ، وذلك مِن بَراعةِ المَقطَعِ[(٤)].



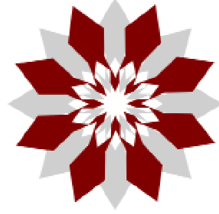
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

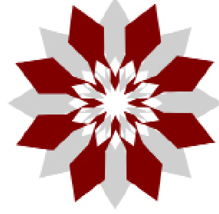
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٩).

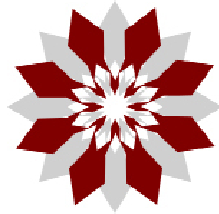
(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الطُّورِ







سورةُ الطُّورِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطُّورِ)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرَأَ في المَغرِبِ بـ «الطُّورِ»))[٢].

٢- عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((شَكَوتُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنِّي أشتكي، فقال: طوفي مِن وراءِ النَّاسِ وأنتِ راكِبةٌ، فطُفتُ ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي إلى جَنبِ البَيتِ يَقرَأُ بـ «الطُّورِ وكتابٍ مَسطورٍ»))[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ[٤]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٥].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- تقريرُ البَعثِ، وبَيانُ سُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ[٦].

---

(١) سُمِّيَتْ سورةَ الطُّورِ؛ لِمُفتَتَحِها بقَولِه تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٦٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٦٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨).

(٥) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ =

٢- الرَّدُّ على مُفتَرَياتِ المُشرِكينَ وأكاذيبِهم[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- قَسَمُ اللهِ تعالى ببَعضِ مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على كَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صُنعِه، وبكتابِه؛ على أنَّ البَعثَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الجزاءَ حَقٌّ وكائِنٌ يومَ القيامةِ.

٢- الحديثُ عن سُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وما أعَدَّه اللهُ للمُتَّقينَ، وصِفةِ نَعيمِهم، وثنائِهم على اللهِ بما مَنَّ عليهم.

٣- الرَّدُّ على شُبَهِ المُشرِكينَ وأكاذيبِهم.

٤- الإخبارُ بأنَّ الظَّالِمينَ يُعَذَّبونَ في الدُّنيا قبْلَ عذابِهم في الآخِرةِ.

٥- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعْدُه بالتَّأييدِ، وأمْرُه بالصَّبرِ وأن يُسَبِّحَ بحَمدِ اللهِ.



= ٣٦، ٦٧).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٥).

الآيات (١-٨)

﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلطُّورِ﴾: أي: الجَبَلِ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ. وقيل: هو اسمٌ لكُلِّ جَبَلٍ، وأصلُ (طور): يدُلُّ على الامتِدادِ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[(١)].

﴿مَّسۡطُورٖ﴾: أي: مَكتوبٍ مَحفوظٍ، وأصْلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿رَقّٖ﴾: الرَّقُّ: الَّذي يُكتَبُ فيه، قيل: هو الوَرَقُ، وقيل: هو ما كان مِن الجِلدِ، وقيل: كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن صحيفةٍ وغيرِها. والرِّقَّةُ متى كانت في جِسمٍ تُضادُّها الصَّفاقةُ، نحو: ثوبٌ رَقيقٌ وصفيقٌ، ومتى كانت في نفْسٍ تُضادُّها الجَفوةُ والقسوةُ[(٣)].

﴿مَّنشُورٖ﴾: أي: مَبْسوطٍ، ونَشَرَ الثَّوبَ، والصَّحِيفةَ، والسَّحَابَ، والنِّعْمَةَ، والحَدِيثَ: بَسَطَهَا، وأصْلُ (نشر): يدُلُّ على فتحِ شَيءٍ وتَشعُّبِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢).

﴿الْمَسْجُورِ﴾: أي: المَملوءِ؛ يُقالُ: سَجَرَ الإناءَ: إذا مَلأَه. وقيل: المُوقَدُ المُحمَى، بمَنزلةِ التَّنُّورِ المسجورِ، وأصلُ (سجر): يدُلُّ على المَلْءِ والإيقادِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الكَريمةِ بجَبَلِ طُورِ سَيناءَ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ، وبالكِتابِ المُسطَّرِ المَكتوبِ الكائِنِ في وَرَقٍ مَبسوطٍ غيرِ مَطْويٍّ، وبالبَيتِ المَعمورِ بالملائِكةِ في السَّماءِ، وبالسَّماءِ الَّتي رفَع اللهُ بُنيانَها وجعَلَها سَقفًا للأرضِ، وبالبَحرِ المسجورِ؛ على أنَّ عذابَه تعالى واقِعٌ ونازِلٌ بمَن يَستحِقُّه، ما لَه مِن دافعٍ يَدفَعُه عن أهلِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَالطُّورِ ۝١﴾.

أي: أُقسِمُ بجَبَلِ طُورِ سَيناءَ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٣).

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: أقسَمَ اللهُ بالجَبَلِ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى بنَ عِمْرانَ عليه السَّلامُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٧٥).

وقال ابنُ القَيِّم: (الطُّورُ: هو الجَبَلُ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه نَبيَّه وكليمَه موسى بنَ عِمرانَ، عندَ جُمهورِ المفَسِّرينَ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٤).

وقال ابنُ كثير: (الطُّورُ هو: الجَبَلُ الَّذي يكون فيه أشجارٌ، مِثلُ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى، وأرسَل منه عيسى، وما لم يكُنْ فيه شَجَرٌ لا يُسَمَّى طُورًا، إنَّما يُقالُ له: جَبَلٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٥).

كما قال الله تعالى عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢].

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بكِتابٍ مُسطَّرٍ مَكتوبٍ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٧).

قال ابنُ عطية: (الكِتابُ المسطورُ: معناه بإجماعٍ: المكتوبُ أَسطارًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٥).

وقال البِقاعي: (﴿مَّسْطُورٍ﴾ أي: مُتَّفِقِ الكتابةِ بسُطورٍ مَصفوفةٍ مِن حُروفٍ مُرَتَّبةٍ جامعةٍ لِكَلِماتٍ مُتَّفِقةٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣).

وذكر ابنُ الجوزي في المرادِ بالكتابِ المسطورِ أربعةَ أقوالٍ: (أحَدُها: أنَّه اللَّوحُ المحفوظُ. قاله أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّاني: كُتُبُ أعمالِ بني آدمَ. قاله مُقاتِلٌ والزَّجَّاجُ.

والثَّالثُ: التَّوراةُ. والرَّابعُ: القُرآنُ. حكاهما الماوَرْديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥).

ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ ما أُثبِتَ على بني آدَمَ مِن أعمالِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، ونَسَبه إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٥، ٤٧٦).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ: القرآنُ الكريمُ: ابنُ القَيِّم، واختاره الشَّوكاني، واستظهَره الشنقيطي. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤).

قال ابنُ القَيِّم: (اختُلِفَ في هذا الكتابِ [أي: الكِتابِ المسطورِ]؛ فقيل: هو اللَّوحُ المحفوظُ، =

﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣﴾.

أي: والكِتابِ المَسطورِ في وَرَقٍ مَبسوطٍ غيرِ مَطْويٍّ[1].

= وهذا غَلَطٌ؛ فإنَّه ليس برَقٍّ. وقيل: هو الكِتابُ الَّذي تضَمَّن أعمالَ بني آدمَ، وقال مقاتِلٌ: تُخرَجُ إليهم أعمالُهم يومَ القيامةِ في رَقٍّ مَنشورٍ، وهذا وإنْ كان أقوى وأصَحَّ مِنَ القَولِ الأوَّلِ واختاره جماعةٌ مِنَ المفَسِّرين، ومنهم مَن لم يَذكُرْ غيرَه؛ فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ به الكتابُ المُنَزَّلُ من عندِ اللهِ، وأقسَمَ اللهُ به لعَظَمتِه وجلالتِه، وما تضَمَّنه مِن آياتِ رُبوبيَّتِه وأدِلَّةِ توحيدِه، وهدايةِ خَلْقِه. ثمَّ قيل: هو التَّوراةُ الَّتي أنزل اللهُ على موسى، وكأنَّ صاحِبَ هذا القَولِ رأى اقترانَ الكِتابِ بالطُّورِ، فقال: هو التَّوراةُ. ولكِنَّ التَّوراةَ إنَّما أُنزِلَت في ألواحٍ لا في رَقٍّ إلَّا أن يقالَ: هي في رَقٍّ في السَّماءِ، وأنزِلَت في ألواحٍ. وقيل: هو القرآنُ، ولعَلَّ هذا أرجَحُ الأقوالِ؛ لأنَّه سبحانه وَصَف القرآنَ بأنَّه في صُحُفٍ مُطهَّرةٍ، بأيدي سَفَرةٍ، كرامٍ بَرَرةٍ؛ فالصُّحُفُ هي الرَّقُّ، وكَونُه بأيدي سَفَرةٍ هو كَونُه مَنشورًا، وعلى هذا فيكونُ قد أقسَمَ بسَيِّدِ الجبالِ وسَيِّدِ الكُتُبِ، ويكونُ ذلك مُتضَمِّنًا للنُّبوَّتينِ المُعظَّمتينِ: نُبُوَّةِ موسى، ونُبُوَّةِ محمَّدٍ، وكثيرًا ما يُقرَنُ بيْنَهما وبيْنَ محَلِّهما، كما في سورةِ التِّينِ والزَّيتونِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ به التَّوراةُ خاصَّةً: النَّيسابوريُّ، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧).

قال ابنُ عاشور: (كان اليَهودُ يَكتُبونَ التَّوراةَ في رُقوقٍ مُلصَقٍ بَعضُها ببعضٍ، أو مخيطٍ بَعضُها ببَعضٍ، فتَصيرُ قِطعةً واحِدةً، ويَطوونَها طَيًّا أُسطوانيًّا؛ لِتُحفَظَ، فإذا أرادوا قراءتَها نَشَروا مَطويَّها، وليس المرادُ بـ«كتابٍ مَسطورٍ» القُرآنَ؛ لأنَّ القُرآنَ لم يكُنْ يَومَئذٍ مكتوبًا سُطورًا، ولا هو مكتوبًا في رَقٍّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: اللَّوحُ المحفوظُ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥).

وذهب السعديُّ إلى احتمالِ أنْ يكونَ المرادُ به اللَّوحَ المحفوظَ، وإلى احتِمالِ أن يكونَ المرادُ به القُرآنَ الكريمَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣).

وقال أبو حيَّان بعدَ أن ذكر الخلافَ والأقوالَ: (ولا يَنْبَغي أنْ يُحْمَلَ شيءٌ منها على التَّعيينِ، إنَّما تُورَدُ على الاحتِمالِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) =

= (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧، ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرَّقِّ: الورَقُ: أبو عُبَيدةَ، وابنُ جرير، والسعديُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣).
قال ابن عطيَّة: (الرَّقُّ: الورَقُ المُعدَّةُ للكتبِ، وهي مُرقَّقةٌ؛ فلذلك سُمِّيتْ رَقًّا، وقد غلَب الاستِعمالُ على هذا الَّذي هو مِن جُلودِ الحيَوانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أديمُ (جِلدُ) الصُّحفِ الَّذي يُكتَبُ فيه الشَّيءُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٣٦). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧).
وقال السمرقنديُّ والزمخشريُّ: المرادُ: الصَّحيفةُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨).
وقال الشنقيطي: (الرَّقُّ بفتحِ الرَّاءِ: كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن صحيفةٍ وغيرِها). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥١).

وقال ابن عثيمين: (الكتابُ المسطورُ في الرَّقِّ اختلَف فيه العلماءُ، وهذا الخلافُ يَنبني على كلمةِ ﴿رَقٍّ﴾: هل الرَّقُّ كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن جِلدٍ وورَقٍ وعَظمٍ وحجَرٍ وغيرِ ذلك؟ أو هو خاصٌّ بما يُكتَبُ فيه مِن جُلودٍ ونحوِها؟ إن قُلْنا بالأوَّلِ صار المرادُ بالكِتابِ عدَّةَ أشياءَ؛ منها اللَّوحُ المحفوظُ، ومنها الكُتبُ الَّتي بأيدي الملائكةِ، ومنها القرآنُ الكريمُ، ومنها التَّوراةُ، فيَشملُ عدَّةَ كُتبٍ، وإذا قُلْنا: إنَّ الرَّقَّ هو الورَقُ وشِبهُه ممَّا يُكتَبُ فيه عادةً، فاللَّوحُ المحفوظُ لا يدخُلُ في هذا، وإنَّما المرادُ به إمَّا التَّوراةُ، وإمَّا القرآنُ؛ فالَّذين قالوا: إنَّه التَّوراةُ رجَّحوا قولَهم بأنَّه قُرِن بالطُّورِ، والطُّورُ هو الَّذي كلَّم منه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكان الكتابُ المسطورُ هو التَّوراةَ الَّتي جاء بها موسى، ومَن قال: إنَّ المرادَ به القرآنُ الكريمُ رجَّح ذلك بأنَّ اللهَ ذكر الطُّورَ الَّذي أُوحيَ منه إلى موسى، وذكَر الكتابَ الَّذي هو القرآنُ أوحيَ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ الله تبارك وتعالى ذكَرَ أشرَفَ الرِّسالاتِ في بني إسرائيلَ إيماءً بذِكرِ الطُّورِ، وذكَرَ أشرفَ الرِّسالاتِ الَّتي بُعِث بها من بني إسماعيلَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٣).
وممَّن قال بأنَّ معنى ﴿مَّنشُورٍ﴾: مبسوطٌ غيرُ مَطْويٍّ: الواحديُّ، وابنُ عطية، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦)، =

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ بالبيتِ المعمورِ بالملائِكةِ في السَّماءِ(١).

= ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

قال البِقاعي: (أي: مُهيَّأٌ للقِراءةِ والاتِّعاظِ بما فيه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣).

وقال الرازي: (ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ وعَظَمةُ الكتابِ بلَفظِه ومعناه، لا بخَطِّه ووَرَقِه؟

نقولُ: هو إشارةٌ إلى الوُضوحِ؛ وذلك لأنَّ الكِتابَ المَطْويَّ لا يُعلَمُ ما فيه، فقال: هو في رَقٍّ مَنشورٍ، وليس كالكُتُبِ المَطويَّةِ، وعلى هذا المرادُ اللَّوحُ المحفوظُ، فمعناه: هو منشورٌ لكم لا يَمنعُكُم أحدٌ مِن مُطالَعتِه، وإنْ قُلْنا بأنَّ المرادَ كتابُ أعمالِ كلِّ أحدٍ، فالتَّنكيرُ لعدَمِ المعرفةِ بعَينِه، و﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ لبيانِ وصْفِه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٩).

وقال ابن عثيمين: (وهذا يَصدُقُ تمامًا على القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّه -ولله الحَمدُ- بيْنَ يَدَي كُلِّ قارئٍ، حتَّى الصِّغارُ مِن المُسلِمينَ يَقرؤونَه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

قال السَّمْعاني: (القَولُ المعروفُ: أنَّه بيتٌ في السَّماءِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعامَّةُ المفَسِّرينَ، وهو مرويٌّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه أيضًا. واختلفوا في موضِعِه، فروى أنسٌ عن مالِكِ بنِ صَعصَعةَ، عن النَّبيِّ -في قِصَّةِ المعراجِ- أنَّه قال: «رُفِعَ ليَ البَيتُ المعمورُ في السَّماءِ السَّابعةِ»). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٧).

وقيل: البَيتُ المعمورُ: هو الكَعبةُ. ورجَّحه القاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٧).

قال القاسمي: (﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾، أي: الَّذي يَعمُرُ بكثرةِ غاشيتِه، وهو الكعبةُ المعمورةُ بالحُجَّاجِ والعُمَّارِ، والطَّائِفينَ والعاكِفين والمجاورِينَ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير =

عن مالكِ بنِ صَعْصَعةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِ الإسراءِ: ((... ثمَّ رُفِعَ ليَ البَيتُ المعمورُ، فقُلتُ: يا جِبريلُ، ما هذا؟ قال: هذا البَيتُ المعمورُ يَدخُلُه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجوا منه لم يَعودوا فيه آخِرَ ما عليهم!))(١).

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِ الإسراءِ: ((... ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُسنِدًا ظَهْرَه إلى البَيتِ المَعمورِ، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يومٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليه!))(٢).

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾.

أي: وأُقسِمُ بالسَّماءِ الَّتي رفَع اللهُ بُنْيانَها، وجعَلَها سَقفًا للأرضِ مِن جميعِ

= ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾: عن الحَسَنِ: أنَّه الكعبةُ، وهذا الأنسَبُ بعَطفِه على الطُّورِ، ووَصفُه بالمعمورِ لأنَّه لا يخلو مِن طائفٍ به، وعُمرانُ الكعبةِ هو عُمرانُها بالطَّائفينَ... وثَمَّةَ أخبارٌ كثيرةٌ مُتفاوِتةٌ في أنَّ في السَّماءِ مَوضِعًا يُقالُ له: البيتُ المعمورُ، لكِنَّ الرِّواياتِ في كَونِه المرادَ مِن هذه الآيةِ ليست صريحةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (المشهورُ أنَّه الضُّراحُ الَّذي في السَّماءِ الَّذي رُفِعَ للنَّبيِّ لَيلةَ الإسراءِ، يَدخُلُه كُلَّ يوم سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، ثمَّ لا يَعودون إليه آخِرَ ما عليهم، وهو بحِيالِ البيتِ المعمورِ في الأرضِ. وقيل: هو البيتُ الحرامُ، ولا ريبَ أنَّ كُلًّا منهما معمورٌ؛ فهذا معمورٌ بالملائكةِ وعبادتِهم، وهذا معمورٌ بالطَّائفينَ والقائِمينَ والرُّكَّعِ والسُّجودِ، وعلى كِلا القولَينِ فكُلٌّ منهما سَيِّدُ البُيوتِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٦).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على كِلا القولينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٧)، ومسلمٌ (١٦٤) واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢).

جَوانِبِها(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧].

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ٦﴾.

أي: وأُقسِمُ بالبَحرِ المسجورِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٥).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ«السَّقفِ المرفوعِ»: السَّماءُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.
ونسَب ابنُ الجوزي هذا القولَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦).
وقال ابنُ كثير: (قال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: هو العَرشُ، يعني: أنَّه سَقفٌ لجميعِ المخلوقاتِ، وله اتِّجاهٌ، وهو يُرادُ مع غيره كما قاله الجُمهورُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ أيضًا: ابنُ عبَّاسٍ، وزاد أنَّه سقفُ الجنَّةِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٦-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦، ١٧٧).
اختلف المفسِّرون في موضِعِ هذا البَحرِ؛ فقيل: هو بحرٌ تحت عَرشِ الرَّحمنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥١). =

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وعبدُ الله بنُ عَمرٍو، وأبو صالحٍ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وقيل: هو بحرُ الدُّنيا، الموجودُ في الأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهَره الماوَرْديُّ، وذهب إليه ابنُ جُزَي، والألوسي، وابنُ عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ وابنُ كثيرٍ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّه بحرٌ مخصوصٌ، وهو البحرُ الأحمرُ. قال: (ومُناسَبةُ القَسَم به أنَّه به أُهلِكَ فِرعَونُ وقَومُه حينَ دخَلَه موسى وبنو إسرائيلَ، فلَحِقَ بهم فِرعَونُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

واختَلفوا في معنى ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾؛ فقيل: المرادُ به: المملوءُ ماءً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

قال ابنُ جريرٍ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: معناه: والبَحرِ المملوءِ المجموعِ ماؤُه بَعضُه في بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

وقيل: المسجورُ بمعنى: المُوقَدِ، مِن السَّجرِ: وهو إيقادُ النَّارِ في التَّنُّورِ. واختاره: الخازنُ، والشوكانيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وعبدُ الله بنُ عُبَيدِ بنِ عُمَيرٍ، والضَّحَّاكُ، وشِمْرُ ابنُ عطيَّةَ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤).

وذكر ابنُ الجوزي الأقوالَ في معنى المسجورِ، ومنها: أنَّه اليابسُ الذي قد ذهَب ماؤُه ونَضَب، قاله أبو العاليةِ. وأنَّه قد رُوي عن الحَسَنِ أنَّه قال: تُسجَرُ -يعني البحارَ- حتى يذهَبَ ماؤُها، فلا يبقَى فيها قَطرةٌ. ثمَّ قال: (وقَولُ هذين يرجِعُ إلى معنى قولِ مجاهدٍ [أي: أنَّه المُوقَدُ]). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦). =

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

أي: أُقسِمُ بتلك الأشياءِ على أنَّ عذابَ ربِّك -يا محمَّدُ- لَواقِعٌ ونازِلٌ حَتمًا بمَن يَستحِقُّه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

= وقيل: هو بمعنى المحبوسِ، فلولا أنَّ البَحرَ يُمسَكُ لَفاضَ على الأرضِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

وظاهِرُ اختيارِ البِقاعي والسعدي الجَمعُ بيْنَ معنى الامتلاءِ بالماءِ، وحَبْسِه عن الفَيَضانِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣، ٨١٤).

وقال ابن عثيمين: («مسجور» أي: ممنوعٌ مِن أن يَفيضَ على الأرضِ فيُغرِقَ أهْلَها. وقيل: المرادُ بالمسجورِ الَّذي سيُسجَرُ، أي: يُوقَدُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. أي: أُوقِدَتْ. وهذا يكونُ يومَ القيامةِ، ... والمرادُ به المَعنيانِ جميعًا؛ لأنَّه لا مُنافاةَ بيْنَ هذا وهذا، فكِلاهما مِن آياتِ الله عزَّ وجلَّ، أي: سواءٌ قُلْنا: المسجورُ الممنوعُ مِن أن يَفيضَ على الأرضِ، أو المسجورُ الَّذي سيُسجَرُ -أي: يُوقَدُ-، فكلُّ ذلك مِن آياتِ الله). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦).

وقال أيضًا: (هل معنى: «البحرِ المسجورِ» الَّذي سيُسجَّرُ ويكونُ نارًا يومَ القيامةِ، أو المسجور: المملوء، أو المسجور: الممنوع عن الفَيَضانِ على الأرضِ... الآية صالحةٌ للجميعِ، أي: تُحمَلُ على الجميعِ، ولا مانِعَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٧).

وقيل: المسجورُ: المُختَلِطُ عَذبُه بمِلْحِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: الرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨﴾.

أي: ما لِذلك العَذابِ مِن دافعٍ يَدفَعُه عن أهلِه، فيُنقِذُهم منه[1]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ * لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ [المعارج: ١، ٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ في وَصفِ الكتابِ بأنَّه مَسطورٌ تحقيقٌ لكَونِه مَكتوبًا مَفروغًا منه[2]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به القرآنُ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ في وَصفِ الكتابِ بأنَّه مَنشورٌ إيذانٌ بالاعتِناءِ به، وأنَّه بأيدي الملائكةِ مَنشورٌ غيرُ مَهجورٍ[3]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به القرآنُ.

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه عَظيمَ الإكرامِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أضاف العَذابَ إلى صِفةِ الإحسانِ والتَّربيةِ الخاصَّةِ به[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ * فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ * وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٨).
قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا كان الَّذي يقعُ قد يمكِنُ دَفْعُه، أخبَرَ سُبحانَه أنَّه لا دافِعَ له، وهذا يتناوَلُ أمْرَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه لا دافِعَ لوُقوعِه، والثَّاني: أنَّه لا دافِعَ له إذا وَقَع). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦).

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ * وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ القسَمُ بهذِه الأمورِ؛ للتَّأكيدِ وتَحقيقِ الوَعيدِ، وتَخصيصُ هذهِ الأُمورِ بالإقسامِ بها؛ لأنَّها أُمورٌ عِظامٌ تُنبِئُ عنْ عِظَمِ قُدْرةِ اللهِ تعالَى، وكَمالِ عِلْمِهِ وحِكمتِهِ الدَّالَّةِ عَلى إحاطتِه تعالَى بتَفاصيلِ أعمالِ العِبادِ وضبْطِها، الشَّاهدةِ بصِدْقِ أخْبارِه الَّتي مِن جُمْلتِها الجُملةُ المُقسَمُ عَليها[1].

وقيل: مُناسَبةُ الأُمورِ المُقسَمِ بها للمُقسَمِ عليه: أنَّ هذه الأشياءَ المُقسَمَ بها من شُؤونِ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ -بِناءً على أنَّ الكِتابَ هو التَّوراةُ، والبحرَ هو الأحمرُ-، وكان هَلاكُ فِرعونَ ومَن معَه مِن جَرَّاءِ تَكذيبِهم مُوسى عليه السَّلامُ[2].

- والطُّورُ: الجبَلُ باللُّغةِ السُّريانيَّةِ، وغُلِّبَ عَلَمًا على طُورِ سَيناءَ الَّذي ناجَى فيه مُوسى عليه السَّلامُ، وأُنزِلَ عليه فيه الألواحُ المُشتمِلةُ على أُصولِ شَريعةِ التَّوراةِ؛ فالقسَمُ به باعتِبارِ شَرَفِه بنُزولِ كَلامِ اللهِ فيه، ونُزولِ الألواحِ على مُوسى، وفي ذِكرِ الطُّورِ إشارةٌ إلى تلك الألواحِ؛ لأنَّها اشتُهِرَتْ بذلك الجَبَلِ، والقسَمُ بالطُّورِ تَوطئةٌ للقسَمِ بالتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَ أوَّلُها على مُوسى في جبَلِ الطُّورِ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَنكيرُ (كِتابٍ) و(رَقٍّ)؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، والإشْعارِ بأنَّهما لَيسَا مِن المُتعارَفِ فيما بيْنَ النَّاسِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٠).

- وإجراءُ الوصْفين ﴿مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ على الكِتابِ؛ لتَمْييزِه بأنَّه كِتابٌ مُشرَّفٌ، مُرادٌ بَقاؤُه، مأْمورٌ بِقراءتِه؛ إذ المَسطورُ هو المكتوبُ، أي: أقسَمَ بحالِ نَشْرِه لقِراءتِه، وهي أشرَفُ أحوالِه؛ لأنَّها حالةُ حُصولِ الاهتِداءِ به للقارِئِ والسَّامعِ[1].

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بالتَّوراةِ -وذلِك على القَولِ بأنَّها المقصودةُ بلفظِ (كِتابٍ)- أنَّها الكِتابُ الموجودُ الَّذي فيه ذِكْرُ الجَزاءِ وإبطالِ الشِّرْكِ، وللإشارةِ إلى أنَّ القرآنَ الَّذي أنْكَروا أنَّه مِن عِندِ اللهِ ليس بِدْعًا؛ فقد نَزَلَت قبْلَه التَّوراةُ؛ وذلك لأنَّ المُقسَمَ عليه وُقوعُ العَذابِ بهم، وإنَّما هو جَزاءٌ على تَكذيبِهم القُرآنَ ومَن جاء به؛ بدَليلِ قَولِه بعْدَ ذِكْرِ العذابِ: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾[2] [الطور: ١١، ١٢].

- والبيتُ المَعمورُ هنا هو الكَعْبةُ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، ووَصْفُه بالمَعمورِ؛ لأنَّه لا يَخلو مِن طائفٍ به، وعُمرانُ الكَعبةِ هو عُمرانُها بالطَّائفينَ[3].

- ومُناسَبةُ القسَمِ بالبَيتِ المَعمورِ الَّذي هو الكعبةُ: سَبْقُ القَسَمِ بكِتابِ التَّوراةِ، فعُقِّبَ ذلك بالقسَمِ بمَواطنِ نُزولِ القُرآنِ؛ فإنَّ ما نزَلَ به مِن القُرآنِ أُنزِلَ بمكَّةَ وما حَوْلَها، مِثلُ جَبلِ حِراءَ، وكان نُزولُه شَريعةً ناسِخةً لشَريعةِ التَّوراةِ، على أنَّ الوحْيَ كان يَنزِلُ حوْلَ الكَعبةِ؛ فيكونُ تَوسيطُ القسَمِ بالكعْبةِ في أثناءِ ما أُقسِمَ به مِن شُؤونِ شَريعةِ مُوسى عليه السَّلامُ إدماجًا[4]. وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

وتقدَّم تعريفُ الإدماجِ (ص: ٣٥).

على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ السَّقْفُ المرفوعُ هو السَّماءُ، ومُناسَبةُ القسَمِ بها أنَّها مَصدرُ الوحْيِ كلِّه؛ التَّوراةِ والقُرآنِ، وتَسميةُ السَّماءِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ(١).

- والمَسجورُ: مَشتقٌّ مِن السَّجْرِ، وهو المِلْءُ والإمدادُ؛ فهو صِفةٌ كاشفةٌ(٢)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

والتَّشبيهُ: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ للمُشَبَّهِ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به. وينقسمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتِباراتٍ عِدَّة، ومنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٢) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

قُصِدَ منها التَّذكيرُ بحالِ خلْقِ اللهِ إيَّاهُ مَملوءًا ماءً دونَ أنْ تَملأَه أَوديةٌ أو سُيولٌ -وذلك علَى قولٍ-. أو هي للاحترازِ عن إرادةِ الوادي؛ إذ الوادي يَنقُصُ، فلا يَبْقى على مَلْئِه، وذلك دالٌّ على عِظَمِ القُدْرةِ، أو أنَّ وصْفَه بالمَسجورِ؛ للإيماءِ إلى الحالةِ الَّتي كان بها هَلاكُ فِرعَونَ بعْدَ أنْ فرَقَ اللهُ البحرَ لِمُوسى وبني إسرائيلَ، ثمَّ أسجَرَهُ، أي: أفاضَهُ على فِرعونَ ومَلَئِه[1]. وذلك على أنَّ المرادَ به البحرُ الأحمرُ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ تَحقيقُ وُقوعِ عَذابِ اللهِ يومَ القِيامةِ إثباتٌ للبَعثِ بطَريقِ الكِنايةِ القريبةِ، وتَهديدٌ للمُشرِكين بطَريقِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ[2].

- وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ جوابُ القَسَمِ[3].

- وفي إضافةِ العذابِ لقولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ لَطيفةٌ؛ إذ هو المالِكُ والنَّاظِرُ في مَصلَحةِ العبْدِ؛ فبالإضافةِ إلى الرَّبِّ وإضافتِه لِكافِ الخِطابِ أمانٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ العذابَ لَواقِعٌ هو بمَن كذَّبَه[4]، وأيضًا أضاف الصِّفةَ إلى ضَميرِه؛ إيذانًا بأنَّه سُبحانَه يُرِي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠).

وتَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ. والتَّعريضُ اصطلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ، ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ من السِّياقِ، نحو قولِك للمؤذي: ((المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلمونَ من لِسانِه ويَدِه)) تَعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذي. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٤٠٣، ٤١١)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٨).

أُمَّته ما يَسُرُّه[١].

- وقولُه: ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى الشِّدَّةِ، وهو أدَلُّ عليها مِن (لَكائنٌ)، كأنَّه مُهيَّأٌ في مَكانٍ مُرتفِعٍ، فيَقَعُ على مَن حلَّ به[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، وتَقديرُه: على المكذِّبين، أو بالمكذِّبين، كما دلَّ عليه قولُه بعْدُ: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، أي: المكذِّبين بك، بقَرينةِ إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المُخاطَبِ المُشعِرِ بأنَّه مُعذِّبُهم؛ لأنَّه ربُّك وهم كذَّبوك، فقد كذَّبوا رِسالةَ الرَّبِّ[٣].

- وقد تَضمَّنَ قولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ إثباتَ البَعثِ بعْدَ كَونِ الكلامِ وَعيدًا لهم على إنكارِ البعثِ، وإنكارِهم أنْ يَكونوا مُعذَّبينَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ زِيدَتْ (مِن) في النَّفْيِ؛ لتَحقيقِ عُمومِ النَّفْيِ وشُمولِه، أي: نفْيِ جِنسِ الدَّافعِ[٥].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

الآيات (٩-١٦)

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١
ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى
كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا
تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَمُورُ﴾: أي: تَدورُ، وتتحَرَّكُ، وتَضطَرِبُ بما فيها، وأصلُ (مور): يدُلُّ على تَرَدُّدٍ[(١)].

﴿خَوْضٍ﴾: أي: تَكذيبٍ، وتَخبُّطٍ في الأباطيلِ، والخَوضُ: الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُطلَقُ على الدُّخولِ في الأمرِ بالقَولِ، وأكثَرُ ما ورَدَ في القُرآنِ ورَدَ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على توسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[(٢)].

﴿يُدَعُّونَ﴾: أي: يُدفَعونَ بشِدَّةٍ، والدَّعُّ في اللُّغةِ: الدَّفعُ في قَسوةٍ وعُنفٍ، وأصلُ (دعع): يدُلُّ على دَفعٍ[(٣)].

﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي: ادخُلوها، وذُوقوا حَرَّها، وأصلُ الصَّليِ: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ وما أشبَهَها مِن الحمَّى[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، =

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ عذابَه يَقَعُ يومَ تتحَرَّكُ السَّماءُ وتَضطَرِبُ، وتَذهَبُ الجِبالُ وتَزولُ عن أماكِنِها، فتَصيرُ هَباءً، وذلك كائِنٌ يومَ القيامةِ؛ فعَذابٌ وهَلاكٌ في ذلك اليَومِ للمُكَذِّبينَ الَّذين هم مُنغَمِسونَ في الباطِلِ، غافِلونَ عن الآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حالَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: يَومَ يُدفَعُونَ إلى نارِ جَهنَّم دَفعًا شَديدًا، ويُقالُ لهم: هذه هي النَّارُ الَّتي كُنتُم في الدُّنيا تُكذِّبونَ بها، أهذا الَّذي تَرَونَه مِن عذابِها الآنَ سِحرٌ لا حقيقةَ له، أم أنتم لا تُبصِرونَه بأعيُنِكم؟! ادخُلوا النَّارَ وذُوقُوا حَرَّها، فسَواءٌ عليكم الصَّبرُ والجَزَعُ؛ لن يَنفَعَكم شَيءٌ، إنَّما تُعذَّبونَ في النَّارِ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالَى أنَّ العذابَ واقِعٌ؛ بَيَّن متَى يَقَعُ العَذابُ، فقال[(١)]:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾.

أي: يومَ[(٢)] تتحَرَّكُ السَّماءُ وتَضطَرِبُ، وتَذهَبُ وتَجيءُ، وذلك كائِنٌ يومَ

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١١٩).

(٢) قال السمين: (يجوزُ أن يكونَ العاملُ فيه «واقع»، أي: يقَعُ في ذلك اليوم؛ وعلى هذا فتكونُ الجملةُ المَنفيَّةُ مُعترِضةً بيْنَ العامِلِ ومَعمولِه. ويجوزُ أن يكونَ العامِلُ فيه ﴿دَافِعٍ﴾[الطور: ٨]، قاله الحوفيُّ وأبو البقاءِ، ومنَعَه مكِّيٌّ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٤، ٦٥). ويُنظر: ((التبيان =

القِيامةِ(١)!

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾.

أي: وتَذهَبُ الجِبالُ وتَزولُ عن أماكِنِها، فتَصيرُ هَباءً(٢)!

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ [الكهف: ٤٧].

= في إعراب القرآن)) لأبي البقاء (٢/ ١١٨٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿ يَوْمَ ﴾ متعلِّقٌ بقَولِه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: ٧]، أي: إنَّ عذابَ رَبِّك لَواقِعٌ يومَ القيامةِ حينَ تمورُ السَّماءُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّيُّ بن أبي طالب، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ العامِلُ مَحذوفًا، تقديرُه: اذكُرْ. يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

قال ابنُ القيِّم: (المَورُ: قد فُسِّر بالحَرَكةِ، وفُسِّر بالدَّورانِ، وفُسِّرَ بالتَّمَوُّجِ والاضطِرابِ، والتَّحقيقُ: أنَّه حركةٌ في تمَوُّجٍ وتكَفُّؤٍ، وذَهابٍ ومَجيءٍ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَلَّ أن يُعبَّرَ عن لفظٍ واحدٍ بلَفظٍ واحدٍ يؤدِّي جميعَ معناه، بل يكونُ فيه تقريبٌ لِمعناه، وهذا من أسبابِ إعجازِ القُرآنِ، فإذا قال القائلُ: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ إنَّ المورَ هو الحَرَكةُ، كان تقريبًا؛ إذ المَورُ حَرَكةٌ خَفيفةٌ سريعةٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩، ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَقَّق العذابَ وبَيَّن يَومَه؛ بَيَّن أهلَه بقَولِه مُسَبَّبًا عن ذلك[١]:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ شَديدٌ في ذلك اليَومِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

ذكَرَ ابنُ جريرٍ أنَّ الوَيلَ: هو الوادي الَّذي يَسيلُ مِن قَيحٍ وصَديدٍ في جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤).

وتقدَّم (ص: ١٨٨) قولُ الراغبِ أنَّ مَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له.

وقال السعدي: (الوَيلُ: كَلِمةٌ جامِعةٌ لكُلِّ عُقوبةٍ وحُزنٍ، وعَذابٍ وخَوفٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

وممَّن اختار أنَّ الوَيلَ كَلِمةٌ تُقالُ للهالِك: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤).

قال ابن عثيمين: (وَيلٌ: كَلِمةُ وَعيدٍ وتهديدٍ، وإن كان قد رُوِيَ أنَّها وادٍ في جهنَّمَ، لكِنَّ الصَّوابَ أنَّها كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٨١). =

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّكذيبُ قد يكونُ في محَلِّه؛ بَيَّن أنَّ المرادَ تكذيبُ ما محَلُّه الصِّدقُ، فقال[1]:

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢﴾.

أي: الَّذين هم في الدُّنيا مُنغَمِسونَ في الباطِلِ، فيَتَخَبَّطونَ فيه بأقوالِهم وأفعالِهم، غافِلونَ عن الآخِرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَوَّر تكذيبَهم بأشنَعِ صُورةٍ؛ بَيَّن وَيْلَهم ببَيانِ ظَرْفِه وما يُفعَلُ فيه[3]، فقال:

= وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ «وَيْلٌ» كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له من لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

قال ابن عطيَّةَ: (الخَوضُ: التَّخَبُّطُ في الأباطيلِ، يُشَبَّهُ بخَوضِ الماءِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ٦٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾.

أي: يومَ يُدفَعُونَ إلى نارِ جهنَّم دَفعًا شَديدًا عَنيفًا[1]!

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾.

أي: ويُقالُ لهم: هذه هي النَّارُ الَّتي كُنتُم في الدُّنيا تُكذِّبونَ بها، ولا تُصدِّقون الرُّسُلَ الَّذين أخبَروكم بها[2].

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾.

أي: أهذا الَّذي تَرَونَه الآنَ سِحرٌ لا حقيقةَ له، أم أنتم لا تُبصِرونَه بأعيُنِكم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٢).

قال السَّمينُ: (قولُه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾: يجوزُ أنْ يكونَ ظرفًا لـ«يُقالُ» المقدَّرةِ مع قَولِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾، أي: يُقالُ لهم هذه النَّارُ يومَ يُدَعُّونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ بدَلًا مِنْ قولِه ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ أو مِنْ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ قَبلَه). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

قال البقاعي: (أي: هل تَستطيعونَ أن تقولوا: إنَّكم لا تُبصِرونَ المُخبَرَ عنه، كما كنتُم تقولونَ في الخبَرِ كَذِبًا وفُجورًا؟!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١١).

﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾.

﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: ادخُلوا النَّارَ وذُوقُوا حَرَّها، فسَواءٌ عليكم الصَّبرُ والجَزَعُ؛ فإنَّكم لن تَنتَفِعوا في جميعِ الأحوالِ بالصَّبرِ ولا بالجَزَعِ[(١)]!

قال تعالى حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّما تُعذَّبونَ في النَّارِ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فالأمرُ جارٍ عليكم بالعَدلِ، ولم يَظلِمْكم اللهُ شَيئًا[(٢)]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا * لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا * جَزَآءٗ وِفَاقًا * إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا * وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا * وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا * فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا * وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ حِكمةٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

الإيذانِ والإعلامِ بأنْ لا عَودَ إلى الدُّنيا؛ وذلك لأنَّ الأرضَ والجِبالَ والسَّماءَ والنُّجومَ كُلَّها لعِمارةِ الدُّنيا، والانتِفاعِ لبني آدَمَ بها، فإنْ لم يتَّفِقْ لهم عَودٌ لم يَبْقَ فيها نَفعٌ؛ فأعدَمَها اللهُ تعالى(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إيذانٌ بأمانِ أهلِ الإيمانِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧] لم يُبَيِّنْ مُوقِعَه بمَنْ، فلَمَّا قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ عُلِمَ المخصوصُ به، وهو المكَذِّبُ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أنَّه اجتمَع عليهم أمْرانِ مُوجِبانِ للباطِلِ: الخَوضُ، واللَّعِبُ، فهم بحيثُ لا يكادُ يقَعُ لهم قَولٌ ولا فِعلٌ في مَوضِعِه؛ فلا يُؤسَّسُ على بيانٍ أو حُجَّةٍ(٣).

٤- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ لَمَّا كانت علومُهم التي هي خوضٌ بالباطِلِ، وأعمالُهم- مُستَلزِمةً لدَفعِ الحَقِّ بعُنفٍ وقَهرٍ، أُدخِلوا جهنَّمَ وهم يُدَعُّونَ إليها دَعًّا، أي: يُدفَعُ في أقفِيَتِهم وأكتافِهم دَفعًا بعدَ دَفعٍ(٤)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ الكافِرينَ يُحضَرونَ إلى العَذابِ قَسْرًا وقَهرًا، يعني: يُدفَعونَ بعُنفٍ وشِدَّةٍ. والعياذُ باللهِ(٥)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ بيانُ عَدَمِ الخَلاصِ، وانتِفاءِ المَناصِ؛ فإنَّ مَن لا يَصبِرُ فإنَّه يَدفَعُ الشَّيءَ عن نَفْسِه؛ إمَّا بأن يَدفَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٨٥).

المُعذِّبَ فيمنَعَه، وإمَّا بأن يُغضِبَه فيَقتُلَه ويُريحَه، ولا شَيءَ مِن ذلك يُفيدُ في عذابِ الآخِرةِ؛ فإنَّ مَن لا يَغلِبُ المُعذِّبَ فيَدفَعُه، ولا يتخَلَّصُ بالإعدامِ؛ فإنَّه لا يُقضَى عليه فيَموتَ، فإذَنِ الصَّبرُ كعَدَمِه؛ لأنَّ مَن يَصبِرُ يدومُ فيه، ومَن لا يَصبِرُ يَدومُ فيه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ بيانُ ما يَتفاوَتُ به عَذابُ الآخِرةِ عن عَذابِ الدُّنيا؛ فإنَّ المُعَذَّبَ في الدُّنيا إنْ صَبَر رُبَّما انتَفَع بالصَّبرِ؛ إمَّا بالجَزاءِ في الآخِرةِ، وإمَّا بالحَمدِ في الدُّنيا؛ فيُقالُ له: ما أشجَعَه! وما أقوى قَلْبَه! وإنْ جَزِعَ يُذَمُّ فيُقالُ: يَجزَعُ كالصِّبيانِ والنِّسوانِ! وأمَّا في الآخِرةِ فلا مَدْحَ ولا ثوابَ على الصَّبرِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا * وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ بقولِه: ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ [الذاريات: ٦]، على أنَّه ظَرْفٌ له، مُبيِّنٌ لكَيفيَّةِ الوُقوعِ، مُنبِئٌ عن كَمالِ هَولِه وفَظاعتِه؛ فيَكونَ قولُه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] تَفريعًا على الجُملةِ كلِّها، ويَكونَ العَذابُ عَذابَ الآخرةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ٧]؛ فيَكونَ ﴿يَوۡمَ﴾ مُتعلِّقًا بالكَونِ الَّذي بيْنَ المُبتدَأِ والخبَرِ في قولِه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقُدِّمَ الظَّرْفُ على عامِلِه للاهتِمامِ، فلمَّا قُدِّمَ الظَّرْفُ اكتسَبَ معْنى الشَّرطيَّةِ، وهو استِعمالٌ مُتَّبَعٌ في الظُّروفِ والمَجروراتِ الَّتي تُقدَّمُ على عَوامِلِها؛ فلذلك قُرِنَت الجُملةُ بعْدَه بالفاءِ على تَقديرِ: إنْ حلَّ ذلك اليَومُ فوَيلٌ للمكذِّبينَ، وقولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على هذا الوجْهِ أُرِيدَ به التَّأكيدُ للظَّرفِ، فحصَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَحقيقُ الخبَرِ بطَريقينِ: طَريقِ المُجازاةِ، وطَريقِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرًا﴾ الآيةَ، تَصريحًا بيَومِ البَعثِ بعْدَ أنْ أُشيرَ إليه تَضمُّنًا بقولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾؛ فحصَلَ بذلك تأْكيدُه أيضًا(١).

- وتأْكيدُ فِعلَيْ ﴿تَمُورُ﴾ و(تَسيرُ) بمَصْدرَيْ ﴿مَوۡرًا﴾ و﴿سَيۡرًا﴾؛ لرفْعِ احتِمالِ المجازِ، أي: هو مَورٌ حَقيقيٌّ، وتَنقُّلٌ حَقيقيٌّ(٢). أو للإيذانِ بغَرابتِهما وخُروجِهما عن الحُدودِ المَعهودةِ، أي: مَورًا عَجيبًا، وسَيرًا بَديعًا، لا يُدْرَكُ كُنْهُهما(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فويلٌ يومَئذٍ للَّذين يُكذِّبون الآنَ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ لعِلْمِه مِن المَقامِ، أي: الَّذين يُكذِّبون بما جاءَهُم به الرَّسولُ مِن تَوحيدِ اللهِ والبَعثِ والجَزاءِ والقُرآنِ؛ فاسمُ الفاعلِ في زمَنِ الحالِ(٤).

- وحرْفُ (في) في قولِه: ﴿فِي خَوۡضٖ﴾ للظَّرفيَّةِ، أفادَ المُلابَسةَ الشَّديدةَ، كمُلابَسةِ الظَّرْفِ للمَظروفِ، أي: الَّذين تَمكَّنَ منهم الخَوضُ حتَّى كأنَّه أحاطَ بهم(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ الدَّعُّ هو الدَّفعُ العَنيفُ، وذلك إهانةٌ لهم، وغِلْظةٌ عليهم، أي: يومَ يُساقُون إلى نارِ جهنَّمَ سَوقًا بدَفْعٍ، وفيه تَمثيلُ حالِهم بأنَّهم خائِفون مُتقَهْقِرون، فتَدفَعُهم الملائكةُ المُوكَّلون بإزْجائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى النَّارِ[(١)].

- وتأْكيدُ ﴿يُدَعُّونَ﴾ بـ﴿دَعًّا﴾؛ لِيُوصَلَ إلى إفادةِ تَعظيمِه بتَنْكيرِه[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، وتَقديرُه: يُقالُ لهم، أو مَقولًا لهم[(٣)].

- والإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِ﴾ -الَّذي هو للمُشارِ إليه القَريبِ المُؤنَّثِ- تُومِئُ إلى أنَّهم بَلَغوها وهمْ على شَفاها. والمَقصودُ بالإشارةِ التَّوطئةُ لِمَا سيَرِدُ بعْدَها مِن قولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إلى ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾[(٤)].

- والمَوصولُ وَصِلتُه في قولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ لتَنبيهِ المُخاطَبينَ على فَسادِ رأْيِهم؛ إذ كذَّبوا بالحَشْرِ والعِقابِ؛ فرَأَوا ذلك عِيانًا[(٥)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ فُرِّعَ على قولِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ تنبيهًا على ضَلالِهم في الدُّنيا؛ إذ كانوا حِينَ يَسمَعون الإنذارَ بيَومِ البَعثِ والجزاءِ، يَقولون: هذا سِحرٌ، وإذا عُرِضَ عليهم القرآنُ قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ فلِلمُناسَبةِ بيْنَ ما في صِلةِ المَوصولِ مِن مَعنى التَّوقيفِ على خَطَئِهم وبيْنَ التَّهكُّمِ عليهم بما كانوا يَقولونه، دخَلَت فاءُ التَّفريعِ، وهو مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جُملةِ ما يُقالُ لهم، المَحكيِّ بالقولِ المقدَّرِ(١).

- قولُه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ هذه الفاءُ تَقْتضي مَعطوفًا عليه، وهو مُقدَّرٌ دلَّ عليه مَضمونُ قولِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]، فدخَلَت الهمزةُ بيْنَ المَعطوفينِ لمَزيدٍ مِن التَّقريعِ والتَّهكُّمِ؛ فإنَّه لَمَّا قِيل: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، عُقِّب بقولِه: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾؛ يعْني: هذا المِصداقُ أيضًا سِحرٌ؟! أي: كُنتم تَقولون للقُرآنِ الَّذي أنذَرَكم هذه النَّارَ: هذا سِحرٌ، فتَقولون: سِحرٌ هذا أيضًا! فالمُشارُ إليه بـ﴿هَٰذَآ﴾ النَّارُ، وذُكِّر لأنَّه في تأْويلِ المِصداقِ، أو الخبَرُ مُذكَّرٌ. وقُدِّم الخبَرُ؛ لإفادةِ الاختِصاصِ تَتْميمًا للتَّقريعِ. أو قُدِّم الخبَرُ؛ لأنَّه المَقصودُ بالإنكارِ والتَّوبيخِ(٢).

- و(أَمْ) في قولِه: ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ مُنقطِعةٌ، أي: بلْ أنتُم عُمْيٌ عن المُخبَرِ عنه، وهذا تَقريعٌ وتَهكُّمٌ. والاستِفهامُ الَّذي تَقْتضيهِ (أَمْ) بعْدَها مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّهكُّمِ، والتَّقديرُ: بلْ أأَنْتُم لا تُبصِرون. أو تكونُ (أمْ) مُعادِلةً؛ فالمعْنى: هلْ في المَرئيِّ شَكٌّ، أمْ هلْ في بصَرِكم خَلَلٌ؟ أي: لا واحدَ منهما ثابتٌ(٣).

- وأيضًا جِيءَ بالمسنَدِ إليه مُخبَرًا عنه بخَبرٍ فِعليٍّ مَنْفيٍّ ﴿لَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكْمِ؛ فلذلك لم يقلْ: (أمْ لا تُبصِرون)؛ لأنَّه لا يُفِيدُ تَقوِّيًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

ولا (أمْ لا تُبصِرون أنتُم)؛ لأنَّ مَجيءَ الضَّميرِ المُنفصِلِ بعْدَ الضَّميرِ المتَّصلِ يُفيدُ تَقريرَ المُسنَدِ إليه المَحكومِ عليه، بخِلافِ تَقديمِ المُسنَدِ إليه؛ فإنَّه يُفيدُ تأْكيدَ الحُكْمِ وتَقويتَه، وهو أشدُّ تَوكيدًا، وكلُّ ذلك في طَريقةِ التَّهكُّمِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لَمَّا قِيلَ لهم: إنَّ هذه هي النَّارُ، وُقِفوا بعْدَ ذلك على الجِهتينِ اللَّتينِ يُمكِنُ دُخولُ الشَّكِّ في أنَّها النارُ؛ وهي: إمَّا أنْ يكونَ ثَمَّ سِحْرٌ يُلَبِّسُ ذاتَ المَرْئيِّ، وإمَّا أنْ يكونَ في نَظَرِ الناظِرِ اختِلالٌ، فأمَرَهم بصَلْيِها على جِهةِ التَّقريعِ، ثمَّ قِيلَ لهم على قَطْعِ رَجائِهم: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: ادْخُلوها على أيِّ وجْهٍ شِئتُم مِن الصَّبْرِ وعَدَمِه؛ فإنَّه لا مَحيصَ لكمْ عنها، فعَذابُكم حَتْمٌ، فسَواءٌ صَبْرُكم وجَزَعُكم، لا بُدَّ مِن جَزاءِ أعْمالِكم(٢).

- وقولُه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ استِئنافٌ بمَنزِلةِ النَّتيجةِ المُترقَّبةِ مِن التَّوبيخِ والتَّغليظِ السَّابقَينِ، أي: ادْخُلوها فاصْطَلوا بنارِها(٣).

- والأمْرُ في ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ إمَّا مُكنًّى به عن الدُّخولِ؛ لأنَّ الدُّخولَ لها يَستلزِمُ الاحتِراقَ بنارِها، وإمَّا مُستعمَلٌ في التَّنكيلِ(٤).

- وفُرِّعَ على ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ أمْرٌ للتَّسويةِ بيْنَ صَبْرِهم على حَرِّها وبيْن عدَمِ الصَّبْرِ، وهو الجزَعُ؛ لأنَّ كِلَيهما لا يُخفِّفانِ عنهم شيئًا مِن العَذابِ؛ فإنَّهم يَقولونَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لأنَّ جُرْمَهم عظيمٌ لا مَطْمعَ في تَخفيفِ جَزائِه(١).

- وقولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: سواءٌ عليكم الأمْرانِ: الصَّبْرُ وعَدَمُه، أو ذلك سَواءٌ عليكمْ. وهي جُملةٌ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾؛ فلذلك فُصِلَت عنها، ولمْ تُعطَفْ عليها(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلٌ للاسْتِواءِ في جُملةِ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾؛ وعليه فجُملتَا ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ مُعترِضتانِ بيْن جُملةِ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ والجُملةِ الواقعةِ تَعليلًا لها(٣).

- وعُلِّلَ استواءُ الصَّبْرِ وعَدَمِه بقَولِه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الصَّبْرَ إنَّما يكونُ له مَزيَّةٌ على الجَزَعِ لنَفْعِه في العاقِبةِ بأنْ يُجازَى عليه الصَّابرُ جَزاءَ الخَيرِ، فأمَّا الصَّبرُ على العذابِ الَّذي هو الجزاءُ ولا عاقبةَ له ولا مَنفعةَ، فلا مَزيَّةَ له على الجَزَعِ(٤).

- والحَصْرُ المُستفادُ مِن كَلمةِ (إنَّما) قصْرُ قلْبٍ(٥)، بتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ ما لَقُوه مِن العذابِ ظُلْمٌ لم يَستوجِبوا مِثلَ ذلك؛ مِن شِدَّةِ ما ظهَرَ عليهم مِن الفزَعِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧، ١٤٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

- وعُدِّيَ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ إلى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بدونِ الباءِ، خِلافًا لقولِه بعْدَه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]؛ لِيَشملَ القصْرُ مَفعولَ الفِعلِ المَقصورِ، أي: تُجْزَون مِثلَ عمَلِكم لا أكثَرَ منه، فيَنْتفي الظُّلمُ عن مِقدارِ الجَزاءِ كما انْتَفى الظُّلمُ عن أصْلِه، ولهذه الخُصوصيَّةِ لم يُعلَّقْ مَعمولُ الفِعلِ بالباءِ؛ إذ جُعِلَ بمَنزلةِ نفْسِ الفِعلِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

الآيات (١٧-٢١)

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاكِهِينَ﴾: أي: ناعِمينَ مُستَمتِعينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[١].

﴿هَنِيئًا﴾: أي: طَيِّبًا، مُستَساغًا، لا يُكَدِّرُه شَيءٌ، والهَنيءُ: الطَّيِّبُ المُساغُ الَّذي لا يُنغِّصُه شَيءٌ، وأصلُ (هنأ): يدُلُّ على إصابةِ خَيرٍ مِن غيرِ مَشقَّةٍ[٢].

﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾: الحَوراءُ: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سوادِها، والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي: الواسِعةُ العَينَينِ مِنَ النِّساءِ[٣].

﴿أَلَتْنَاهُمْ﴾: أي: نَقَصْناهم وظَلَمْناهم، وأصلُ (ألت): يدُلُّ على نَقصٍ[٤].

﴿رَهِينٌ﴾: أي: مُرتَهَنٌ بكَسبِه، مأخوذٌ بعَمَلِه؛ إمَّا خَلَّصَه وإمَّا أوبقَه، ورَهينٌ:

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٦/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥) و(٤/ ١٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢) و (ص: ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ؛ مِنَ الرَّهنِ: وهو الحَبسُ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مخبرًا عن حالِ المتَّقينَ السُّعداءِ بعدَ أن بيَّن حالَ الكافرينَ الأشقياءِ: إنَّ الَّذين اتَّقَوُا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه: في بَساتينَ ونَعيمٍ عَظيمٍ في الآخِرةِ، فَرِحينَ مَسرورينَ بما أعطاهم رَبُّهم في الجنَّةِ مِنَ النَّعيمِ، وقد نجَّاهم اللهُ مِن عذابِ النَّارِ، ويُقالُ لهؤلاء المُتَّقينَ: كُلُوا واشرَبوا مُتهَنِّئينَ بلا أذًى ولا نَكَدٍ ولا كَدَرٍ؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ، مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ مَصفوفةٍ، وزوَّجْناهم بنِساءٍ بِيضٍ، شَديدٍ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، عظيماتِ الأعيُنِ معَ حُسنِها واتِّساعِها.

ثُمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالَى عن أنواعٍ أُخرَى مِن تكريمِه لعبادِه المؤمنينَ، وفضلِه وكَرَمِه عليهم، وإحسانِه إليهم، فيقولُ: والَّذين آمَنوا ألحَقْنا بهم أولادَهم الَّذين اتَّبَعوهم على الإيمانِ، فجعَلْناهم معهم في دَرَجاتِهم في الجنَّةِ وإنْ لم يَعمَلوا بعَمَلِ آبائِهم، وما نَقَصْنا الآباءَ مِن أُجورِ أعمالِهم الصَّالِحةِ شَيئًا حينَ جعَلْنا ذُرِّيَّتَهم معهم في الجنَّةِ.

ثُمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالى عن مقامِ عدلِه بعدَ أن أخبَرَ عن مقامِ فضلِه وكرمِه، فيقولُ: كُلُّ إنسانٍ مُرتَهَنٌ بعَمَلِه، لا يُحمَلُ عليه ذنْبُ غَيرِه مِنَ النَّاسِ، سواءٌ كان أبًا أو ابنًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى عُقوبةَ المُكَذِّبينَ؛ ذكَرَ نَعيمَ المُتَّقينَ؛ لِيَجمَعَ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فتكونَ القُلوبُ بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ(١).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ١٧﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهى عنه: في بَساتينَ ونَعيمٍ عَظيمٍ في الآخِرةِ(٢).

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ١٨﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿فَكِهِينَ﴾ قيلَ: بمعنى: فَرِحينَ أو مُعجَبينَ. وقيل: بمعنى: يتفَكَّهونَ، أي: يَستَطيبونَ ويَسْتَحْلونَ(٣).

٢- قِراءةُ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بألِفٍ بعد الفاءِ، قيل: بمعنى: أصحابِ فاكِهةٍ. وقيل: ناعِمينَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ، مِثلُ: حاذِرينَ وحَذِرينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٣) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٢٣). ويُنظر أيضًا: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٢٣).

﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾.

أي: مُعجَبينَ بما أعطاهم رَبُّهم في الجنَّةِ مِنَ النَّعيمِ، ومُتَمتِّعينَ به، فَرِحينَ مَسرورينَ بذلك[1].

﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المتنَعِّمُ قد تكونُ نِعمتُه بعدَ عَذابٍ؛ بَيَّنَ أنَّهم لَيسُوا كذلك[2].

﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: وقد نجَّاهم اللهُ مِن عذابِ النَّارِ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عطية، وابن القيِّم، والسعديُّ، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وذهب أبو عُبَيدةَ، وابنُ جَرير، والقُرطبيُّ إلى أنَّ معنى ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ أي: عندَهم فاكِهةٌ كثيرةٌ، كقَولِ العَرَبِ لِمَن عِندَه تَمرٌ كثيرٌ، أو لَبَنٌ كثيرٌ: رجُلٌ تامِرٌ، ولابِنٌ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥).

وقال ابنُ كثير: (أي: يَتفكَّهونَ بما آتاهم اللهُ مِنَ النَّعيم مِن أصنافِ المَلاذِّ؛ مِن مآكِلَ ومَشارِبَ، ومَلابِسَ ومَساكِنَ ومَراكِبَ وغَيرِ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن باشَرَ النِّعمةَ وجانَبَ النِّقْمةَ في هَناءٍ عَظيمٍ؛ قال مُترجِمًا لذلك(١):

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)﴾.

أي: يُقالُ للمُتَّقينَ: كُلُوا مِن طَعامِ الجنَّةِ، واشرَبوا من شَرابِها، مُتهَنِّئينَ بذلك بلا أذًى ولا تنغيصٍ، ولا نَكَدٍ ولا كَدَرٍ؛ بسَبَبِ ما كنتُم تعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٤].

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)﴾.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾.

أي: مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ قد جُعِلَت صُفوفًا(٣)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤، ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦، ١٨٧).

قال ابنُ عاشور: (أي: يُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا حالَ كَونِهم متَّكِئينَ، أي: وهم في حالِ إكلةِ =

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا اجتَمَع لهم مِن نَعيمِ القَلبِ والرُّوحِ والبَدَنِ ما لا يَخطُرُ بالبالِ، ولا يَدورُ في الخَيالِ؛ مِن المآكِلِ والمشارِبِ اللَّذيذةِ، والمجالِسِ الحَسَنةِ الأنيقةِ- لم يَبْقَ إلَّا التَّمَتُّعُ بالنِّساءِ اللَّاتي لا يَتِمُّ سُرورٌ بدونِهنَّ؛ فذَكَر اللهُ أنَّ لهم مِنَ الأزواجِ أكمَلَ النِّساءِ أوصافًا وخَلْقًا وأخلاقًا؛ ولهذا قال[1]:

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

أي: وزوَّجْنا[2] المتَّقينَ بنِساءٍ بِيضٍ، شَديدٍ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها[3]، عظيماتِ

= أهلِ التَّرفِ المعهودِ في الدُّنيا؛ فقد كان أهلُ الرَّفاهيةِ يأكُلونَ متَّكِئينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) قيل: المرادُ: قرَنَّاهم بهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والنسفي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (وعلى هذا فـ «زَوَّجْناهم» عندَ هؤلاءِ مِنَ الاقترانِ والشَّفعِ، أي: شَفَعْناهم وقَرَنَّاهم بهِنَّ. وقالت طائفةٌ منهم مجاهِدٌ: زوَّجْناهم بهِنَّ، أي: أنكَحْناهم إيَّاهُنَّ. قُلْتُ: وعلى هذا فتَلويحُ فِعلِ التَّزويجِ قد دَلَّ على النِّكاحِ، وتعديتُه بالباءِ المتضَمِّنةِ معنى الاقترانِ والضَّمِّ؛ فالقَولانِ واحِدٌ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٤).

(٣) قيل: الحُورُ جَمعُ حَوراءَ: وهي المرأةُ البيضاءُ النَّقيَّةُ البياضِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سُليمانَ، والسَّمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٧). =

الأعيُنِ معَ حُسنِها واتِّساعِها[1].

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٦).
قال النَّحَّاس: (وفي قراءةِ عبدِ اللهِ: «كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعِيسٍ عِينٍ»، ومعناه: البِيضُ، يقالُ: جمَلٌ أعيَسُ: إذا كان أبيَضَ يَضرِبُ إلى الشُّقرةِ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٤١٦).
وقال القرطبي: (والحُورُ: البِيضُ، في قَولِ قَتادةَ والعامَّةِ، جمعُ حَوراءَ، والحوراءُ: البَيضاءُ الَّتي يُرى ساقُها مِن وراءِ ثِيابِها، ويَرى النَّاظِرُ وَجهَه في كَعبِها كالمرآةِ؛ مِن دِقَّةِ الجِلدِ وبَضاضةِ البَشَرةِ [أي: رِقَّتِها ونُعومتِها] وصَفاءِ اللَّونِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢).
وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ، والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: أبو عُبَيدةَ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).
وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ، فقال: هي البيضاءُ، القويَّةُ بياضِ بياضِ العَينِ، وسَوادِ سَوادِها: ابنُ عطيَّة، وابنُ القيِّم، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠).
قال ابن القيِّم: (حوراءُ: إذا اشتَدَّ بَياضُ أبيَضِها، وسَوادُ أسوَدِها، ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَينِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).
وقيل: المرادُ: أنَّ الطَّرْفَ يَحارُ فيهِنَّ؛ مِن حُسنِهنَّ وجمالِهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥، ٨١٥).
وممَّن ذهب إلى نحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).
وقد ردَّ ابنُ جريرٍ هذا المعنى، فقال: (هذا الَّذي قاله مجاهِدٌ مِن أنَّ الحُورَ إنَّما معناها: أنَّه يَحارُ فيها الطَّرْفُ، قولٌ لا معنَى له في كلامِ العَرَبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥).

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ العِينَ: جمْعُ عَيناءَ، وهي العظيمةُ العَينِ في حُسنٍ وسَعةٍ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابنُ عطية، وابن جُزَي، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ بنِسبةِ الفِعلِ إلى اللهِ تعالى، بمعنى: أتْبَعْنا أولادَهم بهم[1].

٢- قِراءةُ ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ بنِسبةِ الفِعلِ إلى الذُّرِّيَّةِ، بمعنى: اتَّبَعَ الأولادُ آباءَهم

= العليمي)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالعِينِ حِسانُ الأعيُنِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي العَظيمةُ العَينِ من النِّساءِ ... والصَّحيحُ: أنَّ العِينَ: اللَّاتي جَمَعَت أعيُنُهنَّ صِفاتِ الحُسنِ والْمَلاحةِ، قال مُقاتِلٌ: العِينُ: حِسانُ الأعيُنِ، ومن محاسِنِ المرأةِ اتِّساعُ عَيْنِها في طُولٍ. وضِيقُ العَينِ في المرأةِ من العُيوبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

ويُنظَرُ ما تقَدَّمَ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (الدُّخَان) الآية (٥٤).

قال ابنُ عاشور: (هُنَّ النِّساءُ اللَّاتي كُنَّ أزواجًا لهم في الدُّنيا إنْ كُنَّ مُؤمِناتٍ، ومَن يَخلُقُهنَّ اللهُ في الجنَّةِ لنِعمةِ الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨).

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو البَصْريُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٧).

على الحَقِّ، فآمَنوا به مِثلَهم[١].

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا ألحَقْنا بِهم أولادَهم الَّذين اتَّبَعوهم على الإيمانِ، فجعَلْناهم معهم في دَرَجاتِهم في الجنَّةِ، وإنْ لم يَعمَلوا كعَمَلِ آبائِهم[٢].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٧).

قال ابن زنجلة: (قولُه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾ يتداخلانِ تداخُلَ ﴿يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ﴾ و﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أتْبَعَهم ذرِّيَّتَهم اتَّبَعَتْهم). ((حجة القراءات)) (ص: ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ عطيَّة -ونَسَبه للجُمهورِ-، والرازيُّ، وابن جُزَي، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشوكاني: (ومعنى هذه الآيةِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه يَرفَعُ ذُرِّيَّةَ المؤمِنِ إليه، وإن كانوا دونَه في العَمَلِ؛ لتَقَرَّ عَينُه، وتَطِيبَ نفْسُه، بشَرطِ أن يكونوا مؤمِنينَ، فيختَصُّ ذلك بمَن يتَّصِفُ بالإيمانِ مِن الذُّرِّيَّةِ، وهم البالِغونَ دونَ الصِّغارِ؛ فإنَّهم وإن كانوا لاحِقينَ بآبائِهم فبدليلٍ آخَرَ غيرِ هذه الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٧).

وذهب الواحديُّ، والخازنُ، والبِقاعي، والعُلَيمي إلى شُمولِ الذُّرِّيَّةِ لِمَن أدرَكَ العَمَلَ ومَن لم يُدرِكْه، فتَشمَلُ الصِّغارَ والكِبارَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢١).

قال الواحدي: (لأنَّ الكِبارَ يَتَّبِعونَ الآباءَ بإيمانٍ منهم، والصِّغارَ يتَّبِعونَ الآباءَ بإيمانٍ مِن الآباءِ، والوَلَدُ يُحكَمُ له بالإسلامِ تَبَعًا لوالِدِه). ((الوسيط)) (٤/ ١٨٦).

وقال مقاتل: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ يعني: مَن أدرَكَ العمَلَ مِن أولادِ بني آدمَ المؤمِنينَ فعَمِلَ خيرًا فهم مع آبائِهم في الجنَّةِ، ثمَّ قال: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ يعني: الصِّغارَ الَّذين لم يَبلُغوا العمَلَ مِن أولادِ المؤمِنينَ فهم معهم وأزواجِهم في الدَّرجةِ؛ لِتَقَرَّ أعيُنُهم). ((تفسير =

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان رُبَّما خِيفَ أن يُنقَصَ الآباءُ بسَبَبِ إلحاقِ ذُرِّيَّاتِهم بهم شَيئًا مِن دَرَجاتِهم؛ قال[1]:

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾.

أي: وما نَقَصْنا الآباءَ مِن أُجورِ أعمالِهم الصَّالِحةِ شَيئًا حينَ جعَلْنا ذُرِّيَّتَهم معهم في الجنَّةِ[2]!

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ عن مَقامِ الفَضلِ، وهو رَفعُ دَرَجةِ الذُّرِّيَّةِ إلى مَنزِلةِ الآباءِ مِن غَيرِ عَمَلٍ يَقتَضي ذلك؛ أخبَرَ عن مَقامِ العَدلِ، وهو أنَّه لا يُؤاخِذُ أحدًا بذَنْبِ أحَدٍ، بل

= مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٥).

وقد رجَّح ابنُ القَيِّم وابنُ عثيمين أنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ في الآيةِ: الصِّغارُ دونَ الكِبارِ. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٩٦، ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

قال ابنُ القيِّم: (اختلَف المفَسِّرون في الذُّرِّيَّةِ في هذه الآيةِ: هل المرادُ بها الصِّغارُ أو الكِبارُ أو النَّوعانِ؟ على ثلاثةِ أقوالٍ، واختِلافُهم مبنيٌّ على أنَّ قَولَه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حالٌ مِن الذُّرِّيَّةِ والتَّابِعينَ، أو المؤمنينَ المتبوعينَ... واختِصاصُ الذُّرِّيةِ هاهنا بالصِّغارِ أظهَرُ؛ لئَلَّا يلزَمَ استِواءُ المتأخِّرينَ بالسَّابِقينَ في الدَّرَجاتِ، ولا يلزَمُ مِثلُ هذا في الصِّغارِ؛ فإنَّ أطفالَ كُلِّ رجُلٍ وذُرِّيَّتَه معه في دَرَجتِه. واللهُ أعلَمُ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٩٦، ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٧)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي: مُرتَهَنٌ بعَمَلِه، لا يُحمَلُ عليه ذنْبُ غيرِه مِنَ النَّاسِ، سواءٌ كان أبًا أو ابنًا(١).

وأيضًا لَمَّا كان رُبَّما تَوهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ أهلَ النَّارِ كذلك يُلحِقُ اللهُ بهم أبناءَهم وذُرِّيَّتَهم؛ أخبَرَ أنَّه ليس حُكمُ الدَّارَينِ حُكمًا واحِدًا؛ فإنَّ النَّارَ دارُ العَدلِ، ومِن عَدلِه تعالى ألَّا يُعَذِّبَ أحدًا إلَّا بذَنْبٍ(٢).

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾.

أي: كُلُّ نفْسٍ تَنالُ جَزاءَها وَفْقَ ما عَمِلَت في الدُّنيا، وكُلُّ إنسانٍ يُعاقَبُ بذُنوبِه، ولا يُؤاخَذُ بذَنْبِ غَيرِه ولو كان مِن أقارِبِه(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

قيل: هذه الآيةُ في المُشرِكينَ، وأمَّا المؤمِنُ فهو غيرُ مَحبوسٍ ولا مُرتَهَنٌ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والخازن، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٤).

قال السمعاني: (هذا في المُشرِكينَ، ومعناه: أنَّ الكُفَّارَ مَحبوسونَ في النَّارِ بعَمَلِهم، وأمَّا المؤمِنُ فهو غيرُ محبوسٍ ولا مُرتَهَنٍ؛ فإنِ ارتُهِنَ بعَمَلِه فلا بُدَّ أن يَدخُلَ النَّارَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٤).

وقال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ العُمومُ في جميعِ النَّاسِ، وقد بَيَّن تعالى في آياتٍ أُخَرَ أنَّ أصحابَ اليَمينِ خارِجونَ مِن هذا العُمومِ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ * فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤١]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٤).

وقيل: الآيةُ شامِلةٌ للجَميعِ: المؤمِنِ والكافِرِ. وهو ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي، وقال به ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذا فَضلُه تعالى على الأبناءِ ببَركةِ عَمَلِ الآباءِ، وأمَّا فَضلُه على الآباءِ ببَرَكةِ دُعاءِ الأبناءِ، فعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيرفَعُ الدَّرَجةَ للعَبدِ الصَّالِحِ في الجنَّةِ، فيَقولُ: يا رَبِّ، أنَّى لي هذه؟! فيقولُ: باستِغفارِ وَلَدِك لك))[1].

= قال البقاعي: (﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ﴾ أي: مِنَ الَّذين آمَنوا والمتَّقينَ وغَيرِهم ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ أي: من وَلَدٍ وغَيره ﴿رَهِينٌ﴾ أي: مُسابِقٌ ومُخاطِرٌ ومَطلوبٌ، وآخِذٌ شَيئًا بَدَلَ كَسْبه، ومُوفًّى على قَدرِ ما يَستَحِقُّه، ومُحتَبَسٌ به إن كان عاصِيًا، فمَنْ كان صالحًا كان آخِذًا بسَبَبِ صلاحِ وَلَدِه؛ لأنَّه كَسْبُه، ولا يُؤخَذُ به ذلًّا وهو حَسَنٌ في نَفْسِه؛ لأجلِ الحُكمِ بإيمانه سواءٌ كان حقيقةً أو حُكمًا، وكُلُّ حَسَنٍ مُرتَفِعٌ؛ فلذلك يَلتَحِقُ بأبيه، وأمَّا الإساءةُ فقاصِرةٌ على صاحِبِها يُؤخَذُ بها ويُرهَنُ بذَنْبه، ولا يُؤخَذُ بذَنْبِ غَيرِه، والحاصِلُ أنَّ المعاليَ الَّتي هي كالحياةِ تَفيضُ مِن صاحِبِها على غَيرِه فتُحييه، والمساوِئَ الَّتي هي كالموتِ لا تتعَدَّى صاحِبَها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٥، ١٦).

وقال ابنُ عاشور: (﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ﴾ يَعُمُّ أهلَ الآخرةِ كُلَّهم، وليس المرادُ كُلَّ امرِئٍ مِنَ المتَّقينَ خاصَّةً. والمعنى: انتفى إنقاصُنا إيَّاهم شيئًا مِن عَمَلِهم؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ مَقرونٌ بما كَسَب، ومُرتَهَنٌ عِندَه، والمتَّقون لَمَّا كَسَبوا العَمَلَ الصَّالحَ كان لازِمًا لهم مُقتَرِنًا بهم، لا يُسلَبونَ منه شيئًا، والمرادُ بما كَسَبوا: جزاءُ ما كَسَبوا؛ لأنَّه الَّذي يَقتَرِنُ بصاحِبِ العَمَلِ، وأمَّا نَفْسُ العَمَلِ فقد انقضَى في إبَّانه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٣).

والحديث أخرجه ابنُ ماجه (٣٦٦٠)، وأحمدُ (١٠٦١٠) واللَّفظُ له.

قوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((المهذب)) (٥/ ٢٦٥٠)، وصحَّحه ابنُ كثير في ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤) وقال: (وله شاهدٌ في صحيح مسلم)، والبوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٩٨) وقال: (رجالُه ثِقاتٌ)، وحسَّنه العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤١٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ جُمِعَتِ الجنَّاتُ في الآيةِ لأنَّها أنواعٌ، ذَكَر اللهُ في سورةِ (الرَّحمنِ) أربعةَ أنواعٍ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] هذه الجِنَانُ الأربعُ تختَلِفُ بما جاء في وَصفِها في سورةِ (الرَّحمنِ)[١].

٢- قال اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ مُناسَبةٌ: أنَّ الجَنَّةَ وإن كانت مَوضِعَ السُّرورِ، لكِنَّ النَّاطورَ[٢] قد يكونُ في البُستانِ الَّذي هو غايةُ الطِّيبةِ، وهو غيرُ مُتنَعِّمٍ؛ فقَولُه: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ يُفيدُ أنَّهم فيها يَتنَعَّمون كما يكونُ المتفَرِّجُ لا كما يكونُ النَّاطورُ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ هذه الجُملةُ خَبَريَّةٌ مؤكَّدةٌ بـ «إنَّ»، والتَّوكيدُ أسلوبٌ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ، مُستعمَلٌ عندَ العَرَبِ، وهذا القرآنُ نَزَلَ بلُغةِ العَرَبِ، وإلَّا ففي الواقعِ فإنَّ خَبَرَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَحتاجُ إلى توكيدٍ؛ لأنَّه أصْدَقُ القَولِ، فالرَّبُّ عزَّ وجلَّ إذا أخبَرَ بخبَرٍ فإنَّه لا يحتاجُ إلى أنْ يُؤَكِّدَ؛ لأنَّ خَبَرَ اللهِ صِدْقٌ، لكنْ لَمَّا كان القرآنُ العظيمُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ، صار جاريًا على ما كان يَعرِفُه العَرَبُ في لُغتِهم، فهنا أَكَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الجُملةَ[٤].

= في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٣٥٧)، والحديث حسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤).

(٢) النَّاطورُ: حافِظُ الكَرْمِ والنَّخلِ والزَّرعِ، وهي لفظةٌ أعجميَّةٌ، وليسَت بعَرَبيَّةٍ مَحْضةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ بيانُ أسبابِ التَّنعيمِ على التَّرتيبِ؛ فأوَّلُ ما يكونُ: المَسكَنُ -وهو الجنَّاتُ-، ثمَّ الأكلُ والشُّربُ، ثمَّ الفُرُشُ والبُسُطُ، ثمَّ الأزواجُ، فهذه أمورٌ أربعةٌ ذَكَرها اللهُ على التَّرتيبِ، وذكَرَ في كُلِّ واحدٍ منها ما يدُلُّ على كَمالِه(١).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مُناسَبةٌ؛ أنَّ المتنعِّمَ قد تكونُ آثارُ التَّنَعُّمِ على ظاهِرِه وقَلبُه مَشغولٌ، فلمَّا قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ دَلَّ على غايةِ الطِّيبةِ(٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه أنَّ الفَكِهَ قد يكونُ خَسيسَ النَّفْسِ فيَسُرُّه أدنى شَيءٍ، ويَفرَحُ بأقَلِّ سَبَبٍ؛ فقال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لا لدُنُوِّ هِمَمِهم، بل لعُلُوِّ نِعَمِهم؛ حيثُ هي مِن عندِ رَبِّهم(٣).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فوقاهم مِمَّا يَكرَهونَ، وأعطاهم ما يُحِبُّونَ؛ جَزاءً وِفاقًا؛ لأنَّهم تَركوا ما يَكرَهُ، وأتَوا بما يُحِبُّ؛ فكان جزاؤُهم مُطابِقًا لأعمالِهم(٤)!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ عَمَلَهم في الدُّنيا سَبَبٌ في تَمَتُّعِهم بنَعيمِ الجنَّةِ في الآخِرةِ، وجاء في الحديثِ: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعمِلِه))(٥)، ولا مُعارَضةَ بيْنَ النَّصَّيْنِ؛ إذِ الدُّخولُ بفضلٍ مِن اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).
(٥) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديثِ أبي =

وبعدَ الدُّخولِ يكونُ التَّوارُثُ، وتكونُ الدَّرَجاتُ، ويكونُ التَّمتُّعُ بسببِ الأعمالِ. فكلُّهم يَشترِكون في التَّفضُّلِ مِن الله عليهم بدُخولِ الجنَّةِ، ولكنَّهم بعدَ الدُّخولِ يَتفاوَتون في الدَّرَجاتِ بسببِ الأعمالِ(١).

ويُجابُ أيضًا: بأنَّه لا مُناقَضةَ بيْنَ ما جاء به القرآنُ وما جاءت به السُّنَّةُ؛ إذِ المُثبَتُ في القرآنِ ليس هو المنفيَّ في السُّنَّةِ، والتَّناقُضُ إنَّما يكونُ إذا كان المُثبَتُ هو المَنفيَّ! وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٤]، فبيَّن بهذه النُّصوصِ أنَّ العملَ سببٌ للثَّوابِ، والباءُ للسَّببِ، ولا رَيْبَ أنَّ العملَ الصَّالحَ سببٌ لِدُخولِ الجنَّةِ، واللهُ قدَّر لعبدِه المؤمنِ دُخولَ الجنَّةِ بما يُيَسِّرُه له مِن العملِ الصَّالحِ، كما قدَّر دُخولَ النَّارِ لِمَن يَدخُلُها بعمَلِه السَّيِّئِ.

أمَّا الحديثُ فقد نفى ما قد تَتوَهَّمُه النُّفوسُ مِن أنَّ الجزاءَ مِن الله عزَّ وجلَّ على سبيلِ المُعاوَضةِ والمُقابَلةِ كالمُعاوَضاتِ الَّتي تكونُ بيْنَ النَّاسِ في الدُّنيا(٢).

٩- قولُه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فِعلُ أمْرٍ، وهذا الأمرُ ليس تكليفًا، وإنَّما الأمرُ هنا للتَّكريمِ، أي: يُقالُ لهم: كُلُوا مِن كلِّ ما في الجنَّةِ مِن النَّعيمِ(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ إخبارٌ عن دَوامِ ذلك لهم بما

= هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٣، ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥- ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤).

أفهَمَه قَولُه تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ فإنَّهم لو عَلِموا زَوالَه وانقِطاعَه لَنَغَّصَ عليهم ذلك نَعيمَهم، ولم يكُنْ هناءً لهم(١)!

١١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ إشارةٌ إلى خُلُوِّهما عمَّا يكونُ فيهما من المفاسِدِ في الدُّنيا:

منها: أنَّ الآكِلَ يخافُ مِنَ المَرَضِ، فلا يَهنَأُ له الطَّعامُ.

ومنها: أنَّه يخافُ النَّفادَ، فلا يَسخُو بالأكلِ. والكُلُّ مُنتَفٍ في الجنَّةِ؛ فلا مَرَضَ، ولا انقِطاعَ؛ فإنَّ كُلَّ أحَدٍ عِندَه ما يَفضُلُ عنه، ولا إثمَ ولا تَعَبَ في تحصيلِه؛ فإنَّ الإنسانَ في الدُّنيا رُبَّما يَترُكُ لَذَّةَ الأكلِ؛ لِما فيه مِن تهيئةِ المأكولِ بالطَّبخِ، والتَّحصيلِ مِنَ التَّعبِ أو المِنَّةِ، أو ما فيه مِن قَضاءِ الحاجةِ واستِقذارِ ما فيه؛ فلا يَتهَنَّأُ، وكُلُّ ذلك في الجنَّةِ مُنتَفٍ(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ شُمولٌ لكُلِّ العَمَلِ: عَمَلِ الجوارحِ، والقَلبِ، واللِّسانِ؛ فعَمَلُ الجوارِحِ: الأفعالُ، كالرُّكوعِ، والسُّجودِ، وعَمَلُ اللِّسانِ: الأقوالُ، كالأذكارِ، وعَمَلُ القلوبُ: كالخَوفِ، والرَّجاءِ، والتَّوكُّلِ، وما أَشبَهَ ذلك؛ فكلُّ هذه تُسَمَّى أعمالًا(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ ذكَرَ سُبحانَه وتعالى في السُّرُرِ أُمورًا:

منها: الاتِّكاءُ، فإنَّه هَيئةٌ تختَصُّ بالمُنعَّمِ والفارِغِ الَّذي لا كُلْفَةَ عليه، ولا تكَلُّفَ لديه؛ فإنَّ مَن يكونُ عِندَه مَن يَتكَلَّفُ له: يَجلِسُ له، ولا يَتَّكِئُ عِندَه، ومَن

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦).

يكونُ في مُهِمٍّ: لا يتفرَّغُ للاتِّكاءِ؛ فالهَيئةُ دَليلُ خَيرٍ، والمتكِئُ تدُلُّ هيئتُه على أنَّه في سُرورٍ، وانشراحٍ، وطُمأنينةٍ.

ومنها: الجَمعُ في قَولِه: ﴿سُرُرٍ﴾؛ وذلك لأمْرَينِ: أظهَرُهما: أن يكونَ لكُلِّ واحدٍ سُرُرٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿مَّصۡفُوفَةٍ﴾ يدُلُّ على أنَّه لواحدٍ؛ لأنَّ سُرُرَ الكُلِّ لا تكونُ في مَوضِعٍ واحِدٍ مُصطَفَّةً.

ومنها: لَفظُ السَّريرِ، فيه حُروفُ السُّرورِ، بخِلافِ التَّخْتِ(١) وغَيرِه.

ومنها: ﴿مَّصۡفُوفَةٍ﴾ فهي دليلٌ على أنَّه لمجرَّدِ العِظَمِ؛ فإنَّها لو كانت مُتفرِّقةً لَقيلَ: في كُلِّ مَوضِعٍ واحِدٌ؛ ليتَّكِئَ عليه صاحِبُه إذا حضَرَ في هذا الموضِعِ(٢).

١٤- قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هو نعمةٌ جَمَع اللهُ بها للمُؤمنينَ أنواعَ المسَرَّةِ؛ بسَعادتِهم بمُزاوَجةِ الحُورِ، وبمؤانَسةِ الإخوانِ المُؤمنينَ، وباجتِماعِ أولادِهم ونَسْلِهم بهم؛ وذلك أنَّ في طَبعِ الإنسانِ التَّأنُّسَ بأولادِه، وحُبَّه اتِّصالَهم به(٣).

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖ﴾ ذَكَر مجالِسَهم وهَيئاتِهم فيها، وفي ذِكْرِ اصطِفافِها تَنبيهٌ على كَمالِ النِّعمةِ عليهم بقُرْبِ بَعضِهم مِن بَعضٍ، ومُقابَلةِ بعضِهم بَعضًا، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]؛ فإنَّ مِن تمامِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ أنْ يكونَ مع الإنسانِ في بُستانِه ومَنزلِه مَن يُحِبُّ مُعاشَرتَه، ويُؤْثِرُ قُربَه، ولا يكونُ بعيدًا منه، قد حِيلَ بيْنَه وبيْنَه، بل سريرُه إلى جانِبِ سَريرِ

(١) التَّخْتُ: مَكانٌ مُرتفِعٌ للجلوسِ أو للنَّومِ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٩).

مَن يُحِبُّه[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّصۡفُوفَةٖ﴾ وَصَف اللهُ السُّرُرَ بأنَّها مَصفوفةٌ؛ لِيَدُلَّ ذلك على كَثرتِها، وحُسنِ تَنظيمِها، واجتِماعِ أهلِها، وسُرورِهم بحُسنِ مُعاشَرتِهم، ولُطفِ كَلامِ بَعضِهم لبَعضٍ[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ ذِكرُ أُمورٍ تَدُلُّ على كَمالِ الحالِ:

أحدُها: أنَّه تعالى هو المُزَوِّجُ، وهو يَتولَّى الطَّرَفينِ، يزوِّجُ عِبادَه بإمائِه، ومَن يكونُ كذلك لا يَفعَلُ إلَّا ما فيه راحةُ العبادِ والإماءِ.

ثانيها: قال: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ﴾، ولم يَقُل: «وزوَّجناهم حُورًا»، مع أنَّ لفظَ التَّزويجِ يتعَدَّى فِعلُه إلى مفعولينِ بغيرِ حَرفٍ، يقال: «زَوَّجْتُكَها»، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ وذلك إشارةٌ إلى أنَّ المَنفَعةَ في التَّزويجِ لهم، وإنَّما زُوِّجوا لِلَذَّتِهم بالحُورِ، لا لِلَذَّةِ الحُورِ بهم؛ وذلك لأنَّ المفعولَ بغيرِ حَرفٍ يُعَلَّقُ الفِعلُ به، كذلك التَّزويجُ تعَلَّقَ بهم ثمَّ بالحُورِ؛ لأنَّ ذلك بمعنى: جعَلْنا ازْدِواجَهم بهذا الطَّريقِ، وهو الحُورُ[٣].

ثالِثُها: عَدَمُ الاقتصارِ على الزَّوجاتِ، بل وصَفَهنَّ بالحُسنِ، واختار الأحسَنَ مِن الأحسَنِ؛ فإنَّ أحسَنَ ما في صورةِ الآدَميِّ وَجهُه، وأحسَنَ ما في الوَجهِ العَينُ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ تأمَّلْ كيف أتى بالواوِ العاطفةِ في اتِّباعِ الذُّرِّيَّةِ، وجَعَل الخبرَ عن المؤمِنينَ الَّذين هذا شَأنُهم؛

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٣) ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢٧٤ - ٢٧٥)

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٧).

فجَعَل الخبرَ مُستحَقًّا بأمْرَينِ:

أحدُهما: إيمانُ الآباءِ، **والثَّاني**: اتِّباعُ ذُرِّيَّتِهم لهم، وذلك لا يقتضي أنَّ كلَّ مؤمنٍ يَتَّبعُه كلُّ ذُرِّيَّةٍ له، ولو أُريدَ هذا المعنى لَقيل: «والَّذين آمنوا تَتَّبِعُهم ذرِّيَّاتُهم»، فعَطفُ الاتِّباعِ بـ «الواوِ» يقتضي أنْ يكونَ المعطوفُ بها قَيدًا وشَرطًا في ثُبوتِ الخبَرِ، لا حصولَه لكلِّ أفرادِ المبتدأِ[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ الآيةَ [لقمان: ٣٣]؛ فإنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ يومَ القيامةِ لا يَنفَعُ فيه والِدٌ وَلَدَه، وأمَّا الآيةُ الشَّاهِدُ فهي تدُلُّ على رَفعِ دَرَجاتِ الأولادِ بسَبَبِ صَلاحِ آبائِهم حتَّى يكونوا في دَرَجةِ الآباءِ، مع أنَّ عَمَلَهم -أي: الأولادِ- لم يُبَلِّغْهم تلك الدَّرَجةَ؛ إقرارًا لعُيونِ الآباءِ بوُجودِ الأبناءِ معهم في مَنازِلِهم من الجَنَّةِ، وذلك نَفعٌ لهم!

الجوابُ: وَجهُ الجَمعِ أُشيرَ إليه بالقَيدِ الَّذي في هذه الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، وعَيَّنَ فيها النَّفعَ بأنَّ إلحاقَهم بهم في دَرَجاتِهم هو بقَيدِ الإيمانِ، فهي أخَصُّ مِنَ الآيةِ الأُخرى، والأخَصُّ لا يُعارِضُ الأعَمَّ، وعلى قَولِ مَن فَسَّرَ الآيةَ بأنَّ معنى قَولِه: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يَقضي عنه حَقًّا لَزِمَه، ولا يَدفَعُ عنه عذابًا حَقَّ عليه؛ فلا إشكالَ في الآيةِ[2].

٢٠- ثَمَّ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ بيْنَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢).

[النجم: ٣٩]؛ فإنَّ هذه الآيةَ الكَريمةَ تدُلُّ على أنَّه لا يَنتَفِعُ أحَدٌ بعَمَلِ غَيرِه، وأمَّا الآيةُ الشَّاهِدُ فهي تدُلُّ على أنَّ بَعضَ النَّاسِ رُبَّما انتفَعَ بعَمَلِ غَيرِه؛ فرَفْعُ دَرَجاتِ الأولادِ -سواءٌ قُلْنا: إنَّهم الكِبارُ أو الصِّغارُ- نَفعٌ حاصِلٌ لهم، وإنَّما حَصَل لهم بعَمَلِ آبائِهم لا بعَمَلِ أنفُسِهم.

والجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ آيةَ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ إنَّما دَلَّت على نَفيِ مِلكِ الإنسانِ لغَيرِ سَعْيِه، ولم تدُلَّ على نَفيِ انتِفاعِه بسَعيِ غَيرِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «وأنْ لن ينتَفِعَ الإنسانُ إلَّا بما سعى»، وإنَّما قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ ﴾ وبيْنَ الأمرينِ فَرقٌ ظاهِرٌ؛ لأنَّ سَعيَ الغَيرِ مِلكٌ لِساعيه، إنْ شاء بَذَلَه لِغَيرِه فانتَفَع به ذلك الغَيرُ، وإنْ شاء أبقاه لنَفْسِه، وقد أجمَعَ العُلَماءُ على انتِفاعِ المَيِّتِ بالصَّلاةِ عليه، والدُّعاءِ له، والحَجِّ عنه، ونحوِ ذلك مِمَّا ثبت الانتِفاعُ بعَمَلِ الغَيرِ فيه.

الثَّاني: أنَّ إيمانَ الذُّرِّيَّةِ هو السَّبَبُ الأكبَرُ في رَفعِ دَرَجاتِهم؛ إذ لو كانوا كُفَّارًا لَما حَصَل لهم ذلك؛ فإيمانُ العبدِ وطاعتُه سَعيٌ منه في انتِفاعِه بعَمَلِ غَيرِه مِنَ المُسلِمينَ، كما وقَعَ في الصَّلاةِ في الجَماعةِ؛ فإنَّ صلاةَ بَعضِهم مع بَعضٍ يَتضاعَفُ بها الأجرُ زيادةً على صَلاتِه مُنفَرِدًا، وتلك المُضاعَفةُ انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ سعَى فيه المصَلِّي بإيمانِه وصلاتِه في الجَماعةِ، وهذا الوَجهُ يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾.

الثَّالثُ: أنَّ السَّعيَ الَّذي حَصَل به رَفعُ دَرَجاتِ الأولادِ ليس للأولادِ، كما هو نَصُّ قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، ولكِنَّه مِن سَعيِ الآباءِ؛ فهو سَعيٌ للآباءِ أقَرَّ اللهُ عُيونَهم بسَبَبِه؛ بأنْ رَفَع إليهم أولادَهم لِيَتمتَّعوا في الجنَّةِ برُؤيتِهم، فالآيةُ تُصَدِّقُ الأُخرَى، ولا تُنافيها؛ لأنَّ المقصودَ بالرَّفعِ إكرامُ الآباءِ

لا الأولادِ؛ فانتِفاعُ الأولادِ تَبَعٌ، فهو بالنِّسبةِ إليهم تفَضُّلٌ مِنَ اللهِ تعالى عليهم بما ليس لهم، كما تفَضَّل بذلك على الوِلدانِ، والحُورِ العِينِ، والخَلقِ الَّذين يُنشِئُهم للجَنَّة[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّ غَيرَ المكلَّفِ قد يُرحَمُ؛ فإنَّ أطفالَ المؤمِنينَ مع آبائِهم في الجنَّة[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه يُلحِقُ ذُرِّيَّةَ المؤمِنينَ بهم في الجنَّةِ، وأنَّهم يكونونَ معهم في دَرَجتِهم، ومع هذا فلا يُتوهَّمُ نُزولُ الآباءِ إلى دَرَجةِ الذُّرِّيَّة؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يَلِتْهم -أي: لم يَنقُصْهم- مِن أعمالِهم مِن شَيءٍ، بل رفَعَ ذُرِّيَّاتِهم إلى دَرَجاتِهم مع توفيرِ أُجورِ الآباءِ عليهم، ولَمَّا كان إلحاقُ الذُّرِّيَّةِ بالآباءِ في الدَّرَجةِ إنَّما هو بحُكمِ التَّبَعيَّةِ لا بالأعمالِ، رُبَّما تَوَهَّم مُتوهِّمٌ أنَّ ذُرِّيَّةَ الكُفَّارِ يُلحَقونَ بهم في العَذابِ تبَعًا وإنْ لم يكُنْ لهم أعمالُ الآباءِ، فقَطَع تعالى هذا التَّوهُّمَ بقَولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾[٣].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ ذَكَر «الإيمانَ»؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ الاتِّباعَ هو في نَسَبٍ أو تربيةٍ، أو حُرِّيَّةٍ أو رِقٍّ، أو غيرِ ذلك[٤].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أنَّ مِن تمامِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ أنْ ألحَقَ اللهُ بهم ذُرِّيَّتَهم الَّذين اتَّبَعوهم بإيمانٍ -أي: الَّذين لَحِقوهم بالإيمانِ الصَّادرِ من آبائِهم -على

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٢).

قَولٍ-؛ فصارت الذُّرِّيَّةُ تَبَعًا لهم بالإيمانِ، ومِن بابِ أَولى إذا تَبِعَتهم ذُرِّيَّتُهم بإيمانِهم الصَّادِرِ منهم أنفُسِهم، فهؤلاء المذكورون يُلحِقُهم اللهُ بمنازِلِ آبائِهم في الجنَّةِ وإن لم يَبلُغوها؛ جزاءً لآبائِهم، وزيادةً في ثوابِهم، ومع ذلك لا يَنقُصُ اللهُ سُبحانَه الآباءَ مِن أعمالِهم شَيئًا[1]!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ الذُّرِّيَّاتُ هنا تَصدُقُ على الآباءِ وعلى الأبناءِ، وإنَّ المُؤمِنَ إذا كان عَمَلُه أكثَرَ أُلحِقَ به مَن دُونَه في العَمَلِ ابنًا كان أو أبًا، وهو مَنقولٌ عن ابنِ عبَّاسٍ[2] وغَيرِه[3].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على قراءةِ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ فيه دَلالةٌ على تَبَعيَّةِ الوَلَدِ الصَّغيرِ لِمَن أسلَمَ مِن أَبَوَيه أو آبائِه[4]، فالله تعالى أتْبَعَ الوَلَدَ الوالِدَينِ في الإيمانِ، ولم يُتْبِعْه أباه في الكُفرِ، وبدليلِ أنَّ مَن أسلَمَ مِنَ الكُفَّارِ حُكِمَ بإسلامِ أولادِه، ومَن ارتَدَّ مِن المُسلِمينَ -والعياذُ باللهِ- لا يُحكَمُ بكُفرِ وَلَدِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه عبد الرَّزَّاقِ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٥) (٣٠٠٩)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في ((سننه)) (٧/ ٤٢٨) (٢٠٦٥)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢١/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٨).

قال ابن العربي بعدَ أن ذكر القراءتَين: (القراءتانِ لِمَعنيَينِ: أمَّا إذا كان «اتَّبَعَتْهُم» على أن يكونَ الفِعلُ لِلذُّرِّيَّةِ فيَقتضي أن يكونَ الذُّرِّيَّةُ مُستَقِلَّةً بنفْسِها، تعقِلُ الإيمانَ، وتَتلفَّظُ به. وأمَّا إذا كان الفِعلُ واقِعًا بهم مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بغيرِ واسِطةِ نِسبةٍ إليهم، فيكونُ ذلك لِمَن كان مِن الصِّغَرِ في حدٍّ لا يَعقِلُ الإسلامَ، ولكنْ جعَلَ اللهُ له حُكمَ أبيه لِفَضلِه في الدُّنيا مِن العِصمةِ والحُرمةِ. فأمَّا إتْباعُ الصَّغيرِ لأبيه في أحكامِ الإسلامِ فلا خِلافَ فيه، وأمَّا تبعيَّتُه لأُمِّه فاختلَفَ فيه العُلَماءُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

٢٧- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ على صِحَّةِ إسلامِ الصَّبيِّ؛ فإنَّ اللهَ نَسَبَ الفِعلَ إليهم، فهذا يدُلُّ على أنَّهم عَقَلوه وتكَلَّموا به؛ فاعتبَره اللهُ، وجَعَل لهم حُكمَ المُسلِمينَ، وقد احتَجَّ جماعةٌ بإسلامِ عليِّ بنِ أبي طالِبٍ صَغيرًا وأبواه كافِرانِ[(١)].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّه مِن جُملةِ إحسانِه سُبحانَه إلى أهلِ الجنَّةِ أنَّه يَرعى المحسِنَ في المُسيءِ، ولَفظةُ ﴿أَلۡحَقۡنَا﴾ تَقتَضي أنَّ للمُلحَقِ بَعضَ التَّقصيرِ في الأعمالِ[(٢)].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ لطيفةٌ: أنَّه قال سُبحانَه في الدُّنيا: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ على قراءةٍ، وقال في الآخِرةِ: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ في الدُّنيا لا يُدرِكُ الصَّغيرُ التَّابعُ مُساواةَ المَتبوعِ، وإنَّما يكونُ هو تَبَعًا والأبُ أصلًا؛ لفَضلِ السَّاعي على غَيرِ السَّاعي.

وأمَّا في الآخِرةِ فإذا أَلحَقَ اللهُ بفَضلِه وَلَدَه به جَعَل له مِنَ الدَّرَجةِ مِثلَ ما لأبيه[(٣)].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّ شَفَقةَ الأُبُوَّةِ كما هي في الدُّنيا مُتوفِّرةٌ كذلك في الآخِرةِ؛ ولهذا طَيَّبَ اللهُ تعالى قُلوبَ عِبادِه بأنَّه لا يُوَلِّهُهم[(٤)]

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٨)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٤) الوَلَهُ: ذَهابُ العَقلِ والتَّحَيُّرُ من شِدَّةِ الحُزنِ، أو: ذِهابُ العقلِ لفِقْدانِ الحبيبِ، والتَّوْليهُ أنْ يُفرَّقَ بينَ المرأةِ وولدِها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٤٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٥٦١).

بأولادِهم، بل يَجمَعُ بيْنَهم[١]!

٣١- قال اللهُ عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ تَطييبٌ لِقَلبِهم، وإزالةُ وَهمِ المتوهِّمِ أنَّ ثوابَ عَمَلِ الأبِ يُوزَّعُ على الوالِدِ والوَلَدِ، بل للوالِدِ أجْرُ عَمَلِه بفَضلِ السَّعيِ، ولأولادِه مِثلُ ذلك؛ فَضلًا مِنَ اللهِ تعالى ورَحمةً[٢]!

٣٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ هذه قاعِدةٌ عامَّةٌ في جميعِ العامِلينَ: أنَّ كلَّ واحدٍ رَهينٌ بعَمَلِه، لا يَنقُصُ منه شَيءٌ، أمَّا الزِّيادةُ فهي فَضلٌ مِن اللهِ تبارك وتعالى على مَن شاء مِن عِبادِه[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أنَّه لَمَّا كان هذا الإلحاقُ في الثَّوابِ والدَّرَجاتِ فضلًا مِن اللهِ، فرُبَّما وَقَع في الوَهمِ أنَّ إلحاقَ الذُّرِّيَّةِ أيضًا حاصِلٌ لهم في حُكْمِ العَدلِ؛ فلمَّا اكتَسَبوا سيِّئاتٍ أوجَبَتْ عقوبةً كان كلُّ عاملٍ رَهينًا بكَسْبِه لا يَتعلَّقُ بغَيرِه شَيءٌ، فالإلحاقُ المذكورُ إنَّما هو في الفَضلِ والثَّوابِ، لا في العَدلِ والعِقابِ، وهذا نَوعٌ مِن أسرارِ القرآنِ وكُنوزه الَّتي يَختَصُّ اللهُ بفَهمِها مَن شاء[٤]، فلا يُتوَهَّمْ أنَّ هذا الاتِّباعَ حاصِلٌ في أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، بل هو للمُؤمِنينَ دُونَ الكُفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بكَسْبِه، وقد يُثيبُه مِن غيرِ كَسْبٍ منه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٥٧).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَ المُكذِّبين وما يُقالُ لهم، فمِن شأنِ السَّامِعِ أنْ يَتساءَلَ عن حالِ أضْدادِهم، وهمُ الفريقُ الَّذين صدَّقوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما جاء به القرآنُ، وخاصَّةً إذ كان السَّامِعونَ المؤمنينَ، وعادةُ القرآنِ تَعقيبُ الإنذارِ بالتَّبشيرِ وعكْسُه؛ فلَمَّا ذكَرَ حالَ الكُفَّارِ، ذكَرَ حالَ المؤمنينَ؛ ليقَعَ التَّرهيبُ والتَّرغيبُ، وهو إخبارٌ عمَّا يَؤولُ إليه حالُ المؤمنينَ، أُخبِروا بذلك. والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قبْلَها وجُملةِ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾[1] [الطور: ٣٠]. ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن جُملةِ القَولِ للكُفَّارِ؛ إذ ذلك زِيادةٌ في غمِّهم، وتَنكيدٌ لهم[2].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به[3].

- وتَنكيرُ ﴿جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: في أيَّةِ جنَّاتٍ وأيِّ نَعيمٍ! بمعْنى الكَمالِ في الصِّفةِ. أوْ في جَنَّاتٍ ونَعيمٍ مَخصوصةٍ بالمُتَّقينَ، خُلِقَتْ لهم خاصَّةً، علَى أنَّ التَّنكيرَ للتَّنويعِ[4].

- وجُمِعَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ باعتبارِ جَمْعِ المُتَّقينَ، وهي جَناتٌ كثيرةٌ مُختلِفةٌ[5].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه استِحضارُ الجَلالةِ بوصْفِ ﴿رَبُّهُمْ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧) و (١٧/ ٤٥).

للإشارةِ إلى عَظيمِ ما آتاهُم؛ إذ العَطاءُ يُناسِبُ حالَ المُعْطي. وفي إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِهم تقْريبٌ لهم وتَعظيمٌ[١].

- قولُه: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ المَقصودُ من ذِكرِ هذه الحالةِ: إظهارُ التَّبايُنِ بيْن حالِ المُتَّقينَ وحالِ المُكذِّبين؛ زِيادةً في الامتِنانِ؛ فإنَّ النِّعمةَ تَزدادُ حُسْنَ وقْعٍ في النَّفْسِ عندَ مُلاحَظةِ ضِدِّها[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إظْهارُ الرَّبِّ في مَوقعِ الإضمارِ مُضافًا إلى ضَميرِهم؛ للتَّشريفِ والتَّعليلِ[٣]، فهو سُبحانَه المتفَضِّلُ بتَربيتِهم بكَفِّهم عن المعاصي والقاذوراتِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ في مَوضعِ الحالِ، تَقديرُه: يُقالُ لهم، أو مَقولًا لهم، وهذا القولُ مُقابِلُ ما يُقالُ للمُكذِّبين: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦][٥].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ لإفادةِ التَّعميمِ، أي: كُلوا كلَّ ما يُؤكَلُ، واشْرَبوا كلَّ ما يُشرَبُ، وهو عُمومٌ عُرْفيٌّ، أي: ممَّا تَشْتَهونَ[٦]. وأيضًا تُرِك ذِكرُ المأكولِ والمَشروبِ؛ لِتَنوُّعِهما وكَثرتِهما[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

- والباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سَببيَّةٌ، و(ما) مَوصولةٌ، أي: بسَببِ العمَلِ الَّذي كُنتُم تَعمَلونه، وهو العمَلُ الصَّالِحُ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالَى في حقِّ الكُفَّارِ: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال في حقِّ المؤمنينَ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وبيْن العِبارتَينِ بَونٌ عَظيمٌ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: كلمةُ (إنَّما) للحصْرِ، أي: لا تُجْزَون إلَّا ذلك، ولم يَذكُرْ هذا في حقِّ المؤمنِ؛ فإنَّه يَجْزِيه أضعافَ ما عمِلَ، ويَزِيدُه مِن فضْلِه.

الثاني: قال هنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، وقال هناك: ﴿مَا كُنتُمْ﴾، أي: تُجْزَون عَينَ أعمالِكم؛ إشارةً إلى المُبالَغةِ في المماثَلةِ، كما تقولُ: هذا عَينُ ما عمِلْتَ، وقال في حقِّ المؤمنِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، كأنَّ ذلك أمرٌ ثابتٌ مُستحَقٌّ بعمَلِكم هذا.

الثالث: ذكَرَ الجزاءَ هناك؛ وقال هاهنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الجزاءَ يُنبِئُ عن الانقطاعِ؛ فإنَّ مَن أحسَنَ إلى أحدٍ فأتى بجَزائِه، لا يَتوقَّعُ المحسِنُ منه شيئًا آخَرَ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ جِيءَ بالباءِ معَ أنَّ التَّزويجَ ممَّا يَتعدَّى إلى مَفعولَينِ؛ لِما في التَّزويجِ مِن معْنى الوصْلِ والإلصاقِ والقرْنِ. أو للسَّببيَّةِ؛ إذِ المعْنى: صيَّرْناهم أزواجًا بسَببِهنَّ؛ فإنَّ الزَّوجيَّةَ لا تَتحقَّقُ بدونِ انْضمامِهنَّ إليهِمْ(٣). وقيل: الباءُ للمُصاحَبةِ، أي: جعَلْنا حورًا عينًا معهم، ولم يُعَدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٦)، ((تفسير =

فِعلُ (زوجناهم) إلى (بحُورٍ) بنفْسِه على المفعوليَّةِ، كما في قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ لأنَّ (زَوَّجْنا) في هذه الآيةِ ليس بمعنى: أنكَحْناهم؛ إذ ليس المرادُ عقْدَ النِّكاحِ؛ لِنُبُوِّ المرادِ عن هذا المعنى؛ فالتَّزويجُ هنا واردٌ بمعنى جعْلِ الشَّيءِ المفردِ زَوجًا -وذلك على قَولٍ في تَفسيرِها-، وليس الباءُ لتعديةِ فِعلِ (زوَّجْناهم) بتضمينه معنى: قرَنَّا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِ طائفةٍ مِن أهْلِ الجنَّةِ إثْرَ بَيانِ حالِ الكُلِّ، وهُم الَّذينَ شاركَتْهم ذُرِّيَّتُهم في الإيمانِ[٢]. أو اعتِراضٌ بيْن ذِكرِ كَراماتِ المؤمنينَ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٣].

- والتَّعبيرُ بالمَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الصِّلةُ إيماءً إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ الواردِ بعْدَها، أي: إنَّ سَببَ إلْحاقِ ذُرِّيَّاتِهم بهِمْ في نَعيمِ الجنَّةِ هو إيمانُهم، وكَونُ الذُّرِّيَّاتِ آمَنوا بسَببِ إيمانِ آبائِهم؛ لأنَّ الآباءَ المؤمنينَ يُلقِّنون أبْناءَهم الإيمانَ[٤].

- ولفْظُ ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ الأوَّلُ قُرِئَ بصِيغةِ الإفرادِ، على أنَّه فاعلُ (اتَّبَعَتْهُمْ)، وقُرِئَ أيضًا بصِيغةِ الجمْعِ مَرفوعًا ﴿ذُرِّيَّاتُهُمْ﴾؛ للمُبالَغةِ في كثْرتِهم، والتَّصريحِ؛ فإنَّ الذُّرِّيَّةَ تقَعُ على الواحِدِ والكثيرِ، فيكونُ الإنعامُ على آبائِهم بإلْحاقِ

= أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذُرِّيَّاتِهم بهِمْ، وإنْ لم يَعمَلوا مِثلَ عمَلِهم. وقُرِئَ ﴿ذُرِّيَتَهُمْ﴾ و﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ بالنَّصبِ[١]، على أنَّهما مَفعولَا (أَتْبَعْنَاهُمْ)[٢].

- وقولُه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ عطْفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقيل: إنَّه اعتِراضٌ للتَّعليلِ[٣].

- والتَّنكيرُ في قَولِه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ قيل: إنه للنَّوعيَّةِ، أي: بما يَصدُقُ عليه حَقيقةُ الإيمانِ؛ للإشعارِ بأنَّه يَكْفي للإلحاقِ المُتابَعةُ في أصْلِ الإيمانِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: إيمانُ الذُّرِّيَّةِ الدَّاني المَحلِّ، كأنَّه قال: بشَيءٍ مِن الإيمانِ لا يُؤهِّلُهم لدَرَجةِ الآباءِ، ألْحَقْناهم بهِمْ، فهو إيمانٌ في الجُملةِ قاصرٌ عن رُتْبةِ إيمانِ الآباءِ، والتَّنكيرُ حِينَئذٍ للتَّقليلِ[٤]، فالمعنى: بشَيءٍ مِن الإيمانِ لم يَكونوا به أهلًا لدرجةِ آبائِهم، ولكنَّهم لَحِقوا بهم كرامةً للآباءِ، فالمرادُ تقليلُ إيمانِ الذُّرِّيَّةِ، ولكنَّه رفَع درجتَهم، فكيف إذا كان إيمانًا عظيمًا[٥]؟!

- وإيثارُ فِعلِ ﴿أَلۡحَقۡنَا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: أدخَلْنا معهم، أو جعَلْنا معهم؛ لعلَّه لِما

---

(١) قولُه تعالى: ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأه البَصريَّانِ -أبو عَمرٍو ويعقوبُ- وابنُ عامرٍ بألِفٍ على الجَمعِ، وقرأ الباقون بغيرِ ألِفٍ على التَّوحيدِ، وكسَرَ التَّاءَ أبو عَمرٍو وحْدَه، وضمَّها الباقونَ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٩).

ويُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨، ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).

في مَعْنى الإلحاقِ مِن الصَّلاحيةِ للفَورِ والتَّأخيرِ؛ فقدْ يكونُ ذلك الإلحاقُ بعْدَ إجراءِ عِقابٍ على بَعضِ الذُّرِّيَّةِ استَحقُّوه بسَيِّئاتِهم على ما في الأعمالِ مِن تَفاوتٍ في استحقاقِ العِقابِ، واللهُ أعلَمُ بمُرادِه مِن عِبادِه. وأيضًا ففِعلُ الإلحاقِ يَقْتضي أنَّ الذُّرِّيَّاتِ صاروا في دَرَجاتِ آبائِهم(١).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾، أي: وما نقَصْناهم، والمعْنى: أنَّ اللهَ ألْحَقَ بهم ذُرِّيَّاتِهم في الدَّرَجةِ في الجنَّةِ فضْلًا منه على الَّذين آمَنوا دُونَ عِوَضٍ؛ احتِراسًا مِن أنْ يَحسَبوا أنَّ إلْحاقَ ذُرِّيَّاتِهم بهمْ بعْدَ عطاءِ نَصيبٍ مِن حَسناتِهم لذُرِّيَّاتِهم لِيَدخُلوا به الجنَّةَ، على ما هو مُتعارَفٌ عِندَهم في فكِّ الأسيرِ، وحَمالةِ الدِّيَاتِ، وخَلاصِ الغارِمينَ، وعلى ما هو مَعروفٌ في الانتِصافِ مِن المظلومِ للظَّالِمِ بالأخْذِ مِن حَسَناتِه وإعطائِها للمَظلومِ، وهو كِنايةٌ عن عَدَمِ انتقاصِ حُظوظِهم مِن الجَزاءِ على الأعمالِ الصَّالحةِ(٢).

- و﴿مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾، و(مِن) للتَّبعيضِ، و(مِن) الَّتي في قولِه: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ لتَوكيدِ النفْيِ، وإفادةِ الإحاطةِ والشُّمولِ للنَّكرةِ(٣).

- قولُه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم﴾ وبيْن جُملةِ ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ﴾ [الطور: ٢٢]؛ قيل: قُصِدَ منها تَعليلُ الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهي بما فيها مِن العُمومِ صالِحةٌ للتَّذييلِ مع التَّعليلِ(٤).

- وفي هذا التَّعليلِ كِنايتانِ؛ إحْداهما: أنَّ أهْلَ الكفْرِ مَقرونونَ بجَزاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٠، ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أعمالِهم. وثانيَتُهما: أنَّ ذُرِّيَّاتِ المؤمنينَ الَّذين أُلْحِقوا بآبائِهم في النَّعيم، أُلْحِقوا بالجنَّةِ كَرامةً لآبائِهم، ولولا تلك الكرامةُ لَكانت مُعاملتُهم على حسَبِ أعمالِهم، وبهذا كان لهذه الجُملةِ هنا وقْعٌ أشدُّ حُسْنًا ممَّا سِواهُ، مع أنَّها صارتْ مِن حُسْنِ التَّتميمِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

الآيات (٢٢-٢٨)

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾
۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَتَنَازَعُونَ﴾: أي: يَتعاطَونَ ويَتداوَلون؛ هذا يأخُذُ مِن يَدِ هذا، وهذا يأخُذُ مِن يَدِ هذا، كالشَّيءِ المُتنازَعِ فيه، وأصلُه مِن نَزْعِ الدَّلوِ مِنَ البِئرِ عندَ الاستِقاءِ؛ فإنَّ النَّاسَ كانوا إذا وَرَدوا للاستِقاءِ نَزَعَ أحَدُهم دَلوًا مِنَ الماءِ، ثمَّ ناوَلَ الدَّلْوَ لِمَن حَوْلَه[1].

﴿لَغْوٌ﴾: أي: باطِلٌ مِنَ القَولِ يَصدُرُ عن خَلَلِ العَقلِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[2].

﴿تَأْثِيمٌ﴾: أي: ما يُؤَثِّمُهم مِن فِعلٍ أو قَولٍ، مِثلُ الضَّربِ والشَّتمِ وغَيرِهما، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

﴿مَّكۡنُونٌ﴾: أي: مَصونٌ مَستورٌ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ أو صَونٍ[١].

﴿مُشۡفِقِينَ﴾: أي: خائِفينَ حَذِرينَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿فَمَنَّ﴾: أي: أنْعَمَ، وصنَعَ الصُّنعَ الجَميلَ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على اصطِناعِ الخَيرِ[٣].

﴿ٱلسَّمُومِ﴾: أي: النَّارِ الحارَّةِ، وأصلُه اسمُ الرِّيحِ الَّتي تَهُبُّ مِن جِهةٍ حارَّةٍ جِدًّا، فتكونُ جافَّةً شَديدةَ الحرارةِ؛ سُمِّيت سَمومًا لدُخولِها بلُطفٍ في مَسامِّ البَدَنِ[٤].

﴿ٱلۡبَرُّ﴾: أي: اللَّطيفُ الواسِعُ الفَضلِ، الصَّادقُ فيما وعَدَ، وأصلُ (برر) هنا: يدُلُّ على الصِّدقِ والسَّعةِ؛ فأمَّا الصِّدقُ فمِنْه قولُهم: صدَقَ فُلانٌ وبَرَّ، وبرَّتْ يَمينُه: صدَقَت، وأمَّا السَّعةُ فهو مِن البَرِّ الَّذي هو خِلافُ البَحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، فاشتُقَّ منه البِرُّ، أي: التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦، ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(٥) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١).

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا آخَرَ مِن مَظاهِرِ فضلِه على عبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: وأمدَدْنا المؤمِنينَ في الجنَّةِ بفاكِهةٍ ولَحمٍ مِمَّا يَشتَهونَه، ويَتعاطَونَ في الجنَّةِ كأسًا مملوءةً بالخَمرِ، لا يَهذُونَ بكَلامٍ لا فائدةَ منه بسببِها، ولا يأثَمُ شارِبُها بشُرْبِها ولا يُؤثِّمُه أحدٌ، ولا يحمِلُه شُرْبُها على أنْ يَفعلَ إثمًا بخِلافِ خَمْرِ الدُّنيا، ويَطوفُ عليهم غِلمانٌ لخِدمتِهم؛ فهم لنَظافتِهم ونَضارتِهم مِثلُ اللُّؤلؤِ المصُونِ في صَدَفِه!

ثمَّ يخبرُ اللهُ تعالى عن حَديثِهم في الجنَّةِ، فيقولُ: وأقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ يَتحادَثونَ في أحوالِهم الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا، فقال بَعضُهم لِبَعضٍ: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا خائِفينَ مِن عَذابِ اللهِ تعالى يومَ القِيامةِ، فمَنَّ اللهُ علينا بفَضلِه فنجَّانا مِن عَذابِ النَّارِ؛ إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَدعوه تعالى وحْدَه، إنَّه تعالى هو اللَّطيفُ بعبادِه، الواسِعُ الإحسانِ، الرَّحيمُ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وزِدْنا المؤمِنينَ في الجنَّةِ مِن فَضلِنا، فأعطَيْناهم فاكِهةً ولَحمًا مِمَّا يَشتَهونَه ويَستَلِذُّونَه(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

قال القرطبي: (أي: أكثَرْنا لهم مِن ذلك؛ زيادةً مِنَ اللهِ، أمدَّهم بها غيرَ الَّذي كان لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨).

وقال سبحانَه: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا النَّعيمُ العَظيمُ المُقيمُ يدعو إلى المعاشَرةِ بالقَرينةِ العاطِرةِ؛ بَيَّنَ أنَّ ذلك حالُهم اللَّازِمةُ الظَّاهِرةُ مِن الخِصالِ اللَّائِقةِ الطَّاهِرةِ؛ فقال[١]:

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا ﴾.

أي: يَتعاطَونَ فيها كأسَ الشَّرابِ المملوءةَ بالخَمرِ[٢].

﴿ لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٤، ٤٥٥).

قيل: المعنى: يَتعاطَونَ فيها كأسًا، يأخُذُها بعضُهم مِن بَعضٍ للشُّربِ، ويَتداوَلونَها بيْنَهم. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ -في ظاهِرِ اختيارِهما-، والماتُريديُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير النسفي)).

قال البقاعي: (﴿ يَتَنَٰزَعُونَ ﴾ أي: يَشرَبونَ مُتجاذِبينَ مُجاذَبةَ الملاعَبةِ؛ لِفَرطِ المحبَّةِ والسُّرورِ، وتَحليةِ المُصاحَبةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

وقال ابن عاشور: (الكأس... يجوزُ أن يكونَ هنا مرادًا به الإناءُ المعروفُ، ومرادًا به الجنسُ... وليس المرادُ أنَّهم يَشرَبونَ في كأسٍ واحدةٍ، يأخُذُ أحَدُهم مِن آخَرَ كأسَه، ويجوزُ أن يُرادَ بالكأسِ الخمرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣).

وقال السعدي: (﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا ﴾ أي: تدورُ كاساتُ الرَّحيقِ والخمرِ عليهم، ويتعاطَوْنها فيما بيْنَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في خَمرِ الدُّنيا غوائِلُ؛ نفاها عنها؛ فقال(١):

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾.

أي: لا يَقَعُ منهم بسَبَبِ الشُّربِ هَذَيانٌ وكَلامٌ لا فائِدةَ منه، ولا يأثَمُ شارِبُها بِشُرْبِها، ولا يُؤثِّمُه أحدٌ، ولا يحْمِلُه شُرْبُها على أنْ يَفعلَ إثْمًا، بخِلافِ خَمْرِ الدُّنيا(٢).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨، ٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّهم لا يأثَمونَ في شُربِها: السمرقنديُّ، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه لا يكونُ منهم ما يُؤَثِّمُهم: ابنُ قُتَيبةَ، وابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والزمخشري. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عطية: (والتَّأثيمُ: يَلحَقُ خَمرَ الدُّنيا في نفْسِ شُربِها، وفي الأفعالِ الَّتي تكونُ من شَرابِها، وذلك كُلُّه مرتفِعٌ في الآخرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٠).

وقال ابنُ القيِّم: (فنَفى باللَّغوِ السِّبابَ والتَّخاصُمَ، والهُجْرَ والفُحْشَ في المقال، والعَرْبدةَ، ونفى بالتَّأثيم جَميعَ الصِّفاتِ المذمومةِ الَّتي أثَّمَت شاربَ الخَمرِ، وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، ولم يَقُلْ: ولا إثمٌ، أي: ليس فيها ما يَحمِلُهم على الإثمِ، ولا يُؤَثِّمُ بَعضُهم بَعضًا بشُربِها، ولا يؤثِّمُهم اللهُ بذلك ولا الملائِكةُ، فلا يَلْغُونَ ولا يَأثَمونَ. قال ابنُ قُتَيبةَ: لا تَذهَبُ بعُقولِهم فيَلْغُوا، ولم يَقَعْ منهم ما يُؤَثِّمُهم). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (واللَّغْوُ: كُلُّ كلامٍ ساقِطٍ لا خيرَ فيه، فخَمرُ الآخرةِ لا تَحمِلُ شارِبيها على =

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٤، ٣٥].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المُعاطاةُ لا يَكمُلُ بَسطُها ولا يَعظُمُ إلَّا بخَدَمٍ وسُقاةٍ؛ قال[1]:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ويَطوفُ على المُؤمِنينَ في الجَنَّةِ غِلمانٌ لِخدمتِهم، وهم في حُسْنِهم وبياضِهم، وصَفائِهم وبهائِهم ونظافتِهم: مِثلُ اللُّؤلؤِ المصُونِ في صَدَفِه[2].

= الكَلامِ الخَبيثِ والهَذَيانِ؛ لأنَّها لا تُؤَثِّرُ في عُقولِهم، بخِلافِ خَمرِ الدُّنيا؛ فإنَّهم إن يَشرَبوها سَكِروا، وطاشت عُقولُهم، فتكَلَّموا بالكلامِ الخبيثِ والهَذَيانِ، وكُلُّ ذلك من اللَّغوِ.

والتأثيمُ: هو ما يُنسَبُ به فاعِلُه إلى الإثم، فخَمرُ الآخرةِ لا يأثَمُ شارِبُها بشُربِها؛ لأنَّها مباحةٌ له، فيَنعَمُ بلذَّتِها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، ولا تحمِلُ شارِبَها على أن يَفعَلَ إثمًا، بخِلافِ خَمرِ الدُّنيا؛ فشارِبُها يأثَمُ بشُربِها، ويَحمِلُه السُّكْرُ على الوُقوعِ في المحَرَّماتِ؛ كالقَتلِ والزِّنا والقَذفِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

قال ابنُ القيِّم: (الأشبَهُ أنَّ هؤلاءِ الوِلدانَ مخلوقونَ من الجَنَّةِ -كالحُورِ العِينِ- خَدَمًا لهم وغِلْمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، وهؤلاءِ غيرُ أولادِهم؛ فإنَّ من تمامِ كَرامةِ اللهِ تعالى لهم أن يجعَلَ أولادَهم مخدومينَ معهم، ولا يَجعَلَهم غِلمانًا لهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٦).

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢١].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وأقبَلَ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يتحادَثونَ فيما بَيْنَهم، ويَتساءَلونَ عن أحوالِهم الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا[١].

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال بَعضُهم لِبَعضٍ: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا بيْنَ أهلِنا خائِفينَ وحَذِرينَ مِن عَذابِ اللهِ يومَ القيامةِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فمَنَّ اللهُ علينا بفَضلِه فهَدانا، ونجَّانا مِن عَذابِ النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧). =

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا إشفاقَهم بَيَّنوه مُؤَكِّدينَ أيضًا لِمِثْلِ ذلك، بقَولِهم[1]:

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾.

أي: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَدعو اللهَ تعالى وَحْدَه دعاءَ عبادةٍ ودعاءَ مسألةٍ، ونتضَرَّعُ إليه؛ فأجاب دُعاءَنا فوَقانا عذابَ السَّمومِ، وأدخَلَنا دارَ النَّعيمِ[2].

= قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: السَّمُومُ: اسمٌ مِن أسماءِ النَّارِ، وطَبَقةٌ مِن طِباقِ جَهنَّمَ. وقيل: هو النَّارُ، كما تقولُ: جهنَّمُ. وقيل: نارُ عذابِ السَّمومِ. والسَّمُومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ، تُؤنَّثُ، يُقالُ منه: سُمَّ يَومُنا فهو مَسمومٌ، والجمعُ سمائِمُ. قال أبو عُبَيدةَ: السَّمومُ بالنَّهارِ، وقد تكونُ باللَّيلِ، والحَرورُ باللَّيلِ، وقد تكونُ بالنَّهارِ، وقد تُستعمَلُ السَّمُومُ في لَفحِ البَردِ، وهو في لَفحِ الحَرِّ والشَّمسِ أكثَرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٨).

ممَّن نصَّ على أنَّ عذابَ السَّمومِ أي عذابُ النَّارِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، الخازن، والعُلَيمي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

قال العُلَيمي: (﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ اسمٌ من أسماءِ جَهنَّمَ، والسَّمُومُ: الحارُّ الَّذي يَبلُغُ مَسامَّ الإنسانِ، وهو النَّارُ في هذه الآيةِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٤).

وقال البِقاعي: (﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: الحَرِّ النَّافِذِ في المسامِّ نُفوذَ السُّمِّ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿ٱلسَّمُومِ﴾ بفَتحِ السِّينِ، أصلُه اسمُ الرِّيحِ الَّتي تهُبُّ مِن جِهةٍ حارَّةٍ جِدًّا، فتكونُ جافَّةً شَديدةَ الحرارةِ، وهي معروفةٌ في بلادِ العَرَبِ، تُهلِكُ مَن يَتنشَّقُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) =

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

= لابن تيمية (١٥/ ١٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥، ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

قال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نُوَحِّدُه ونَعبُدُه، والدُّعاءُ هاهنا بمعنى التَّوحيدِ، وعليه أكثَرُ المفسِّرينَ. ويُقالُ: إنَّه الدُّعاءُ المعروفُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٥).

وذهب ابنُ تيميَّةَ وابنُ القيِّمِ إلى أنَّ المرادَ دعاءُ العبادةِ المُتضَمِّنُ للسُّؤالِ رَغبةً ورَهبةً. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥).

قال ابن القيِّم: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فهذا دعاءُ العبادةِ المُتضَمِّنُ للسُّؤالِ رَغبةً ورَهبةً، والمعنى: إنَّا كنَّا مِن قبْلُ نُخلِصُ له العبادةَ، وبهذا استحَقُّوا أنْ وقاهم عذابَ السَّمومِ، لا بمُجرَّدِ السُّؤالِ المُشتركِ بيْن النَّاجي وغيرِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه يَسألُه مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، والفوزُ والنَّجاةُ إنَّما هي بإخلاصِ العبادةِ، لا بمُجرَّدِ السُّؤالِ والطَّلبِ). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٥).

وذهب السعديُّ وابنُ عثيمين إلى أنَّ قولَه: ﴿نَدْعُوهُ﴾ شاملٌ لِدُعاءِ العبادةِ، ودعاءِ المسألةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

قال ابن عثيمين: (قولُهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يَشملُ دعاءَ العبادةِ؛ كالصَّلاةِ، والصَّدقةِ، والصِّيامِ، والحجِّ، وبرِّ الوالِدَينِ، وصِلةِ الأرحامِ، كلُّ هذا دعاءٌ، وإن كان هو عبادةً، فلو سألْتَ الدَّاعيَ: لماذا تَعبُدُ اللهَ، ولو سألْتَ العابدَ: لماذا تَعبُدُ اللهَ؟ لَقال: أرجو رحمتَه، وأخافُ عذابَه، فتَكونُ هذه العبادةُ بمعنَى الدُّعاءِ. كذلك نَدْعوه دعاءَ مسألةٍ، لا يَسألونَ غيرَ اللهِ، ولا يَلجَؤونَ إلَّا إلى اللهِ؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّهم مُفتَقِرونَ إليه، وأنَّه هو القادرُ على كلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

وقال السعدي: (﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أنْ يَقيَنا عذابَ السَّمُومِ، ويُوصِلَنا إلى النَّعيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المرادَ: نَبْتَهِلُ إليه في أُمورِنا، ويَدخُلُ في ذلك الدُّعاءُ لأنفُسِهم ولذُرِّيَّاتِهم بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، وبنوالِ نعيمِ الجنَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

وقال سُبحانَه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

أنَّهم عَلَّلوا دُعاءَهم إيَّاه تعالى مُؤكِّدينَ؛ لأنَّ إنعامَه عليهم مع تَقصيرِهم مِمَّا لا يكادُ يَفعَلُه غَيرُه سُبحانَه؛ فهو مِمَّا يُعجَبُ منه غايةَ العَجَبِ؛ فقالوا[١]:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو اللَّطيفُ بعبادِه، الواسِعُ الإحسانِ، البالِغُ الرَّحمةِ بهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كمالُ أدبِ أهلِ الجنَّةِ؛ في أنَّهم عندَ المحادَثةِ يُقبِلُ بعضُهم على بعضٍ، وهذا مِن كمالِ الأدبِ: أنْ تُقبِلَ إلى مُحَدِّثِك[٣]!

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ ذكَرَ جَلَّ وعلا هنا أنَّ الإشفاقَ من عَذابِ اللهِ: من أسبابِ دُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن العَذابِ يومَ القيامةِ، كما دَلَّ عليه مَنطوقُ هذه الآيةِ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزَّجَّاج (ص: ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٢٢).

وقال تعالى في (المعارجِ): ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧، ٢٨] إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، وذكَرَ ذلك مِن صِفاتِ أهلِ الجنَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾(١) [الواقعة: ١٠ - ١٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أنَّه لَمَّا كان هذا الكلامُ في دارِ الحقيقةِ لا يَصدُرُ إلَّا عن إلْهامٍ ومَعرِفةٍ، كان دليلًا على أنَّ دُعاءَ الصَّالِحينَ لأبنائِهم وذُرِّيَّاتِهم مَرجُوُّ الإجابةِ -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، كما دَلَّ على إجابةِ دُعاءِ الصَّالحينَ مِنَ الأبناءِ لآبائِهم على ذلك؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا مات الإنسانُ انقطَعَ عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثَلاثةٍ))، فذكَرَ: ((أو ولَدٌ صالِحٌ يدعو له))(٢).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ أي: أنَّه وَحْدَه الواسِعُ الجُودِ، الَّذي عَطاؤُه حِكمةٌ، ومَنْعُه رَحمةٌ؛ لأنَّه لا يَنقُصُه إعطاءٌ، ولا يَزيدُه مَنعٌ؛ فهو يَبَرُّ عَبْدَه المُؤمِنَ بما يُوافِقُ نفْسَه؛ فرُبَّما بَرَّه بالنِّعمةِ، ورُبَّما بَرَّه بالبُؤسِ، فهو يختارُ له مِنَ الأحوالِ ما هو خيرٌ له؛ لِيُوسِّعَ له في العُقبى؛ فعلى المؤمنِ ألَّا يتَّهِمَ رَبَّه في شَيءٍ مِن قَضائِه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المُكرِمُ لِمَن أراد مِن عبادِه بإقامتِه فيما يَرضاه مِن طاعتِه، ثمَّ بإفضالِه عليه وإن قَصَّرَ في خِدمتِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

والحديث أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، ونَفيُ النُّقصانِ يَصدُقُ بحُصولِ المُساوي؛ فقال: ليس عَدَمُ النُّقصانِ بالاقتِصارِ على المُساوي، بل بطريقٍ آخَرَ، وهو الزِّيادةُ والإمدادُ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أنَّه ليس فيه شَيءٌ منه مِمَّا لا يُعجِبُهم غايةَ الإعجابِ[2]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أنَّه ليس في الجنَّةِ كَلامٌ لَغْوٌ: وهو الَّذي لا فائِدةَ فيه، ولا تأثيمٌ: وهو الَّذي فيه إثمٌ ومَعصيةٌ؛ وإذا انتفَى الأمْرانِ ثَبَت الأمرُ الثَّالِثُ، وهو أنَّ كَلامَهم فيها سلامٌ طَيِّبٌ طاهِرٌ، مُسِرٌّ للنُّفوسِ، مُفرِحٌ للقُلوبِ، يَتعاشَرونَ أحسَنَ عِشرةٍ، ويَتنادَمونَ أطيَبَ المُنادَمةِ، ولا يَسمَعونَ من رَبِّهم إلَّا ما يُقِرُّ أعيُنَهم، ويدُلُّ على رِضاه عنهم، ومحبَّتِه لهم[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مِلْكُهم؛ إعلامًا لهم بقُدرتِهم على التَّصَرُّفِ فيهم بالأمرِ والنَّهيِ والاستِخدامِ، وهذا هو المشهورُ، ويحتَمِلُ وَجهًا آخَرَ: وهو أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن امتيازَ خَمرِ الآخرةِ عن خَمرِ الدُّنيا؛ بيَّنَ امتيازَ غِلمانِ الآخِرةِ عن غِلمانِ الدُّنيا؛ فإنَّ الغِلْمانَ في الدُّنيا إذا طافُوا على السَّادةِ الملوكِ يَطوفونَ عليهم لحَظِّ أنفُسِهم؛ إمَّا لتوَقُّعِ النَّفعِ، أو لتوَفُّرِ الصَّفحِ، وأمَّا في الآخِرةِ فطَوفُهم عليهم مُتمَحِّضٌ لهم ولِنَفعِهم، ولا حاجةَ لهم إليهم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ لم يُضِفْهم؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّهم الَّذين كانوا يَخدُمونَهم في الدُّنيا، فيُشفِقَ كُلُّ مَن خَدَم أحَدًا في الدُّنيا بقَولٍ أو فِعلٍ أن يكونَ خادِمًا له في الجنَّةِ، فيَحزَنَ بكَونِه لا يزالُ تابِعًا، وأفاد التَّنكيرُ أنَّ كُلَّ مَن دَخَل الجنَّةَ وَجَد له خَدَمًا لم يَعرِفْهم قبْلَ ذلك[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أنَّه إذا كان هذا حالَ الخادِمِ، فما ظَنُّك بالمَخدومِ[2]؟!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصَف تعالى خَدَمَهم الطَّائِفينَ عليهم بأنَّهم كاللُّؤلُؤِ في بياضِهم، والمَكْنونُ: المَصونُ الَّذي لا تُدَنِّسُه الأيدي؛ فلم تُذهِبِ الخِدمةُ تلك المحاسِنَ، وذلك اللَّونَ والصَّفاءَ والبَهجةَ، بل مع انتِصابِهم لخِدمتِهم كأنَّهم لُؤلؤٌ مَكْنونٌ، ووصَفهم في مَوضِعٍ آخَرَ، فقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]؛ ففي ذِكرِه المنثورَ إشارةٌ إلى تفَرُّقِهم في حوائِجِ ساداتِهم وخِدمتِهم، وذَهابِهم ومَجيئِهم، وسَعةِ المكانِ بحيث لا يحتاجُونَ أن يَنضَمَّ بَعضُهم إلى بَعضٍ فيه لضِيقِه[3]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم يَعلَمونَ ما جرى عليهم في الدُّنيا ويَذكُرونَه، وكذلك الكافِرُ لا يَنسى ما كان له مِنَ النَّعيمِ في الدُّنيا؛ فتَزدادُ لذَّةُ المؤمِنِ؛ مِن حيثُ يرَى نفْسَه انتقَلَت مِنَ السِّجنِ إلى الجنَّةِ، ومِنَ الضِّيقِ إلى السَّعةِ، ويَزدادُ الكافِرُ ألَمًا؛ حيثُ يرَى نفْسَه مُنتقِلةً مِنَ الشَّرَفِ إلى التَّلَفِ، ومِنَ النَّعيمِ إلى الجَحيمِ[4]!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨). ويُنظر ما سيأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٢٩٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ فيه أنَّ الإشفاقَ الَّذي هو الخَوفُ الشَّديدُ مِن عَذابِ اللهِ في دارِ الدُّنيا سَبَبٌ للسَّلامةِ منه في الآخِرةِ، يُفهَمُ مِن دَليلِ خِطابِه -أي: مَفهومِ مُخالَفتِه-: أنَّ مَن لم يَخَفْ مِن عذابِ اللهِ في الدُّنيا لم يَنْجُ منه في الآخِرةِ، وما تضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمةُ بمَنطوقِها ومَفهومِها جاء مُوضَّحًا في غيرِ هذا الموضِعِ؛ مِن ذلك ما ذكَرَه اللهُ تعالى مِن أنَّ السُّرورَ في الدُّنيا وعَدَمَ الخَوفِ مِنَ اللهِ تعالى سَبَبُ العذابِ يومَ القيامةِ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ * فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا * وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾(١) [الانشقاق: ١٠ - ١٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أنَّه لم يَقُلْ: «مِن قَبْلُ» كما في قَولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾، فقد أسقَطَ الجارَّ «مِنْ»؛ إشارةً إلى دوامِ خَوفِهم؛ تنبيهًا على أنَّ الخوفَ الحامِلَ على الكَفِّ عن المعاصي يُشتَرَطُ فيه الدَّوامُ، بخِلافِ الرَّجاءِ الحامِلِ على الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يكفي فيه ما تَيسَّرَ، كما أشار إليه إثباتُ الجارِّ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾. وفي هذا الإثباتِ للجارِّ هنا ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مع إسقاطِه فيما قَبْلَه إشارةٌ إلى أنَّ التَّحلِّيَ بالفضائِلِ يُرضَى منه باليَسيرِ، والتَّخَلِّيَ عن الرَّذائِلِ لا بُدَّ فيه مِن البراءةِ عن كُلِّ قليلٍ وكثيرٍ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ * يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩، ٢٠).

- قولُه: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ خُصَّ الفاكهةُ واللَّحمُ تَمهيدًا لقولِه: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، منَحَهم اللهُ في الآخرةِ لذَّةَ نشْوةِ الخمْرِ والمُنادَمةِ على شُرْبِها؛ لأنَّها مِن أحسَنِ اللَّذَّاتِ فيما ألِفَتْه نُفوسُهم، وكان أهلُ التَّرَفِ في الدُّنيا إذا شَرِبوا الخمْرَ كَسَروا سَورةَ حِدَّتِها في البطْنِ بالشِّواءِ مِن اللَّحمِ؛ ولذلك جِيءَ بقولِه: ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ حالًا مِن ضَميرِ الغائبِ في ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ ...﴾ إلخ[1]. وأيضًا اختار مِنَ المأكولِ أرفَعَ الأنواعِ، وهو الفاكِهةُ واللَّحمُ؛ فإنَّهما طَعامُ المُتنَعِّمينَ[2].

- وجُملةُ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ صِفةً لكأْسٍ، وضَميرُ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ عائدًا إلى (كأس)، ووصْفُ الكأْسِ بـ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ إنْ فُهِمَ الكأْسُ بمعْنى الإناءِ المعْروفِ، فهو على تَقديرِ: لا لَغْوٌ ولا تأْثيمٌ يُصاحِبُها؛ فإنَّ (في) للظَّرفيَّةِ الَّتي تُؤَوَّلُ بالمُلابَسةِ، أو تُؤَوَّلُ (في) بمعْنى التَّعليلِ. وإنْ فُهِمَ الكأْسُ مُرادًا به الخمْرُ، كانتْ (في) للسَّببيَّةِ، أي: لا لَغْوٌ يقَعُ بسَببِ شُرْبِها. والمعْنى على كِلا الوجهَينِ: أنَّها لا يُخالِطُ شارِبيها اللَّغْوُ والإثْمُ بالسِّبابِ والضَّرْبِ ونحْوِه، أي: إنَّ الخمْرَ الَّتي استُعْمِلَت الكأْسُ لها لَيستْ كخُمورِ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ مُستأْنَفةً ناشئةً عن جُملةِ ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، ويكونَ ضَميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى ﴿جَنَّاتٍ﴾ من قولِه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾ [الطور: ١٧]، فيَكونَ في الجُملةِ معْنى التَّذييلِ؛ لأنَّه إذا انْتَفى اللَّغْوُ والتَّأْثيمُ عن أنْ يَكونَا في الجنَّةِ انْتَفى أنْ يَكونَا في كأْسِ شُرْبِ أهْلِ الجنَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]؛ فهو مِن تَمامِه، وواقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِثلَه[١].

- وجِيءَ بقولِه: ﴿وَيَطُوفُ﴾ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، أي: ذلك لا يَنقطِعُ، بخِلافِ لذَّاتِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا بدَّ لها مِن الانقطاعِ بنِهاياتٍ تَنْتهي إليها، فتُكَرَّهُ لأصحابِها الزِّيادةُ منها؛ مِثلُ ذهابِ العقلِ، والصُّداعِ، ووجَعِ الأمعاءِ في شُرْبِ الخمْرِ، ومِثلُ الشِّبَعِ في تَناوُلِ الطَّعامِ، وغيرُ ذلك مِن كلِّ ما يُورِّثُ العجْزَ عن الازديادِ عن اللَّذَّةِ، ويَجعَلُ الازديادَ ألَمًا[٢].

- وأيضًا لَمَّا أشعَرَ فِعلُ (يَطُوفُ) بأنَّ الغِلمانَ يُناوِلونَهم ما فيه لذَّاتُهم، كان مُشعِرًا بتَجدُّدِ المُناوَلةِ وتَجدُّدِ الطَّوافِ، وقد صار كلُّ ذلك لذَّةً لا سآمةَ منها[٣].

- والطَّوافُ: مشْيٌ مُتكرِّرٌ ذَهابًا ورُجوعًا، وأكثرُ ما يكونُ على استِدارةٍ، وسُمِّيَ مشْيُ الغِلمانِ بيْنَهم طَوافًا؛ لأنَّ شأْنَ مَجالسِ الأحبَّةِ والأصدقاءِ أنْ تكونَ حِلَقًا ودَوائرَ؛ ليَسْتَووا في مَرْآهم، كما أشارَ إليه قولُه تعالى في سُورةِ (الصَّافاتِ) [٤٤]: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[٤].

- وتُرِكَ ذِكرُ مُتعلَّقِ (يَطوف) -حيثُ لم يُذكَرْ ما يَطوفونَ به عليهم-؛ لظُهورِه مِن قولِه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، وقولِه: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٥).

[الزخرف: ٧١]، وقولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۞ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦]، فلمَّا تقدَّمَ ذِكرُ ما شأْنُه أنْ يُطافَ به هنا، تُرِكَ ذِكرُه بعْدَ فعلِ ﴿يُطَافُ﴾، بخِلافِ ما في الآيتَينِ الأُخْرَيَينِ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[1] [الصافات: ٤٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا وفي سُورةِ (الإنسانِ): ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الطور: ٢٤] [الإنسان: ١٩] بالواوِ، عطْفًا على ما قبْلَه، وقالَه في سُورةِ (الواقعةِ) بغَيرِ واوٍ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الواقعة: ١٧]؛ لأنَّه حالٌ أو خبرٌ بعْدَ خَبرٍ[2].

- ومعنَى قولِه: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾: خَدَمةٌ لهم، وعُبِّرَ عنهم بالتَّنكيرِ، وتَعليقِ لامِ المِلْكِ بضَميرِ الَّذين آمَنوا دُونَ الإضافةِ الَّتي هي على تَقديرِ اللَّامِ؛ لِما في الإضافةِ مِن معْنى تَعريفِ المُضافِ بالانتِسابِ إلى المُضافِ إليه عِندَ السَّامِعِ مِن قبْلُ، وليس هؤلاء الغِلمانُ بمَمْلوكينَ للمُؤمنينَ، ولكنَّهم مَخلوقونَ لِخِدْمَتِهم مَخصوصونَ بهم، خلَقَهم اللهُ مِن أجْلِهم في الجنَّةِ[3].

- وفي قولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ شُبِّهتِ الغِلمانُ باللُّؤلؤِ المَكنونِ في حُسْنِ المرْأَى؛ لأنَّه أحسَنُ وأصْفَى، أو شُبِّهتْ باللُّؤلؤِ المَكنونِ في الأصدافِ؛ لأنَّه مَخزونٌ، ولا يُخزَّنُ إلَّا الثَّمينُ الغالي القِيمةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]، والتَّقديرُ: وقدْ أقبَلَ بعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلون، أي: همْ في تلك الأحوالِ قد أقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلون[١].

- وجُملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ لأنَّه دلَّ عليه ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾. وعلى هذا الوجْهِ يكونُ معْنى (في) الظَّرفيَّة، ويَتعلَّقُ ﴿فِيٓ أَهْلِنَا﴾ بـ﴿كُنَّا﴾، أي: حِينَ كنَّا في ناسِنا في الدُّنيا، فأهْلُنا هنا بمعْنى آلِنا[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ تدُلُّ على أنَّ عِلَّةَ ذلك هي الخَوفُ مِن اللهِ في دارِ الدُّنيا[٤].

- قولُه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قيل: لَمَّا كان عَذابُ الذُّرِّيَّاتِ يُحزِنُ آباءَهُم، جُعِلَت وِقايةُ الذُّرِّيَّاتِ منه بمَنزلةِ وِقايةِ آبائِهم فقالوا: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ إغراقًا في الشُّكرِ عنهم وعن ذُرِّيَّاتِهم، أي: فمَنَّ علينا جَميعًا ووَقانا جميعًا عَذابَ السَّموم[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَعليلٌ لِمنَّة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٧).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

اللهِ عليهم، وثَناءٌ على اللهِ بأنَّه استجابَ لهم، أي: كنَّا مِن قبْلِ اليومِ نَدْعوه، أي: في الدُّنيا[(١)].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿نَدْعُوهُ﴾ للتَّعميمِ، أي: كنَّا نَبتَهِلُ إليه في أُمورِنا -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وسَببُ العُمومِ داخِلٌ ابتداءً، وهو الدُّعاءُ لأنفُسِهم ولذُرِّيَّاتِهم بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، وبنَوالِ نَعيمِ الجنَّةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ قُرِئَ ﴿أَنَّهُ﴾ على تَقديرِ حرْفِ الجرِّ مَحذوفًا حذْفًا مُطَّرِدًا مع (أنَّ)، وهو هنا اللَّامُ تَعليلًا لـ﴿نَدْعُوهُ﴾، وقُرِئَ بكسْرِ همْزةِ (إنَّ)[(٣)]، ومَوقِعُ جُملتِها التَّعليلُ[(٤)].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُو) لإفادةِ الحَصْرِ، وهو لقصْرِ صِفتَيِ ﴿الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ على اللهِ تعالى، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[(٥)] للمُبالَغةِ؛ لعدَمِ الاعتدادِ ببُرورِ غيرِه ورَحمةِ غيرِه بالنِّسبةِ إلى بُرورِ اللهِ ورَحمتِه باعتبارِ القوَّةِ؛ فإنَّ غيرَ اللهِ لا يَبلُغُ بالمَبرَّةِ والرَّحمةِ مَبلَغَ ما للهِ، وباعتِبارِ عُمومِ المُتعلَّقِ، وباعتبارِ الدَّوامِ؛ لأنَّ اللهَ بَرٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ، وغيرَ اللهِ بَرٌّ في بَعضِ أوقاتِ الدُّنيا، ولا يَملِكُ في الآخرةِ شيئًا[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ قرأه المَدَنيَّانِ -نافعٌ وأبو جعفرٍ-، والكِسائيُّ بفتحِ الهَمزةِ، وقرأه الباقون بكَسرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

(٥) تقدَّم تعريفه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

الآيات (٢٩-٣٦)

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا
يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِكَاهِنٍ﴾: الكاهِنُ: هو الَّذي يُوهِمُ أنَّه يَعلَمُ الغيبَ مِن غيرِ وحيٍ، وقيل: هو مَن يدَّعي عِلمَ الغَيبِ في المستقبَلِ. وقيل: هو الَّذي يُخبِرُ بالأخبارِ الماضيةِ الخَفيَّةِ بضَربٍ مِنَ الظَّنِّ[١].

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾: أي: نَنتَظِرُ، وأصل (ربص): يدُلُّ على الانتِظارِ[٢].

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي: حوادِثَ الدَّهرِ وأوجاعَه ومصائِبَه؛ مِن قَولِهم: رابَه الأمرُ رَيبًا، أي: نابَه وأصابَه، والمَنُونُ: الدَّهرُ، وأصلُه مِنَ المَنِّ بمعنى القَطعِ؛ وذلك أنَّه يقطَعُ الأعمالَ والأجَلَ، والمَنُونُ كذلك: المَوتُ؛ لأنَّه يَقطَعُ الأجَلَ[٣].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٩١).

﴿أَحْلَٰمُهُم﴾: أي: عُقولُهم، والعَقلُ والحِلمُ مِن بابٍ واحِدٍ مِن حيثُ المعنى؛ لأنَّ العَقلَ يَضبطُ المرءَ فيَكونُ كالبَعيرِ المَعقولِ، والحِلمُ أيضًا سَبَبُ وَقارِ المَرءِ وثَباتِه، وقيل: الحِلْمُ: ضبْطُ النَّفْسِ والطَّبعِ عن هَيجانِ الغضبِ، ويُفَسَّرُ الحِلمُ بالعقلِ، لِكَونِه مِن مُسبَّباتِ العقلِ، وأصلُ (حلم) هنا: يدُلُّ على تَركِ العَجَلةِ[1].

﴿طَاغُونَ﴾: أي: مُجاوِزونَ الحَدَّ في العِنادِ والكفرِ، وأصلُ (طغى): مُجاوَزةُ الحدِّ[2].

﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: اختَلَقه وافتَعَله وافتَراه، والتَّقَوُّلُ أصلُه تَكَلُّفُ القولِ، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الكذِبِ في الغالِبِ، وأصلُ (قول): يدُلُّ على النُّطقِ[3].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلَمونَ عِلمًا مُتمَكِّنًا في نُفوسِهم لا يَدخُلُه شَكٌّ، وأصلُ اليَقينِ: يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى آمِرًا رَسولَه صلَّى اللَّهِ عليه وسلَّم بأنْ يُبَلِّغَ رِسالَتَه إلى عِبادِه: فذكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ؛ فلَسْتَ بإنعامِ الله عليك بكاهِنٍ تدَّعي عِلمَ الغَيبِ، ولستَ بمَجنونٍ كما يَزعُمونَ!

ثمَّ يُبيِّنُ جانبًا مِن أكاذيبِ المشركينَ، وادِّعاءاتِهم الباطِلةِ في حقِّه صلَّى الله

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١، ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦).

عليه وسلَّم، ويُلقِّنُه الرَّدَّ عليهم، فيقولُ: أم يَقولُ مُشرِكو قُرَيشٍ: مُحمَّدٌ شاعِرٌ نتَظِرُ به حوادِثَ الدَّهرِ ومَصائِبَه! قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: انتَظِروا ما يُصيبُني مِنَ الهَلاكِ؛ فإنِّي أيضًا مِنَ المُنتَظِرينَ ما يُصيبُكم مِن عذابِ اللهِ.

أم أمَرَتْهم عُقولُهم بهذا التَّكذيبِ والبُهتانِ؟! أمْ هم قَومٌ تجاوَزوا حُدودَ اللهِ؟!

أم يَقولُونَ: اختَلَق محمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ تعالى كَذِبًا؟! ليس الأمرُ كما يَقولُونَ، بل لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم مِنَ اللهِ تعالى!

ثمَّ يقولُ تعالى متحدِّيًا لهم: فلْيَأْتوا بمِثْلِ هذا القُرآنِ إن كانوا صادِقينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مستدِلًّا عليهم بأمرٍ لا يمكنُهم فيه إلَّا التَّسليمُ للحقِّ: أم خُلِق أولئك المُشرِكونَ مِن غَيرِ خالقٍ يَخلُقُهم؟! أم هم الخالِقونَ؟! أم خَلَقوا السَّمواتِ والأرضَ؟! بل لا يُوقِنونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق معَ تشويقِه إلى الجنَّةِ والأعمالِ المُوصِلةِ إليها وَعْظًا يُرَقِّقُ القُلوبَ، ويُجَلِّي الكُروبَ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: جَدِّدِ التَّذكيرَ بمِثلِ هذا لكُلِّ مَن يرجو خَيرَه، ودُمْ على ذلك[1].

وأيضًا لَمَّا تَقدَّمَ إقسامُ اللهِ تعالى على وُقوعِ العَذابِ، وذَكَر أشياءَ مِن أحوالِ المعَذَّبينَ والنَّاجِينَ؛ أمَرَه بالتَّذكيرِ إنذارًا للكافِرِ، وتبشيرًا للمؤمِنِ، ودعاءً إلى اللهِ تعالى بنَشرِ رِسالتِه، ثمَّ نفَى عنه ما كان الكُفَّارُ يَنسُبونَه إليه مِن الكِهانةِ والجُنونِ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١).

إذ كانا طريقَينِ إلى الإخبارِ ببَعضِ المُغَيَّباتِ، وكان للجِنِّ بهما مُلابَسةٌ للإنْسِ[١].

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: فذكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ؛ فلَسْتَ -بإنعامِ اللهِ عليك- بكاهِنٍ تدَّعي عِلمَ الغَيبِ، ولستَ بمَجنونٍ فاقدٍ للعَقلِ كما يَزعُمونَ، بلْ ما تَقولُه وَحْيٌ مِنَ اللهِ تعالى[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٠).

قال الشوكاني: (﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: اثبُتْ على ما أنت عليه من الوعظِ والتَّذكيرِ، والباءُ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو حالٌ، أي: ما أنت مُتلبِّسًا بنعمةِ ربِّك الَّتي أنعَمَ بها عليك مِن رَجاحةِ العقلِ والنُّبوَّةِ بكاهِنٍ ولا مجنونٍ. وقيل: بمحذوفٍ يدُلُّ عليه الكلامُ، أي: ما أنت في حالِ إذكارِك بنعمةِ ربِّك بكاهِنٍ ولا مجنونٍ. وقيل: الباءُ سببيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بمَضمونِ الجملةِ المنفيَّةِ، والمعنى: انتفى عنك الكِهانةُ والجنونُ بسببِ نعمةِ اللهِ عليك، كما تقولُ: ما أنا بمُعسِرٍ بحمدِ اللهِ. وقيل: الباءُ للقسَمِ، متوَسِّطةٌ بيْنَ اسم «ما» وخبَرِها، والتَّقديرُ: ما أنت ونعمةِ اللهِ بكاهِنٍ ولا مجنونٍ). ((تفسيرالشوكاني)) (٥/ ١١٩).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامِه عليك بالنُّبوَّةِ وما أنزَل عليك مِن الوحيِ: ابنُ الجوزيِ، والنسفي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ما أنت بحمدِ اللهِ وإنعامِه: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشريُّ، والبيضاوي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: برحمتِه وعِصمتِه: البغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: أم[1] يَقولُ مُشرِكو قُرَيشٍ: مُحمَّدٌ شاعِرٌ نَنتَظِرُ به حوادِثَ الدَّهرِ وقوارِعَه،

(١) ممَّن اختار أنَّ «أمْ» هنا للاستِفهامِ: الخليلُ -كما في ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩)- والسَّمعانيُّ، وابن جُزَي، والمعنى: أيَقولون شاعرٌ؟ يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٣).

قال ابن جُزَي: («أم» في هذا الموضِعِ وفيما بعدَه للاستِفهامِ بمعنى الإنكارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٣).

وممَّن اختار أنَّ «أمْ» هي المُنقَطِعةُ: الرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

وفي «أم» المُنقطِعةِ خِلافٌ: هل هي مُقَدَّرةٌ بـ(بَلْ) والهمزةِ، أو بـ(بَلْ) وحْدَها؟ ونصَّ الرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، وابنُ عثيمينَ على أنَّها بمعنى (بل) والهمزةِ، والمعنى: بل أيَقولون. ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

قال النسفي: (و«أم» في أوائلِ هذه الآيِ مُنقطِعةٌ بمعنى بلْ والهمزةِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٦)، وذكَر الرَّسْعَنيُّ أيضًا أنَّ هذا هو معنى «أم» في هذه الآيةِ والآياتِ التي تَليها. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥١).

ومذهَبُ البصريِّينَ أنَّ (أم) المنقَطِعةَ بمعنى (بل) والهمزةِ، وذهَب الكِسائيُّ وهشامٌ إلى أنَّها بمعنى (بلْ) فقط، واختار ابنُ مالكٍ أنَّ الأصلَ فيها الإضرابُ (معنى بل)، والأكثَرُ أنَّها تُفيدُ الاستِفهامَ مع الإضرابِ، واختار ابنُ هشامٍ أنَّها قد تأتي بمعنى (بلْ) وحْدَها، وقد تأتي بمعنى (بلْ) والهمزةِ. يُنظر: ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٣/ ٣٦٢)، ((شرح الكافية الشافية)) لابن مالك (٣/ ١٢١٩)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٢٠٥)، ((شرح شذور الذهب)) لابن هشام (ص: ٥٨٠)، ((المساعد على تسهيل الفوائد)) لابن عقيل (٢/ ٤٥٦).=

فَيموتُ ويَهلِكُ كما هَلَكَ مَن قَبْلَه مِنَ الشُّعراءِ، ونَستريحُ منه ومِن شَأنِه[١]؟!

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُشرِكينَ: انتَظِروا ما يُصيبُني مِنَ الهَلاكِ؛ فإنِّي أيضًا مِنَ المُنتَظِرينَ ما يُصيبُكم مِن عذابِ اللهِ، وسنَعلَمُ لِمَن تكونُ العاقِبةُ الحَسَنةُ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾.

= وقال ابن القيم في تفسيرِ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعة: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ، وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّة). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

وقال الشوكاني: (قال سيبوَيْه: خُوطِبَ العِبادُ بما جَرَى في كلامِهم. قال النَّحَّاسُ: يريدُ سيبويهِ أنَّ «أمْ» في كلامِ العربِ للخروجِ مِن حديثٍ إلى حديثٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

قال ابنُ عثيمين: (قيل: إنَّ المَنُونَ: هو الدَّهرُ. وقيل: إنَّ المَنُونَ هو الموتُ، وهما مُتلازِمانِ، والمرادُ بذلك حوادِثُ الدَّهرِ المُهلِكةُ المُبيدةُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

أي: هل أمَرَتْهم عُقولُهم بهذا التَّكذيبِ للرَّسولِ، ووَصْفِه بالباطِلِ(١)؟!

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أي: أمْ هم قَومٌ تجاوَزوا حُدودَ اللهِ، فحَمَلَهم طُغيانُهم هذا على تَكذيبِ الرَّسولِ، ورَمْيِه بالباطِلِ(٢)؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾.

أي: أم يَقولُونَ: اختَلَق محمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ تعالى كَذِبًا(٣)؟!

كما قال تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣].

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَقولُونَ، بل هم غَيرُ مُؤمِنينَ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم مِنَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

تعالى، ولو آمَنوا لَمَا قالوا ما قالوا[١].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ثمَّ ردَّ الله عليهم جميعَ ما زعَموا وتحدَّاهم في دحضِ ما قالوا، فقال[٢]:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: فلْيَأْتِ المُشرِكونَ بمِثْلِ هذا القُرآنِ إن كانوا صادِقينَ في دَعواهم أنَّ مُحمَّدًا افتَراه وتقَوَّلَه مِن عندِ نَفْسِه، فإنْ عَجَزوا عن ذلك فإنَّهم كاذِبونَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥-٦٧).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الحديثُ هنا قد أُطلِقَ على الكلامِ... أي: فلْيَأتوا بكلامٍ مِثلِه، أي: في غَرَضٍ مِن الأغراضِ الَّتي يَشتَمِلُ عليها القُرآنُ، لا خُصوصِ الأخبارِ. ويجوزُ أن يكونَ الحَديثُ هنا أُطلِقَ على الأخبارِ، أي: فلْيأتوا بأخبارٍ مِثلِ قَصَصِ القُرآنِ، فيَكونَ استنزالًا لهم؛ فإنَّ التَّكَلُّمَ بالأخبارِ أسهَلُ على المتكَلِّمِ مِن ابتكارِ الأغراضِ الَّتي يتكَلَّمُ فيها؛ فإنَّهم كانوا يقولونَ: إنَّ القُرآنَ «أساطيرُ الأوَّلينَ»، أي: أخبارٌ عن الأُمَمِ الماضينَ، فقيلَ لهم: فليأتوا بأخبارٍ مِثلِ أخبارِه؛ لأنَّ الإتيانَ بمِثلِ ما في القُرآنِ مِن المعارِفِ والشَّرائعِ والدَّلائلِ لا قِبَلَ لعُقولِهم به، وقُصاراهم أن يَفهَموا ذلك إذا سَمِعوه. ومعنى المِثْليَّةِ في قَولِه: ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾ المِثْليَّةُ في فَصاحتِه وبلاغتِه، وهي خُصوصيَّاتٌ يُدرِكونَها إذا سَمِعوها، ولا تحيطُ قرائِحُهم بإيداعِها في كلامِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٦).

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كَذَّبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونَسَبوه إلى الكِهانةِ والجُنونِ والشِّعرِ، وبَرَّأه اللهُ مِن ذلك؛ ذكَرَ الدَّليلَ على صِدقِه إبطالًا لتكذيبِهم، وبَدَأ بأنفُسِهم، كأنَّه يقولُ: كيف يُكَذِّبونَه وفي أنفُسِهم دَليلُ صِدقِه[1]؟!

ما ورد في هذه الآيةِ والآيتَينِ بعدَها:

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رضيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في المَغرِبِ بالطُّورِ، فلمَّا بَلَغ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ قال: كاد قَلبي أن يَطيرَ[2]!))[3].

وفي روايةٍ قال: (وذلك أوَّلَ ما وقَرَ[4] الإيمانُ في قلبي[5])[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٥).

(٢) قال الخَطَّابي: (إنَّما كان انزِعاجُه عندَ سَماعِ هذه الآيةِ لحُسنِ تَلَقِّيه معنى الآيةِ، ومَعرفتِه بما تضَمَّنَتْه مِن بليغِ الحُجَّةِ، فاستدرَكَها واستَشَفَّ مَعناها بذَكِيِّ فَهْمِه). ((أعلام الحديث)) (٣/ ١٩١٢).

وقال ابن عثيمين: («كاد قلبي يطيرُ»؛ لقُوَّةِ هذا الدَّليلِ المُفحِمِ المُقنِعِ حتَّى دخَل الإيمانُ في قَلبِه، ثمَّ اطمأنَّ الإيمانُ في قلبِه بعدَ ذلك؛ لأنَّ هذه الآيةَ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ الخَلْقَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ، وأنَّ الَّذي أحدَثَه هو الله). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٦٣) مختصرًا.

(٤) وقَر: أي: ثبَت. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٢١/ ٩٩).

(٥) قال ابنُ كثيرٍ: (وجُبَيْرُ بنُ مُطعِمٍ كان قد قَدِم على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ وَقْعة بَدْرٍ في فِداءِ الأُسارَى، وكان إذ ذاك مُشرِكًا، وكان سماعُه هذه الآيةَ مِن هذه السُّورةِ مِن جُملةِ ما حَمَله على الدُّخولِ في الإسلامِ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧).

وقال القَسْطَلَّاني: (وقد كان حِينَئذٍ كافِرًا، ولم يَنطِقْ بالإسلامِ والتزَمَ أحكامَه إلَّا عندَ فَتحِ مكَّةَ). ((إرشاد الساري)) (٦/ ٢٧٣).

(٦) أخرجها البخاري (٤٠٢٣).

﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ ﴾.

أي: أم خُلِق أولئك المُشرِكونَ مِن غَيرِ خالِقٍ يَخلُقُهم[1]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٣٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٤).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكور: السمرقنديُّ، واستظهره السمعانيُّ، وذهب إليه ابنُ تيميَّةَ ونَسَبه إلى الأكثَرينَ، واختاره ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٥).

وقيل: المعنى: أخُلِق المُشرِكونَ مِن غَيرِ آباءٍ ولا أمَّهاتٍ، فهم كالجَمادِ لا يَعقِلونَ؟! وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٣١).

وقيل: المعنى: أم خُلِقوا باطِلًا لِغَيرِ شَيءٍ، فهم لا يُؤمَرونَ ولا يُنهَونَ ولا يُحاسَبونَ؟! وممَّن اختار هذا المعنى: الواحديُّ، وأبو القاسم النَّيْسابوريُّ، وذكره الزَّجَّاجُ قَولًا في الآيةِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٦)، ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧٦٩).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ ﴾ أي: لم يُخلَقوا من غَيرِ شَيءٍ، خَلَقْناهم مِن نُطفةٍ، وأوَّلُ ذلك مِن تراب). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقيل: أم خُلِقوا مِن غيرِ مادَّةٍ؟ وهذا ضعيفٌ؛ لِقَولِه بعد ذلك: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، فدَلَّ ذلك على أنَّ التَّقسيمَ: أم خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ، أم هم الخالِقون؟ ولو كان المرادُ مِن غيرِ مادَّةٍ، لَقال: أم خُلِقوا مِن غيرِ شَيءٍ أم مِن ماءٍ مَهينٍ؟ فدَلَّ على أنَّ المرادَ: أنَا خالِقُهم لا مادَّتُهم، ولأنَّ كَونَهم خُلِقوا مِن غيرِ مادَّةٍ ليس فيه تعطيلُ وُجودِ الخالِقِ، فلو ظَنُّوا ذلك لم يَقدَحْ في إيمانِهم بالخالِقِ، بل دَلَّ على جَهْلِهم، ولأنَّهم لم يَظُنُّوا ذلك، ولا يُوسْوِسُ الشَّيطانُ لابنِ آدَمَ بذلك، بل كلُّهم يَعرِفونَ أنَّهم خُلِقوا مِن آبائِهم وأُمَّهاتِهم، ولأنَّ اعتِرافَهم بذلك لا يُوجِبُ إيمانَهم، ولا يَمنَعُ كُفرَهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٨/ ٢٣٦). =

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾.

أي: أم هم الخالِقونَ لأنفُسِهم أو لِغَيرِهم مِنَ المخلوقاتِ[1]؟!

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

= وقال الرازي: (ما المرادُ مِن قولِه تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾؟ نقولُ: فيه وُجوهٌ، المنقولُ منها أنَّهم خُلِقوا مِن غيرِ خالقٍ. وقيل: إنَّهم خُلِقوا لا لِشَيءٍ عبثًا. وقيل: إنَّهم خُلِقوا مِن غيرِ أبٍ وأمٍّ. ويحتمِلُ أن يُقالَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾، أي: ألم يُخلَقوا مِن ترابٍ أو من ماءٍ؟ ودليلُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. ويحتملُ أن يُقالَ: الاستِفهامُ الثَّاني ليس بمعنى النَّفي، بل هو بمعنى الإثباتِ؛ قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩] و﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] و﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] كلُّ ذلك في الأوَّلِ مَنفيٌّ، وفي الثَّاني مُثبَتٌ، كذلك هاهنا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: الصَّادقُ هو هذا الثَّاني حينَئذٍ، وهذا كما في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فإن قيل: كيف يكونُ ذلك الإثبات، والآدميُّ خُلِق مِن تُرابٍ؟ نقولُ: والتُّرابُ خُلِق مِن غيرِ شَيءٍ، فالإنسانُ إذا نظَرْتَ إلى خَلقِه وأسنَدْتَ النَّظَرَ إلى ابتِداءِ أمرِه وجَدْتَه خُلِق من غيرِ شَيءٍ. أوْ نقول: المرادُ: أمْ خُلِقوا مِن غيرِ شَيءٍ مَذكورٍ أو مُعتبَرٍ، وهو الماءُ المَهينُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٤).

قال القرطبي: (﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾، أي: أَيقولونَ إنَّهم خَلَقوا أنفُسَهم فهم لا يأتَمِرونَ لأمرِ الله، وهم لا يقولونَ ذلك، وإذا أقرُّوا أنَّ ثَمَّ خالقًا غيرَهم فما الذي يمنَعُهم مِنَ الإقرارِ له بالعبادةِ دونَ الأصنامِ، ومِنَ الإقرارِ بأنَّه قادرٌ على البَعثِ؟). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤).

أي: أمْ هم الَّذين خَلَقوا السَّمَواتِ والأرضَ[(١)]؟!

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

أي: لم يَخلُقِ المُشرِكونَ ذلك، ولكِنْ عَدَمُ يَقينِهم بالحَقِّ هو الَّذي حمَلَهم على تَرْكِه، والوُقوعِ في الباطِلِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ القَيِّم: (فإنْ قِيلَ: فما مَوقِعُ قَولِه: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من هذه الحُجَّة؟ قيل: أحسَنُ مَوقِعٍ؛ فإنَّه بَيَّن بالقِسمَينِ الأوَّلَينِ أنَّ لهم خالِقًا وفاطِرًا، وأنَّهم مخلوقونَ، وبَيَّن بالقِسمِ الثَّالِثِ أنَّهم بعدَ أنْ وُجِدوا وخُلِقوا فهم عاجِزونَ غيرُ خالِقينَ؛ فإنَّهم لم يَخلُقوا نُفوسَهم، ولم يخلُقوا السَّمَواتِ والأرضَ؛ وأنَّ الواحِدَ القَهَّارَ الَّذي لا إلهَ غَيرُه ولا رَبَّ سِواه هو الَّذي خلَقَهم وخَلَق السَّمَواتِ والأرضَ؛ فهو المتفرِّدُ بخَلقِ المَسكَنِ والسَّاكِنِ، بخَلقِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما فيه). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٤٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ لا يُعجِزُه إعادةُ الأجسادِ بعدَ الموتِ والفَناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦، ١٩٧).

قال ابن جرير: (لا يُوقِنونَ بوَعيدِ اللهِ وما أعَدَّ لأهلِ الكُفرِ به مِنَ العَذابِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧).

وقال الزمخشري: (إذا سُئِلوا مَن خَلَقَكم وخَلَق السَّمَواتِ والأرضَ؟ قالوا: اللهُ، وهم شاكُّونَ فيما يقولونَ، لا يُوقِنونَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤).

وقال السعدي: (لَكِنَّ المُكَذِّبينَ ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عِندَهم عِلمٌ تامٌّ، ويَقينٌ يُوجِبُ لهم الانتِفاعَ بالأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ والعَقليَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ تأمَّلْ هذا التَّرديدَ والحَصرَ المتضَمِّنَ لإقامةِ الحُجَّةِ بأقرَبِ طَريقٍ، وأفصَحِ عِبارةٍ؛ يقولُ تعالى: هؤلاء مخلوقونَ بعدَ أنْ لم يَكونوا، فهل خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ خَلَقَهم؟! فهذا مِنَ المُحالِ المُمتَنِعِ عندَ كُلِّ مَن له فَهمٌ وعَقلٌ؛ أن يكونَ مَصنوعٌ مِن غيرِ صانِعٍ، ومخلوقٌ مِن غيرِ خالقٍ. ولو مَرَّ رجُلٌ بأرضٍ قَفرٍ لا بناءَ فيها، ثمَّ مَرَّ بها فرأى فيها بُنيانًا وقُصورًا وعِماراتٍ مُحكَمةً؛ لم يتخالَجْه شَكٌّ ولا رَيبٌ أنَّ صانِعًا صنَعَها، وبانيًا بناها. ثمَّ قال: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، وهذا أيضًا مِن المُستَحيلِ؛ أن يكونَ العَبدُ مُوجِدًا خالِقًا لنَفْسِه؛ فإنَّ مَن لا يَقدِرُ أن يَزيدَ في حياتِه بعدَ وُجودِه وتَعاطِيه أسبابَ الحياةِ ساعةً واحِدةً، ولا إِصْبَعًا ولا ظُفُرًا ولا شَعرةً، كيف يكونُ خالِقًا لنَفْسِه في حالِ عَدَمِه؟!

وإذا بَطَل القِسمانِ تعَيَّنَ أنَّ لهم خالِقًا خلَقَهم، وفاطِرًا فطَرَهم؛ فهو الإلهُ الحَقُّ الَّذي يَستَحِقُّ عليهم العِبادةَ والشُّكرَ، فكيف يُشرِكونَ به إلهًا غَيرَه وهو وَحْدَه الخالِقُ لهم[(١)]؟!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ قد اكْتُفِيَ في إبطالِ كَونِه كاهنًا أو مَجنونًا بمُجرَّدِ النَّفيِ دونِ استِدلالٍ عليه؛ لأنَّ مُجرَّدَ التَّأمُّلِ في حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كافٍ في تَحقُّقِ انتفاءِ ذَينِك الوصْفَينِ عنه، فلا يُحتاجُ

= وقال ابنُ عثيمين: (ليس عندَهم إيقانٌ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ أنَّ الَّذي خلَقَهم هو اللهُ؛ لأنَّه لو كان عندَهم يَقينٌ لَحمَلَهم هذا اليَقينُ على تصديقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والإقرارِ برسالتِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦، ١٩٧).

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

في إبطالِ اتِّصافِه بهما إلى أكثَرَ مِن الإخبارِ بنَفْيِهما؛ لأنَّ دَليلَه المُشاهَدةُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] نَجِدُ آدابًا كثيرةً مِن المناظَرةِ؛ فقد تَدَرَّجَ اللهُ تعالى معهم في الحُجَجِ، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨]؛ إنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، فإنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾، فاللهُ سُبحانَه وتعالى في ختامِ المناظرةِ يَجعَلُ الخَصمَ مُفحَمًا بتحَدِّيه بما لا يَستطيعُ[٢].

٣- قال تعالَى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لَمَّا كان انتِفاءُ كَونِه شاعِرًا أمْرًا واضحًا يَكْفي فيه مُجرَّدُ التَّأمُّلِ، لم يَتَصدَّ القرآنُ للاستِدلالِ على إبطالِه، وإنَّما اشتَمَلَت مَقالتُهم على أنَّهم يَتربَّصون أنْ يحُلَّ به ما حَلَّ بالشُّعراءِ الَّذين هُمْ مِن جُملةِ النَّاسِ، فأمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُجيبَهم عن مَقالتِهم هذه بأنْ يقولَ: ﴿تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾، وهو جوابٌ مُنصِفٌ؛ لأنَّ تَربُّصَ حُلولِ حَوادثِ الدَّهْرِ بأحدِ الجانبينِ، أو حُلولِ المَنيَّةِ مُشترِكُ الإلزامِ، لا يَدْري أحدُنا ماذا يَحُلُّ بالآخَرِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ تعَلُّقِ قَولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ بقَولِهم: ﴿شَاعِرٌ﴾؟

الجوابُ فيه وَجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ العَرَبَ كانت تحترِزُ عن إيذاءِ الشُّعراءِ، وتتَّقي ألسِنَتَهم؛ فإنَّ الشِّعرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

كان عندَهم يُحفَظُ ويُدَوَّنُ، وقالوا: لا نُعارِضُه في الحالِ؛ مخافةَ أن يَغلِبَنا بقُوَّةِ شِعرِه، وإنَّما سَبيلُنا الصَّبرُ وتربُّصُ مَوتِه.

الثَّاني: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: إنَّ الحَقَّ دينُ اللهِ، وإنَّ الشَّرعَ الَّذي أتيتُ به يَبقَى أبَدَ الدَّهرِ، وكتابي يُتلَى إلى قيامِ السَّاعةِ، فقالوا: ليس كذلك، إنَّما هو شاعِرٌ، والَّذي يَذكُرُه في حَقِّ آلهتِنا شِعرٌ، ولا ناصِرَ له، وسيُصيبُه مِن بَعضِ آلهتِنا الهَلاكُ، فنتَرَبَّصُ به ذلك[١].

٥- كلُّ آيةٍ مِن القُرآنِ فإنَّها مُعجزةٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾. حديثٌ: آيةٌ، أو عَشْرُ آياتٍ، أو سورةٌ، أو عَشرُ سُوَرٍ، أو القُرآنُ كُلُّه[٢]؛ فتبَيَّنَ بُطلانُ قَولِهم: إنَّه تقَوَّلَه؛ لأنَّ اللهَ تعالى تحَدَّاهم أن يأتُوا بمِثْلِه، إنْ كانوا صادِقينَ في دَعواهم أنَّك تقوَّلْتَه فلْيَأتوا بحديثٍ مِثلِه، ولكِنَّهم عَجَزوا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ لم يُكَلِّفْهم نَفْسَ الإحداثِ، بل طالَبَهم بالإتيانِ بمِثلِه؛ إمَّا إحداثًا، وإمَّا تبليغًا عنِ اللهِ أو عن مَخلوقٍ؛ لِيُظهِرَ عَجزَهم عن جميعِ الجِهاتِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ الاستِدلالُ بدَليلِ «السَّبْرِ والتَّقسيمِ»[٥]، وهو مِن أُمَّهاتِ الجَدَلِ العِظامِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٤).

على خلافٍ في قَدْرِ المُعْجِزِ مِن القرآنِ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٧٢).

(٥) السَّبرُ والتَّقسيمُ: يُقصَدُ بالتَّقسيمِ عندَ الأصوليِّين: حصْرُ الأوصافِ الَّتي تَحتمِلُ أنْ يُعَلَّلَ بها حُكمُ الأصلِ في عدَدٍ مُعيَّنٍ، والسَّبرُ: هو الاختبارُ لكلِّ الأوصافِ الَّتي قدْ جُمِعَت، فيُستبْعَدُ =

شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ كأنَّه يقولُ: لا يخلو حالُهم مِن واحِدةٍ مِن ثَلاثِ حالاتٍ: إمَّا أن يكونوا خَلَقوا أنفُسَهم، أو خُلِقوا مِن غَيرِ خالِقٍ، أو خَلَقَهم خالِقٌ، فهذه ثلاثةُ أقسامٍ؛ اثنانِ منها باطِلانِ بلا نِزاعٍ -وهو كَونُهم خَلَقوا أنفُسَهم، أو خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ-، فتعَلَّب القِسمُ الثَّالِثُ: أنَّ لهم خالِقًا هو رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ، تجِبُ عليهم طاعتُه وعِبادتُه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أنَّ العِلمَ بأنَّ «المُحدَثَ لا بُدَّ له مِن مُحدِثٍ» عِلمٌ فطريٌّ ضروريٌّ[٢]، حتَّى للصِّبيانِ؛ فإنَّ الصَّبيَّ لو ضَرَبَه ضاربٌ، وهو غافلٌ لا يُبصِرُه؛ لَقال: مَن ضرَبَني؟ فلو قيلَ له: لم يَضْرِبْك أحَدٌ، لم يَقبَلْ عَقلُه أن تكونَ الضَّربةُ حدَثَت مِن غيرِ مُحدِثٍ، بل يَعلَمُ أنَّه لا بُدَّ للحادثِ مِن مُحدِثٍ، فإذا قيل: فُلانٌ ضَرَبَك، بكى حتَّى يَضرِبَ ضاربَه؛ فكان في فِطرتِه الإقرارُ بالصَّانعِ، وبالشَّرعِ الَّذي مَبناه على العَدلِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[٣].

٩- مِن اللَّطائِفِ: أنَّه أعادَ (أَمْ) في هذه السُّورةِ خمسَ عَشْرةَ مرَّةً، وكلُّها

= منها ما لا يَصلُحُ أنْ يكون عِلَّةً يُعلَّلُ بها الحُكمُ، ويُستبقَى ما يَصلُحُ أن يكونَ عِلَّةً، مثالُ ذلك أنْ يقولَ المجتهدُ: تَحريمُ الرِّبا في «البُرِّ» ثبَتَ لعِلَّةٍ، والعِلَّةُ هذه هي إمَّا لِكَونِه مَكيلًا، وإمَّا لكَونِه مَطْعومًا، وإمَّا لكونِه قوتًا مُدَّخرًا، وإمَّا لكونِه مَوْزونًا، وإمَّا لكونِه مالًا. فهذا يُسمَّى «التَّقسيم»، ثمَّ يَختبِرَ هذه العِلَلَ ويَختارَ ما يَراهُ صَحيحًا ويُهمِلَ ما عداهُ، والتَّقسيمُ مُقدَّمٌ على السَّبْرِ في التَّطبيقِ. يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٧)، ((الإحكام في أصول الأحكام)) للآمدي (٣/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((التعريفات الفقهية)) للبركتي (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٨).

إلزاماتٌ؛ ليس للمُخاطَبينَ بها عنها جوابٌ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾

- قولُه: ﴿فَذَكِّرْ ...﴾ تَفريعٌ على ما تَقدَّمَ كلِّه مِن قَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧]؛ لأنَّه تَضمَّنَ تَسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن تَكذيبِ المُكذِّبين والافتِراءِ عليه، وعُقِّبَ بهذا؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مُؤمنينَ به، مُتيَقِّنينَ أنَّ اللهَ أرْسَلَه مع ما أعدَّ لِكِلا الفريقَينِ، فكان ما تَضمَّنه ذلك يَقْتضي أنَّ في استِمرارِ التَّذكيرِ حِكمةً أرادَها اللهُ، وهي ارعِواءُ بَعضِ المُكذِّبينَ عن تَكذيبِهم، وازدِيادُ المُصدِّقينَ تَوغُّلًا في إيمانِهم، ففُرِّعَ على ذلك أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ[٢].

- وهذا الأمْرُ ﴿فَذَكِّرْ﴾ مُستعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ، والمعْنى: فاثبُتْ على ما أنتَ عليه مِن التَّذكيرِ بما أُنزِلَ إليك مِن الآياتِ والذِّكْرِ الحَكيمِ[٣].

- ولَمَّا كان أثَرُ التَّذكيرِ أهمَّ بالنِّسبةِ إلى فَريقِ المُكذِّبينَ لِيَهتدِيَ مَن شُرِحَ قلْبُه للإيمانِ، رُوعِيَ ما يَزيدُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَباتًا على التَّذكيرِ مِن تَبْرئتِه ممَّا يُواجِهونَه مِن قولِهم له: هو كاهِنٌ، أو هو مَجنونٌ، فربَطَ اللهُ جأْشَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأعْلَمَه بأنَّ بَراءتَه من ذلك نِعمةٌ أنعَمَ بها عليه ربُّه تعالى، ففُرِّعَ هذا الخبرُ على الأمْرِ بالتَّذكيرِ بقولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾. ونفْيُ هَذينِ الوَصْفينِ عنه -في خِطابِ أمثالِه ممَّن يَستحِقُّ الوصْفَ بصِفاتِ الكَمالِ- يدُلُّ على أنَّ المُرادَ مِن النَّفيِ غرَضٌ آخَرُ، وهو هنا إبطالُ نِسبةِ مَن نسَبَه إلى ذلك، ولذلك حسُنَ تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] مُصرَّحًا فيه ببَعضِ أقوالِهم، فعُلِمَ أنَّ المَنْفيَّ عنه فيما قبْلَه مَقالةٌ مِن مَقالِهم(١).

- وقد اشتَمَلَت هاتِه الكلمةُ الطَّيِّبةُ ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ على خَصائصَ تُناسِبُ تَعظيمَ مَن وُجِّهت إليه، وبيانُ ذلك: أنَّها صِيغَت في نَظْمِ الجُملةِ الاسميَّةِ، فقيلَ فيها: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ دونَ: (فلسْتَ بكاهنٍ)؛ لتَدُلَّ على ثَباتِ مَضمونِ هذا الخبَرِ. وقُدِّمَ فيها المُسنَدُ إليه، مع أنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقدَّمَ المُسنَدُ، وهو ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ لأنَّ المَقامَ يَقْتضي الاهتِمامَ بالمُسنَدِ، ولكنَّ الاهتِمامَ بالضَّميرِ المُسنَدِ إليه كان أرجَحَ هنا؛ لِما فيه مِن استِحضارِ مُعادِه المُشعِرِ بأنَّه شَيءٌ عَظيمٌ. وأفادَ مع ذلك أنَّ المَقصودَ أنَّه مُتَّصِفٌ بالخبَرِ، لا نفْسُ الإخبارِ عنه بالخبَرِ، كقَولِنا: الرَّسولُ يأكُلُ الطَّعامَ ويَتزوَّجُ النِّساءَ. وأفاد أيضًا قصْرًا إضافيًّا(٢) بقَرينةِ المَقامِ؛ لقَلْبِ ما يَقولونَه أو يَعتقِدونَه مِن قَولِهم: هو كاهنٌ أو مَجنونٌ. وقُرِنَ الخبَرُ المَنْفيُّ بالباءِ الزَّائدةِ؛ لتَحقيقِ النَّفيِ، فحصَلَ في الكلامِ تَقويتانِ. وجِيءَ بالحالِ قبْلَ الخبَرِ، أو بالجُملةِ المُعترِضةِ بيْنَ المُبتدأِ والخبَرِ؛ لتَعجيلِ المَسرَّةِ، وإظهارِ أنَّ اللهَ أنعَمَ عليه بالبَراءةِ مِن هذَينِ الوَصْفينِ. وعُدِلَ عن استِحضارِ الجَلالةِ بالاسمِ العَلَمِ إلى تَعريفِه بالإضافةِ وبوَصْفِه الرَّبِّ؛ لإفادةِ لُطْفِه تعالى برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه ربُّه، فهو يَرُبُّه ويُدبِّرُ نفْعَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨، ٥٩).
(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

ولتُفِيدَ الإضافةُ تَشريفَ المُضافِ إليه(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ...﴾ (أَمْ) مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ عن مَقالتِهم المرْدودةِ بقَولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]؛ للانتِقالِ إلى مَقالةٍ أُخرى، وهي قولُهم: (هو شاعرٌ نتربَّصُ به رَيبَ المَنونِ). وعُدِلَ عن الإتيانِ بحرْفِ (بل) مع أنَّه أشهَرُ في الإضرابِ الانتِقاليِّ؛ لقصْدِ تَضمُّنِ (أَمْ) للاستِفهامِ، والمعْنى: بلْ أيقولونَ: شاعرٌ... إلخ. والاستِفهامُ المُقدَّرُ إنكاريٌّ(٢).

- وإنْ كانتْ (أَمْ) مُجرَّدةً عن عمَلِ العطْفِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وإلَّا فهي عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾(٣) [الطور: ٢٩].

- ومُناسَبةُ هذا الانتقالِ أنَّ أمْرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ، يُشيرُ إلى مَقالاتِهم الَّتي يَرُدُّون بها دَعوتَه، فلمَّا أُشيرَ إلى بَعضِها بقولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، انتُقِلَ إلى إبطالِ صِفةٍ أُخرى يُثلِّثون بها الصِّفتينِ المذْكورتينِ قبْلَها، وهي صِفةُ شاعرٍ(٤).

- وجاء ﴿يَقُولُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك القولِ منهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٠، ٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦١).

- قولُه: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ التَّربُّصُ مُبالَغةٌ في الرَّبْصِ، وهو الانتظارُ[1].

والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ للسَّببِ، أي: بسَببِه، أي: نَتربَّصُ مِن أجْلِه؛ فتكونَ الباءُ مُتعلِّقةً بـ ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ للمُلابَسةِ، وتتعلَّقَ بـ ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ حالًا منه مُقدَّمةً على صاحبِها، أي: حُلولَ رَيبِ المَنونِ به[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾

- وَرَدتْ جُملةُ ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾ مَفصولةً بدُونِ عطْفٍ؛ لأنَّها وقَعتْ في مَقامِ المُحاوَرةِ؛ لسَبْقِها بجُملةِ ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ ...﴾ إلخ [الطور: ٣٠]، فإنَّ أمْرَ أحدٍ بأنْ يَقولَ بمَنزلةِ قَولِه، فأُمِرَ بقَولِه[3].

- والأمْرُ في ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ هو أمْرُ تَهديدٍ[4]. أو الأمْرُ مُستعمَلٌ في التَّسويةِ، أي: سَواءٌ عِندي تربُّصُكم بي وعَدَمُه[5].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ على الأمْرِ بالتَّربُّصِ، أي: فإنِّي مُتربِّصٌ بكمْ مِثلَ ما تَتربَّصون بي؛ إذْ لا نَدْري أيُّنا يُصيبُه رَيبُ المَنونِ قبْلُ[6].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ المَقصودِ به التَّهديدُ[7]، وفيه عِدَةٌ كريمةٌ بإهلاكِهم[8].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٧).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) في قوله: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لتنزيلِ المُخاطَبين مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّه يَتربَّصُ بهِمْ كما يَتربَّصون بهِ؛ لأنَّهم لغُرورِهم اقتَصَروا على أنَّهم يَتربَّصون به لِيَرَوا هَلاكَه، فهذا مِن تَنزيلِ غيرِ المُنكِرِ مَنزِلةَ المُنكِرِ[١].

- ولَمَّا كان قولُه: ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ مُقدَّرًا معه (بِكُمْ) -لِمُقابَلةِ قولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]- كان في الكَلامِ تَوجيهٌ بأنَّه يَبْقى معهم يَتربَّصُ هَلاكَهم حِين تَبْدو بَوادِرُه، إشارةً إلى وَقْعةِ بَدْرٍ؛ إذ أصابَهم مِن الحَدَثانِ القتْلُ والأسْرُ؛ فَتكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى صَريحِ قولِه تعالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[٢] [التوبة: ٥٢].

- وإنَّما قال هنا: ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ لِيُشيرَ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتربَّصُ بهِمْ رَيبَ المَنونِ في جُملةِ المُتربِّصينَ مِن المؤمنينَ[٣].

- وقد صِيغَ نظْمُ الكلامِ في هذه الآيةِ على ما يُناسِبُ الانتِقالَ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وذلك بما نُهِّيَ به مِن شِبْهِ التَّذييلِ بقولِه: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ إذ تمَّتْ به الفاصلةُ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ إضرابُ انتقالٍ دَعا إليه ما في الاستِفهامِ الإنكاريِّ المُقدَّرِ بعْدَ (أَمْ) مِن معْنى التَّعجيبِ مِن حالِهم؛ إذ كيف يَقولونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِثلَ ذلك القولِ السَّابِقِ ويَستقِرُّ ذلك في إدْراكِهم، وهمْ يَدَّعُون أنَّهم أهْلُ عُقولٍ، لا تَلتبِسُ عليهم أحوالُ النَّاسِ؟! فهمْ لا يَجهَلون أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بحالِ الكُهَّانِ، ولا المجانينِ، ولا الشُّعراءِ[١].

- ومعْنى إنكارِ أنْ تأمُرَهم أحلامُهم بهذا أنَّ الأحلامَ الرَّاجحةَ لا تأمُرُ بمِثله، وفيه تَعريضٌ بأنَّهم أضاعُوا أحلامَهم حِينَ قالُوا ذلك؛ لأنَّ الأحلامَ لا تأْمُرُ بمِثلِه، فهمْ كمَنْ لا أحلامَ لهم[٢].

- وقولُه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ أيضًا مُتَّصِلٌ بالَّذي قبْلَه، انتُقِلَ به إلى استِفهامٍ عن اتِّصافِهم بالطُّغيانِ[٣].

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ: إمَّا في التَّشكيكِ؛ لِيَكونَ التَّشكيكُ باعثًا على التَّأمُّلِ في حالِهم، فيُومِئَ بأنَّهم طاغُون. وإمَّا مُستعمَلٌ في التَّقريرِ لكلِّ سامعٍ؛ إذْ يَجِدُهم طاغِينَ[٤].

- وذِكرُ كَلِمةِ (قَومٍ) في قولِه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يُمهِّدُ لكَونِ الطُّغيانِ مِن مُقوِّماتِ حَقيقةِ القوميَّةِ فيهم، أي: تأصَّلَ فيهم الطُّغيانُ وخالَطَ نُفوسَهم، فدَفَعَهم إلى أمثالِ تلك الأقوالِ[٥].

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[٦]؛ فقد ذَكَرَ الأحلامَ أوَّلًا دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالة الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالة الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو =

والطُّغيانَ ثانيًا دليلًا على ضِدِّه -العَدلِ السَّواءِ- أوَّلًا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ انتِقالٌ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ...﴾ [الطور: ٣٠]. وهذا حِكايةٌ لإنكارِهم أنْ يكونَ القُرآنُ وَحْيًا مِن اللهِ، فزَعَموا أنَّه تَقوَّلَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على اللهِ، فالاستِفهامُ إنكارٌ لقَولِهم، وهمْ قد أكثَرُوا مِن الطَّعْنِ وتَمالَؤوا عليه؛ ولذلك جِيءَ في حِكايتِه عنْهم بصِيغةِ ﴿يَقُولُونَ﴾ المُفيدةِ للتَّجدُّدِ[٢].

- وابتُدِئَ الرَّدُّ عليهم بقَولِه: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لتَعجيلِ تَكذيبِهم قبْلَ الإدْلاءِ بالحُجَّةِ عليهم، وليَكونَ وُرودُ الاستِدلالِ مُفرَّعًا على قَولِه: ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بمَنزلةِ دَليلٍ ثانٍ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ لَمَّا كانتْ مَقالتُهم طَعْنًا في القُرآنِ، وهو المُعجزةُ القائمةُ على صِدْقِ رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكانتْ دَعْواهم أنَّه تقوَّلَ على اللهِ مِن تِلْقاءِ نفْسِه قد تَرُوجُ على الدَّهْماءِ؛ تَصدَّى القُرآنُ لبَيانِ إبطالِها بأنْ تَحدَّاهم بأنْ يأْتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾، أي: صادِقينَ في أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تقوَّلَه مِن تِلْقاءِ نفْسِه، أي: فعَجْزُهم عن أنْ يأْتُوا بمِثله دَليلٌ على أنَّهم كاذِبون. ووَجْهُ المُلازَمةِ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحدُ العرَبِ، وهو يَنطِقُ بلِسانِهم، فالمُساواةُ بيْنَه وبيْنَهم في المَقْدرةِ على نظْمِ الكَلامِ ثابتةٌ،

= من ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فلو كان القرآنُ قد قالَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكانَ بَعضُ خاصَّةِ العرَبِ البُلَغاءِ قادِرًا على تأْليفِ مِثلِه، فلمَّا تَحدَّاهم اللهُ بأنْ يأتوا بمِثلِ القرآنِ وفيهم بُلَغاؤُهم وشُعراؤُهم وكَلِمتُهم، وكلُّهم واحدٌ في الكفْرِ؛ كان عَجْزُهم عن الإتيانِ بمِثلِ القرآنِ دالًّا على عجْزِ البشَرِ عن الإتيانِ بالقرآنِ؛ ولذلك قال تعالَى في سُورةِ (هُودٍ): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[1] [هود: ١٣، ١٤].

- ولامُ الأمْرِ في ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ مُستعمَلةٌ في أمْرِ التَّعجيزِ[2]. والإتيانُ بالشَّيءِ: إحضارُه مِن مَكانٍ آخَرَ، واختيرَ هذا الفِعلُ دونَ نحْوِ: (فلْيَقولوا مِثلَه) ونحْوِه؛ لقصْدِ الإعذارِ لهم بأنْ يُقتنَعَ منهم بجَلْبِ كَلامٍ مِثلِه ولو مِن أحَدٍ غيرِهم[3].

- وقولُه: ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾، أي: في زَعْمِهم أنَّه تقوَّلَه، أي: فإنْ لم يأْتُوا بكَلامٍ مِثلِه فهمْ كاذِبون، وهذا إلهابٌ لعَزيمتِهم؛ ليأْتُوا بكَلامٍ مِثلِ القُرآنِ؛ لِيَكونَ عدَمُ إتيانِهم بمِثلِه حُجَّةً على كَذِبِهم[4].

- وقد أشعَرَ نَظْمُ الكلامِ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ الواقعِ مَوقِعًا شَبيهًا بالتَّذييلِ والمَختومِ بكَلِمةِ الفاصلةِ؛ أنَّه نِهايةُ غَرَضٍ، وأنَّ ما بعْدَه شُروعٌ في غرَضٍ آخَرَ[5].

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥، ٦٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إبطالِ ضَرْبٍ آخَرَ مِن شُبْهَتِهم في إنكارِهم البعثَ، ومِن أغراضِ هذه السُّورةِ إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، على أنَّ ما جاء بعْدَه مِن وصْفِ يومِ الجَزاءِ وحالِ أهْلِه قدِ اقتَضَتْه مُناسَباتٌ نَشَأتْ عنها تلك التَّفاصيلُ؛ فإذ وُفِّيَ حقُّ ما اقتَضَتْه تلك المُناسباتُ، ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ وإبطالِ شُبهتِهم الَّتي تعلَّلوا بها، مِن نحْوِ قَولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، فكان قولُه تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ ...﴾ الآياتِ أدلَّةً على أنَّ ما خلَقَه اللهُ مِن بَدْءِ الخلْقِ أعظَمُ مِن إعادةِ خلْقِ الإنسانِ. وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه آنفًا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ٧]؛ لأنَّ شُبْهتَهم المَقصودُ رَدُّها بقَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ هي قَولُهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾، ونحوُ ذلك[1].

- وحرْفُ (مِن) في قَولِه: ﴿مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ للابتِداءِ؛ فيكونَ معْنى الاستِفهامِ المُقدَّرِ بعْدَ (أمْ) تَقريريًّا، والمعْنى: أيُقِرُّون أنَّهم خُلِقوا بعْدَ أنْ كانوا عدَمًا، فكَما خُلِقوا مِن عدَمٍ في نَشأتِهم الأُولى، يُنْشَؤونَ مِن عدَمٍ في النَّشأةِ الآخرةِ، وذلك إثباتٌ لإمكانِ البَعثِ، ومعْنى (شَيءٍ) على هذا الوجْهِ: الموجودُ، فغَيرُ شَيءٍ: المَعدومُ، والمعْنى: أَخُلِقوا مِن عدَمٍ؟! وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للتَّعليلِ؛ فيكونَ الاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أمْ) إنكاريًّا، ويكونَ اسمُ (شَيءٍ) صادِقًا على ما يَصلُحُ لِمَعْنى التَّعليلِ المُستفادِ مِن حَرْفِ (مِن) التَّعليليَّةِ، والمعْنى: إنكارُ أنْ يكونَ خلْقُهم بغَيرِ حِكمةٍ، وهذا إثباتُ أنَّ البَعثَ واقعٌ مِن أجْلِ الجَزاءِ على الأعمالِ، بأنَّ الجَزاءَ مُقْتَضى الحِكمةِ الَّتي لا يَخْلو عنها فِعلُ أحكَمِ الحُكماءِ. ولِحَرْفِ (مِن) في هذا الكلامِ الوقْعُ البَديعُ؛ إذ كانت -على احتمالِ مَعنيَيْها- دَليلًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٧).

على إمكانِ البَعثِ، وعلى وُقوعِه، وعلى وُجوبِ وُقوعِه وُجوبًا تَقْتضيهِ الحِكمةُ الإلهيَّةُ العُلْيا[(١)].

- ولعلَّ العُدولَ عن صَوغِ الكلامِ بالصِّيغةِ الغالِبةِ في الاستِفهامِ التَّقريريِّ -وهي صيغةُ النَّفيِ- بأنْ يُقالَ: أَمَا خُلِقوا مِن غيرِ شَيءٍ، والعُدولَ عن تَعْيينِ ما أُضِيفَ إليه (غَير) إلى الإتيانِ بلَفظٍ مُبْهَمٍ، وهو لَفظُ (شَيء)؛ رُوعِيَ فيه الصَّلاحيةُ لاحتِمالِ المَعنيَينِ، وذلك مِن مُنتَهى البَلاغةِ[(٢)].

- وإذ كان فرْضُ أنَّهم خُلِقوا مِن غَيرِ شَيءٍ واضِحَ البُطلانِ، لم يُحتَجْ إلى استِدلالٍ على إبطالِه [إلَّا] بقولِه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ * أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، وهو إضرابُ انتقالٍ أيضًا، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ، أي: ما همُ الخالِقون، وإذ كانوا لمْ يَدَّعُوا ذلك، فالإنكارُ مُرتَّبٌ على تَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يَزعُمون أنَّهم خالِقون[(٣)].

- وصِيغَتِ الجُملةُ في صِيغةِ الحصْرِ الَّذي طَريقُه تَعريفُ الجُزْأينِ ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ قصْرًا إضافيًّا[(٤)]؛ للرَّدِّ عليهم بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يَزعُمُ أنَّهم الخالِقون لا اللهُ؛ لأنَّهم عَدُّوا مِن المُحالِ ما هو خارجٌ عن قُدْرتِهم، فجَعَلوه خارجًا عن قُدْرةِ اللهِ، فالتَّقديرُ: أمْ همُ الخالِقون لا نحنُ، والمعْنى: نحنُ الخالِقون لا همْ[(٥)].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ لقَصْدِ العُمومِ، أي: الخالِقون للمَخلوقاتِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧، ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٨).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٨، ٦٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٩).

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ إنْ كان مَفعولُ ﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ المَحذوفُ مُرادًا به العُمومُ، وكان المُرادُ بالسَّماءِ والأرضِ ذاتَيْهما مع مَن فِيهما، أو بدَلُ بَعضٍ مِن كلٍّ إنْ [كانَ] المُرادُ ذاتَي السَّمواتِ والأرضِ؛ فيَكونُ تَخصيصُ السَّمواتِ والأرضِ بالذِّكْرِ لعِظَمِ خلْقِهما. وإعادةُ حرْفِ (أمْ) للتَّأْكيدِ، كما يُعادُ عامِلُ المُبدَلِ منه في البَدَلِ، والمعْنى: أمْ همُ الخالِقون للسَّمواتِ والأرضِ[١].

- والاستِفهامُ ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إنكاريٌّ، والكَلامُ كِنايةٌ عن إثباتِ أنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، والمعْنى: أنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لا يُعجِزُه إعادةُ الأجسادِ بعْدَ المَوتِ والفَناءِ[٢].

- وقولُه: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ إضْرابُ إبطالٍ على مَضمونِ الجُملتَينِ اللَّتَينِ قبْلَه، أي: لمْ يُخلَقوا مِن غَيرِ شَيءٍ، ولا خَلَقوا السَّمواتِ والأرضَ؛ فإنَّ ذلك بيِّنٌ لهم، فما إنكارُهم البعثَ إلَّا ناشِئٌ عن عَدَمِ إيقانِهم في مَظانِّ الإيقانِ، وهي الدَّلائلُ الدَّالَّةُ على إمكانِ البَعثِ، وأنَّه ليس أغرَبَ مِن إيجادِ المَخلوقاتِ العَظيمةِ، فما كان إنكارُهم إيَّاهُ إلَّا عن مُكابَرةٍ وتَصميمٍ على الكفْرِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩، ٧٠).

الآيات (٣٧-٤٣)

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾: أي: المُسَلَّطونَ الجبَّارونَ الحَفَظةُ؛ مَأخوذٌ مِن تَسطيرِ الكِتابِ الَّذي يَحفَظُ ما كُتِبَ فيه(١).

﴿سُلَّمٌ﴾: أي: دَرَجٌ، والسُّلَّمُ: ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العاليةِ، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِل اسمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ رَفيعٍ كالسَّببِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ(٢).

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، وسُمِّيت الحُجَّةُ سُلطانًا؛ لِمَا يَلحَقُ مِن الهُجومِ على القُلوبِ، وأصلُ (سلط): يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ(٣).

﴿مَّغْرَمٍ﴾: أي: غُرمٍ، وهو: ما يَنوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَرَرٍ لغَيرِ جِنايةٍ منه أو خيانةٍ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، =

﴿كَيْدًا﴾: أي: مَكْرًا، والكَيْدُ ضَرْبٌ مِن الاحتيالِ، وقدْ يكونُ مَذمومًا ومَمدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذموم أكثَرَ، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالَجةٍ لشَيءٍ بشِدَّةٍ، وكلُّ شُيءٍ تُعالِجُه فأنتَ تَكيدُه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أمْ عندَ أولئك المُشرِكينَ مَفاتيحُ رَحمةِ ربِّك، يا محمَّدُ، أمْ هم المُتسَلِّطونَ بتدبيرِ الأُمورِ؟!

أمْ لهم سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ لِيَستَمِعوا فيه إلى الوَحيِ؟! فلْيَأْتِ مَنِ استَمَعَ منهم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ على زَعْمِهم.

أمْ للهِ -سُبحانَه- البَناتُ ولكم البَنونَ؟!

أمْ تَسألُهم -يا محمَّدُ- مالًا على دَعوتِك؛ فهم بسَبَبِ تَكليفِهم الأموالَ لا يَستَجيبونَ لك؟! أم عِندَهم عِلمُ الغَيبِ، فهم يَكتُبونَه؟!

أمْ يُريدُون كَيدًا يُبطِلونَ به الحَقَّ؟! فالَّذين كَفَروا هم الَّذين يُكادُ بهم في الحَقيقةِ.

أمْ لهم إلهٌ آخَرُ غَيرُ اللهِ يَستَحِقُّ العِبادةَ، فهم يَعبُدونَه؟! تنزَّه اللهُ عمَّا يُشرِكونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٥٠).

أي: أم عندَ أولئك المُشرِكينَ خزائنُ الله -يا محمَّدُ- مِن الرَّحمةِ والأرزاقِ وغيرِ ذلك[1]؟!

قال تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠، ٧١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: خَزائِنُ الأرزاقِ: الشوكانيُّ، والقاسمي، وابن عثيمين. وقال السمرقنديُّ (مفاتيح رزقِ ربِّك). يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: خزائنُ رحمتِه: العُلَيمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الخزائنُ مِن النُّبوَّةِ والرِّزقِ وغيرِهما: النَّسَفي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٩).

وقال الألوسي: (خزائنُ رِزقِه تعالى ورحمتِه حتَّى يَرزُقوا النُّبوَّةَ مَن شاؤوا، ويُمسِكوها عمَّن شاؤوا). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٨).

قال ابن عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ بمَنزِلةِ قولِه: أم عندَهم الاستِغناءُ عن الله في جميعِ الأمورِ؛ لأنَّ المالَ والصِّحَّةَ والقوَّةَ وغيرَ ذلك مِن الأشياءِ كلُّها مِن خَزائنِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢).

وقال ابن كثير: (أهم يَتصرَّفون في المُلكِ، وبيَدِهم مَفاتيحُ الخَزائنِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٥).

وقال الزَّجَّاج: (أي: عندَهم ما في خزائنِ ربِّك مِن العِلمِ؟). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠١).

وقال ابن جُزَي: (﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ المعنى: أعِندَهم خزائنُ الله بحيث يَستَغنون عن عبادتِه؟ وقيل: أعِندَهم خزائنُ الله بحيث يُعطُون مَن شاؤوا، ويَمنَعون مَن شاؤوا، ويَخُصُّون بالنُّبوَّةِ مَن شاؤوا؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤).

أي: أم هم المُتسَلِّطونَ في الدُّنيا بتدبيرِ الأُمورِ، وقَهرِ النَّاسِ، والتَّصَرُّفِ في إعطائِهم ومَنْعِهم[1]؟!

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى أن يكونَ لهم تصَرُّفٌ قَوِيٌّ أو ضعيفٌ في مواهِبِ اللهِ تعالى على عبادِه؛ أعقَبَه بنَفيِ أن يكونَ لهم اطِّلاعٌ على ما قَدَّره اللهُ لعِبادِه اطِّلاعًا يُخَوِّلُهم إنكارَ أن يُرسِلَ اللهُ بَشَرًا أو يُوحِيَ إليه؛ وذلك لإبطالِ قَولِهم: ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾[2] [الطور: ٣٣].

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾.

أي: أم لهم سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ لِيَستَمِعوا فيه إلى الوَحيِ أو الغَيبِ[3]؟!

﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾.

أي: فلْيَأْتِ مَن استَمَعَ منهم إذَنْ بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ تُبَيِّنُ أنَّهم على الحَقِّ فيما يَدَّعُونَ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٣).

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرَى نَفيُ أن تكونَ لهم مُطالَعةُ الغَيبِ مِن المَلإِ الأعلَى؛ إبطالًا لِمَقالاتِهم في شُؤونِ الرُّبوبيَّةِ- أعقَبَ ذلك بإبطالِ نِسبتِهم للهِ بناتٍ؛ استِقصاءً لإبطالِ أوهامِهم في المُغَيَّباتِ مِن العالَمِ العُلويِّ(١).

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ٣٩﴾.

أي: أمْ للهِ -سُبحانَه- البَناتُ، كما ادَّعيتُم وزَعمتُم أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ، ولكم البَنونَ الَّذين تُفَضِّلونَهم على البَناتِ، فنَسَبتُم إلى اللهِ تعالى الأنقَصَ لَدَيكم(٢)؟!

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٥].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أن أبطَلَ وَسائِلَ اكتِسابِ العِلمِ بما زَعَموه؛ عاد إلى إبطالِ الدَّواعي الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

تحمِلُهم على الإعراضِ عن دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾.

أي: أم تَسألُهم -يا محمَّدُ- مالًا مُقابِلَ دَعوتِك لهم إلى الحَقِّ، أو انقيادِهم إليه؛ فهم بسَبَبِ مَشقَّةِ ما كلَّفْتَهم مِن أموالٍ لا يَستَجيبونَ لك[٢]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ * إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ رَدَّ عليهم إنكارَهم الإسلامَ بأنَّهم كالَّذين سألَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أجرًا على تَبليغِها؛ أعقبَه برَدٍّ آخَرَ بأنَّهم كالَّذين اطَّلَعوا على أنَّ عندَ اللهِ ما يُخالِفُ ما ادَّعى الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إبلاغَه عن اللهِ، فهم يَكتُبونَ ما اطَّلَعوا عليه، فيَجِدونَه مُخالِفًا لِما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣]!

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ٤١﴾.

أي: أم عِندَ المُشرِكينَ عِلمُ ما غاب عنِ النَّاسِ، فهم يَكتُبونَه[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥، ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن نقْضِ أقوالِهم وإبطالِ مَزاعِمِهم إلى إبطالِ نيَّاتِهم وعَزائِمِهم مِن التَّبييتِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمُؤمنينَ، ولدَعوةِ الإسلامِ مِن الإضرارِ والإخفاقِ(١).

وأيضًا لَمَّا قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، قيل لهم: أتَعلَمونَ الغَيبَ، فتَعلَمونَ أنَّه يَموتُ قَبْلَكم، أم تُريدونَ كَيدًا ومِن ذلك أنَّكم تقولونَ: نَقتُلُه فيَموتُ قَبْلَنا؟ فإنْ كنتُم تَدَّعُونَ الغَيبَ فأنتم كاذِبونَ، وإنْ كنتُم تظُنُّونَ أنَّكم

= (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٦).

قال ابن عطية: (فهم يُبيِّنونَ ذلك للنَّاسِ سَنَنًا وشَرعًا يَكتُبونَه، وذلك عبادةُ الأوثانِ، وتَسييبُ السَّوائِبِ، وغَيرُ ذلك مِن سِيَرِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٣).

وقال القرطبي: (أي: يَكتُبونَ للنَّاسِ ما أرادوه مِن عِلمِ الغُيوبِ. وقيل: أي: أم عِندَهم عِلمُ ما غاب عن النَّاسِ حتَّى عَلِموا أنَّ ما أخبَرَهم به الرَّسولُ مِن أمرِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ والبَعثِ باطِلٌ. وقال قتادةُ: لَمَّا قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ حتَّى عَلِموا متى يموتُ محمَّدٌ، أو إلامَ يَؤولُ إليه أمرُه. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أم عِندَهم اللَّوحُ المحفوظُ، فهم يَكتُبونَ ما فيه، ويُخبِرونَ النَّاسَ بما فيه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أعِنْدَهم اللَّوحُ المحفوظُ: ابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: عِلمُ ما غاب عنهم: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠١).

وقال ابن أبي زَمَنين: (عِلْم غَيبِ الآخرةِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

تَقدِرونَ عليه فأنتم غالِطونَ؛ فإنَّ اللهَ يَصونُه عنكم، ويَنصُرُه عليكم[(١)].

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾.

أي: أم يُريدُ أولئك أن يَكيدوا كَيدًا يُبطِلونَ به الحَقَّ[(٢)]؟!

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾.

أي: فالَّذين كَفَروا هم الَّذين يُكادُ بهم في الحَقيقةِ، ووَبالُ كَيدِهم عائِدٌ على أنفُسِهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

قال السعدي: (قوله: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ ﴾ بقَدْحِهم فيك وفيما جِئتَهم به ﴿ كَيْدًا ﴾ يُبطِلون به دينَك، ويُفسِدون به أمْرَك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ إشارةٌ إلى كَيدِهم في دارِ النَّدوةِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، حيث تشاوَروا في قتلِه أو إخراجِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ يعني: أيُريدُ هؤلاء أن يَكيدوا لك يا محمَّدُ بإبطالِ دعوتِك، وإهلاكِك وإماتَتِك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

أي: أم لهم مَعبودٌ آخَرُ غَيرُ اللهِ يَستَحِقُّ العِبادةَ، فهم يَعبُدونَه(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له شَريكٌ في العِبادةِ؛ فهو الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا مِثْلَ له ولا نِدَّ(٢).

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ ضُرِبَ المَثَلُ بالخَزائِنِ؛ لأنَّ الخِزانةَ بَيتٌ يُهَيَّأُ لجَمعِ أنواعٍ مُختَلِفةٍ مِنَ الذَّخائِرِ، ومَقدوراتُ الرَّبِّ كالخزائِنِ الَّتي فيها مِن كُلِّ الأجناسِ، فلا نِهايةَ لها(٣)!

٢- ليس في الآيةِ الاستِدلالُ لهذا النَّفْيِ في قولِه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾؛ لأنَّ وُضوحَه كَنارٍ على عَلَمٍ(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ سؤالٌ: أنَّ المقصودَ نَفيُ الصُّعودِ، ولا يَلزَمُ مِن نَفيِ السُّلَّمِ لهم نفيُ الصُّعودِ، فما الجوابُ عنه؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤، ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧١، ٧٢).

الجوابُ: أنَّ النَّفيَ أبلَغُ مِن نَفيِ الصُّعودِ، وهو نَفيُ الاستِماعِ، وآخِرُ الآيةِ شامِلٌ للكُلِّ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ إشارةٌ إلى لَطيفةٍ: وهي أنَّه لو طُلِبَ منهم ما سَمِعوه، وقيلَ لهم: فلْيَأتِ مُستَمِعُهم بما سَمِعَ، لَكان لواحِدٍ أن يَقولَ: أنا سَمِعتُ كذا وكذا، فيَفتَري كَذِبًا، فقال: لا، بل الواجِبُ أن يأتيَ بدَليلٍ يدُلُّ عليه[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ إشارةٌ إلى نَفيِ الشِّركِ، وفَسادِ ما يقولونَ بطَريقٍ آخَرَ، وهو أنَّ المتصَرِّفَ إنَّما يَحتاجُ إلى الشَّريكِ لِعَجزِه، واللهُ قادِرٌ فلا شريكَ له؛ فإنَّهم قالوا: نحنُ لا نجعَلُ هذه الأصنامَ وغَيرَها شُرَكاءَ، وإنَّما نُعَظِّمُها لأنَّها بناتُ اللهِ! فقال تعالى: كيف تَجعَلونَ لله البَناتِ، وخَلقُ البناتِ والبَنينَ إنَّما كان لجَوازِ الفَناءِ على الشَّخصِ؟! ولهذا لا يكونُ في الجنَّةِ وِلادةٌ؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ البَقاءِ، لا مَوتَ فيها للآباءِ حتَّى تُقامَ العِمارةُ بحُدوثِ الأبناءِ، إذا ثَبَت هذا فالولَدُ إنَّما يكونُ في صورةِ إمكانِ فَناءِ الأَبِ؛ ولهذا قال تعالى في أوائِلِ سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] أي: حيٌّ لا يموتُ فيَحتاجَ إلى وَلَدٍ يَرِثُه! وهو قيُّومٌ لا يتغَيَّرُ ولا يَضعُفُ فيَفتَقِرَ إلى ولَدٍ لِيَقومَ مَقامَه[(٣)].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ هل في خُصوصِ قَولِه تعالى: ﴿أَجۡرٗا﴾ فائِدةٌ لا تُوجَدُ في غيرِه، كما لو قال: «أم تسألُهم شيئًا أو مالًا» أو غيرَ ذلك؟

الجوابُ: نعَمْ؛ فكُلُّ لفظٍ في القُرآنِ فيه فائِدةٌ وإنْ كُنَّا لا نَعلَمُها، والَّذي يَظهَرُ هاهنا أنَّ ذلك إشارةٌ إلى أنَّ ما يأتي به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه مَصلحتُهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وذلك لأنَّ الأجرَ لا يُطلَبُ إلَّا عندَ فِعلِ شَيءٍ يُفيدُ المطلوبَ منه الأجرُ، فقال: أنت أتَيْتَهم بما لو طلَبْتَ عليه أجرًا، وعَلِموا كمالَ ما في دعوتِك من المنفَعةِ لهم وبهم؛ لَأتَوك بجَميعِ أموالِهم، ولَفَدوك بأنفُسِهم، ومع هذا لا تَطلُبُ منهم أجرًا، ولو قال: «شيئًا أو مالًا» لَمَا حصَلَت هذه الفائِدةُ. واللهُ أعلَمُ(١).

٧- الرُّسُلُ عليهم الصَّلواتُ والسَّلامُ لا يأخُذونَ أجرًا على التَّبليغِ، وهناك آياتٌ دالَّةٌ على ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾، فما وجهُ الجَمعِ بيْنَ تلك الآياتِ وآيةِ سُورةِ (الشُّورى): ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: على القَولِ بأنَّ معنى الآيةِ: إلَّا أن تَوَدُّوني في قَرابتي الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوني مِن أذى النَّاسِ، كما تَمنَعونَ كُلَّ مَن بيْنَكم وبيْنَه مِثلُ قرابتي منكم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له في كُلِّ بَطنٍ مِن قُرَيشٍ رَحِمٌ؛ فهذا الَّذي سألهم ليس بأجرٍ على التَّبليغِ؛ لأنَّه مَبذولٌ لكُلِّ أحَدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَوَدُّه أهلُ قَرابتِه، وينتَصِرونَ له مِن أذى النَّاسِ، وقد فعَلَ له ذلك أبو طالبٍ، ولم يكُنْ يسألُ أجرًا على التَّبليغِ؛ لأنَّه لم يُؤمِنْ، وإذا كان لا يَسألُ أجرًا إلَّا هذا الَّذي ليس بأجرٍ؛ تحَقَّق أنَّه لا يَسألُ أجرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لا تُؤذُوا قرابتي وعِترْتي، واحفَظوني فيهم، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ المودَّةَ بين المُسلِمينَ واجِبةٌ فيما بيْنَهم، وأحرى قرابةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأحاديثُ في مِثلِ هذا كثيرةٌ جِدًّا، وإذا كان نفْسُ الدِّينِ يُوجِبُ هذا بيْنَ المسلِمينَ؛ تبيَّنَ أنَّه غيرُ عِوَضٍ عن التَّبليغِ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٠).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ على كِلا القَولَينِ، وعليه فلا إشكالَ، فمعناه على القَولِ الأوَّلِ: لا أسألُكم عليه أجرًا لكِنْ أُذَكِّرُكم قرابتي فيكم. وعلى الثَّاني: لكِنْ أُذَكِّرُكم اللهَ في قرابتي؛ فاحفَظوني فيهم.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تتودَّدوا إلى اللهِ، وتتقَرَّبوا إليه بالطَّاعةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ ليس أجرًا على التَّبليغِ.

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تتودَّدوا إلى قراباتِكم، وتَصِلوا أرحامَكم، وعليه أيضًا فلا إشكالَ؛ لأنَّ صِلةَ الإنسانِ رَحِمَه ليست أجرًا على التَّبليغِ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ كَشفٌ لسرائِرِ المُشرِكينَ، وتنبيهٌ للمُؤمِنينَ؛ للحَذَرِ مِن كَيدِهم[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ الجوابُ حَقيقةً: لا، وادِّعاءً: نعَمْ، لهم آلهةٌ غيرُ اللهِ يَعبُدونَها: اللَّاتُ، والعُزَّى، ومَناةُ، وهُبَلُ، وغَيرُها مِن الأصنامِ المعروفةِ عندَ العربِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فنَزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى نفْسَه عمَّا يُشرِكُ به هؤلاء؛ لِيُبيِّنَ أنَّ هذه الأصنامَ باطِلةٌ، وأنَّ اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ عن كلِّ شَريكٍ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ انتِقالٌ بالعَودِ إلى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩-٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٠).

رَدِّ جُحودِهم رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ولذلك غُيِّرَ أُسلوبُ الإخبارِ فيه إلى مُخاطَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمعْنى: إبطالُ أنْ يكونَ لهم تَصرُّفٌ في شُؤونِ الرُّبوبيَّةِ، فيَجعَلوا الأُمورَ على مَشيئتِهم كالمالِكِ في مُلْكِه، والمُدبِّرِ فيما وُكِّلَ عليه(١).

- والاستِفهامُ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ إنكاريٌّ، بتَنزيلِهم في إبطالِ النُّبوَّةِ عمَّن لا يَرْضَونه مَنزِلةَ مَن عِندَهم خزائنُ اللهِ؛ يَخلَعونَ الخُلَعَ منها على مَن يَشاؤُونَ، ويَمنَعونَ مَن يَشاؤُونَ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم تُذكَرِ الرَّحمةُ هنا؛ لأنَّه لَمَّا كان ذِكرُ الرَّحمةِ لا يَقتضيهِ مَقصودُ السُّورةِ -الَّذي هو العذابُ-؛ لم تُذكَرْ كما في سُورةِ (ص) في قولِه تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، وكذا في سُورةِ (الإسراءِ) في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]؛ فلذلك قِيل هنا: ﴿رَبِّكَ﴾(٣).

- وأيضًا قد سُلِكَ معهم هنا مَسلَكُ الإيجازِ في الاستِدلالِ بإحالَتِهم على مُجمَلٍ أجْمَله قولُه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ غَضبٍ عليهم؛ لجُرْأَتِهم على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في نفْيِ الرِّسالةِ عنه بوَقاحةٍ مِن قولِهم: كاهنٌ، ومَجنونٌ، وشاعرٌ، بخِلافِ آيةِ (الأنعامِ) في قولِه تعالَى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ فإنَّها ردَّتْ عليهم تَعريضَهم أنفُسَهم لنَوالِ الرِّسالةِ عن اللهِ؛ فقولُه تعالى هنا: ﴿أَمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨).

﴿عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ هو كَقولِه في سُورةِ (ص): ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۞ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ [ص: ٨، ٩]، وقولِه في سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾(١) [الزخرف: ٣٢].

- قولُه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ إنكارٌ لأنْ يكونَ لهم تَصرُّفٌ في عَطاءِ اللهِ تَعالى ولو دونَ تَصرُّفِ المالِكِ، مِثلُ تَصرُّفِ الوكيلِ والخازِنِ، وهو ما عُبِّرَ عنه بـ ﴿ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾

- حُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾؛ لِيَعُمَّ كَلامًا مِن شأْنِه أنْ يُسمَعَ مِن الأخبارِ المُغَيَّبةِ بالمُستقبَلِ وغيرِه، الواقِعِ وغيرِه(٣).

- وسُلِكَ في نفْيِ عِلْمِهم بالغَيبِ طَريقُ التَّهكُّمِ بهم بإنكارِ أنْ يكونَ لهم سُلَّمٌ يَرْتَقون به إلى السَّماءِ لِيَسْتمِعوا ما يَجْري في العالَمِ العُلويِّ مِن أمْرٍ تَتلقَّاهُ الملائكةُ، أو أهلُ المَلأِ الأعْلى بعضُهم مع بعضٍ، فيَسْترِقُوا بعضَ العِلمِ ممَّا هو مَحجوبٌ عن النَّاسِ؛ إذ مِن المَعلومِ أنَّه لا سُلَّمَ يصِلُ أهلَ الأرضِ بالسَّماءِ، وهم يَعلَمون ذلك، ويَعلَمُه كلُّ أحدٍ(٤).

- وعُلِمَ مِن اسمِ السُّلَّمِ أنَّه آلةُ الصُّعودِ، وعُلِمَ مِن ذِكْرِ السَّمواتِ في الآيةِ قبْلَها أنَّ المُرادَ سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ فلذلك وُصِفَ بـ ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: يَرْتَقون به إلى السَّماءِ فيَستمِعون وهمْ فيه -أي: في دَرَجاتِه- الكلامَ الَّذي يَجْري في السَّماءِ[(١)].

- وإسنادُ الاستِماعِ إلى ضَميرِ جَماعَتِهم على اعتبارِ أنَّ المُستمِعَ سَفيرٌ عنهم، على عادةِ استعمالِ الكلامِ العرَبيِّ مِن إسنادِ فِعلِ بَعضِ القَبيلةِ إلى جَميعِها إذا لم تَصُدَّه عن عمَلِه؛ ألَا تَرى أنَّه قال بعْدَ هذا: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾، أي: مَن استمَعَ منهم لأجْلِهم، أي: أرْسَلوه للسَّمْعِ[(٢)].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ لتَفريعِ هذا الأمْرِ التَّعجيزيِّ على النَّفيِ المُستفادِ مِن استِفهامِ الإنكارِ، فالمَعْنى: فما يأْتي مُستمِعٌ منهم بحُجَّةٍ تدُلُّ على صِدْقِ دَعواهم، فلامُ الأمْرِ مُستعمَلٌ في إرادةِ التَّعجيزِ؛ بقَرينةِ انتفاءِ أصْلِ الاستِماعِ بطَريقِ استِفهامِ الإنكارِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هذا تَحدٍّ لهم بكَذِبِهم؛ فلذلك اكْتُفيَ بأنْ يأتِيَ بعضُهم بحُجَّةٍ دونَ تَكليفِ جَميعِهم بذلك، أي: فلْيأتِ مَن يَتعهَّدُ منهم بالاستِماعِ بحُجَّةٍ، وهذا بمَنزِلةِ التَّذييلِ للكلامِ[(٤)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾

- الاستِفهامُ إنكارٌ لأنْ يَكونَ للهِ البناتُ، ودليلُ الإنكارِ في نفْسِ الأمْرِ استحالةُ الولَدِ على اللهِ تعالى، ولكنْ لَمَّا كانت عُقولُ أكثَرِ المُخاطَبينَ بهذا الرَّدِّ غيرَ مُستعِدَّةٍ لإدراكِ دَليلِ الاستِحالةِ، وكان اعتقادُهم البناتِ للهِ مُنكَرًا؛ تُصُدِّيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لدَليلِ الإبطالِ، وسُلِكَ في إبطالِه دَليلٌ إقناعيٌّ يَتفطَّنون به إلى خَطَلِ رأْيِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؛ فجُملةُ ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغائبِ، أي: كيف يكونُ للهِ البناتُ في حالِ أنَّ لكم بَنينَ؟! وهم يَعلَمونَ أنَّ صِنفَ الذُّكورِ أشرَفُ مِن صِنفِ الإناثِ على الجُملةِ، كما أشارَ إليه قولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]؛ فهذا مُبالَغةٌ في تَشنيعِ قولِهم، وتَسفيهٌ لهم ولعُقولِهم، فليس المُرادُ أنَّهم لو نَسَبوا للهِ البنينَ لَكان قَولُهم مَقبولًا؛ لأنَّهم لم يَقولوا ذلك، فلا طائلَ تحتَ إبطالِه[(١)]. وفيه إشعارٌ بأنَّ مَن هذا رأيُه لا يُعَدُّ مِن العُقلاءِ، فضلًا أنْ يترقَّى برُوحِه إلى عالَمِ الملَكوتِ فيَتطلَّعَ على الغُيوبِ[(٢)].

- وتَغييرُ أُسلوبِ الغَيبةِ المُتَّبَعِ مِن قولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] إلى أُسلوبِ الخِطابِ الْتِفاتٌ؛ مُكافَحةً لهم بالرَّدِّ بجُملةِ الحالِ، ولتَشْديدِ ما في (أَم) المُنقطِعةِ مِن الإنكارِ والتَّوبيخِ[(٣)].

- وتَقديمُ (لَكُمْ) على ﴿ٱلْبَنُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لكمُ البَنونَ دونَه، فهمْ لهم بَنونَ وبناتٌ، وزَعَموا أنَّ اللهَ ليس له إلَّا البناتُ! وأمَّا تَقديمُ المَجرورِ على المُبتدَأِ في قَولِه: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾؛ فللاهتِمامِ باسمِ الجَلالةِ. وقد أُنْهِيَ الكلامُ بالفاصِلةِ؛ لأنَّه غرَضٌ مُستقِلٌّ[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ مُرتبِطٌ بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور: ٣٣]، وقولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧]؛ إذ كلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

ذلك إبطالٌ للأسبابِ الَّتي تَحمِلُهم على زعْمِ انتفاءِ النُّبوَّةِ عن محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإعراضِ عن دَعوتِه، ومِن أجْلِ ذلك جاء هذا الكلامُ على أُسلوبِ الكلامِ الَّذي اتَّصَلَ هو به، وهو أُسلوبُ خِطابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال هنا: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾، وقال هنالكَ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾[1] [الطور: ٣٧].

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بهم بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يَتوجَّسُ خِيفةً مِن أنْ يَسألَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجْرًا على إرشادِهم، والمَقصودُ: ما في التَّهكُّمِ مِن مَعنى أنَّ ما نشَأَ عنه التَّهكُّمُ أمْرٌ لا يَنْبغي أنْ يَخطُرَ بالبالِ[2].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، أي: تَسألُهم سُؤالًا مُتكرِّرًا؛ لأنَّ الدَّعوةَ مُتكرِّرةٌ، وقدْ شُبِّهَت بسُؤالِ سائلٍ[3].

- وتَفريعُ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾؛ لِما فيه مِن بَيانِ المُلازَمةِ بيْنَ سُؤالِ الأجْرِ وبيْنَ تَجهُّمِ مَن يَسأَلُ والتَّحرُّجِ منه، وقد فُرِّعَ قولُه: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ على الفِعلِ المُستفهَمِ عنه لا على الاستِفهامِ، أي: ما سألْتَهم أجْرًا فيَثْقُلَ غُرْمُه عليهم؛ لأنَّ الاستِفهامَ في مَعنى النَّفْيِ، والإثقالُ يَتفرَّعُ على سُؤالِ الأجْرِ المفروضِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ السُّؤالِ مُحرِجٌ للمَسؤولِ؛ لأنَّه بيْنَ الإعطاءِ وهو ثَقيلٌ، وبيَّنَ الرَّدِّ وهو صعْبٌ[4].

- والمُثقَلُ: أصْلُه المُحمَّلُ بِشَيءٍ ثَقيلٍ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عمَّن يُطالَبُ بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَعسُرُ عليه أداؤُه، شُبِّهَ طَلَبُه أداءَ ما يَعسُرُ عليه بحَمْلِ الشَّيءِ الثَّقيلِ على مَن لا يَسهُلُ عليه حَمْلُه[١].

- و(مِنْ) للتَّعليلِ، أي: مُثقَلونَ مِن أجْلِ مَغْرَمٍ حُمِّلَ عليهم[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا نَظيرُ الإضرابِ والاستِفهامِ في قولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧]، أي: بلْ أعِندَهم الغَيبُ فهمْ يَكتُبون ما يَجِدونه فيه ويَرْوُونه للنَّاسِ؟! أي: ما عِندَهم الغَيبُ حتَّى يَكتُبوه[٣].

- وكَلمةُ (عِند) تُؤذِنُ بمَعنى الاختِصاصِ والاستئثارِ، أي: اسْتأْثَروا بمَعرفةِ الغَيبِ، فعَلِموا ما لم يَعلَمْه غيرُهم[٤].

- والتَّعريفُ في (الغيب) تَعريفُ الجِنسِ[٥].

- والكِتابةُ في قولِه: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ يَجوزُ أنَّها مُعبَّرٌ بها عن الجزْمِ الَّذي لا يَقبَلُ التَّخلُّفَ؛ لأنَّ شأْنَ الشَّيءِ الَّذي يُرادُ تَحقيقُه والدَّوامُ عليه أنْ يُكتَبَ ويُسجَّلَ؛ فيَكونُ الخبَرُ في قولِه: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُستعمَلًا في مَعناهُ من إفادةِ النِّسبةِ الخبَريَّةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الكتابةُ على حَقيقتِها، أي: فهمْ يُسجِّلونَ ما اطَّلَعوا عليه مِن الغَيبِ؛ ليَبْقَى مَعلومًا لِمَن يطَّلِعُ عليه، ويكونَ الخبَرُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُستعمَلًا في مَعنى الفرْضِ والتَّقديرِ، تَبَعًا لفرْضِ قولِه: ﴿عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، وحاصِلُ المَعنى: أنَّهم لا قِبَلَ لهم بإنكارِ ما جَحَدوه، ولا بإثباتِ ما أثْبَتوه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٦، ٧٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾

- حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿كَيْدًا﴾؛ لِيَعُمَّ كلَّ ما يَسْتطيعونَ أنْ يَكِيدوهُ؛ فكانتْ هذه الجُملةُ بمَنزلةِ التَّتميمِ لنقْضِ غَزْلِهم، والتَّذييلِ بما يَعُمُّ كلَّ عَزْمٍ يَجْري في الأغراضِ الَّتي جَرَت فيها مَقالاتُهم[١].

- وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾، وكان مُقْتضى الظاهِرِ أنْ يُقالَ: (فهُمُ المَكيدون)؛ للتَّسجيلِ على كُفْرِهم؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن وَجْهِ حُلولِ الكَيدِ بهم؛ لأنَّهم كَفَروا باللهِ، فاللهُ يُدافِعُ عن رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعن المؤمنينَ، وعن دِينِه كَيْدَهم، ويُوقِعُهم فيما نَوَوا إيقاعَهم فيه، فالتَّعريفُ في ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للعهدِ. أو التَّعريفُ للجنسِ، والمرادُ جميعُ الكفرةِ، وكفَّارُ قريشٍ داخِلونَ فيهم دُخولًا أوَّليًّا[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُم) أفادَ القَصْرَ، أي: الَّذين كَفَروا المَكيدونَ دونَ مَن أرادوا الكَيدَ به[٣].

- وتَفريعُ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾؛ لِما فيه مِن بَيانِ المُلازَمةِ بيْنَ كَيدِهم للنَّبيِّ والمؤمنينَ، وبيْنَ كَيدِ اللهِ لهُم[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لَمَّا كان ما نُعِيَ عليهم مِن أوَّلِ السُّورةِ ناقضًا لأقوالِهم ونيَّاتِهم، وكان ما همْ فيه مِن الشِّركِ أعظَمَ؛ لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٥، ٧٨).

يُتْرَكْ عَدُّ ذلك عليهمْ مع اشتِهارِه، بعْدَ استيفاءِ الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ بهذه المُناسَبةِ؛ ولذلك كان هذا المُنتقَلُ إليه بمَنزِلةِ التَّذييلِ لِما قبْلَه؛ لأنَّه ارْتِقاءٌ إلى الأهمِّ في نَوعِه، والأهمُّ يُشبِهُ الأعمَّ؛ فكان كالتَّذييلِ(١).

- وقدْ وقَعَ قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إتمامًا للتَّذييلِ، وتَنهيةً للمَقصودِ مِن فضْحِ حالِهم(٢).

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَم) استِفهامٌ إنكاريٌّ(٣).

- ومِن قولِه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] إلى قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [الطور: ٤٣]، تَدرُّجٌ منه سُبحانه في حِكايةِ ما قالُوه مِن المنكَرِ إلى ما هو أدخَلُ فيه، والكلامُ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّه لا مَحالةَ يَنتقِمُ له منْهم، وأنَّ العذابَ المكذَّبَ به واقِعٌ بهم جَزاءً لتَكذيبِهم بالمُنبِئِ والنَّبأِ والمُنبَّأِ به.

ومِن قولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ [الطور: ٢٩] إلى قولِه سُبحانَه: ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، تَفصيلٌ لما أُجْمِل معَ التَّعريضِ بفَسادِ مَقالاتِهم الحَمقاءِ، وأنَّهم بمَرأًى مِن اللهِ تعالَى ومَسمَعٍ؛ فلا مَحالةَ يَنتقِمُ لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ منهم، وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن اللهِ تَعالى بمَكانٍ لا يُقادَرُ قدْرُه.

وقولُه سُبحانَه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ...﴾ [الطور: ٢٩] إلخ، فيه أنَّ مَن أُنعِمَ عليه بالنُّبوَّةِ يَستحيلُ أنْ يكونَ أحَدَ هذَينِ، وبدَأَ بقَولِهم المتناقِضِ؛ ليُنبِّهَ أوَّلًا على فَسادِ آرائِهم، ويَجعَلَه دُستورًا في إعراضِهم عن الحقِّ، وإيثارِ اتِّباعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أهْوائِهم، والمعنى: فما أبعَدَ حالَ مَن كان أتقَنَهم رأْيًا، وأرجَحَهم عقْلًا، وأبْيَنَهم آيًا، منذُ تَرَعرَعَ إلى أنْ بلَغَ الأَشُدَّ عن الجُنونِ والكِهانةِ! على أنَّهما مُتناقِضانِ؛ لأنَّ الكُهَّانَ كانوا عِندَهم مِن كامِليهم، وكان قولُهم إمامًا مُتَّبَعًا عِندَهم، فأينَ الكِهانةُ مِن الجُنونِ؟!

ثمَّ تَرقَّى مُضرِبًا إلى قَولِهم فيه -وحاشاهُ صلَّى اللهُ تعالى عليه وسلَّمَ-: إنَّه شاعِرٌ؛ لأنَّه أدْخَلُ في الكذِبِ مِن الكاهِنِ والمجنونِ، وقديمًا قِيل: أحسَنُ الشِّعرِ أكذَبُه؛ ليُبيِّنَ حالَ تَلَجْلُجِهم واضْطِرابِهم.

وقولُه تعالَى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾ [الطور: ٣١] مِن بابِ المُجازاةِ بمِثلِ صَنيعِهم، وفيه تتْميمٌ للوعيدِ؛ فهذا بابٌ مِن إنْكارِهم، هَدَمَه سُبحانه أوَّلًا تَلويحًا بقولِه تعالَى: ﴿بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾، وثانيًا تَصريحًا بقَولِه جلَّ وعَلا: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ [الطور: ٣٢]، كأنَّه قِيل: دَعْهم وتِلكَ المقالةَ وما فيها مِن الاضطرابِ؛ ففيها عِبرةٌ، ثمَّ قِيل: لا، بلْ ذلك مِن طُغيانِهم؛ لأنَّه أدخَلُ في الذَّمِّ مِن نُقْصانِ العَقْلِ، وأبلَغُ في التَّسليةِ؛ لأنَّ مَن طَغَى على اللهِ عزَّ وجلَّ، فقدْ باءَ بِغَضَبِه.

ثمَّ أخَذَ في بابٍ أدْخَلَ في الإنكارِ، وهو نِسبةُ الافتراءِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وذلك لأنَّ الافتراءَ أبعَدُ شَيءٍ مِن حالِه؛ لاشتِهارِه بالصِّدقِ، على أنَّ كَونَه افتِراءً وعجْزَهم عن الإتيانِ بأقصَرِ سُورةٍ مِن هذا المُفترَى؛ مُتنافيانِ؛ لدَلالتِه على الصِّدقِ، ولأنَّ الشَّاعِرَ لا يَتعمَّدُ الكذِبَ لِذَاتِه، ثمَّ قدْ يكونُ شِعْرُه حِكَمًا ومَواعِظَ.

والتَّدرُّجُ عن الشِّعرِ هاهنا عكْسُ التَّدرُّجِ إليه في (الأنبياءِ) في قولِه سبحانه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ لأنَّ بِناءَ الكلامِ هاهنا على التَّدرُّجِ في المناقَضةِ والتَّوغُّلِ في القدْحِ فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

ونفْيِ رِسالتِه، وهنالك عن القدْحِ في بَعضٍ مِن الذِّكْرِ مُتجدِّدِ النُّزولِ، فقِيل: إنَّ افتراءَه لا يَبعُدُ ممَّن هو شاعرٌ ذو افتراءاتٍ كثيرةٍ، وأيْن هذا مِن ذاك؟! وللتَّنبيهِ على التَّوغُّلِ جِيءَ بصَريحِ حرْفِ الإضرابِ في الرَّدِّ، فقيل: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، وعُقِّبَ بقولِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ [الطور: ٣٤]، ثمَّ مَن لا يُؤمِنُ أشدُّ إنكارًا له مِن الطَّاغي، كما أنَّ المفتريَ أدخَلُ في الكذبِ مِن الشَّاعِرِ.

ثمَّ أخَذَ في أُسلوبٍ أبلَغَ في الرَّدِّ على مَقالاتِهم -الجُنونِ والكِهانةِ-؛ لتَقارُبِهما، ثمَّ الشِّعرِ، ثمَّ الافتراءِ، حيث نزَّل القائلينَ مَنزِلةَ مَن يدَّعي أنَّه خُلِقَ مِن غيرِ شَيءٍ، أي: مُقدِّرٍ وخالِقٍ، وإلَّا لَأهَمَّهم البحثُ عن صِفاتِه وأفعالِه فلَمْ يُنكِروا منك ما أنْكَروا، ومَن حسِبَ أنَّه مُستغنٍ عن الخالقِ نَسَب رَسولَه إلى الجُنونِ والكِهانةِ، لا، بلْ كمَن يدَّعي أنَّه خالِقُ نفْسِه، فلا خالِقَ له ليَبحَثَ عن صِفاتِه، فهو يَنسُبُه إلى الشِّعرِ؛ إذ لا يُرسَلُ إليه البتَّةَ، والشِّعرُ أدخَلُ في الكذِبِ، لا، بلْ كمَن يدَّعي أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما، فهو يَنسُبُه إلى الافتِراءِ حيثُ لم يُرسِلْه!

ثمَّ أضرَبَ عنه صَريحًا بقولِه تعالَى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦]، ومَن لا إيقانَ له بمِثلِ هذا البَديهيِّ لا يَبعُدُ أنْ يَزُنَّك بما زَنَّ[١]، فكأنَّه قِيل: مَقالَتُهم تلك تُؤدِّي إلى هذه، لا أنَّهم كانوا قائلينَ بها؛ إظهارًا لتَمادِيهم في العِنادِ.

ثمَّ بُولِغَ فيه فجِيءَ في قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧] بما يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ لا بُدَّ أنْ يكونَ مُفتريًا، غيرَ صالحٍ للنُّبوَّةِ في زعْمِهم؛ لأنَّه إذا كان عِندَهم جَميعُ خَزائنِ ربِّه وهمْ ما أرسَلُوه، لَزِمَ أنْ يكونَ مُفتريًا البتَّةَ، وأُدمِجَ فيه إنكارُهم للمَعادِ، ونِسبتُهم إيَّاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ذلك أيضًا خاصَّةً إلى

(١) يَزُنَّك: أي: يتَّهِمَك. مِن قولهم: زَنَنْتُه زَنًّا: إذا ظننتَ به واتَّهَمْتَه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٥٧).

الافتراءِ. ولا يَخْفى ما في قولِه تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] مِن التَّرقِّي.

ثمَّ لَمَّا فرَغَ مِن ذلك، وبيَّنَ فسادَ ما بَنَوا عليه أمْرَ الإنكارِ بدَليلِ العقْلِ؛ قِيل: لم يَبْقَ إلَّا المُشاهَدةُ والسَّماعُ منه تعالَى، وهو أظهَرُ استِحالةً، فتُهكِّمَ بهِمْ، وقِيل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ﴾ [الطور: ٣٨]، وذُيِّلَ بقولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ [الطور: ٣٩]؛ إشعارًا بأنَّ مَن جعَلَ خالِقَه أدْوَنَ حالًا منه، لم يُستبعَدْ منه تلك المقالاتُ الخرقاءُ، كأنَّه سُلِّيَ صلَّى اللهُ تعالَى عليه وسلَّمَ؛ وقيل: ناهِيكَ بتَساوي الطَّعنينِ في البُطلانِ، وبما يَلْقَون مِن سُوءِ مَغبَّتِهما.

ثم قِيل: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ [الطور: ٤٠]، وفيه تَهكُّمٌ بهم، وذمٌّ لهم بالحسَدِ واللُّؤمِ.

ثُمَّ قِيل: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ على معْنى: بلْ أعِندَهم اللَّوحُ -على قولٍ-، فيَعلَمون كُلَّ ما هو كائنٌ، ويَكتبُون فيه تلك المعلوماتِ، وقدْ عَلِموا أنَّ ما تدَّعيه مِن المَعادِ ليس مِن الكائنِ المكتوبِ؟! والمقصودُ مِن هذا نفْيُ المُنْبَأ به -أي: البعثِ- على وجْهٍ يَتضمَّنُ دفْعَ النُّبوَّةِ أيضًا إدماجًا[1]، عكْسَ الأوَّلِ؛ ولهذا أخَّرَه عن قولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾؛ فقدْ سلَفَ أنَّ مَصَبَّ الغرَضِ حديثُ المُنبِئِ والنَّبأِ والمنبَّأِ به، فقَضى الوطَرَ مِن الأوَّلَينِ مع الرَّمْزِ إلى الأخيرِ، ثمَّ أخَذَ فيه مع الرَّمْزِ إليهما قَضاءً لحَقِّ الإعجازِ؛ ففي ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ إشارةٌ إلى السَّاعةِ، وفيه ترَقٍّ في دَفْعِ كذبِهم وافتِراءاتِهم مِن وجْهٍ أيضًا؛ لأنَّ العِلمَ أشمَلُ مَورِدًا مِن القُدْرةِ، ولأنَّ الأوَّلَ إنكارٌ مِن حيثُ إنَّهم لم يُرسِلُوه، وهذا مِن تلك الحَيثيَّةِ، ومِن حيثُ إنَّهم ما عَلِموا بإرْسالِ غيرِه إيَّاه أيضًا مع إحاطةِ عِلمِهم، لكنَّه غيرُ مَقصودٍ قصْدًا أوَّليًّا.

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

ثمَّ ختَمَ الكلامَ بالإضرابِ عن الإنكارِ إلى الإخبارِ عن حالِهم بأنَّهم يُرِيدونَ بكَ كيدًا؛ فهمْ يَنصِبُون لك الحَبائلَ قوْلًا وفِعلًا، لا يَقِفون على هذه المقالةِ وحْدَها، وهم المَكيدونَ لا أنت؛ قولًا وفِعلًا، وحُجَّةً وسَيفًا، وحقَّقَ ما ضمَّنَه من الوَعيدِ بقولِه سُبحانَه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، فيُنجِّيهم مِن كَيدِه وعَذابِه؟! لا واللهِ، سُبحانَ اللهِ عن أنْ يكونَ إلهٌ غيرُه! وما بَعْدَه مِن الآياتِ تأْكيدٌ لأمْرِ طُغيانِهم، ومَزيدُ تَحقيقٍ للوعيدِ، ومُبالَغةٌ في التَّسليةِ[1].



(١) نقَل هذه الوجوهَ ولخَّصها الألوسيُّ عن القزويني صاحِب «الكشف على الكشاف»؛ يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤١ - ٤٣).

الآيات (٤٤-٤٩)

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كِسْفًا﴾: أي: قِطْعةً أو قِطَعًا؛ يَجوزُ أنْ يكونَ واحِدًا، وأنْ يكونَ جمْعَ كِسْفَةٍ، مِثل سِدْرَةٍ وسِدْرٍ، وأمَّا (الكِسَف) -بفتْحِ السِّينِ- أي: القِطَعُ، فإنَّه جمْعُ كِسْفةٍ. والكِسْفةُ: القِطعةُ مِن الشَّيءِ، وأصلُ (كسف) هنا: يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ(١).

﴿مَّرْكُومٌ﴾: أي: مُتراكِمٌ؛ بَعضُه فوقَ بَعضٍ، وأصلُ (ركم): يدُلُّ على تجَمُّعِ شَيءٍ(٢).

﴿يُصْعَقُونَ﴾: أي: يَموتونَ ويُهلَكونَ، وقيل: يُعذَّبون، والصَّاعِقةُ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِن الجوِّ، ثمَّ يكونُ منه نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وقيل: الصَّاعقةُ: كلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، أو: هي اسمٌ للعذابِ على أيِّ حالٍ كان، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّةِ الصَّوتِ(٣).

---

(١) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤، ٤٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مبيِّنًا عنادَ المشركينَ ومُكابَرَتَهم للمحسوسِ: وإنْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ قِطَعًا مِن السَّماءِ ساقِطةً عليهم، يقولوا: هذا سَحابٌ تراكَم بعضُه على بَعضٍ، ولا يُؤمِنوا بأنَّه عذابٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ فاترُكْهم -يا محمَّدُ- حتَّى يُلاقُوا يومَهم الَّذي فيه يُعذَّبونَ؛ يومَ لا يَنفَعُهم كَيدُهم شَيئًا، ولا هم يُنصَرونَ، وإنَّ لِلَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ تعالى عَذابًا قبْلَ عَذابِ ذلك اليَومِ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يختِمُ الله تعالى هذه الآياتِ بتوجيهِ الخِطابِ إلى نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، آمِرًا له بالصَّبرِ، وألَّا يعبأَ بهم، فيقولُ: واصبِرْ -يا محمَّدُ- لِحُكْمِ رَبِّك؛ فإنَّك بمَرأًى مِنَّا، نَحُوطك ونَحميك، ونَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- عن النَّقائِصِ تنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ حينَ تَقومُ، وسَبِّحْ رَبَّك في بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ وحينَ تَميلُ النُّجومُ للمَغيبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن فسادَ أقوالِهم وسُقوطَها عن درجةِ الاعتبارِ، أشار إلى أنَّه لم يَبْقَ لهم شيءٌ مِنْ وجهِ الاعتذارِ؛ فإنَّ الآياتِ ظَهرتْ، والحُجَجَ تَمَيَّزَتْ، ولم يُؤْمِنوا[1]،

= (٣/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢).

قال ابن جرير: (وأصْلُ الصَّاعِقةِ: كُلُّ أمْرٍ هائِلٍ رآه أو عايَنَه أو أصابَه، حتَّى يَصيرَ مِن هَوْلِه وعَظيمِ شَأْنِه إلى هَلاكٍ وعَطَبٍ، أو إلى ذَهابِ عَقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بَعضِ آلاتِ الجِسمِ؛ صَوتًا كان ذلك، أو نارًا، أو زَلزَلةً، أو رَجْفًا). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٠، ٦٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٣).

فبَعْدَ ذلك استحَقُّوا الانتقامَ(١).

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: وإنْ يَرَ المُشرِكونَ قِطَعًا من السَّماءِ ساقِطةً عليهم، يقولوا: هذا سَحابٌ تراكَم بعضُه على بَعضٍ، ولا يُؤمِنوا بأنَّه عذابٌ مِنَ اللهِ تعالى(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال البِقاعي: (﴿ كِسْفًا ﴾ أي: قِطعةً، وقيلَ: قِطَعًا، واحِدتُها كِسْفةٌ، مِثلُ: سِدْرةٍ وسِدْرٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ؛ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ كِسْفًا ﴾: أي: قِطعةً: ابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

قال ابنُ عاشور: (الكِسْفُ -بكَسرِ الكافِ: القِطعةُ... و﴿ مِّنَ ﴾ تبعيضيَّة، أي: قِطعةً مِن أجزاءِ السَّماءِ مِثلَ القِطَعِ الَّتي تَسقُطُ مِنَ الشُّهُبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني -أي: أنَّها جمْعُ كِسفةٍ-: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧).

قال أبو حيَّان: (﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: كانت قُريشٌ قد اقترَحَتْ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما اقترَحَتْ مِن قولِهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، فأخبَر تعالَى أنَّهم لو رَأَوا ذلك عِيانًا، حَسَبَ اقتراحِهم، لَبَلَغ بهم عُتُوُّهم وجهلُهم أنْ يُغالِطوا أنفُسَهم فيما عايَنوه، وقالوا: هو سَحابٌ مركومٌ، تَرَاكَم بعضُه على بعضٍ مُمْطِرُنا، وليسَ بكِسفٍ ساقِطٍ للعذابِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٦).

واختار السعديُّ وابنُ عثيمينَ أنَّ المرادَ: قِطعٌ من العذابِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٢].

وقال تعالى حكايةً عن قَولِ أصحابِ الأَيْكةِ لِشُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧].

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فاترُكْ -يا محمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُعانِدينَ حتَّى يُلاقُوا اليومَ الَّذي فيه يموتونَ ويهلكونَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).
وقد ذهَب ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وابنُ جُزَي: إلى أنَّ المرادَ بقوله: ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: النَّفخةُ الأُولى، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٥).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٣).
وذهب أبو السُّعودِ، وابنُ عجيبة، والألوسيُّ: إلى أنَّ المرادَ بذلك اليَوم: يومُ بَدرٍ، واستَظْهَره البِقاعي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥). =

كما قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال: ﴿يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾، وكُلُّ بَرٍّ وفاجرٍ يُلاقي يَومَه؛ أعاد صِفةَ يَومِهم، وذكَرَ ما يتمَيَّزُ به يومُهم عن يومِ المُؤمِنينَ؛ فقال[1]:

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

= قال ابن عجيبة: (هو اليَومُ الَّذي صُعِقُوا فيه بالقَتلِ يومَ بَدرٍ، لا عِندَ النَّفخةِ الأُولى كما قيلَ؛ إذ لا يُصعَقُ بها إلَّا مَن كان حيًّا حينَئذٍ). ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٩٦).

وقال ابن عطية: (واختلَفَ النَّاسُ في اليومِ الَّذي تُوُعِّدوا به؛ فقال بعضُ المتأوِّلينَ: هو مَوتُهم واحدًا واحدًا، وهذا على تجَوُّزٍ، والصَّعقُ: التَّعذيبُ في الجملةِ، وإن كان الاستِعمالُ قد كثُر فيه فيما يُصيبُ الإنسانَ مِن الصَّيحةِ المُفرطةِ ونحوِه.

ويحتملُ أن يكونَ اليومُ الَّذي تُوعِّدوا به يومَ بدرٍ؛ لأنَّهم عُذِّبوا فيه. وقال الجمهورُ: التَّوعُّدُ بيومِ القيامةِ؛ لأنَّ فيه صَعقةً تعُمُّ جميعَ الخلائقِ، لكنْ لا مَحالةَ أنَّ بيْنَ صعقةِ المؤمنِ وصعقةِ الكافرِ فرقًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٤).

وقال ابنُ عثيمين: (هو يومُ مَوتِهم، يعني: اترُكْ هؤلاءِ؛ فإنَّ مآلَهم إلى الموتِ وإنْ فَرُّوا، وهم إذا لاقَوا يَومَهم الَّذي يُوعَدونَ عَرَفوا أنَّهم على باطِلٍ، وأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: يَموتون ويهلكون: السَّمرقنديُّ، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿فَذَرْهُمْ﴾ فخَلِّ عنهم يا محمَّدُ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾ في الآخِرةِ ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يعني: يُعذَّبون). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٦).

أي: يومَ لا يَنفَعُهم كَيدُهم الَّذي كادوا به الحَقَّ شَيئًا[(١)]!

كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُنصَرونَ؛ فيُنجيَهم أحَدٌ مِن عَذابه[(٢)]!

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عذابَ الظَّالِمينَ في القيامةِ؛ أخبَرَ أنَّ لهم عَذابًا دونَ عَذابِ يومِ القيامةِ[(٣)].

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: وإنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ تعالى عَذابًا قبْلَ ذلك اليَومِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال ابن كثير: (﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يَنفَعُهم كَيدُهم ومَكْرُهم الَّذي استَعمَلوه في الدُّنيا، ولا يُجدي عنهم يومَ القيامةِ شَيئًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابن عاشور: (أي: لا يَستطيعونَ كيدًا يومَئذٍ كما كانوا في الدُّنيا، فالمعنى: لا كَيدَ لهم فيُغْني عنهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦١).

قيل: العَذابُ المذكورُ هنا شامِلٌ لعَذابِ الدُّنيا بالقَتلِ أو غَيرِه، ولِعَذابِ البَرزخِ والقَبرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملة: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن القيم، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦١).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ أنَّ للَّذين ظلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم به عذابًا دونَ يَومِهم الَّذي فيه يُصعقونَ، وذلك يومُ القيامةِ، فعذابُ القبرِ دونَ يومِ القيامةِ؛ لأنَّه في البَرزَخِ، والجوعُ الَّذي أصاب كفَّارَ قُرَيشٍ، والمصائبُ الَّتي تُصيبُهم في أنفُسِهم وأموالِهم وأولادِهم دونَ يومِ القيامةِ، ولم يَخصُصِ اللهُ نَوعًا مِن ذلك أنَّه لهم دونَ يومِ القيامةِ دونَ نَوعٍ، بل عَمَّ، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، فكلُّ ذلك لهم عذابٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هذا يحتَمِلُ أن يُرادَ به عذابُهم بالقَتلِ وغَيرِه في الدُّنيا، وأن يرادَ به عذابُهم في البَرزخِ، وهو أظهَرُ؛ لأنَّ كثيرًا منهم مات ولم يُعَذَّبْ في الدُّنيا. وقد يُقالُ -وهو أظهَرُ-: إنَّ مَن مات منهم عُذِّبَ في البَرزخِ، ومَن بَقِيَ منهم عُذِّبَ في الدُّنيا بالقَتلِ وغَيرِه؛ فهو وَعيدٌ بعَذابِهم في الدُّنيا وفي البَرزخِ). ((الروح)) (ص: ٧٥).

وقال الشنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ قولَه: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ هو ما عُذِّبوا به في دارِ الدُّنيا مِن القتلِ وغيرِه. كما دَلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ الآيةَ [السجدة: ٢١]، وقولُه تعالَى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ، ولا مانِعَ مِن دُخولِ عَذابِ القَبرِ في ذلك؛ لأنَّه قد يَدخُلُ في ظاهِرِ الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٦١).

وقيل: المرادُ به: العَذابُ في الدُّنيا، واختلَفوا؛ فمِنهم مَنِ اقتصَر على كَونِه في الدُّنيا؛ كالخازِنِ، وابنِ كثير. ومِنهم مَن قصَر هذا العذابَ على القتلِ ببَدْرٍ؛ كابنِ جُزَي، والعُلَيمي، والشَّوكاني. ومِنهم مَن قال: عذابُ الجوعِ في سِنِي القَحطِ، وعذابُ السَّيْفِ يومَ بَدْرٍ، كابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني: دونَ عذابِ الموتِ، وهو ما أُصيبوا به مِن =

كما قال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

= الجدبِ والقحطِ والخوفِ والحروبِ وغيرِ ذلك، ممَّا كان قبْلَ الموتِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ -معَ تنوُّعِ عباراتِهم-: (الجوع، والقحط، والقتل ببدر، وذهاب الأموال والأولاد)-: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهِدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بهذا العذابِ: عذابُ القبرِ: الكرماني، والرسعني. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: البَراءُ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢).

قال ابن عاشور: (كلمةُ «دونَ» أصْلُها المكانُ المنفصِلُ عن شَيءٍ انفصالًا قريبًا، وكَثُر إطلاقُه على الأقلِّ، يُقالُ: هو في الشَّرفِ دونَ فلانٍ، وعلى السَّابقِ؛ لأنَّه أقرَبُ حُلولًا مِن المسبوقِ، وعلى معنَى «غير». و«دُونَ» في هذه الآيةِ صالِحةٌ للثَّلاثةِ الأخيرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

وقال الرازي: (﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، على قولِ أكثَرِ المفسِّرينَ معناه: «قبْلَ»، ويُؤَيِّدُه قولُه تعالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السَّجْدَة: ٢١]. ويحتمِلُ وجهَيْنِ آخَرَيْنِ: أحدُهما: دونَ ذلك، أي: أقلَّ مِن ذلك في الدَّوامِ والشِّدَّةِ...

الثَّاني: على طريقةِ قولِ القائلِ: تحتَ لَجاجِكَ مفاسِدُ، ودونَ غَرَضِك متاعِبُ، وبَيانُه هو أنَّهم لَمَّا عَبَدوا غيرَ اللهِ ظلَموا أنفُسَهم، حيثُ وَضَعوها في غيرِ موضِعِها الَّذي خُلِقَتْ له، فقيلَ لهم: إنَّ لكم دونَ ذلك الظُّلمِ عذابًا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: قبْلَ عذابِ الآخرةِ: البغويُّ، والخازنُ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٦).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ المرادَ: قبْلَ عذابِ الموتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ الكافِرينَ لا يَعلَمونَ ما سيَصيرونَ إليه مِنَ العَذابِ الواقِعِ بهم لا مَحالةَ(١)!

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى الحُجَجَ والبَراهينَ على بُطلانِ أقوالِ المُكَذِّبينَ؛ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يَعبَأَ بهم شَيئًا، وأن يَصبِرَ لحُكمِ رَبِّه القَدَريِّ والشَّرعيِّ بلُزومِه والاستِقامةِ عليه، ووَعَدَه اللهُ تعالى بالكفايةِ(٢).

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾.

أي: واصبِرْ -يا محمَّدُ- لِحُكمِ ربِّك القَدَريِّ -ممَّا قدَّره عليك مِن ظُلمٍ يُصيبُك، وأذًى يَنالُك- ولحُكمِه الشَّرعيِّ؛ بلُزومِه، والاستقامةِ عليه، وتبليغِ رسالةِ الله؛ فإنَّك بمَرأًى مِنَّا، نَحوطُك ونَحفَظُك مِن كُلِّ سُوءٍ وكَيدٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال ابن عرفة: («الأكثر» إمَّا على بابه، أو بمعنى «الجميعِ»، وعاقَبَهم على الجهلِ؛ لِتَمكُّنِهم مِن العِلمِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال القرطبي: (﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لِقَضاءِ ربِّك فيما حمَّلَك مِن رسالتِه. وقيل: لِبَلائِه فيما ابتَلاك به مِن قَومِك). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨). =

= قيل: معنى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لِما أمَرَك ربُّك، ونهاك عنه. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧).

وقيل: معنى ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى أن يقَعَ بهم العذابُ الَّذي حكَمْنا عليهم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣).

وقيل: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لِما حكَم به عليك. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، وابن الجوزي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥).

وقيل: المعنى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالِهم، وما يَلحَقُك فيه مِن المشَقَّةِ والكُلفةِ وتمَكُّنِهم مِن أذاك، معَ مُقاساةِ الأحزانِ، ومُعاناةِ الهمومِ. وممَّن اختاره في الجملة: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والرسعني، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٠).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم، ولا تُبالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بحُكمِ رَبِّك: ما حَكَم به وقدَّره مِن انتفاءِ إجابةِ بَعضِهم، ومِن إبطاءِ إجابةِ أكثَرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٣).

وممَّن جمَع بيْنَ معنَيَيِ الحُكمِ، واختار أنَّ المرادَ: الأمرُ بالصَّبرِ على حُكمِ اللهِ الشَّرعيِّ والكَونيِّ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يَشملُ الحُكمَ الكَونيَّ، والحُكمَ الشَّرعيَّ، يعني: اصبِرْ لِما حكَم به ربُّك مِن وُجوبِ إبلاغِ الرِّسالةِ وإن أصابك ما يُصيبُك، واصبِرْ لِحُكمِ ربِّك القَدَريِّ الكَونيِّ، وهو ما يُقدِّرُه اللهُ تعالى عليك مِن هؤلاء السُّفهاءِ مِن السُّخريةِ والعُدوانِ والظُّلمِ، ولقد أُوذيَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كما أُوذيَ إخوانُه مِن المُرسَلينَ، أُوذيَ إيذاءً عظيمًا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

وقال ابن تيميَّة: (بعضُ المفسِّرينَ يقولُ: هذه الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهذا يتوجَّهُ إن كان =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾.

أي: ونزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ مَحبَّةً وتَعظيمًا له؛ حينَ تَقومُ[1].

= في الآيةِ النَّهيُ عن القتالِ، فيكون هذا النَّهيُ منسوخًا. ليس جميعُ أنواعِ الصَّبرِ منسوخةً، كيف والآيةُ لم تتعرَّضْ لذلك هنا لا بنَفْيٍ ولا إثباتٍ؟! بل الصَّبرُ واجبٌ لِحُكمِ الله ما زال واجبًا، وإذا أُمِر بالجهادِ فعليه أيضًا أن يَصبرَ لِحُكمِ الله؛ فإنَّه يُبتلى مِن قتالِهم بما هو أعظَمُ مِن كلامِهم، كما ابتُليَ به يومَ أُحُدٍ والخَندقِ، وعليه حينَئذٍ أن يَصبرَ ويَفعَلَ ما أُمِر به من الجهادِ.

والمقصودُ هنا قولُه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾؛ فإنَّ ما فعَلوه من الأذى هو ممَّا حكَم به عليك قَدَرًا، فاصبرْ لِحُكمِه وإن كانوا ظالِمينَ في ذلك، وهذا الصَّبرُ أعظَمُ مِن الصَّبرِ على ما جرى وفُعِل بالأنبياءِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٢٥).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا مِن المواضعِ الَّتي يقولُ أكثرُ المفسِّرينَ: إنَّها منسوخةٌ. ولا يصحُّ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وقال الرازي: (اللَّام في قولِه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ ﴾ تحتمِلُ وُجوهًا:

الأوَّل: هي بمعنى «إلى»، أي: اصبِرْ إلى أن يَحكُمَ اللهُ.

الثَّاني: الصَّبرُ فيه معنى الثَّباتِ، فكأنَّه يقولُ: فاثبُتْ لِحُكمِ ربِّك، يُقالُ: ثبَتَ فلانٌ لحملِ قِرنِه.

الثَّالث: هي اللَّامُ الَّتي تُستعمَلُ بمعنى السَّببِ، يُقالُ: لِمَ خرَجْتَ؟ فيُقالُ: لِحُكمِ فُلانٍ عليَّ بالخروجِ، فقال: واصبِرْ واجعَلْ سببَ الصَّبرِ امتِثالَ الأمرِ، حيثُ قال: واصبِرْ لهذا الحُكمِ عليك، لا لشَيءٍ آخَرَ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨-٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

= قال الماوَرْدي: (فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنْ يُسَبِّحَ اللهَ إذا قام مِن مَجلِسِه -قاله أبو الأحوصِ-؛ لِيَكونَ تَكفيرًا لِما أجرى في يَومِه.
الثَّاني: حينَ تقومُ مِن مَنامِك؛ لِيَكونَ مُفتَتَحًا لعَمَلِه بذِكرِ الله. قاله حسَّانُ بنُ عطيَّةَ.
الثَّالِثُ: حينَ تقومُ مِن نَومِ القائِلةِ لصَلاةِ الظُّهرِ. قاله زَيدُ بنُ أسلَمَ.
الرَّابِعُ: أنَّه التَّسبيحُ في الصَّلاةِ إذا قام إليها. وفي هذا التَّسبيحِ قَولانِ:
أحَدُهما: هو قَولُ: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ، في الرُّكوعِ، وسُبحانَ رَبِّيَ الأعلى، في السُّجودِ.
الثَّاني: التوَجُّهُ في الصَّلاةِ بقَولِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ وبحَمدِك، وتبارَكَ اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غَيرُك. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٧).
وقد ذكَرَ الرَّازي وُجوهًا أُخرى؛ منها: حينَ تَقومُ لأمرٍ ما، ولا سيَّما إذا قُمتَ مُنتَصِبًا لمجاهَدةِ قَومِك ومُعاداتِهم، والدُّعاءِ عليهم؛ فسَبِّحْ بحَمدِ رَبِّك، وبَدِّلْ قيامَك للمُعاداةِ وانتِصابَك للانتِقامِ بقيامِك لذِكرِ اللهِ وتَسبيحِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩).
وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: التَّسبيحُ حينَ القيامِ مِن المَجلِسِ: الواحديُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣).
قال الواحدي: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّه أُمِر أن يقولَ حينَ يقومُ مِن مَجلِسِه: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه). ((البسيط)) (٢٠/ ٥١٣).
وممَّن اختار هذا القولَ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ، وأبو الأحوصِ عَوفُ بنُ مالكٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٣٧).
وقال الزَّجَّاجُ: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حينَ تقومُ مِن مَنامِك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٦٨).
وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، وإلى العُمومِ في معنى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فيَشملُ ذلك القيامَ مِن أيِّ شَيءٍ؛ كالقيامِ مِن النَّومِ، والقيامِ مِن المَجلِسِ، وغَيرِ ذلك: الزمخشريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥، ٥٦).
وقال مقاتل: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقولُ: وصَلِّ بأمرِ ربِّك حِينَ تَقومُ إلى الصَّلاةِ المكتوبةِ). =

كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

وعنْ عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: أنَّها قالتْ: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

= ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: صَلِّ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: للصَّلاةِ المكتوبةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والتُّسْتَريُّ، والقُشَيريُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير التستري)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٧٩).

وممَّن ذهَبَ إلى أنَّ المرادَ: صلاةُ الظُّهرِ بعدَ القيامِ مِن نَومِ القائلةِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٦).

وقال ابن عاشور: (والقيامُ: جعلُ وَقْتٍ للصَّلَواتِ: إمَّا للنَّوافلِ، وإمَّا لصلاةِ الفريضةِ وهي الصُّبْحُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

قال السعدي: (وأمَره أن يستعينَ على الصَّبرِ بالذِّكرِ والعبادةِ، فقال: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقال البقاعي: (﴿وَسَبِّحۡ﴾ أي: أوقِعِ التَّنزيهَ عن شائبةِ كلِّ نقصٍ بالقلبِ واللِّسانِ والأركانِ، متلبِّسًا ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: المُحسِنِ إليك، فأثبِتْ له كلَّ كمالٍ، مع تنزيهِه له عن كلِّ نقصٍ، فلا يكونُ في مُلكِه ما لا يريدُ، ولا يريدُ إلا ما هو حِكمةٌ بالِغةٌ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: مِن اللَّيلِ في جميعِ الأوقاتِ الَّتي هي مَظِنَّةُ القيامِ على الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأشغالِ النَّفسانيَّةِ، وهي أوقاتُ النَّهارِ الَّذي هو للانتِشارِ بصلاةِ الصُّبحِ والظُّهرِ والعصرِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٨).

يُكثِرُ أنْ يَقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبْحانكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي يَتأوَّلُ القُرْآنَ))(١).

وعنْ عائِشةَ أيضًا، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ من قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه، قالتْ: فقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكثِرُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه؟ فقال: خَبَّرني رَبِّي أنِّي سأَرَى عَلامةً في أُمَّتي، فإذا رَأَيْتُها أكثَرْتُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه، فقَدْ رَأَيْتُها ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] فَتْحُ مكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ٢، ٣]))(٢).

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.

أي: وسَبِّحْ رَبَّك -يا محمَّدُ- في بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).
يتأوَّلُ القرآنَ أي: يعملُ ما أُمِر به في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[النصر: ٣]، ويجعلُ ما أُمِر به مِن التَّسبيحِ والتَّحميدِ والاستِغفارِ في أشرَفِ الأوقاتِ والأحوالِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ٢٠١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).
قال الماوَرْدي: (﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ...﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّها صَلاةُ اللَّيلِ. الثَّاني: التَّسبيحُ فيها. الثَّالِثُ: أنَّه التَّسبيحُ في صَلاةٍ وغَيرِ صَلاةٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٧).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه في هذا الوقتِ: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

أي: وسبِّحْه أيضًا حينَ تَميلُ النُّجومُ للمَغيبِ[1].

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صَلاةُ المَغرِبِ والعِشاءِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥، ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه إذا أدبرَتِ النُّجومُ مِن آخِرِ اللَّيلِ: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صَلاةُ الفَجرِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وقال السعدي: (﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: آخِرَ اللَّيلِ، ويَدخُلُ فيه صَلاةُ الفَجرِ. والله أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقيل: المرادُ: الرَّكعتانِ قبْلَ الفَجرِ، وهو اختيارُ الواحدي -ونسَبه لقولِ الجميعِ-، ونسَبه البَغَويُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، وابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وجابرُ بنُ عبدِ الله، وأنسُ بنُ مالكٍ، وأبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١١، ٦٣٨).

قال ابنُ عاشور: (والإدبارُ: رُجوعُ الشَّيءِ مِن حَيثُ جاء؛ لأنَّه يَنقَلِبُ إلى جِهةِ الدُّبُرِ، أي: الظَّهْرِ. وإدبارُ النُّجومِ: سُقوطُ طَوالِعِها...، وسقوطُ طوالِعِها الَّتي تَطلُعُ: أنَّها تَسقُطُ في جِهةِ المَغربِ عندَ الفَجرِ إذا أضاء عليها ابتِداءُ ظُهورِ شُعاعِ الشَّمسِ؛ فإدبارُ النُّجومِ: وَقتُ السَّحَرِ). ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ هذه الآيةُ ينبغي أن يُقَرِّرَها كُلُّ مُؤمِنٍ في نفْسِه؛ فإنَّها تَفْسَحُ مَضايِقَ الدُّنيا(١)!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾، وحُكمُ الله نَوعانِ: خَلْقٌ، وأمْرٌ؛ فالأوَّلُ: ما يُقدِّرُه مِن المصائبِ، والثَّاني: ما يأمُرُ به ويَنهى عنه، والعبدُ مأمورٌ بالصَّبرِ على هذا وعلى هذا؛ فعليه أن يَصبرَ لِما أُمِر به ولِما نُهيَ عنه، فيَفعلَ المأمورَ ويَترُكَ المحظورَ، وعليه أن يَصبرَ لِما قدَّره اللهُ عليه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ممَّا يَنشَأُ عنه الرِّضا استِحضارَ اطِّلاعِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عَبدِه في حالِ العَمَلِ له، وتَحَمُّلِ المَشاقِّ مِن أجْلِه؛ فمَن تَيَقَّنَ أنَّ البَلاءَ بعَينِ مَن يُحِبُّه هان عليه الألَمُ(٣)!

= ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥، ٨٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ يعني: وَقتَ إدبارِها، وهل المرادُ إدبارُ ضَوئِها بانتِشارِ نُورِ الشَّمسِ، أو إدبارُ ذَواتِها عند الغُروبِ؟ فالجَوابُ هذا وهذا، والمرادُ بذلك: صَلاةُ الفَجرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

وقال التُّسْتَري: (قولُه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ قال: يعني لا تَغفُلْ عن ذِكرِ مَن لا يَغفُلُ عن بِرِّك وحِفظِك في كلِّ الأوقات صباحًا ومساءً). ((تفسير التستري)) (ص: ١٥٥).

وقال القُشَيري: (في الآيةِ دليلٌ وإشارةٌ إلى أنَّه أمَره أن يَذكُرَه في كلِّ وقتٍ، وألَّا يَخلوَ وقتٌ من ذِكرِه). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٧٩).

وقال ابن عاشور: (الآيةُ تُشيرُ إلى أوقاتِ الرَّغائِبِ مِن النَّوافِلِ وهي صلاةُ الفَجْرِ، والأشفاعُ بعدَ العشاءِ، وقيامُ آخِرِ اللَّيلِ، وقيل: أشارت إلى الصَّلَواتِ الخَمسِ بوَجهِ الإجمالِ، وبَيَّنَته السُّنَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٩).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: قُلْ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ حينَ تقومُ مِن مجلسِك، أو حِينَ تقومُ مِن منامِك، أو غير ذلك، فهي عامَّةٌ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ولهذا كان كفَّارةُ المجلسِ أنْ يقولَ الإنسانُ: «سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحَمدِك، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت، أستَغفِرُك وأتوبُ إليك»[١]، فينبغي للإنسانِ كلَّما قام مِن مجلسٍ أنْ يَخْتِمَ مجْلِسَه بهذا[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم حينَ يَعجِزونَ عن التَّكذيبِ، ولا يُمكِنُهم أن يعقِلوا وُقوعَ شيءٍ على الأرضِ، يَرجِعونَ إلى التَّأويلِ والتَّخييلِ[٣].

٢- إنَّ اللهَ تعالى لم يُهلِكْ أحدًا ولم يُعذِّبْه إلَّا بذَنْبٍ، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في كتابِه، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ على القولِ بأنَّ معنَى ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: أقَلَّ مِن ذلك في الدَّوامِ والشِّدَّةِ ففيه فائدةُ التَّنبيهِ على عذابِ الآخِرةِ العَظيمِ؛ وذلك لأنَّه إذا قال: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قتْلًا وعذابًا في القبرِ -على

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٢٥٩)، وأحمد (١٩٧٦٩) من حديث أبي بَرْزةَ الأسْلَميِّ رضي الله عنه
حسَّن إسنادَه ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (١٣/ ٢٠٤)، وحسَّن الحديثَ السَّخاويُّ في ((البلدانيات)) (٢٦٣)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٥٩): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٢٤).

قولٍ في التَّفسيرِ-، فيَتفكَّرُ المتفكِّرُ ويقولُ: ما يكونُ القتْلُ دُونَه لا يكونُ إلَّا عظيمًا[١]!

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ هذا يَتضَمَّنُ الحِراسةَ والكِلاءةَ والحِفظَ؛ للصَّابِرِ لحُكْمِه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ إثباتُ العَينِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي حقيقيَّةٌ، ولكِنَّها لا تُماثِلُ أعيُنَ الخَلقِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[٣] [الشورى: ١١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ سُؤالٌ: كيف نَجمَعُ بيْن الجَمعِ وبيْن المُثَنَّى فيما ثَبَتَ مِن صفةِ العَينِ للهِ تعالَى؟

الجوابُ: الجَمْعُ بيْنَهما سَهلٌ، هو نَظيرُ الجَمعِ بيْنَ اليَدينِ الواردِ مَجيؤُهما بصِيغةِ التَّثنيةِ وبصيغةِ الجَمعِ؛ فإمَّا أنْ يُرادَ بالجَمعِ ما دونَ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ قد جاءتْ بالجَمعِ مُرادًا به ما دونَ الثَّلاثةِ، فيكونَ قولُه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ كقَولِه: بـ «عَينَيْنا»؛ لأنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، وإمَّا أنْ يُقالَ: أقلُّ الجَمعِ ثلاثةٌ -كما هو الأكثَرُ-، ولكنَّ الجَمعَ هنا لا يُرادُ به مَدلولُه التعَدُّديُّ، وإنَّما يُرادُ به مَدلولُه المَعنويُّ، وهو التَّعظيمُ، فيكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ جَمَعَ العَينَينِ، فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ تَعظيمًا لهما، وأيضًا يُضافُ إلى التَّعظيمِ المناسَبةُ؛ لأنَّ «نا» دالَّةٌ على الجَمعِ في أصلِ الوَضعِ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ المُضافُ إليها مَجموعًا للتَّعظيم، كما هي في قَولِه تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ للتَّعظيمِ، فيَتناسَبُ هنا المُضافُ والمُضافُ إليه، وهذه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

المُناسَبةُ لَفظيَّةٌ[(١)].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾ يعني: وسَبِّحْ ربَّك مِن اللَّيلِ لا كُلَّ اللَّيلِ، و«مِن» هنا للتَّبعيضِ؛ ولهذا لَمَّا سَمِع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوامٍ مِن أصحابِه قال أحدُهم: «أنا أقومُ ولا أنامُ»، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لكنِّي أُصَلِّي وأنامُ -وفي لفظٍ: وأرقُدُ- فمَنْ رَغِب عن سُنَّتِي فليس مِنِّي))[(٢)]؛ ولذلك يُكرَهُ للإنسانِ أن يَقومَ اللَّيلَ كلَّه حتَّى لو كان فيه قُوَّةٌ ونَشاطٌ، فلا يَقُمِ اللَّيلَ كلَّه إلَّا في العَشرِ الأواخِرِ مِن رمضانَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كان يُحيي ليلَها كلَّه[(٣)]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- قَولُه تعالى: ﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ استَدَلَّ بَعضُ الفُقَهاءِ بالآيةِ على أنَّ الإسفارَ بصَلاةِ الفَجرِ أفضَلُ؛ لأنَّ النُّجومَ لا إدبارَ لها، وإنَّما ذلك بالاستِتارِ عن العُيونِ[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ ﴾ [الطور: ٣٠] وما بعْدَها مِن الجُمَلِ الحاكيةِ لأقوالِهم، بمُناسَبةِ اشتِراكِ مَعانيها معَ ما في هذه الجُملةِ في تَصويرِ بُهتانِهم ومُكابَرتِهم

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٥٠).

قال القاسمي: (وهو استدلالٌ متينٌ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧).

والمذكورُ هو مذهبُ الحنفيَّة، أمَّا مذهبُ جمهورِ الفُقهاءِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ فهو أنَّ الأفضلَ تَعجيلُ صلاةِ الفَجرِ في أوَّلِ وقتِها إذا تَحقَّق طُلوعُ الفَجرِ، وهو التَّغليسُ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (١/ ٣٦٦)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ١٨٠)، ((المجموع)) للنووي (٣/ ٥١)، ((منتهى الإرادات)) لابن النجار (١/ ١٥٢).

الدَّالَّةِ على أنَّهم أهْلُ البُهتانِ، فلو أُرُوا كِسْفًا ساقطًا مِن السَّماءِ، وقِيل لهم: هذا كِسْفٌ نازلٌ؛ كابَروا وقالوا: هو سَحابٌ مَرْكومٌ[(١)].

- ووقَعَ ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ خبَرًا عن مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وتَقديرُه: هو سَحابٌ، أو هذا سَحابٌ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ لكَونِ المَقصودِ مِن قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أنَّ العِنادَ شِيمتُهم، فُرِّعَ عليه أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَترُكَهم، أي: يَترُكَ عرْضَ الآياتِ عليهم، أي: ألَّا يَسألَ اللهَ إظهارَ ما اقترَحوه مِن الآياتِ؛ لأنَّهم لا يَقترِحون ذلك طلَبًا للحُجَّةِ، ولكنَّهم يُكابِرون، وليس المُرادُ ترْكَ دَعوتِهم، وعرْضَ القُرآنِ عليهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الأمْرُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ مُستعمَلًا في تَهديدِهم؛ لأنَّهم يَسمَعونَه حِينَ يُقرَأُ عليهم القُرآنُ، كما يُقالُ للَّذي لا يَرْعوي عن غَيِّه: دَعْهُ؛ فإنَّه لا يُقلِعُ[(٣)].

- وأفادتِ الغايةُ أنَّه يَترُكُهم إلى الأبَدِ؛ لأنَّهم بعْدَ أنْ يُصْعَقوا لا تُعادُ مُحاجَّتُهم بالأدلَّةِ والآياتِ[(٤)].

- وإضافةُ اليَومِ إلى ضَميرِهم ﴿يَوْمَهُمُ﴾؛ لأنَّهم اشْتُهِروا بإنكارِه، وعُرِفوا بالَّذين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ، أو لأنَّه اليومُ الَّذي أُوعِدُوه؛ فالإضافةُ لِأدْنى مُلابَسةٍ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على خَطَئِهم في إنْكارِه[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ يَنْفي عنهم التَّخلُّصَ بوَسائلَ مِن فِعْلِهم، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ لنَفْيِ أنْ يَتخلَّصوا من العَذابِ بفِعلِ مَن يُخلِّصُهم ويَنصُرُهم؛ فانْتَفَى نوعَا الوَسائلِ المُنجيةِ[2].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ لم يَقُل: «يومَ لا يُغْنيهم كَيدُهم» مع أنَّ الإغناءَ يتعدَّى بنَفْسِه، وفي هذا فائدةٌ جليلةٌ، وهي: أنَّ قولَ القائِلِ: «أغناني كذا» يُفهَمُ منه أنَّه نفَعَني، وقولُه: «أغنى عنِّي» يُفهَمُ منه أنَّه دَفَع عنِّي الضَّرَرَ، فقولُه: ﴿لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا يَدفَعُ عنهم الضَّرَرَ، ولا شَكَّ أنَّ قَولَه: «لا يَدفَعُ عنهم ضررًا» أبلَغُ مِن قَولِه: «لا يَنفَعُهم نَفعًا»، وإنَّما في المؤمِنِ لو قال: «يومَ يُغْني عنهم صِدقُهم» لَمَا فُهِمَ منه نَفعُهم، فقال: ﴿يَوۡمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] كأنَّه قال: «يومُ يُغْنيهم صِدقُهم»، فكأنَّه استعمَلَ في المؤمِنِ «يُغْنيهم»، وفي الكافِرِ «لا يُغْني عنهم». وهذا مِمَّا لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا من يكونُ عِندَه مِن عِلمِ البَيانِ طَرَفٌ، ويتفَكَّرُ بقريحةٍ وقَّادةٍ آياتِ اللهِ، ووفَّقَه اللهُ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، أي: وإنَّ لهم عذابًا في الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخِرةِ، وهو عَذابُ الجُوعِ في سِنِي القَحْطِ، وعذابُ السَّيفِ يومَ بَدْرٍ[4]، وهذا علَى قولٍ في تَفسيرِها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨١، ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: وإنَّ لهم عَذابًا، جَرْيًا على أُسلوبِ قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]؛ فخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهِرِ لإفادةِ عِلَّةِ استِحقاقِهم العَذابَ في الدُّنيا بأنَّها الإشراكُ باللهِ[١].

- ولِكَونِ هذا العَذابِ مُستبْعَدًا عِندَهم، وهمْ يَرَون أنفُسَهم في نِعمةٍ مُستمِرَّةٍ، أُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ)؛ فالتَّأكيدُ مُراعًى فيه شكُّهُم حِينَ يَسمَعونَ القُرآنَ، كما دلَّ عليه تَعقيبُه بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستِدراكُ الَّذي أفادَتْه (لكنَّ) راجِعٌ إلى مُفادِ التَّأكيدِ، أي: هو واقعٌ لا مَحالةَ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمون وُقوعَه، أي: لا يَخطُرُ ببالِهم وُقوعُه، وذلك مِن بَطَرِهم وزَهْوِهم[٣].

- وأُسنِدَ عدَمُ العِلمِ إلى أكثَرِهم دونَ جَميعِهم؛ لأنَّ فيهم أهلَ رأْيٍ ونَظَرٍ يَتوقَّعون حُلولَ الشَّرِّ إذا كانوا في خَيرٍ[٤]. وقيل: الأكثرُ هنا بمعنَى الجميعِ[٥].

- ومَفعولُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ اختِصارًا؛ للعِلمِ به[٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ...﴾ [الطور: ٤٥] إلخ، وما بيْنَهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٢، ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

اعتِراضٌ، وكان مُفتتَحُ السُّورةِ خِطابًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتداءً مِن قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] المَسوقِ مَساقَ التَّسليةِ له، وكان في مُعظَمِ ما في السُّورةِ مِن الأخبارِ ما يُخالِطُه في نفْسِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الكَدَرِ والأسَفِ على ضَلالِ قَومِه، وبُعْدِهم عمَّا جاءَهُم به مِن الهُدى؛ خُتِمَت السُّورةُ بأمْرِه بالصَّبرِ تَسليةً له، وبأمْرِه بالتَّسبيحِ وحمْدِ اللهِ، شُكرًا له على تَفضيلِه بالرِّسالةِ[1].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بمَعنى (على)؛ فتَكونَ لتَعديةِ فِعلِ (اصْبِرْ). ويَجوزُ فيها مَعنى (إلى)، أي: اصبِرْ إلى أنْ يَحكُمَ اللهُ بيْنَك وبيْنَهم. ويَجوزُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، فيكونَ ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هو ما حَكَم به مِن إرسالِه إلى النَّاسِ، أي: اصبِرْ لأنَّك تقومُ بما وجَبَ عليك؛ فلِلَّامِ في هذا المكانِ مَوقِعٌ جامعٌ لا يُفيدُ غيرُ اللَّامِ مِثلَه[2].

- والتَّفريعُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تَفريعُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: اصبِرْ لأنَّك بأعْيُنِنا، أي: بمرأًى مِنَّا وبمَحلِّ العِنايةِ والكِلاءةِ مِنَّا، ونحنُ نَعلَمُ ما تُلاقِيه وما يُريدَونه بك، فنحنُ نُجازيك على ما تَلْقاهُ، ونَحرُسُك مِن شَرِّهم، ونَنتقِمُ لك منهم. وقال: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: واصبِرْ لِحُكْمِنا، أو لحُكْمِ اللهِ؛ فإنَّ المَربوبيَّةَ تُؤذِنُ بالعِنايةِ بالمَربوبِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، وكذا في قِصَّةِ نُوحٍ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧ - ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٣، ٨٤).

الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، على الجَمْعِ، وقال في مَواضِعَ أُخَرَ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] على الإفرادِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا وحَّدَ الضَّميرَ هناك -وهو ياءُ المتكلِّم- وحَّدَ العَينَ، ولَمَّا ذكَرَ هاهنا ضَميرَ الجمْعِ في قولِه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ -وهو النُّونُ- جمَعَ العَينَ وقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وهذا مِن حيثُ اللَّفظُ. وأمَّا مِن حيثُ المعنى؛ فلأنَّ الحِفظَ هاهنا أتمُّ؛ لأنَّ الصَّبرَ مَطِيَّةُ الرَّحمةِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيثُ اجتمَعَ له النَّاسُ، وجمَعُوا له مَكايدَ، وتَشاوَروا في أمْرِه، وكذلك أمْرُه بالفُلكِ في قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وأمْرُه بالاتِّخاذِ عندَ عدَمِ الماءِ، وحِفْظُه مِن الغرَقِ -مع كَونِ كلِّ البِقاعِ مَغمورةً تحتَ الماءِ تَحتاجُ إلى حِفظٍ عَظيمٍ في نظَرِ الخلْقِ-[١]؛ فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وذلك خِلافُ قولِه في قِصَّةِ مُوسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]؛ فإنَّه تَعلُّقٌ واحِدٌ؛ بمَشْيِ أُختِه إلى آلِ فِرعونَ، وقولِها: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾[٢] [طه: ٤٠].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ للمُصاحَبةِ؛ جمْعًا بيْنَ تَعظيمِ اللهِ بالتَّنزيهِ عن النَّقائصِ، وبيْنَ الثَّناءِ عليه بأوْصافِ الكَمالِ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾: أفْرَدَ اللَّيلَ بالذِّكرِ دونَ النَّهارِ وقدَّمَه على الفِعلِ؛ لتَعظيمِه؛ لأنَّ العِبادةَ فيه أشقُّ على النَّفْسِ، وأبعَدُ مِن الرِّياءِ[٤].

(١) في مِثل قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

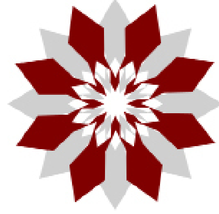
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١١).

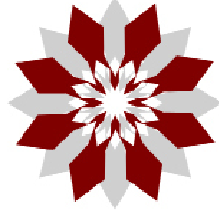
- وقولُه: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ اكتِفاءٌ[١]، أي: واحْمَدْه[٢].

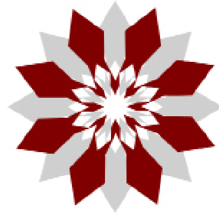


(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

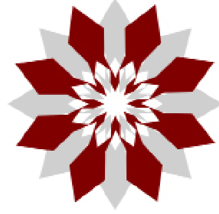
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

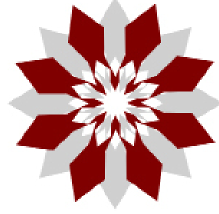


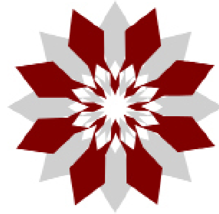




تَفْسِيرُ
سُورَةِ النَّجْمِ







سُورةُ النَّجْمِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّجْمِ)(١)، وممَّا يدُلُّ على ذلك ما يلي:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَجَد بالنَّجْمِ، وسَجَدَ معه المُسلِمونَ والمُشرِكونَ، والجِنُّ والإنسُ))(٢).

٢- عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قرأ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم النَّجْمَ فسَجَدَ))(٣).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- في سُورةِ النَّجْمِ سَجدةٌ.

وذلك عندَ قَولِه تعالى: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾(٤) [النَّجْم: ٦٢]. وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ النَّجمِ؛ لأنَّها ذُكِرَ فيها النَّجمُ، فافتُتِحَت بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٧).
وتُسمَّى أيضًا سُورةَ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ بواوٍ، بحكايةِ لفظِ القرآنِ الواقِعِ في أوَّلِها، ويدلُّ عليه حديثُ ابنِ مسعودٍ، وسيأتي (ص: ٣٧٨).
وتُسمَّى أيضًا ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ كما في حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قرَأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ...)) [مسلم (٥٧٧) وهو في البخاري (١٠٧٢) بدونِ قولِه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٥٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٥٧٦).

(٤) وهذا مَذهَبُ الجُمهورِ منَ الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، ((كشاف القناع)) للبُهوتي (١/ ٤٤٧).

وسلَّم قرأ سُورةَ النَّجْمِ، فسَجَد فيها، وما بقِيَ أحدٌ مِنَ القَومِ إلَّا سَجَدَ))(١).

٢- سورةُ النَّجْمِ أوَّلُ سُورةٍ أُنزِلَت فيها سَجدةٌ.

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (أوَّلُ سورةٍ أُنزِلتْ فيها سَجدةٌ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾)(٢).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ(٣)، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ(٤).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى(٥).

٢- تحقيقُ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صادِقٌ فيما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى(٦).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- افتُتِحَت السُّورةُ بقَسَمِ اللهِ تعالى بالنَّجْمِ، على صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٦٣).

(٣) قيل: إلَّا آيةً واحِدةً، وهي قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٦).

(٤) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٥٦).

وسلَّم فيما يُبَلِّغُه عن رَبِّه تعالى.

٤- وَصفُ جِبريلَ عليه السَّلامُ -وهو أمينُ الوَحيِ- بصِفاتٍ تدُلُّ على قُوَّته وشِدَّتِه، وعلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد رآه على هيئتِه الَّتي خَلَقه اللهُ عليها.

٥- الحديثُ عن آلهةِ المُشرِكينَ المزعومةِ، وبَيانُ أنَّها مُجَرَّدُ أسماءٍ أطلَقوها عليها، وأنَّها أوهامٌ لا حقائِقَ لها، وأنَّ العِبادةَ إنَّما تكونُ للهِ وَحْدَه.

٦- توبيخُ المُشرِكينَ على جَعْلِ الملائِكةِ إناثًا، وتَسميتِهم إيَّاهم بناتِ اللهِ.

٧- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عمَّن يَتولَّى عن ذِكرِ اللهِ، ويَشغَلُ نَفْسَه بالدُّنيا وَحْدَها؛ وتَسليتُه عمَّا لَحِقَه مِنَ المُشركينَ مِن أذًى.

٨- بيانُ مَظاهِرِ رَحمةِ اللهِ وعَدْلِه في خَلْقِه، وسَعةِ عِلمِه وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ، والتَّذكيرُ بمَن جاء قبْلَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الرُّسُلِ، وما حَلَّ بالأُمَمِ المكذِّبةِ بهم.

٩- التَّعَجُّبُ مِن استهزاءِ المُشركينَ بالقُرآنِ حِينَ سَماعِه، وغَفلتِهم عن مَواعِظِه.

١٠- خُتِمَت السُّورةُ بالأمرِ بالخُضوعِ لله وعبادتِه، والإخلاصِ له في العَمَلِ.



الآيات (١-١٨)

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ
إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا
فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا
رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا
جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ
رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوَىٰ﴾: أي: سَقَط، والهُوِيُّ: سُقوطٌ مِن عُلوٍ إلى سُفْلٍ، وأصلُه يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(١)].

﴿غَوَىٰ﴾: أي: اعتَقَد باطِلًا، وتجاوَزَ الحَقَّ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[(٢)].

﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾: أي: ما تَميلُ إليه النَّفْسُ، والهَوى: مَيلُ النَّفْسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاوِيةِ، وأصلُه يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿وَحۡيٞ﴾: الوَحْيُ هو كُلُّ ما ألْقَيْتَه إلى غَيْرِكَ حتَّى عَلِمه كيفَ كانَ: إمَّا بإرسالِ رسولٍ، أو بإلهامٍ، أو بكتابةٍ، أو بإشارةٍ، يُقالُ: وحَى إليه بالكلامِ وَحْيًا، وأوْحَى يُوحِي إيحاءً، وأصلُه: إعلامٌ في خفاءٍ[١].

﴿مِرَّةٖ﴾: أي: قُوَّةٍ وشِدَّةٍ، وأصلُ المِرَّةِ: مِن أمرَرْتُ الحَبلَ، أي: شَدَدتُ فَتْلَه[٢].

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾: أي: اعتَدَل واستقامَ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ، أو ارتَفَع وعلا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَينِ[٣].

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: أي: أُفُقِ السَّماءِ الَّذي هو أعلَى مِنَ الأرضِ. وقيل: أُفُقِ مَشرِقِ الشَّمسِ، والأُفُقُ: ناحِيةُ السَّماءِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تباعُدِ ما بيْنَ أطرافِ الشَّيءِ[٤].

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: أي: دَنا وقَرُبَ، والتَّدَلِّي: هو النُّزولُ إلى الشَّيءِ حتَّى يَقرُبَ منه، وأصلُ (دلي): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ ومُداناتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٩٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾: أي: قَدْرَ قَوسَينِ، والقَوسُ: ما يُرمَى به. وقيل: قَدْرَ ذِراعَينِ، والقَوسُ: الذِّراعُ يُقاسُ بها كُلُّ شَيءٍ، وهذا إشارةٌ إلى تأكيدِ القُربِ، وأصلُه: أنَّ الحليفَينِ مِنَ العَرَبِ كانا إذا أرادا عَقْدَ الصَّفاءِ والعَهدِ خَرَجا بقَوسَيهما فألصَقا بَيْنَهما؛ يُريدانِ بذلك أنَّهما مُتظاهِرانِ يُحامي كُلُّ واحِدٍ مِنهما عن صاحِبِه(١).

﴿الْفُؤَادُ﴾: أي: القلبُ، سُمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ(٢).

﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾: أي: أفتُجادِلونَه، والامتِراءُ والمُماراةُ: المحاجَّةُ فيما فيه مِريَةٌ، أي: ترَدُّدٌ، وأصلُ (مري): يدُلُّ على صَلابةٍ في شَيءٍ؛ لأنَّ المِراءَ كَلامٌ فيه بَعضُ الشِّدَّةِ(٣).

﴿نَزْلَةً﴾: أي: مَرَّةً، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه(٤).

﴿سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾: أي: شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ فَوقَ السَّماءِ السَّابعةِ، والمُنتَهى: أي: الانتِهاءِ، وقيلَ لها سِدرةُ المُنتهَى؛ لانتِهاءِ عِلمِ كُلِّ عالِمٍ مِنَ الخَلقِ إليها، أو لانتِهاءِ ما يَصعَدُ مِن تحتِها، ويَنزِلُ مِن فَوقِها إليها، وقيل غيرُ ذلك(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠، ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦، ٩١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣، ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠)، ((النهاية)) =

﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾: أي: الجنَّةُ الَّتي يَأوي ويَرجِعُ إليها المؤمِنونَ يومَ القيامةِ. وقيل: هي عن يَمينِ العَرشِ تأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ، والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيءٍ ومَرجِعُه الَّذي يعودُ إليه، وأصلُ (أوي): يدُلُّ على التَّجمُّعِ[(١)].

﴿زَاغَ﴾: أي: عَدَلَ ومالَ، والزَّيغُ: المَيلُ عنِ القَصْدِ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلٍ[(٢)].

﴿طَغَىٰ﴾: أي: زادَ وتَجاوَزَ، وأصلُ الطُّغيانِ: يدُلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

افتتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ بهذا القَسَمِ العظيمِ؛ بالقسَمِ بالنَّجْمِ إذا سَقَطَ على أنَّه ما حادَ رسولُ اللهِ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن الحَقِّ -يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ-، وما كان غاوِيًا مُتَّبِعًا لِهَواه، وما يَصدُرُ كَلامُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن هَوًى في نَفْسِه؛ فما نُطْقُه في الدِّينِ إلَّا وَحْيٌ يُوحيه اللهُ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن صفاتِ جبريلَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقد علَّم مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- هذا القُرآنَ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- الشَّديدُ القُوَى،

= لابن الأثير (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٧).

ذو الجِسمِ القَويِّ السَّالمِ مِنَ النَّقصِ، الجَميلُ ظاهِرًا وباطِنًا.

فارتَفَع جِبريلُ وعلا في السَّماءِ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ، وهو في ناحيةِ السَّماءِ العُليا، ثمَّ اقترَب جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وتدَلَّى إليه؛ لِيُوحيَ إليه ما شاء اللهُ، فكان مِقدارُ قُربِ جبريلَ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قَدْرَ قَوسَينِ، أو هو أقرَبُ، فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما أوحاه إليه مِنَ اللهِ تعالى، وما كَذَب قَلبُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما رآه ببَصَرِه.

ثمَّ يوبِّخُ الله تعالى المشركينَ على تكذيبِهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: أفتُجادِلونَه -يا كُفَّارَ قُريشٍ- على ما أخبَرَكم برُؤيتِه ليلةَ الإسراءِ؟! ولقد رأى محمَّدٌ جبريلَ مرَّةً أُخرى على صُورتِه الحَقيقيَّةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها عندَ شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ في السَّماءِ، تُسمَّى سِدْرةَ المنتهَى، عِندَ هذه الشَّجَرةِ جنَّةُ المأوى، وقد رأى محمَّدٌ جبريلَ حينَ غَشِيَ سِدْرةَ المُنتَهى ما غَشِيَها مِن أمْرِ اللهِ تعالى، فما مالَ بَصَرُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يَمينًا ولا شِمالًا، ولا تجاوَزَ الحدَّ الَّذي رآه، ولقد رأى محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ الآياتِ الكُبرى مِن آياتِ رَبِّه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالنَّجْمِ إذا سَقَط[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٩-٩١).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ هذا قسَمٌ. وفي المرادِ بالنَّجمِ خمسةُ أقوالٍ: =

= أحدُها: أنَّه الثُّرَيَّا، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وابنُ أبي نَجيح عن مُجاهِدٍ. قال ابنُ قُتَيْبةَ: والعربُ تُسمِّي الثُّريَّا -وهي ستَّةُ أنجُمٍ- نَجمًا. وقال غيرُه: هي سبعةٌ؛ فستَّةٌ ظاهرةٌ، وواحدٌ خفيٌّ يمتحِنُ به النَّاسُ أبصارَهم.

والثَّاني: الرُّجومُ مِن النُّجومِ، يعني ما يُرمى به الشَّياطينُ، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: أنَّه القرآنُ، نزَل نُجومًا متفرِّقةً، قاله عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، والأعمشُ عن مجاهِدٍ. وقال مجاهِدٌ: كان يَنزِلُ نُجومًا؛ ثلاثَ آياتٍ، وأربعَ آياتٍ، ونحوَ ذلك.

والرَّابعُ: نجومُ السَّماءِ كُلُّها، وهو مَرويٌّ عن مجاهدٍ أيضًا.

والخامسُ: أنَّها الزُّهَرةُ، قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧).

القولُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالنَّجمِ في الآيةِ: الثُّرَيَّا، فالمعنى: أُقسِمُ بالثُّرَيَّا إذا سقَطَت. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥، ٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وسُفْيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٠).

وتقدَّم أنَّ العربَ تُسمِّي الثُّريَّا نَجمًا، وتُطلِقُ اسمَه عليها خاصَّةً وإن كانت في العددِ نُجومًا. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٢).

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ: القَسَمُ بالنُّجومِ الَّتي تُرمَى بها الشَّياطينُ الَّذين يَستَرِقونَ السَّمعَ. وقد استظهَرَ ابنُ القَيِّمِ هذا القَولَ ورَجَّحه، وذكَرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ له اتِّجاهًا. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٤).

قال ابن القيِّم: (ويكونُ سُبحانَه قد أقسَمَ بهذه الآيةِ الظَّاهِرةِ المُشاهَدةِ الَّتي نصَبها اللهُ سُبحانَه آيةً وحِفظًا للوَحيِ مِنِ استِراقِ الشَّياطينِ له، على أنَّ ما أتى به رسولُه حقٌّ وصدقٌ، لا سبيلَ للشَّيطانِ ولا طريقَ له إليه، بل قد حُرِسَ بالنَّجمِ إذا هوى؛ رَصدًا بيْنَ يدَيِ الوحيِ، وحرسًا له. وعلى هذا فالارتباطُ بيْنَ المُقْسَمِ به والمقسَمِ عليه في غايةِ الظُّهورِ، وفي المقسَمِ به دليلٌ على المقسَمِ عليه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤٤).

القولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالنَّجمِ إذا هوى: القُرآنُ إذا نَزَل على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ؛ لأنَّه نَزَل مُنَجَّمًا، أي: مُفرَّقًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ =

= سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والواحديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٣، ٤٦٤).

قال الواحدي: (أُنزِلَ نُجومًا مُتفَرِّقةً على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عِشرينَ سَنةً، والمرادُ بالنَّجمِ: القُرآنُ، سُمِّيَ نَجمًا؛ لِتَفريقِه في النُّزولِ، والعَرَبُ تُسَمِّي التَّفريقَ تَنجيمًا، والمُفرَّقَ مُنَجَّمًا). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٠).

القولُ الرَّابعُ: أنَّ المرادَ: جَميعُ النُّجومِ في السَّماءِ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، واستظهَرَ هذا القَولَ: السَّمعانيُّ، ذاهِبًا إلى أنَّ النَّجمَ هنا بمعنى الجَمع، فالمعنى: أُقسِمُ بنُجومِ السَّماءِ إذا غابت وغارت. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧).

قال السَّمعانيُّ: (عُبِّر عنها باسمِ الجِنْسِ، وهذا أظهَرُ الأقاويلِ؛ لأنَّه يُطابقُ اللَّفظَ مِن كلِّ وجهٍ. ويجوزُ أن يُذكَرَ النَّجْمُ بمعنى النُّجومِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٣).

قال الألوسي: (وأظهَرُ الأقوالِ القولُ بأنَّ المرادَ بالنَّجمِ جِنسُ النَّجمِ المعروفِ؛ فإنَّ أصْلَه اسمُ جِنسٍ لكلِّ كوكبٍ، وعلى القولِ بالتَّعيينِ فالأظهَرُ القَولُ بأنَّه الثُّرَيَّا). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٥).

وقال ابنُ عطية: (قال الحَسَنُ ومَعْمَرُ بنُ المُثنَّى [أبو عُبَيْدةَ] وغَيرُهما: النَّجْمُ هنا: اسمُ جِنسٍ، أرادوا النُّجومَ إذا هَوَت، واختَلَف قائِلو هذه المقالةِ في معنى ﴿هَوَىٰ﴾؛ فقال جمهورُ المُفَسِّرينَ: هوى إلى الغُروبِ، وهذا هو السَّابِقُ إلى الفَهمِ مِن كَلامِ العَرَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٥). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٥).

وقال الشَّوكاني: (ومعنَى هُوِيِّه: سُقوطُه مِن علْوٍ، يُقالُ: هَوَى النَّجمُ يَهْوِي هُوِيًّا: إذا سَقَط مِن علْوٍ إلى سُفْلٍ، وقيل: غروبُه، وقيل: طلوعُه، والأوَّلُ أولَى، وبه قال الأصمعيُّ وغيرُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٦).

وقال السعدي: (يُقسِمُ تعالى بالنَّجمِ عند هُوِيِّه، أي: سُقوطِه في الأُفُقِ في آخِرِ اللَّيلِ عندَ إدبارِ اللَّيلِ وإقبالِ النَّهارِ؛ لأنَّ في ذلك مِن آياتِ اللهِ العَظيمةِ ما أوجَبَ أن أَقسَم به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨). =

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾.

أي: ما حادَ صاحِبُكم محمَّدٌ -يا قُرَيشُ- عن الحَقِّ، وما زالَ عن اعتِقادِه والإيمانِ به، وما صار غاويًا مُتَّبِعًا لِهَواه، بل هو مُهْتَدٍ في عِلْمِه، راشِدٌ في عَمَلِه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يس: ٣، ٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قد يكونُ مع الهُدى مُصادَفةً، قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ أي: يُجاوِزُ نُطقُه فَمَه في وَقتٍ مِن الأوقاتِ لا في الحالِ ولا في الاستِقبالِ، نُطقًا ناشِئًا ﴿ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[2].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾.

أي: وما يَصدُرُ كَلامُ مُحَمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن هَوًى في نَفْسِه[3].

= وقال ابن الجوزي: (على قولِ مَن قال: النَّجمُ: الثُّرَيَّا، يكونُ ﴿ هَوَىٰ ﴾ بمعنى: غابَ. ومَن قال: هو الرُّجومُ، يكونُ هُوِيُّها في رمْيِ الشَّياطينِ. ومَن قال: القرآن، يكونُ معنى ﴿ هَوَىٰ ﴾: نزَلَ. ومَن قال: نجومُ السَّماءِ كُلُّها، ففيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ هُوِيَّها أن تغيبَ. والثَّاني: أن تَنتثِرَ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧، ٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٤).

قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ جَوابُ قَسَمِ ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧)، =

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾.

أي: ما نُطقُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدِّينِ إلَّا وَحْيٌ يُوحِيه اللهُ إليه، فيَتَّبِعُه في نَفْسِه، ويُبَلِّغُه لِغَيرِه دونَ زيادةٍ أو نَقصٍ[(١)].

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٦).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ معناه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُبَلِّغُ عن اللهِ إلَّا شَيئًا أوحى اللهُ إليه أن يُبَلِّغَه، فمَن يَقولُ: إنَّه شِعرٌ أو سِحرٌ أو كِهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلينَ- هو أكذَبُ خَلقِ اللهِ وأكفَرُهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٦٥).

وحكى ابنُ عطيَّةَ الإجماعَ على أنَّ المرادَ به القرآنُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والخازنُ، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٦).

وقيل: المرادُ: نُطقُه في الدِّينِ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغويُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره ابنُ القيِّم، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧-٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٦).

قال ابنُ القيِّم: (قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأعاد الضَّميرَ على المصدَرِ المفهومِ مِن الفِعلِ، أي: ما نُطقُه إلَّا وَحيٌ يُوحى، وهذا أحسَنُ مِن قَولِ مَن جَعَل الضَّميرَ عائدًا إلى القُرآنِ؛ فإنَّه يَعُمُّ نُطقَه بالقُرآنِ والسُّنَّةِ، وأنَّ كِلَيهما وَحيٌ يُوحى). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤٧-٢٤٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقال البِقاعي: (﴿إِنْ﴾ أي: ما ﴿هُوَ﴾ أي: الَّذي يَتكلَّمُ به مِن القرآنِ وبيانِه، وكل أقوالِه وأفعالِه، وأحوالِه ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ أي: مِن الله تعالى). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٣). =

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الوَحيُ ظاهِرًا فيما بواسِطةِ المَلَكِ؛ تشَوَّف السَّامِعُ إلى بَيانِ ذلك؛ فقال مُبَيِّنًا له بأوصافِه؛ لأنَّ ذلك أضخَمُ في حَقِّه، وأعلَى لِمِقدارِه[1]:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾.

أي: علَّم مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذا القُرآنَ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- الشَّديدُ القُوى[2].

= وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ نَفيَ النُّطقِ عن هَوًى يَقتضي نَفيَ جنسِ ما يَنطِقُ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الاتِّصافِ بالصُّدورِ عن هوًى، سواءٌ كان القُرآنَ أو غيرَه من الإرشادِ النَّبويِّ بالتَّعليمِ والخطابةِ والمَوعِظةِ والحِكمةِ، ولكنَّ القُرآنَ هو المقصودُ؛ لأنَّه سَبَبُ هذا الرَّدِّ عليهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

وقال ابن عاشور: (النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَنطِقُ بغيرِ القُرآنِ عن وَحيٍ... وقد يَنطِقُ عن اجتِهادٍ، كأمْرِه بكَسرِ القُدورِ الَّتي طُبِخَت فيها الحُمُرُ الأهليَّةُ، فقيل له: أوْ نُهرِيقُها ونَغسِلُها؟ فقال: «أوْ ذاك» [البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢)]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨، ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥).

وقد حكى الإجماعَ على أنَّ المرادَ هنا: جبريلُ عليه السَّلامُ: الماوَرْديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني: جِبريلَ عليه السَّلامُ، في قَولِ سائرِ المفَسِّرينَ سِوى الحَسَنِ؛ فإنَّه قال: هو اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٥).

قال السعدي: (﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: شَديدُ القُوَّةِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، قَوِيٌّ على تنفيذِ ما أمَرَه اللهُ بتَنفيذِه، قَويٌّ على إيصالِ الوَحيِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَنْعِه مِن اختِلاسِ الشَّياطينِ له، أو إدخالِهم فيه ما ليس منه، وهذا مِن حِفظِ اللهِ تعالى لِوَحْيِه؛ أنْ أرسَلَه مع هذا الرَّسولِ القَوِيِّ الأمينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

وقال عزَّ شَأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ٦﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

أي: إنَّ جبريلَ ذو جِسمٍ قَويٍّ صَحيحٍ، سالمٍ مِنَ النَّقصِ، حَسَنُ الخَلْقِ، جَميلٌ ظاهِرًا وباطِنًا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥).
قال الماوَرْدي: (﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ فيه خَمسةُ أوجُهٍ:
أحدُها: ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ. الثَّاني: ذو غَناءٍ. الثَّالِثُ: ذو قُوَّةٍ ... الرَّابعُ: ذو صِحَّةٍ في الجِسمِ وسَلامةٍ مِنَ الآفاتِ. الخامِسُ: ذو عَقلٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩١، ٣٩٢).
ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ذو قُوَّةٍ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦).
ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، وسُفيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).
ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ذو صِحَّةٍ في الجِسمِ، وسَلامةٍ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ: ابنُ جرير. =

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾.

أي: فارتَفَع جِبريلُ وعلا في السَّماءِ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ[1].

= وأرجَعَ هذا إلى معنى القُوَّةِ؛ فإنَّه قال: (الجسمُ إذا كان كذلك مِنَ الإنسانِ كان قَوِيًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١).

قال ابنُ القيِّمِ: (الأظهَرُ: أنَّ المِرَّةَ هي الصِّحَّةُ والسَّلامةُ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وذلك يَستلزِمُ كَمالَ الخِلقةِ وحُسْنَها وجَمالَها؛ فإنَّ العاهةَ والآفةَ إنَّما تكونُ مِن ضَعفِ الخِلْقةِ والتَّركيبِ، فهي قُوَّةٌ وصِحَّةٌ تتضَمَّنُ جَمالًا وحُسنًا. واللهُ أعلَمُ). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (٢/ ١٢٩). بيْنَما اختار في موضِعٍ آخَرَ أنَّ المرادَ بالمِرَّةِ: المنظَرُ البَهِيُّ الجَميلُ. يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٧٧).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ: ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّه لا تنافيَ بيْنَ قولِ مَن قال: إنَّ المعنى: ذو قوَّةٍ، وقولِ مَن قال: المعنى: أنَّه ذو منظرٍ حسَنٍ؛ فجبريلُ عليه السَّلامُ ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ، وذو قُوَّةٍ شديدةٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: السعديُّ -وزاد جمالَ الباطنِ- وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٧).

وقيل: ذو حَصافةٍ في عَقْلِه ورَأيِه. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٦-٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: فاستوى جِبريلُ في أُفُقِ السَّماءِ على صُورتِه الَّتي خُلِقَ فيها. وكذا قَولُ ابنِ مَسعودٍ، وابنِ عَبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، وقَتادةَ، وعَلْقَمةَ، ومُرَّةَ بنِ شَراحِيلَ، وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ. وعن الحَسَنِ البَصريِّ: أنَّه اللهُ تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٥).

وقد ذهب الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، ومَكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والبغويُّ، والرَّسْعَنيُّ، والخازنُ: إلى أنَّ المعنى: فاستوى جِبريلُ ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأُفُقِ الأعلى. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١، ١٢)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير =

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

أي: وجِبريلُ في ناحيةِ السَّماءِ العُليا(١).

= الرسعني)) (٧/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٣).

قال ابنُ جرير: (وذلك لَمَّا أُسرِيَ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استوى هو وجِبريلُ عليهما السَّلامُ بمَطلِعِ الشَّمسِ الأعلى، وعَطَفَ الأعلى، وعَطَف بقَولِه: ﴿وَهُوَ﴾ على ما في قَولِه: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ مِن ذِكرِ -أي: ضَميرِ- محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأكثَرُ كَلامِ العَرَبِ إذا أرادوا العَطفَ في مِثلِ هذا الموضِعِ أن يُظهِروا كِنايةَ المعطوفِ عليه، فيقولوا: استوى هو وفُلانٌ، وقلَّما يقولونَ: استوى وفُلانٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١، ١٢).

وقد ضعَّف الزَّجَّاجُ، والواحِديُّ وغيرُهما أن يكونَ المعنى فاستوى أي: جِبريلُ ومحمَّدٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

وقَولُه: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي: علا؛ لأنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، فيُلْقِي الوَحْيَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم، ثمَّ يَصعَدُ إلى السَّماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

وقيل: فاستقام على صورةِ نفْسِه الحقيقيَّةِ، دُونَ الصُّورةِ الَّتي كان يتمثَّلُ بها كلَّما هبَطَ بالوحْيِ. قاله الزمخشريُّ، وتَبِعه البَيضاويُّ، والنَّسَفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٨).

ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ؛ منهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والزمخشريُّ، إلى تخصيصِ الأُفُقِ الأعلى المذكورِ في الآيةِ بجهةِ مَشرِقِ الشَّمسِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٤).

قال الواحدي: (قال مقاتلٌ ﴿وَهُوَ﴾ يعني: جِبريلَ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يعني: مِن قِبَلِ المَطلِعِ. وقال الكَلبيُّ: يعني مَطلِعَ الشَّمسِ، وهذا قَولُ الجَميعِ في الأُفُقِ الأعلى. يعني: أُفُقَ المَشرِقِ). =

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ثمَّ اقتَرَب جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وتدَلَّى إليه، فاقتَرَب منه أكثَرَ حِينَ هَبَط إليه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ؛ لِيُوحِيَ إليه ما شاء اللهُ[1].

= ((البسيط)) (٢١/ ١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، ومجاهدٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٤).

وقال الواحدي: (والمرادُ بالأعلى: جانِبُ المَشرِقِ، وهو فَوقَ جانِبِ المَغرِبِ، في صَعيدِ الأرضِ لا في الهواءِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٣).

وذهب ابنُ عَطيَّةَ إلى أنَّه لا دليلَ على تخصيصِه بجهةِ المَشرِقِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧).

قال السعدي: (أي: أُفُقِ السَّماءِ الَّذي هو أعلى مِنَ الأرضِ، فهو مِنَ الأرواحِ العُلويَّةِ الَّتي لا تنالُها الشَّياطينُ، ولا يتمَكَّنونَ مِنَ الوُصولِ إليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠٠-٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطية: (اختلَفَ النَّاسُ إلى مَن استنَد قولُه: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾؛ فقال الجُمهورُ: استنَد إلى جِبريلَ عليه السَّلامُ، أي: دنا إلى محمَّدٍ في الأرضِ عندَ حِرَاءٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧).

وقال ابنُ كثير: (هذه الرُّؤيةُ لجِبريلَ لم تكُنْ ليلةَ الإسراءِ، بل قَبْلَها، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأرضِ، فهَبَط عليه جبريلُ عليه السَّلامُ، وتدلَّى إليه، فاقتَرَب منه وهو على الصُّورةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها، له سِتُّمئةِ جَناحٍ، ثمَّ رآه بعدَ ذلك نَزلةً أُخرى عندَ سِدرةِ المُنتَهى، يعني: لَيلةَ الإسراءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٥).

وقال البِقاعي: (هذه النَّزْلةُ -واللهُ أعلَمُ- كانت على هذا التَّقديرِ في أوَّلِ الوَحيِ لَمَّا كان بحِراءٍ، وفَرِقَ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَجَع ترجُفُ بَوادِرُه، وقال: زَمِّلوني زَمِّلوني). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٦). =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ قالت: ((ذاكَ جِبريلُ، كان يأتيه في صُورةِ الرَّجُلِ، وإنَّه أتاه هذه المرَّةَ في صُورتِه الَّتي هي

= وقال أيضًا: (﴿فَتَدَلَّىٰ﴾... أي: أُنزِلَ إليه نُزولًا هو فيه كالمتدَلِّي إليه بحَبلٍ، فوَصَل إليه ولم ينفَصِلْ عن محَلِّه مِنَ الأُفُقِ الأعلى؛ لِما له مِن القُوَّةِ والاستِحكامِ؛ قال البَيضاوي: فإنَّ التَّدَلِّيَ هو استِرسالٌ مع تعَلُّقٍ، كتَدَلِّي الثَّمَرةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ هو جِبريلُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحَسَنُ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٧).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى اقترَب مِنَ النَّبيِّ لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ إلى السَّماءِ السَّابِعةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤).

أمَّا ما جاء في ((صحيحِ البُخاريِّ)) (٧٥١٧) مِن تصريحٍ بنِسبةِ ذلك إلى اللهِ؛ فقد قال ابنُ رَجَبٍ: (وفي روايةِ شَريكِ بنِ أبي نَمِرٍ، عن أنَسٍ: «ثمَّ علا به فَوقَ ذلك بما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، حتَّى جاء سِدْرةَ المنتهَى، ودنا الجبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ فتَدَلَّى، فكان قابَ قَوسَينِ أو أَدنى، فأوحى فيما يُوحِي خَمسينَ صَلاةً على أمَّتِك كلَّ يَومٍ ولَيلةٍ». وقد تفَرَّد شَريكٌ بهذه الألفاظِ في هذا الحديثِ، وهي ممَّا أُنكِرَت عليه فيه). ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣١٨).

قال ابنُ حَجَر: (قال الخَطَّابي: إنَّ الَّذي وقَع في هذه الرِّوايةِ مِن نِسبةِ التَّدَلِّي للجَبَّارِ عزَّ وجَلَّ مخالِفٌ لعامَّةِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وأهلِ التَّفسيرِ مَن تقَدَّم منهم ومَن تأخَّر. قال: والَّذي قِيلَ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: أنَّه دنا جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتدَلَّى: أي: تقَرَّبَ منه. وقيل: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، أي: تدَلَّى فَدَنَا؛ لأنَّ التَّدَلِّيَ بسَبَبِ الدُّنُوِّ. الثَّاني: تدَلَّى له جِبريلُ بعدَ الانتِصابِ والارتِفاعِ حتَّى رآه متدَلِّيًا كما رآه مُرتَفِعًا، وذلك مِن آياتِ اللهِ؛ حيثُ أَقدَرَه على أن يتدَلَّى في الهواءِ مِن غَيرِ اعتِمادٍ على شيءٍ، ولا تمسُّكٍ بشَيءٍ. الثَّالِثُ: دنا جِبريلُ فتَدَلَّى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ساجِدًا لرَبِّه تعالى؛ شُكرًا على ما أعطاه. قال: وقد رُوِيَ هذا الحديثُ عن أنَسٍ مِن غَيرِ طَريقِ شَريكٍ، فلم يُذكَرْ فيه هذه الألفاظُ الشَّنيعةُ، وذلك مِمَّا يُقَوِّي الظَّنَّ أنَّها صادِرةٌ مِن جِهةِ شَريكٍ. انتهى). ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٨٤). ويُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٤/ ٢٣٥٣).

صُورتُه؛ فسَدَّ الأُفُقَ!))(١).

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

أي: فكان مِقدارُ مَسافةِ قُربِ جِبريلَ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قَدْرَ قَوسَينِ، أو هو أقرَبُ إليه مِن ذلك(٢)!

عن أبي إسحاقَ الشَّيْبانيِّ، قال: ((سألتُ زِرَّ بنَ حُبَيْشٍ عن قَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٤) واللَّفظُ له، ومسلم (١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٧، ٩٨).

قال ابنُ كثير: (﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: بقَدْرِهما إذا مُدَّا. قاله مجاهِدٌ، وقَتادةُ. وقد قيل: إنَّ المرادَ بذلك بُعْدُ ما بيْنَ وَتَرِ القَوسِ إلى كَبِدِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بمعنى «بلْ»، أي: بلْ هو أدنى مِن ذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾... هذه الصِّيغة تُستَعمَلُ في اللُّغةِ لإثباتِ المُخبَرِ عنه، ونَفيِ ما زاد عليه، كقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بألْيَنَ مِن الحِجارةِ، بل هي مِثلُها أو تَزيدُ عليها في الشِّدَّةِ والقَسوةِ، وكذا قَولُه: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقَولُه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أي: ليسُوا أقَلَّ منها، بل هم مِئةُ ألْفٍ حَقيقةً، أو يَزيدونَ عليها. فهذا تحقيقٌ للمُخبَرِ به، لا شَكٌّ ولا تردُّدٌ؛ فإنَّ هذا ممتَنِعٌ هاهنا، وهكذا هذه الآيةُ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦، ٤٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

وقال ابن القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن مسافةِ هذا القُربِ بأنَّه قَدْرُ قَوسَينِ أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وَجهِ الشَّكِّ، بل تحقيقٌ لقَدْرِ المسافةِ، وأنَّها لا تَزيدُ عن قَوسَينِ البتَّةَ...، وهذا المعنى أحسَنُ وألطَفُ وأدَقُّ من قَولِ مَن جَعَلَ «أو» في هذه المواضِعِ بمعنى «بل»، ومِن قَولِ مَن جَعَلَها للشَّكِّ بالنِّسبةِ إلى الرَّائي، وقَولِ مَن جَعَلَها بمعنى الواوِ؛ فتَأمَّلْه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٥٠).

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، قال: أخبَرَني ابنُ مَسعودٍ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جِبريلَ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ))[١].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾.

أي: فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما أوحاه إليه مِنَ اللهِ تعالى[٢].

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿كَذَّبَ﴾ بتَشديدِ الذَّالِ، بمعنى: أنَّ فُؤادَ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُكَذِّبِ الَّذي رأى، ولم يَشُكَّ فيه، ولم يُنكِرْه، بل جعَلَه حَقًّا وصِدقًا. وقيل: المعنى: ما كَذَّب صاحِبُ الفؤادِ ما رأى[٣].

٢- قِراءةُ ﴿كَذَبَ﴾ بتَخفيفِ الذَّالِ، أي: ما كذَبَ فؤادُ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما رأى بعَينِه؛ فقد رأى الحَقَّ. وقيل: ما كَذَب فؤادُ مُحمَّدٍ محمَّدًا

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٨).

قال ابنُ كثير: (معناه: فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ ما أوحى، أو: فأوحى اللهُ إلى عَبدِه مُحمَّدٍ ما أوحى بواسِطةِ جِبريلَ، وكِلا المعنَيَينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٨).

(٣) قرأ بها هشامٌ عن ابنِ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦، ٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٣).

الَّذي رأى، ولكِنَّه صَدَقَه[1].

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾.

أي: ما كَذَب قَلبُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما رآه ببَصَرِه، بل صَدَقَه، وتحَقَّقَه وعَلِمَه يَقينًا[2].

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٩).
قال ابنُ الجوزي: (في الَّذي رأى قَولانِ:
أحدُهما: أنَّه رأى ربَّه عزَّ وجَلَّ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ.
والثَّاني: أنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي خُلِقَ عليها. قاله ابنُ مسعودٍ، وعائِشةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٦).
ونَسَب ابنُ عطيَّةَ القَولَ الثَّانيَ إلى جمهورِ العُلَماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٨).
قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: رأى محمَّدٌ رَبَّه بفُؤادِه، ولم يَرَه بعَينِه. ويكونُ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى جَعَل بَصَرَه في فؤادِه، أو خَلَق لفُؤادِه بَصَرًا، حتَّى رأى رَبَّه رُؤيةً غَيرَ كاذِبةٍ، كما ترى بالعَينِ. ومَذهَبُ جماعةٍ مِن المفَسِّرينَ: أنَّه رآه بعَينِه، وهو قَولُ أَنَسٍ، وعِكْرِمةَ، والحَسَنِ، وكان يَحلِفُ باللهِ لقد رأى محمَّدٌ رَبَّه. فكُلُّ هؤلاء أثبَتوا رُؤيةً صَحيحةً؛ إمَّا بالعَينِ، وإمَّا بالفُؤادِ، ومَذهَبُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ وعائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنهما في هذه الآيةِ: أنَّه رأى جِبريلَ في صُورتِه الَّتي خُلِقَ عليها). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٥).
وقال ابنُ كثير: (ومَن روى عنه بالبَصَرِ فقد أغرَبَ؛ فإنَّه لا يَصِحُّ في ذلك شَيءٌ عن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، وقَولُ البَغَويِّ في تفسيرِه: وذهب جماعةٌ إلى أنَّه رآه بعَينِه، وهو قَولُ أَنَسٍ والحَسَنِ وعِكْرِمةَ: فيه نظَرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٨). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٤).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا «الرُّؤيةُ» فالَّذي ثبت في الصَّحيح عن ابنِ عَبَّاسٍ أنَّه قال: «رأى محمَّدٌ رَبَّه بفُؤادِه مَرَّتينِ»، وعائِشةُ أنكَرَت الرُّؤيةَ؛ فمِنَ النَّاسِ مَن جمَع بيْنَهما، فقال: عائِشةُ أنكَرَت رُؤيةَ =

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، وإسكانِ الميمِ، مِن غيرِ ألفٍ، بمعنى: أفتَجْحَدونَه(١)؟

٢- قِراءةُ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ بضَمِّ التَّاءِ، وفَتحِ المَيمِ، وألِفٍ بعْدَها، بمعنى: أفتُجادِلونَه(٢)؟

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾.

= العَينِ، وابنُ عبَّاسٍ أثبَتَ رُؤيةَ الفُؤادِ. والألفاظُ الثَّابتةُ عن ابنِ عَبَّاسٍ هي مُطلَقةٌ أو مُقيَّدةٌ بالفُؤادِ؛ تارةً يقول: رأى محمَّدٌ رَبَّه، وتارةً يقولُ: رآه محمَّدٌ. ولم يَثبُتْ عن ابنِ عبَّاسٍ لَفظٌ صَريحٌ بأنَّه رآه بعَينِه... وليس في الأدِلَّةِ ما يقتضي أنَّه رآه بعَينِه، ولا ثَبَت ذلك عن أحَدٍ مِنَ الصَّحابةِ، ولا في الكِتابِ والسُّنَّةِ ما يدُلُّ على ذلك، بل النُّصوصُ الصَّحيحةُ على نَفْيِه أدَلُّ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٠٩، ٥١٠).

وقال الكرماني: (يحتَمِلُ أنَّ المَرئيَّ ما فَسَّره اللهُ تعالى بقَولِه: (﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾؛ ولهذا قال: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾، ولم يقُلْ: «مَن رأى»). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٥٤).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّ هذا ردٌّ لتكذيبِ مِنَ المُشركينَ فيما بلَغَهم مِن الخَبَرِ عن رُؤيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المَلَكَ جبريلَ، وهو الَّذي يُؤذِنُ به قَولُه بَعدُ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

وقال القرطبي: (المعنيانِ مُتداخِلانِ؛ لأنَّ مُجادَلَتَهم جُحودٌ. وقيل: إنَّ الجُحودَ كان دائِمًا منهم، وهذا جِدالٌ جَديدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٣).

أي: أفتُجادِلونَ مُحمَّدًا -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- على ما أخبَرَكم أنَّه رآه لَيلةَ الإسراءِ(١)؟

كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣)﴾.

أي: ولقد رأى محمَّدٌ جِبريلَ مرَّةً أُخرى على صُورتِه الحَقيقيَّةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥٣٢).

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ وأهلُ التَّأويلِ: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾ أفتُجادِلونَه). ((البسيط)) (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥١، ٤٥٣).

نسَب السمرقنديُّ والشوكانيُّ هذا المعنى المذكورَ إلى جُمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨).

قال الثعلبي: (وذلك أنَّ جبريلَ رآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على صُورتِه الَّتي خُلِقَ عليها مَرَّتَينِ: مَرَّةً بالأُفُقِ الأعلى في الأرضِ، ومَرَّةً عندَ سِدرةِ المُنتهى في السَّماءِ، وهذا قَولُ عائشة وأكثَرِ العُلَماءِ، وهو الاختيارُ؛ لأنَّه قَرَن الرُّؤيةَ بالمكانِ، فقال: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾، ولأنَّه قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عائشةُ، وابنُ مسعودٍ، وأبو هُرَيرةَ، ومجاهِدٌ، والرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٩).

وقد ذهب مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ إلى أنَّ المعنى: ولقد رأى محمَّدٌ رَبَّه بقَلبِه مرَّةً أُخرى. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ هذه هي المرَّةُ الثَّانيةُ الَّتي رأى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيها جبريلَ على صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، وكانت لَيلةَ الإسراءِ، وابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما كان يُثبِتُ الرُّؤيةَ لَيلةَ الإسراءِ، ويَستَشهِدُ =

عن مَسروقٍ، قال: قلْتُ: يا أُمَّ المؤمنينَ، أَنْظِريني، ولا تُعْجِليني، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أوَّلُ هذه الأمَّةِ سَأل عن ذلك رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ((إنَّما هو جِبريلُ، لم أرَهُ على صورتِه الَّتي خُلِق عليها غيرَ هاتَينِ المرَّتَينِ، رأيْتُه مُنهَبطًا مِن السَّماءِ، سادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بيْنَ السَّماءِ إلى الأرضِ!))(١).

﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤﴾.

أي: رأى محمَّدٌ جِبريلَ عندَ شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ في السَّماءِ تُسمَّى سِدرةَ المنتهَى(٢).

= بهذه الآيةِ. وتابَعَه جماعةٌ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، وقد خالفَه جماعاتٌ مِنَ الصَّحابةِ رَضِي اللهُ عنهم والتَّابِعينَ وغيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥١) بتصرف.

(١) أخرجه مسلم (١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣، ٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال أبو السعود: (والمُنْتهى مَوضِعُ الانتِهاءِ أو الانتِهاءُ، كأنَّها في مُنْتَهى الجنَّةِ. وقيلَ: إليها يَنْتهي عِلمُ الخلائقِ وأعمالُهم، ولا يَعلَمُ أحدٌ ما وراءَها. وقيل: يَنتهي إليها أرواحُ الشُّهداءِ. وقيل: يَنتهي إليها ما يَهبطُ مِن فَوقِها، ويَصعَدُ من تَحتِها). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ معنى المُنتَهى الانتهاءُ، فكأنَّه قال: عندَ سِدرةِ الانتهاءِ. وجائزٌ أن يكونَ قيل لها سِدرةُ المُنتَهى؛ لانتهاءِ عِلمِ كُلِّ عالِمٍ مِنَ الخَلقِ إليها، كما قال كَعبٌ. وجائزٌ أن يكونَ قيل ذلك لها؛ لانتهاءِ ما يَصعَدُ مِن تَحتِها، ويَنزِلُ مِن فَوقِها إليها، كما رُوِيَ عن عبدِ اللهِ [أي: ابن مسعود]. وجائزٌ أن يكونَ قيل ذلك كذلك؛ لانتِهاءِ كلِّ مَن خلا مِنَ النَّاسِ على سُنَّةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليها. وجائزٌ أن يكونَ قيل لها ذلك؛ لجَميعِ ذلك، ولا خبَرَ يَقطَعُ العُذرَ بأنَّه قيل ذلك لها لبَعضِ ذلك دونَ بَعضٍ، فلا قَولَ فيه أصَحُّ مِنَ القَولِ الَّذي قال رَبُّنا جَلَّ ثناؤُه، وهو أنَّها سِدرةُ المُنتَهى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٥، ٣٩٦).

وممَّن قال: إنَّها سمِّيت بذلك؛ لأنَّه يَنتهي إليها ما يَنزِلُ مِن عندِ الله، وما يَصعَدُ إليه مِن الأرضِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: =

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال -كما في قِصَّةِ الإسراءِ والمِعراجِ-: ((... ثمَّ ذَهَبَ بي إلى السِّدرةِ المُنتَهى، وإذا وَرَقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلالِ، فلمَّا غَشِيَها مِن أمرِ اللهِ ما غَشِيَ تغَيَّرَت، فما أحَدٌ مِن خَلقِ اللهِ يَستطيعُ أن يَنعَتَها؛ مِن حُسنِها، فأوحى اللهُ إلَيَّ ما أوحى!))(١).

= سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٥٠).

وممَّن قال: إنَّها سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّه إليها يَنتهي عِلمُ الخَلقِ، وما وراءَها لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وكعبُ الأحبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٩).

وجمَع البِقاعي بيْنَ هذينِ القَولينِ السَّابِقَينِ، فقال: (ويَنتَهي إليها عِلمُ الخلائِقِ، وينتهي إليها ما يَعرُجُ مِن تحتٍ وما يَنزِلُ مِن فَوقٍ، فيُتلَقَّى هنالِكَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٣).

قال الشربيني: (إضافةُ السِّدْرةِ إلى المُنتَهَى تَحتَمِلُ وُجوهًا:

أحدُها: إضافةُ الشَّيءِ إلى مكانِه، كقَولِك: أشجارُ بَلدةِ كذا... فالمُنتهى حينَئذٍ مَوضِعٌ لا يتعدَّاه مَلَكٌ،... قال كَعبٌ:... إليها يَنتهي عِلمُ الخلائِقِ، وما خَلْفَها غَيبٌ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى. وقيل: يَنتهي إليها ما هَبَط مِن فَوقِها، ويَصعَدُ مِن تَحتِها، وقال كَعبٌ: تنتهي إليها الملائِكةُ والأنبياءُ. وقال الرَّبيعُ: تنتهي إليها أرواحُ المؤمِنينَ.

وثانيها: إضافةُ المِلْكِ إلى مالِكِه، كقَولِك: دارُ زَيدٍ، وشَجَرُ زَيدٍ، وحينَئذٍ المُنتهَى فيه محذوفٌ تقديرُه: سِدرةُ المُنتهَى إليه. قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فالمنتهى إليه هو اللهُ تعالى، وإضافةُ السِّدْرةِ إليه حينَئذٍ كإضافةِ البَيتِ إليه للتَّشريفِ والتَّعظيمِ.

وثالِثُها: إضافةُ المحَلِّ إلى الحالِّ فيه، كقَولِك: كِتابُ الفِقهِ، وعلى هذا فالتَّقديرُ: سِدرةٌ عِندَها مُنتهى العُلومِ، فتُتَلَقَّى هناك). ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٤).

(١) رواه البخاريُّ (٣٨٨٧)، ومسلمٌ (١٦٢) واللَّفظُ له.

وفي حديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ، عن مالِكِ بنِ صَعصَعةَ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ الإسراءِ والمِعراجِ- قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... فأتَيْنا السَّماءَ السَّابعةَ، قيلَ: مَن هذا؟ قيل: جِبريلُ، قيلَ: مَن معك؟ قيل: محمَّدٌ. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ مَرحَبًا به، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ! فأتيتُ على إبراهيمَ فسَلَّمْتُ عليه، فقال: مَرحَبًا بك مِن ابْنٍ ونَبيٍّ، فرُفِعَ ليَ البَيتُ المعمورُ، فسألتُ جِبريلَ، فقال: هذا البَيتُ المَعمورُ، يُصَلِّي فيه كُلَّ يومٍ سَبعونَ ألْفَ ملَكٍ، إذا خَرَجوا لم يَعودوا إليه آخِرَ ما عليهم! ورُفِعَت لي سِدرةُ المُنتهى، فإذا نَبِقُها كأنَّه قِلالُ هَجَرَ، ووَرَقُها كأنَّه آذانُ الفُيولِ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُسرِيَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم انتُهِيَ به إلى سِدْرةِ المُنتَهى، وهي في السَّماءِ السَّادِسةِ، إليها يَنتَهي ما يُعرَجُ به مِنَ الأرضِ، فيُقبَضُ منها، وإليها ينتَهي ما يُهبَطُ به مِن فَوقِها، فيُقبَضُ منها))[٢].

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾.

أي: عِندَ شَجَرةِ سِدْرةِ المُنتَهى الجنَّةُ الَّتي يَأوي ويَصيرُ إليها المُؤمِنونَ يومَ القيامةِ[٣].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٣).

ذهب أكثَرُ العُلَماءِ -كما نَسَبه إليهم القاضي عِياضٌ وصَحَّحه- إلى أنَّ سِدرةَ المنتهى في السَّماءِ السَّابعةِ لا السَّادسةِ. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (١/ ٥٢٥).

وذهب القُرطبيُّ والنَّوويُّ إلى الجَمعِ بيْن الرِّوايةِ المرفوعةِ عن أنَسٍ الَّتي فيها أنَّ سِدرةَ المُنتَهى في السَّماءِ السَّابعةِ، والرِّوايةِ الموقوفةِ عن ابنِ مَسعودٍ الَّتي فيها أنَّها في السَّماءِ السَّادسةِ: بأنَّ سِدْرةَ المُنتهى أصلُها في السَّماءِ السَّادسةِ، وأعلاها في السَّماءِ السَّابعةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٥)، ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩].

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

أي: رأى محمَّدٌ جبريلَ حينَ غَشِيَ سِدْرةَ المُنتَهى ما غَشِيَها مِن أمْرِ اللهِ تعالى[1]!

= جزي)) (٢/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الجنَّةُ الَّتي وعَدها الله عبادَه، ويأْوي إليها المؤمنونَ يومَ القيامةِ: السمعانيُّ، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: الجنَّةُ الَّتي تأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال قَتادةُ وابنُ عبَّاسٍ بخِلافٍ: هي جنَّةٌ يأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ والمؤمنينَ، وليست بالجنَّةِ الَّتي وُعِدَ بها المؤمنونَ؛ جَنَّةَ النَّعيمِ، وهذا يحتاجُ إلى سَنَدٍ، وما أراه يَصِحُّ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩).

وقيل: هي الجنَّةُ الَّتي تأوي إليها الملائكةُ. وممَّن اختاره: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٨).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ قال عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ الجنَّةَ الَّتي يأوي إليها جِبريلُ والملائكةُ). ((البسيط)) (٢١/ ٣٢).

وقال جلالُ الدِّين المحلِّي: (﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تأوي إليها الملائكةُ وأرواحُ الشُّهداءِ والمتَّقينَ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: الجنَّةُ المعروفةُ بأنَّها مأوى المتَّقينَ؛ فإنَّ الجنَّةَ مُنتهى مراتِبِ ارتِقاءِ الأرواحِ الزَّكيَّةِ، وفي حديثِ الإسراءِ بعد ذِكرِ سِدرةِ المُنتهى: «ثمَّ أُدْخِلتُ الجنَّةَ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

وفي حديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ المِعراجِ- قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... ثمَّ انطَلَق بي جِبريلُ حتى نأتيَ سِدْرةَ المُنتَهى، فغَشِيَها ألوانٌ لا أدري ما هي!))[١].

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾.

أي: ما مالَ بَصَرُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَمينًا ولا شِمالًا، ولا تجاوَزَ الحدَّ الَّذي رآه[٢].

= (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال ابن عطية: (﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ معناه: مِن قُدرةِ اللهِ، وأنواعِ الصِّفاتِ الَّتي يختَرِعُها لها، وذلك مُبهَمٌ على جِهةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وقال مجاهِدٌ: تُبَدَّلُ أغصانُها دُرًّا وياقوتًا ونحوَه. وقال ابنُ مسعودٍ ومَسروقٌ ومجاهِدٌ: ذلك جَرادٌ مِن ذَهَبٍ كان يَغشاها... وقال الرَّبيعُ وأبو هُرَيرةَ: «كان تَغشاها الملائِكةُ كما تَغشى الطَّيرُ الشَّجَرَ»، وقيل غيرُ هذا ممَّا هو تكَلُّفٌ في الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أبهَمَ ذلك وهم يريدونَ شَرْحَه، وقد قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «فغَشِيَها ألوانٌ لا أدري ما هي»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠).

وقال ابن كثير: (قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾:... في أحاديثِ الإسراءِ أنَّه غَشِيَتْها الملائكةُ مِثلَ الغِرْبانِ، وغَشِيَها نورُ الرَّبِّ، وغَشِيَها ألوانٌ ما أدري ما هي). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤).

وقال السعدي: (﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾: أي: يَغْشاها مِن أمرِ اللهِ شيءٌ عظيمٌ لا يَعلَمُ وصْفَه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٩)، ومسلمٌ (١٦٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٧، ٩٨)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معناه: ولا تجاوَزَ المَرئيَّ، بل وَقَع عليه وُقوعًا صَحيحًا، وهذا تحقيقٌ للأمرِ، ونَفيٌ لِوُجودِ الرَّيبِ عنه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠).

وقال ابنُ القيِّم: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ما زاغ البَصَرُ يَمينًا ولا شِمالًا، ولا جاوزَ ما أُمِرَ به. وعلى هذا المفسِّرونَ؛ فنفى عن نبيِّه ما يَعرِضُ للرَّائي الَّذي لا أدَبَ له بيْنَ يدَي الملوكِ والعُظَماءِ مِن الْتِفاتِه يَمينًا وشِمالًا، ومُجاوَزةِ بَصَرِه لِما بيْنَ يدَيْه، وأخبَرَ عنه بكمالِ الأدَبِ في ذلك المقامِ =

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا قد أنكَروا الإسراءَ إنكارًا لم يقَعْ لهم في غَيرِه مِثْلُه؛ زاد في تأكيدِه على وَجهٍ يَعُمُّ غَيرَه، فقال[1]:

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾.

أي: لقد رأى محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ مِن آياتِ رَبِّه وعجائِبِ مُلكِه الآياتِ الكُبرى[2].

= وفي تلك الحَضرةِ؛ إذ لم يَلتفِتْ جانبًا، ولم يَمُدَّ بَصَرَه إلى غيرِ ما أُرِيَ مِن الآياتِ، وما هناك مِن العجائِبِ، بل قام مقامَ العَبدِ الَّذي أوجب أدَبُه إطراقَه وإقبالَه على ما أُرِيَ دونَ التفاته إلى غَيرِه، ودونَ تطَلُّعِه إلى ما لم يَرَه، مع ما في ذلك من ثباتِ الجَأشِ، وسُكونِ القَلبِ وطُمأنينته، وهذا غايةُ الكمالِ. وزَيغُ البَصَرِ: التِفاتُه جانِبًا. وطُغيانُه: مَدُّه أمامَه إلى حيثُ يَنتهي؛ فنَزَّه في هذه السُّورةِ عِلْمَه عن الضَّلالِ، وقَصْدَه وعَمَلَه عن الغَيِّ، ونُطْقَه عن الهوى، وفُؤادَه عن تكذيبِ بَصَرِه، وبصَرَه عن الزَّيغِ والطُّغيانِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦١، ٢٦٢). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: تجاوَزَ الحَدَّ إلى ما لم يُؤذَنْ له فيه، مع أنَّ ذلك العالَمَ غَريبٌ عن بني آدَمَ، وفيه مِنَ العجائِبِ ما يُحَيِّرُ النَّاظِرَ! بل كانت له العِفَّةُ الصَّادِقةُ المتوسِّطةُ بيْنَ الشَّرَهِ والزَّهادةِ، على أتمِّ قوانينِ العَدلِ، فأثبَتَ ما رآه على حقيقتِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٣).

قال ابنُ الجوزي: (للمُفَسِّرينَ في المرادِ بما رأى مِنَ الآياتِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه رأى رَفرَفًا أخضَرَ من الجنَّةِ قد سَدَّ الأُفُقَ. قاله ابنُ مسعودٍ.

والثَّاني: أنَّه رأى جبريلَ في صورتِه الَّتي يكونُ عليها في السَّمواتِ. قاله ابنُ زَيدٍ.

والثَّالِثُ: أنَّه رأى مِن أعلامِ ربِّه وأدلَّتِه الأعلامَ والأدِلَّةَ الكبرى. قاله ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن =

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ نفَى سُبحانَه عن رَسولِه الضَّلالَ المنافيَ للهُدى، والغَيَّ المنافيَ للرَّشادِ؛ فالهُدى في عِلمِه، والرَّشادُ في عَمَلِه، وهذان الأصلانِ هما غايةُ كَمالِ العَبدِ، وبهما سعادتُه وفَلاحُه، وبهما وَصَفَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم خُلَفاءَه، فقال: ((عليكم بسُنَّتي، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ مِن بَعْدِي))[1]. فالرَّاشِدُ ضِدُّ الغاوي، والمَهدِيُّ ضِدُّ الضَّالِّ،

= الجوزي)) (٤/ ١٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤).

قال القاسمي: (﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ يعني: المَلَكَ الَّذي عايَنَه، وأخبَره برسالتِه. وفيه غايةُ التَّفخيمِ لِمَقامِه، وأنَّه من الآياتِ الكُبَرِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٦٥).

ومِمَّن قال مِن السَّلفِ إنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي يكونُ عليها في السَّمواتِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ في روايةٍ، وابنُ زيدٍ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لأنَّ رُؤيةَ جِبريلَ هي مِن تمامِ نبُوَّتِه، وممَّا يُبَيِّنُ أنَّ الَّذي أتاه بالقُرآنِ مَلَكٌ لا شيطانٌ). ((النبوات)) (١/ ٥٣٣).

وقيل: المرادُ: ما رأى لَيلةَ الإسراءِ مِن الآياتِ العِظامِ وعجائبِ الملكوتِ ممَّا لا يحيطُ به الوصفُ مِنَ السَّمَواتِ والجنَّةِ والنَّارِ، والملائكةِ والأنبياءِ، وغيرِ ذلك. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، والنسفي، والخازن، وابنُ جُزَي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال الألوسي: (رأى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ آياتٍ كُبرى لَيلةَ المعراجِ لا تُحصى، ولا تَكادُ تُستقصَى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٢)، من حديث العرباض ابن سارية رضي الله عنه.

وهو الَّذي زَكَت نفْسُه بالعِلم النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِح، وهو صاحِبُ الهُدى ودينِ الحَقِّ، ولا يَشتَبِهُ الرَّاشِدُ المَهدِيُّ بالضَّالِّ الغاوي إلَّا على أجهَلِ خَلقِ اللهِ، وأعماهم قلبًا، وأبعَدِهم مِن حقيقةِ الإنسانيَّة؛ فالنَّاسُ أربَعةُ أقسام:

الأوَّلُ: ضالٌّ في عِلمِه، غاوٍ في قَصدِه وعَمَلِه، وهؤلاء شِرارُ الخَلقِ، وهم مُخالِفو الرُّسُلِ.

الثَّاني: مُهتَدٍ في عِلمِه، غاوٍ في قَصْدِه وعَمَلِه، وهؤلاء هم الأُمَّةُ الغَضَبيَّةُ ومَن تَشَبَّه بهم، وهو حالُ كُلِّ مَن عَرَف الحَقَّ ولم يَعمَلْ به.

الثَّالِثُ: ضالٌّ في عِلمِه، ولكِنَّ قَصْدَه الخَيرُ، وهو لا يَشعُرُ.

الرَّابعُ: مُهتَدٍ في عِلمِه، راشِدٌ في قَصدِه، وهؤلاء وَرَثةُ الأنبياءِ، وهم وإن كانوا الأقَلِّينَ عَدَدًا، فهم الأكثَرونَ عندَ اللهِ قَدْرًا، وهم صَفوةُ اللهِ مِن عِبادِه، وحِزبُه مِن خَلْقِه[1]. فصلاحُ العبدِ في أنَّه يَعلَمُ الحقَّ ويَعمَلُ به، فمَن لم يَعلَمِ الحقَّ فهو ضالٌّ عنه، ومَن عَلِمَه فخالفَه واتَّبَعَ هواه فهو غاوٍ، ومَن عَلِمَه وعَمِلَ به كان مِن أُولي الأيدي عَمَلًا، ومِن أُولي الأبصارِ عِلمًا، وهو الصِّراطُ المستقيمُ الَّذي أمَرَنا اللهُ سُبحانَه في كلِّ صلاةٍ أنْ نقولَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فالمغضوبُ عليهم: الَّذين يَعرِفونَ الحقَّ ولا يَتَّبِعونَه،كاليهودِ، والضَّالُّون: الَّذين يَعمَلونَ أعمالَ القُلوبِ والجَوارِحِ بلا عِلمٍ،كالنَّصارى[2].

= قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/ ١١٦٤)، والجورقاني في ((الأباطيل والمناكير)) (١/ ٤٧٢)، وابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٣٠٩)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٩/ ٥٨٢).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((حقوق آل البيت)) لابن تيمية (ص: ٣٧).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ أنَّ مَن لم يكُنْ رَشيدًا فهو إمَّا غاوٍ، وإمَّا ضالٌّ؛ فالغاوي مَن تَعَمَّدَ خِلافَ الحقِّ، والضَّالُّ مَن لم يَتعمَّدْ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: ما زاغ يَمْنةً ولا يَسْرةً عن مَقصودِه، ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: وما تجاوَزَ البَصَرُ، وهذا كمالُ الأدبِ منه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ أنْ قام مَقامًا أقامَه اللهُ فيه، ولم يَقصُرْ عنه، ولا تجاوَزَه، ولا حاد عنه. وهذا أكمَلُ ما يكونُ مِنَ الأدَبِ العَظيمِ الَّذي فاق فيه الأوَّلينَ والآخِرينَ؛ فإنَّ الإخلالَ يكونُ بأحَدِ هذه الأُمورِ: إمَّا ألَّا يَقومَ العَبدُ بما أُمِرَ به، أو يقومَ به على وَجهِ التَّفريطِ أو على وجهِ الإفراطِ، أو على وَجهِ الحَيدةِ يَمينًا وشِمالًا، وهذه الأمورُ كُلُّها مُنتَفِيَةٌ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أسرارٌ عَجيبةٌ، وهي مِن غوامِضِ الآدابِ اللَّائقةِ بأكمَلِ البَشَرِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تواطأَ هناك بصَرُه وبَصيرتُه، وتوافَقَا وتصادَقَا؛ فما شاهدَه بصَرُه فالبصيرةُ مواطِئةٌ له، وما شاهَدَتْه بصيرتُه فهو أيضًا حقٌّ مَشهودٌ بالبَصرِ، فتواطأَ في حقِّه مَشهَدُ البَصَرِ والبَصيرةِ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۞ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أي: ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رآه ببَصَرِه؛ ولهذا قرأَها أبو جعفرٍ: ﴿مَا كَذَّبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بتشديدِ الذَّالِ[3]، أي: لم يُكَذِّبِ الفُؤادُ البصرَ، بل صَدَّقَه وواطأَه؛ لصِحَّةِ الفُؤادِ والبَصَرِ، أو استِقامةِ البَصيرةِ والبَصَرِ، وكَونِ المرئيِّ المُشاهَدِ بالبَصَرِ والبَصيرةِ حقًّا، وقَرَأَ الجمهورُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بالتَّخفيفِ، وهو مُتَعَدٍّ، و﴿مَا رَأَىٰٓ ﴾ مَفعولُه، أي: ما كَذَبَ قَلبُه ما رأَتْه عَيناه، بل واطأَه ووافَقَه، فلِمُواطأةِ قلْبِه لقالَبِه، وظاهِرِه

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(٣) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٣٩٦).

لباطنِه، وبَصَرِه لبصيرتِه: لم يَكْذِبِ الفُؤادُ البَصَرَ، ولم يَتجاوَزِ البَصَرُ حدَّه فيَطغى، ولم يَمِلْ عنِ المرئيِّ فيَزيغَ، بلِ اعتدلَ البصرُ نحوَ المرئيِّ، ما جاوزَه ولا مالَ عنه، كما اعتدلَ القلبُ في الإقبالِ على اللهِ، والإعراضِ عمَّا سِواه؛ فإنَّه أقبَلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِه، وللقَلبِ زَيغٌ وطُغيانٌ، وكِلاهما مُنتَفٍ عن قَلبِه وبَصَرِه؛ فلم يَزِغْ قلبُه التِفاتًا عنِ اللهِ إلى غَيرِه، ولم يَطْغَ بمجاوزتِه مَقامَه الَّذي أُقيمَ فيه، وهذا غايةُ الكمالِ والأدبِ مع اللهِ الَّذي لا يَلحَقُه فيه سِواه؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ إذا أُقيمَتْ في مقامٍ عالٍ رفيعٍ أنْ تَتطَلَّعَ إلى ما هو أعلَى منه وفَوْقَه، ألَا ترى أنَّ موسى صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أُقيمَ في مقامِ التَّكليمِ والمُناجاةِ طَلَبت نَفْسُه الرُّؤيةَ؟! ونَبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أُقيمَ في ذلك المقامِ وَفَّاه حقَّه، فلم يَلتَفِتْ بَصَرُه ولا قَلبُه إلى غيرِ ما أُقيمَ فيه البَتَّةَ، ومِن أجْلِ هذا ما عاقَه عائِقٌ، ولا وَقَفَ به مُرادٌ حتَّى جاوزَ السَّمواتِ السَّبْعَ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ أقسَمَ سُبحانَه بالنُّجومِ على صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الوَحيِ الإلهيِّ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّ في ذلك مُناسَبةً عَجيبةً؛ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ النُّجومَ زِينةً للسَّماءِ، فكذلك الوَحيُ وآثارُه زينةٌ للأرضِ، فلولا العِلمُ الموروثُ عن الأنبياءِ لَكان النَّاسُ في ظُلمةٍ أشَدَّ مِنَ اللَّيلِ البَهيمِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أنَّ المعراجَ الَّذي حَصَلَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان بجسَدِه ورُوحِه؛ فالعبدُ -وكذلك الصَّاحبُ- لا يكونُ إلَّا في الرُّوحِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

والجَسَدِ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسرِيَ به بجَسَدِه ورُوحِه، وعُرِجَ به إلى السَّمَواتِ حتَّى بَلَغ مُستوًى بجَسَدِه ورُوحِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولو كان ذلك برُوحِه فقط ما أنكَرَت قُرَيشٌ ذلك؛ إذ إنَّ المناماتِ يَقَعُ منها شيءٌ كثيرٌ مِن جِنسِ هذا، ولكِنَّه كان صلَّى الله عليه وسلَّم قد أُسرِيَ به بجَسَدِه ورُوحِه، وعُرِجَ به إلى السَّمَواتِ كذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ عزَّ شأنُه أوجبَ اتِّباعَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يقولُه، وإنْ لم يكنْ مِن القُرآنِ، وأيضًا فرِسالتُه اقتَضَتْ صِدْقَه فيما يُخبِرُ به عنِ اللهِ تعالى مِن القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ؛ فوَجَبَ بذلك تصديقُه فيما أخبَرَ به، وإنْ لم يكُنْ ذلك مِن القُرآنِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؟

الجَوابُ: أنَّ المرادَ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا﴾ أي: عمَّا أنت عليه الآنَ مِنَ الشَّريعةِ، فهداك إليها، بخِلافِ هذه الآيةِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ﴾ دليلٌ على كمالِ عِلمِه ومَعرفتِه، وأنَّه على الحَقِّ المُبينِ، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ دليلٌ على كمالِ رُشدِه، وأنَّه أبَرُّ العالَمينَ؛ فهو الكامِلُ في عِلمِه وفي عَمَلِه[٤]. ففي ضِمنِ النَّفيِ الشَّهادةُ له بأنَّه على الهُدى والرَّشادِ[٥].

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥).

فالمُقسَمُ عليه: تَنزيهُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الضَّلالِ في عِلمِه، والغَيِّ في قَصدِه، ويَلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ مُهتديًا في عِلمِه، هاديًا حَسَنَ القَصدِ، ناصِحًا للأُمَّةِ، بعَكسِ ما عليه أهلُ الضَّلالِ مِن فَسادِ العِلمِ، وفَسادِ القَصدِ(١).

وإذا انتفَى عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الجهلُ، وانتفَى عنه الغَيُّ؛ تبيَّنَ أنَّ منهجَه صلَّى الله عليه وسلَّم عِلْمٌ ورُشْدٌ؛ عِلْمٌ ضِدُّ الجهلِ وهو الضَّلالُ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾، ورُشْدٌ ضِدُّ الغَيِّ ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إذًا النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كلامُه حقٌّ، وشريعتُه حقٌّ؛ لأنها عن عِلْمٍ ورُشْدٍ(٢).

٦- تولَّى الحقُّ سُبحانَه الرَّدَّ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾؛ أمَّا بقيَّةُ الأنبياءِ فدَفَعوا عن أنفُسِهم؛ قال سُبحانه عن نوحٍ -عليه السَّلامُ- وقومِه: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١]، وقال عن هودٍ -عليه السَّلامُ- وقومِه: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦، ٦٧]؛ فشَتَّانَ بيْنَ مَن دافَعَ عن نفْسِه، وبيْن مَن دافَعَ عنه ونَفَى عنه ربُّه(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ تَنزيهُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن النُّطقِ عن هوًى، وهذا يقتَضي التَّنزيهَ عن أن يَفعَلَ أو يَحكُمَ عن هوًى؛ لأنَّ التَّنزُّهَ عن النُّطقِ عن هوًى هو أعظَمُ مَراتِبِ الحِكمةِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (١/ ٥٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يُحتَجُّ به في جوازِ نَسخِ القُرآنِ وتَخصيصِه بالسُّنَّةِ(١).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ ما سَنَّه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فبِوَحيٍ سَنَّه(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]: أنَّ الأخْذَ بالسُّنَّةِ أخْذٌ بِكِتابِ اللهِ تعالى(٣).

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ لم يَقُلْ: «وما ينطِقُ بالهَوى»؛ لأنَّ نُطقَه عنِ الهوى أبلَغُ؛ فإنَّه يتضَمَّنُ أنَّ نُطقَه لا يَصدُرُ عن هوًى، وإذا لم يَصدُرْ عن هوًى فكيف يَنطِقُ به؟! فتضَمَّنَ نفْيَ الأمْرَينِ: نفْيَ الهَوى عن مَصدَرِ النُّطقِ، ونَفْيَه عن نفْسِه؛ فنُطقُه بالحَقِّ، ومَصدَرُه الهُدَى والرَّشادُ، لا الغَيُّ والضَّلالُ(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذه الآيَةَ الكَريمةَ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يجتَهِدُ في شَيءٍ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُبَّما اجتَهد في بَعضِ الأُمورِ، كما دلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقَولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فما الجَوابُ؟

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

الجوابُ مِن وجهَين:

الأوَّلُ: أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: في كُلِّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: كُلُّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى ﴿إِلَّا وَحْىٌ﴾ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه لا يقولُ على اللهِ شيئًا إلَّا بوَحيٍ منه تعالى، فالآيةُ رَدٌّ على الكُفَّارِ؛ حيث قالوا: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم افترى هذا القُرآنَ!

الثَّاني: أنَّه إنِ اجتَهَد فإنَّه إنَّما يجتَهِدُ بوَحيٍ مِنَ اللهِ يأذَنُ له به في ذلك الاجتِهادِ، وعليه فاجتِهادُه بوَحيٍ؛ فلا منافاةَ، ويدُلُّ لهذا الوَجهِ أنَّ اجتِهادَه في الإذنِ للمتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبوكَ أَذِنَ اللهُ له فيه؛ حيثُ قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، فلَمَّا أَذِنَ للمُنافِقينَ عاتَبَه بقَولِه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]؛ فالاجتِهادُ في الحقيقةِ إنَّما هو الإذنُ قبْلَ التَّبيُّنِ، لا في مُطلَقِ الإذنِ؛ للنَّصِّ عليه.

والَّذي يَظهَرُ أنَّ التَّحقيقَ في هذه المسألةِ: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُبَّما فَعَل بَعضَ المسائِلِ مِن غَيرِ وَحيٍ في خُصوصِه، كإذْنِه للمُتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبُوكَ قبْلَ أن يتبيَّنَ صادِقَهم مِن كاذِبِهم، وكأَسْرِه لأُسارى بَدرٍ، وكأَمْرِه بتَركِ تأبيرِ النَّخلِ(١)، وكقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو استَقبَلْتُ مِن أمري ما استَدبَرْتُ ...)) الحديثَ(٢). إلى غيرِ ذلك؛ وأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَنطِقُ بشَيءٍ مِن أجْلِ الهَوى، ولا يتكَلَّمُ بالهوى، وقَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ يعني: أنَّ كُلَّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى فهو وَحيٌ مِنَ اللهِ، لا بِهوًى ولا بكَذِبٍ ولا افتِراءٍ(٣).

(١) يُنظر ما أخرجه مسلمٌ (٢٣٦١).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٦٥١)، ومسلمٌ (١٢١٦) مطوَّلًا مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ أنَّ السُّنَّةَ وَحيٌ مِنَ اللهِ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وأنَّه مَعصومٌ فيما يُخبِرُ به عن اللهِ تعالى وعن شَرعِه؛ لأنَّ كَلامَه لا يَصدُرُ عن هوًى، وإنَّما يَصدُرُ عن وَحيٍ يُوحَى(١).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿يُوحَىٰ﴾ فائِدةُ المجيءِ بهذا الوَصفِ أنَّه ينفي المجازَ، أي: هو وَحيٌ حَقيقةً لا مُجرَّدُ تَسميةٍ، كقَولِك: هذا قَولٌ يُقالُ(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فوائِدُ، وتَنبيهٌ على أُمورٍ:

الأوَّلُ: أنَّ مَدْحَ المعَلِّمِ مَدحٌ للمُتعَلِّمِ؛ فلو قال: «عَلَّمه جِبريلُ» ولم يَصِفْه، ما كان يحصُلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَضيلةٌ ظاهِرةٌ.

الثَّاني: أنَّ فيه ردًّا عليهم حيثُ قالوا: أساطيرُ الأوَّلينَ سَمِعَها وَقتَ سَفَرِه إلى الشَّامِ! فقال: لم يُعَلِّمْه أحدٌ مِنَ النَّاسِ، بل مُعَلِّمُه شَديدُ القُوى، والإنسانُ خُلِقَ ضَعيفًا، وما أُوتيَ مِن العِلمِ إلَّا قَليلًا.

الثَّالثُ: فيه وُثوقٌ بقَولِ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ فقَولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمَعَ ما يوجِبُ الوُثوقَ؛ لأنَّ قُوَّةَ الإدراكِ شَرطُ الوُثوقِ بقَولِ القائِلِ؛ لأنَّا إنْ ظَنَنَّا بواحِدٍ فَسادَ ذِهنٍ، ثمَّ نَقَل إلينا عن بعضِ الأكابِرِ مَسألةً مُشكِلةً؛ فلا نَثِقُ بقَولِه، ونقولُ: هو ما فَهِمَ ما قال. وكذلك قُوَّةُ الحِفظِ؛ حتَّى لا نَقولَ: أدركَها لكِنْ نَسِيَها. وكذلك قُوَّةُ الأمانةِ؛ حتَّى لا نَقولَ: حَرَّفَها وغَيَّرَها؛ فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ لِيَجمعَ هذه الشَّرائِطَ، فيَصيرَ كقَولِه تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] إلى أن قال: ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٥٧).

الرَّابعُ: في تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي مِن حيثُ إنَّه إذا عُلِّمَ مُحمَّدٌ بواسِطةِ جِبريلَ يكونُ هذا نَقصًا عن دَرجتِه، فقال: ليس كذلك؛ لأنَّه شَديدُ القُوى يَثبُتُ لِمُكالمتِنا، وأنتَ بَعدُ ما استَوَيتَ، فتَكونُ كموسى حيثُ خَرَّ، فكأنَّه تعالى قد عَلَّمَه بواسِطةٍ، ثمَّ عَلَّمَه مِن غيرِ واسِطةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾[1] [النساء: ١١٣].

الخامسُ: أنَّه بقُوَّتِه يَمنَعُ الشَّياطينَ أن تَدنوَ مِن القُرآنِ، وأن يَنالوا منه شَيئًا، وأنْ يَزيدوا فيه أو يَنقُصوا منه، بل إذا رآه الشَّيطانُ هَرَبَ منه ولم يَقرَبْه.

السَّادسُ: أنَّه مُوالٍ لهذا الرَّسولِ الَّذي كذَّبتُموه، ومُعاضِدٌ له، ومُوادِدٌ له وناصِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومَن كان هذا القَويُّ وليَّه ومِن أنصارِه وأعوانِه ومُعَلِّمَه، فهو المَهديُّ المنصورُ، واللهُ هاديه وناصِرُه.

السَّابعُ: أنَّ مَن عادى هذا الرَّسولَ فقد عادى صاحِبَه ووليَّه جِبريلَ، ومَن عادى ذا القُوَّةِ والشِّدَّةِ فهو عُرضةٌ للهَلاكِ.

الثَّامنُ: أنَّه قادِرٌ على تنفيذِ ما أُمِرَ به؛ لقُوَّتِه، فلا يَعْجِزُ عن ذلك، مُؤَدٍّ له كما أُمِرَ به؛ لأمانتِه، فهو القَويُّ الأمينُ، وأحدُكم إذا انتَدبَ غيرَه في أمْرٍ مِن الأُمورِ لرسالةٍ أو وِلايةٍ أو وَكالةٍ أو غَيرِها فإنَّما يَنتدِبُ لها القويَّ عليه، الأمينَ على فِعلِه، وإنْ كان ذلك الأمرُ مِن أهمِّ الأُمورِ عندَه انتَدبَ له قويًّا أمينًا مُعظَّمًا ذا مكانةٍ عندَه، مُطاعًا في النَّاسِ، كما وَصَفَ اللهُ عبْدَه جِبريلَ بهذه الصِّفاتِ، وهذا يدُلُّ على عَظَمةِ شأنِ المُرسِلِ والرَّسولِ والرِّسالةِ والمُرسَلِ إليه؛ حيثُ انتَدبَ له الكَريمَ القويَّ المَكينَ عندَه، المُطاعَ في الملأِ الأعلى، الأمينَ حقَّ الأمينِ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣٧).

الملوكَ لا تُرسِلُ في مُهمَّاتِها إلَّا الأشرافَ ذوي الأقدارِ والرُّتَبِ العاليةِ[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الملائِكةَ بصِفاتٍ تقتضي أنَّهم أحياءٌ ناطِقونَ خارِجونَ عن قُوى البَشَرِ، وعنِ العُقولِ والنُّفوسِ الَّتي تُثبِتُها الفلاسِفةُ؛ فعُلِمَ أنَّ الملائِكةَ الَّتي أخبرَتْ عنها الأنبياءُ ليسوا مُطابِقينَ لِمَا يقولُه هؤلاء الفلاسِفةُ[٢]!

١٧- دلَّ القرآنُ على أنَّ المرئيَّ في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ هو جِبريلُ وليس اللهَ تعالى؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

أحدُها: أنَّه تعالى قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهذا جِبريلُ الَّذي وَصَفَه اللهُ بالقُوَّةِ في سُورةِ (التَّكويرِ)، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

الثَّاني: أنَّه تعالى قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: حَسَنُ الخَلْقِ، وهو الكريمُ المذكورُ في (التَّكويرِ).

الثَّالثُ: أنَّه تعالى قال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وهو ناحيةُ السَّماءِ العُليا، وهذا استِواءُ جِبريلَ بالأُفُقِ الأعلى، وأمَّا استِواءُ الرَّبِّ جلَّ جلالُه فعلى عَرشِه.

الرَّابعُ: أنَّه تعالى قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، فهذا دُنُوُّ جِبريلَ وتدَلِّيه إلى الأرضِ حيث كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

الخامسُ: أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، والمَرئيُّ عندَ السِّدْرةِ هو جِبريلُ قَطعًا، كما في حديث عائِشةَ رضيَ الله عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٩).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٠).

السَّادِسُ: أنَّ مُفَسَّرَ الضَّميرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾، وفي قَولِه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، وفي قَولِه: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: واحِدٌ؛ فلا يجوزُ أنْ يُخالَفَ بيْنَ المُفَسِّرِ والمُفَسَّرِ مِن غَيرِ دليلٍ.

السَّابِعُ: أنَّه سُبحانَه ذَكَر في هذه السُّورةِ الرَّسولَينِ الكَريمَينِ: المَلَكيَّ، والبَشَريَّ، ونَزَّه البَشَريَّ عن الضَّلالِ والغَوايةِ، ونَزَّه المَلَكيَّ عن أن يكونَ شَيطانًا قَبيحًا ضَعيفًا، بل هو قَويٌّ كريمٌ حَسَنُ الخَلْقِ، وهذا نظيرُ الوَصفِ المَذكورِ في سورةِ (التَّكويرِ) سَواءً.

الثَّامِنُ: أنَّه أخبَرَ هناك أنَّه رآه بالأُفُقِ المُبِينِ، وهاهنا أخبَرَ أنَّه رآه بالأُفُقِ الأعلى، وهو واحِدٌ وُصِفَ بصِفتَينِ؛ فهو مُبينٌ، وهو أعلى؛ فإنَّ الشَّيءَ كلَّما علَا بانَ وظَهَرَ.

التَّاسِعُ: أنَّه تعالى قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، والمِرَّةُ: الخَلْقُ الحَسَنُ المُحْكَمُ، فأخبَرَ عن حُسْنِ خَلْقِ الَّذي عَلَّمَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ ساق الخبَرَ كلَّه عنه نَسَقًا واحِدًا.

العاشِرُ: أنَّه لو كان خبَرًا عن الرَّبِّ سُبحانَه تعالى لَكان القُرآنُ قد دَلَّ على أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى رَبَّه سُبحانَه مرَّتَينِ: مرَّةً بالأُفُقِ، ومَرَّةً عندَ السِّدْرةِ، ومَعلومٌ أنَّ الأمرَ لو كان كذلك لم يَقُلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ وقد سأله: ((هل رأيْتَ رَبَّك؟ فقال: نورٌ أَنَّى أَراه؟!))[1]، فكيف يُخبرُ القُرآنُ أنَّه رآه مرَّتَينِ، ثمَّ يَقولُ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّى أَراه؟!))، وهذا أبلَغُ مِن قَولِه: لم أرَه؛ لأنَّه مع النَّفيِ يَقتَضي الإخبارَ عن عَدَمِ الرُّؤيةِ فقط، وهذا يتضَمَّنُ النَّفيَ وطَرَفًا مِنَ الإنكارِ على السَّائِلِ، كما إذا قال لرجُلٍ: هل كان كَيْتَ وكَيْتَ؟ فيقولُ: كيف يكونُ ذلك؟!

(١) أخرجه مسلمٌ (١٧٨) من حديث أبي ذَرٍّ رضيَ الله عنه.

الحادِيَ عَشَرَ: أنَّه لم يَتقدَّمْ للرَّبِّ جلَّ جلالُه ذِكْرٌ يعودُ الضَّميرُ عليه في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾، والَّذي يعودُ الضَّميرُ عليه لا يَصلُحُ له، وإنَّما هو لِعَبدِه.

الثَّانيَ عَشَرَ: أنَّه كيف يعودُ الضَّميرُ إلى ما لم يُذكَرْ، ويُترَكُ عَودُه إلى المذكورِ مع كَونِه أَولى به؟!

الثَّالثَ عَشَرَ: أنَّه قد تقدَّم ذِكرُ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، وأعاد عليه الضَّمائِرَ الَّتي تليقُ به، ثمَّ ذَكَر بعْدَه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ﴾ [النَّجم: ٥، ٦]، وأعاد عليه الضَّمائِرَ الَّتي تليقُ به، والخبَرُ كُلُّه عن هذينِ المُفَسَّرينِ، وهما الرَّسولُ المَلَكيُّ، والرَّسولُ البَشَريُّ.

الرَّابعَ عَشَرَ: أنَّهم لم يُمارُوه -صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- على رُؤيةِ رَبِّه، ولا أخبَرَهم بها؛ لِتقَعَ مُماراتُهم له عليها، وإنَّما مارَوه على رُؤيةِ ما أخبَرَهم مِنَ الآياتِ الَّتي أراه اللهُ تعالى إيَّاها، ولو أخبَرَهم برؤية الرَّبِّ تعالى لَكانت مُماراتُهم له عليها أعظَمَ مِن مُماراتِهم على رُؤيةِ المَخلوقاتِ.

الخامسَ عَشَرَ: أنَّه سُبحانَه قرَّرَ صِحَّةَ ما رآه الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ مُماراتَهم له على ذلك باطِلةٌ، بقَولِه: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[النَّجْم: ١٨]، فلو كان المَرئيُّ هو الرَّبَّ سُبحانَه وتعالى، والمُماراةُ على ذلك منهم؛ لَكان تقريرُ تلك الرُّؤيةِ أَولى، والمَقامُ إليها أحوَجَ. واللهُ أعلَمُ(١).

١٨- قولُه تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أصْلُه قابَيْ قوسٍ، أو قابَيْ قَوسيْنِ -بتَثنيةِ أَحَدِ اللَّفظينِ؛ المُضافِ والمُضافِ إليه، أو كِلَيْهما-؛ فوقَعَ إفرادُ أَحَدِ اللَّفظينِ أو كِلَيْهما تَجنُّبًا لِثقَلِ المُثنَّى، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠٠-٣٠٢).

[التحريم: ٤]، أي: قَلْباكُما[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ وصْفَ الإنسانِ بالعُبوديَّةِ للهِ يُعَدُّ كَمالًا؛ لأنَّ العُبوديَّةَ للهِ هي حَقيقةُ الحُرِّيَّةِ، فمَن لم يَتعبَّدْ له كان عابِدًا لغَيرِه[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أنَّ مَقامَ العُبوديَّةِ أشرَفُ مَقاماتِ الخَلقِ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في أشرَفِ مَقاماتِه وأعلاها بالعُبوديَّةِ، كما قال تعالى في صِفةِ لَيلةِ الإسراءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وقال في حَقِّه في مَقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[٣] [البقرة: ٢٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ثمَّ قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ دَلالةٌ على شِدَّةِ الوُصْلةِ والارتباطِ بينَ القَلبِ والبَصَرِ؛ ولهذا يَقرأُ الإنسانُ ما في قَلبِ الآخَرِ مِن عَينِه، وهذا كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ: نَظْمِه ونَثْرِه[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ وقَولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أنَّه لو كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رأى ربَّه بعَينِه لَكان ذِكْرُ ذلك أَولى[٥].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٠).

رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾ أنَّ المِعراجَ كان يَقَظةً؛ فالآياتُ صريحةٌ في أنَّ بَصَرَه رأى ما رآه في الملَأِ الأعلى، وأنَّه ما زاغ بَصَرُه وما طَغى، وقد ثَبَتَ أنَّ جَنَّةَ المأوى وسِدرةَ المُنتَهى في السَّماءِ لا في الأرضِ، فإذا رأى بعَينِه ما هنالك امتنعَ أنْ يكونَ ذلك مَنامًا، ودلَّ ذلك على أنَّ جَسَدَه كان هُنالك، ولكِنَّه سُبحانَه ذَكَرَ في سُورةِ (سُبحانَ): ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ [الإسراء: ١]؛ لأنَّه مِمَّا ذُكِرَ له دلائِلُه وشواهِدُه؛ وذلك تَمهيدًا لِمَا أخبَرَ به عن رُؤيةِ ما رآه عندَ سِدرةِ المُنتَهى، والقُرآنُ يدُلُّ على ذلك؛ حيثُ قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النَّجم: ٥ - ٧]، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣]، ثمَّ قال في (النَّجم): ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ ﴾ أي: رأى الَّذي رآه بالأُفُقِ الأعلى مرَّةً أُخرى ﴿ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۞ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴾ لَمَّا ذَكَر رؤيتَه لِجبريلَ عندَ سِدْرةِ المُنتَهى استطردَ منها، وذَكَر أنَّ جَنَّةَ المأوى عِندَها، وأنَّه يَغشاها مِن أمْرِه وخَلْقِه ما يَغشَى، وهذا مِن أحسَنِ الاستِطرادِ، وهو أسلوبٌ لطيفٌ جدًّا في القرآنِ، وهو نَوعانِ:

أحدُهما: أنْ يَستطرِدَ مِن الشَّيءِ إلى لازمِه، مِثلُ هذا، ومِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، ثمَّ استطردَ مِن جوابِهم إلى قَولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۞ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۞ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٧/ ٤٦).

تَرۡكَبُونَ ۞ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣]، وهذا ليس مِن جوابِهم، ولكنْ تقريرٌ له، وإقامةٌ للحُجَّةِ عليهم.

والنَّوعُ الثَّاني: أنْ يَستطرِدَ مِن الشَّخصِ إلى النَّوعِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۞ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخِرِه، فالأوَّلُ آدمُ، والثَّاني بَنُوه[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ سُؤالٌ: لِمَ اختِيرَت السِّدْرةُ لهذا الأمرِ دونَ غَيرِها مِنَ الشَّجَرِ؟

الجوابُ: قيل: لأنَّ السِّدْرةَ تَختَصُّ بثلاثةِ أوصافٍ: ظِلٍّ مديدٌ، وطَعمٌ لذيذٌ، ورائِحةٌ ذَكيَّةٌ؛ فشابهت الإيمانَ الَّذي يَجمَعُ قَولًا وعَمَلًا ونيَّةً؛ فظِلُّها بمنزلةِ العَمَلِ لِتَجاوُزِه، وطَعمُها بمنزِلةِ النِّيَّةِ لكُمونِه، ورائحتُها بمنزلةِ القَولِ لظُهورِه[٢].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ أي: الجنَّةُ الجامِعةُ لكُلِّ نَعيمٍ، بحيث كانت مَحَلًّا تنتهي إليه الأماني، وتَرغَبُ فيه الإراداتُ، وتأوي إليها الرَّغَباتُ، وهذا دليلٌ على أنَّ الجَنَّةَ في أعلَى الأماكِنِ، وفَوقَ السَّماءِ السَّابعةِ[٣]. وفي الآيةِ دَليلٌ أيضًا على أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ، وموجودةٌ الآنَ، ومَن زَعَم أنَّها غَيرُ مَخلوقةٍ فهو كافِرٌ بهذه الآيةِ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ يعني: المَصيرَ؛ مأوى مَن جَمعوا بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، يأْوُونَ إليها، ويَخلُدونَ فيها، وأمَّا النَّارُ فهي مأوى الكافِرينَ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٥).

-والعِياذُ باللهِ-، وفي هذا دليلٌ واضِحٌ على أنَّ غايةَ الخلائِقِ -الجِنِّ والإنسِ- إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ، ولا ثالثَ لهما، فالجِنُّ والإنسُ إمَّا في النَّارِ، وإمَّا في الجَنَّةِ(١).

٢٨- يُستفادُ مِن قوله: ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ أنَّ القُبورَ ليست هي المَأوى والمَثوى؛ لأنَّ القبورَ مَمَرٌّ ومَعبَرٌ؛ إذ إنَّ وراءَ القُبورِ بَعْثًا(٢).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ إمَّا كبيرةٌ، وإمَّا كُبرَى عُظمَى؛ لأنَّ «الكُبرَى» اسمُ تَفضيلٍ، ولا يقالُ: إنَّ مِن آياتِ اللهِ ما هو صغيرٌ؛ فالمِعْراجُ الَّذي حَصَل لا شَكَّ أنَّه مِن الآياتِ الكُبرى العَظيمةِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسَمَ اللهُ تعالى بالنَّجمِ؛ لِما في خلْقِه مِن الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدْرةِ اللهِ تعالَى(٤).

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بالنَّجْمِ إذا هَوَى: أنَّ الكلامَ مَسوقٌ لإثباتِ أنَّ القُرآنَ وحْيٌ مِن اللهِ مُنزَّلٌ مِن السَّماءِ، فشابَهَ حالُ نُزولِه الاعتباريِّ حالَ النَّجْمِ في حالةِ هُوِيِّه مُشابَهةً تَمثيليَّةً حاصلةً مِن نُزولِ شَيءٍ مُنيرٍ إنارةً مَعنويَّةً نازِلٍ مِن مَحلِّ رِفعةٍ مَعنويَّةٍ، شُبِّهَ بحالةِ نُزولِ نَجْمٍ مِن أعْلى الأُفُقِ إلى أسْفلِه، وهو مِن تمثيلِ المعقولِ بالمحسوسِ، أو الإشارةُ إلى مُشابَهةِ حالةِ نُزولِ جِبريلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٠).

مِن السَّموات بحالةِ نُزولِ النَّجْمِ مِن أعلى مَكانِه إلى أسْفَلِه، أو بانقِضاضِ الشِّهابِ؛ تَشبيهُ مَحسوسٍ بمَحسوسٍ(١)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَعريفُ (النَّجْم) باللَّامِ يَجوزُ أنْ يكونَ للجِنسِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تَعريفَ العَهْدِ، وأشهَرُ النُّجومِ بإطلاقِ اسمِ النَّجمِ عليه: الثُّرَيَّا؛ لأنَّهم كانوا يُوقِّتون بأزمانِ طُلوعِها مَواقيتَ الفُصولِ ونُضْجَ الثِّمارِ. وقيل: النَّجْمُ: الشِّعْرى اليَمانيَةُ، وهي العَبورُ، وكانتْ مُعظَّمةً عندَ العرَبِ، وعبَدَتْها خُزاعةُ(٢).

- وفي ذِكْرِ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ احتراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ المشرِكون أنَّ في القسَمِ بالنَّجْمِ إقرارًا لعِبادةِ نَجمِ الشِّعْرى؛ فإنَّ حالةَ الغُروبِ المُعبَّرَ عنها بالهُوِيِّ حالةُ انخفاضٍ ومَغيبٍ في تَخيُّلِ الرَّائي؛ لأنَّهم يَعُدُّون طُلوعَ النَّجمِ أَوْجًا لشَرَفِه، ويَعُدُّون غُروبَه حَضيضًا، وتلك اعتباراتٌ لهم تَخيليَّةٌ شائعةٌ بيْنَهم، فمِن النَّافعِ مَوعظةُ النَّاسِ بذلك؛ لأنَّه كافٍ في إقناعِهم وُصولًا إلى الحقِّ، فيَكونُ قولُه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إشعارًا بأنَّ النُّجومَ كلَّها مُسَخَّرةٌ لقُدْرةِ اللهِ تعالى، مُسيَّرةٌ في نِظامٍ أوجَدَها عليه، ولا اختيارَ لها، فليست أهْلًا لأنْ تُعبَدَ، فحصَلَ المَقصودُ مِن القسَمِ بما فيها مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الإلهيَّةِ، مع الاحتراسِ عن اعتقادِ عِبادتِها(٣).

- وفي الإقْسامِ بالنَّجْمِ إذا هَوى -على نَزاهتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن شائبةِ الضَّلالِ والغَوايةِ- مِن البَراعةِ البَديعةِ وحُسْنِ المَوقعِ ما لا غايةَ وَراءَه؛ لأنَّ النَّجْمَ شأْنُه أنْ يَهتدِيَ بهِ السَّاري إلى مَسالكِ الدُّنيا، كأنَّه قِيل: والنَّجمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣٣).

الَّذي يَهتدِي به السَّابلةُ[١] إلى سَواءِ السَّبيلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ فيه تَنْويهٌ بشأْنِ القُرآنِ، وتَنبيهٌ على مَناطِ اهتِدائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَدارِ رَشادِه، كأنَّه قيلَ: والقُرآنِ الَّذي هو عَلَمٌ في الهِدايةِ إلى مَناهجِ الدِّينِ، ومَسالكِ الحقِّ؛ ما ضلَّ عنها محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما غَوى[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ لم يَقُلْ: ما ضَلَّ محمَّدٌ؛ تأكيدًا لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بأنَّه صاحِبُهم، وهم أعلَمُ الخَلقِ به وبحالِه وأقوالِه وأعمالِه، وأنَّهم لا يَعرِفونَه بكَذِبٍ ولا غَيٍّ ولا ضَلالٍ، ولا يَنقِمونَ عليه أمرًا واحِدًا قَطُّ، وقد نَبَّه على هذا المعنى بقَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، وبقَولِه تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢][٤]، فإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ صاحبيَّتِه ﴿صَاحِبُكُمْ﴾؛ للإيذانِ بوُقوفِهم على تَفاصيلِ أحوالِه الشَّريفةِ، وإحاطتِهم خُبْرًا ببَراءتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا نُفِيَ عنه بالكُلِّيَّةِ، واتِّصافِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بغايةِ الهُدَى والرَّشادِ؛ فإنَّ طُولَ صُحبتِهم له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومُشاهدَتَهم لِمَحاسنِ شُؤونِه العظيمةِ؛ مُقْتضيةٌ لذلكَ حتْمًا. وللتَّعريضِ بأنَّهم أهلُ بُهتانٍ؛ إذ هو بيْنَهم في بلَدٍ لا تَتعذَّرُ فيه إحاطةُ عِلمِ أهلِه بحالِ واحدٍ مُعيَّنٍ مَقصودٍ من بيْنِهم[٥].

(١) السَّبيلُ: الطَّريقُ، وما وَضَح منه، والسَّابلةُ: القومُ المُختَلفَةُ عليها في حوائِجِهم، جمعُ سَابلٍ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٢٦٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٢).

وأيضًا فإنَّه إذا كان صاحبَهم فإنَّ مقتضَى الصُّحبةِ أنْ يُصَدِّقُوه ويَنصروه؛ لا أنْ يكونوا أعداءً له(١).

- وهذا ردٌّ مِن اللهِ تعالَى على المشرِكينَ، وإبطالٌ لقولِهم في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّهم قالوا: مَجنونٌ، وقالوا: ساحِرٌ، وقالوا: شاعِرٌ، وقالوا في القُرآنِ: إنْ هذا إلَّا اختِلاقٌ، فالجنونُ مِن الضَّلالِ؛ لأنَّ المَجنونَ لا يَهْتدي إلى وَسائلِ الصَّوابِ، والكذِبُ والسِّحرُ ضَلالٌ وغَوايةٌ، والشِّعرُ المُتعارَفُ بيْنَهم غَوايةٌ(٢).

- وقدْ ذُكِرَتِ الضَّلالةُ والغَوايةُ وهما غيرُ مُتَّحِدَتَينِ في المعْنى؛ إذ الضَّلالةُ ضِدُّ الهُدى، والغَوايةُ ضِدُّ الرُّشْدِ، أو المعْنى: ما ضلَّ في قولِه، ولا غَوَى في فِعلِه. وبتَقديرِ اتِّحادِهما يكونُ ذلك مِن بابِ التَّأكيدِ باللَّفظِ المُخالِفِ مع اتِّحادِ المعْنى(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ عطْفٌ على جَوابِ القَسَمِ، وهذا وصْفُ كَمالٍ لِذاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: وما يَصدُرُ نُطقُه بالقُرآنِ -على قول- عن هَواهُ ورأْيِه أصلًا؛ فإنَّ المرادَ استِمرارُ نفْيِ النُّطقِ عن الهوَى، لا نفْيُ استِمرارِ النُّطقِ عنه(٤).

- و(ما) نافيةٌ، نَفَتْ أنْ يَنطِقَ عن الهَوى، ونفْيُ النُّطقِ عن هوًى يَقْتضي نفْيَ جِنسِ ما يَنطِقُ به عن الاتِّصافِ بالصُّدورِ عن هوًى، سواءٌ كان القرآنَ أو غيرَه مِن الإرشادِ النَّبويِّ بالتَّعليمِ والخَطابةِ، والمَوعظةِ والحِكمةِ، ولكنَّ القُرآنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٢، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

هو المَقصودُ؛ لأنَّه سَببُ هذا الرَّدِّ عليهم[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لجُملةِ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[٢] [النَّجْم: ٣].

- وضَميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى المَنطوقِ به، المأخوذِ مِن فِعلِ ﴿يَنطِقُ﴾. ويَجوزُ أنْ يَعودَ الضَّميرُ إلى مَعلومٍ مِن سِياقِ الرَّدِّ عليهم؛ لأنَّهم زَعَموا في أقوالِهم المَردودةِ بقَولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النَّجْم: ٢]؛ زَعَموا القُرآنَ سِحرًا، أو شِعرًا، أو كِهانةً، أو أساطيرَ الأوَّلينَ، أو إفْكًا افتراهُ[٣]!

- وجُملةُ ﴿يُوحَىٰ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، مع دَلالةِ المُضارِعِ على أنَّ ما يَنطِقُ به مُتجدِّدٌ وحْيُه غيرُ مُنقطِعٍ[٤].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُوحَىٰ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: إليه، أي: إلى صاحِبِكم[٥].

- وتُركَ فاعلُ ﴿يُوحَىٰ﴾ لضَرْبٍ مِن الإجمالِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ لأنَّه سيَرِدُ بعْدَه ما يُبيِّنُه مِن قولِه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[٦] [النَّجْم: ١٠].

- وجُملةُ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ...﴾ إلخ، مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لبَيانِ كَيفيَّةِ الوحْيِ[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٩٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وضَميرُ الغائبِ في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدٌ إلى الوَحْيِ، أو إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ﴾، وضَميرُ (هو) يَعودُ إلى القُرآنِ، وهو ضَميرٌ في مَحلِّ أحَدِ مَفعولَيْ (علَّم)، وهو المَفعولُ الأوَّلُ، والمفعولُ الثَّاني مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: علَّمه إيَّاهُ، يَعودُ إلى ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾ [النَّجْم: ٢]. ويَجوزُ جَعْلُ هاءِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدًا إلى ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾، والمَحذوفُ عائدٌ إلى ﴿وَحۡيٞ﴾؛ إبطالًا لقولِ المُشرِكين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾(١) [النحل: ١٠٣].

- و﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ صِفةٌ لَمحذوفٍ يدُلُّ عليه ما يُذكَرُ بعْدُ ممَّا هو مِن شُؤونِ الملائِكةِ، أي: مَلَكٌ شَديدُ القُوى(٢).

- والمِرَّةُ: تُطلَقُ على قوَّةِ الذَّاتِ، وتُطلَقُ على مَتانةِ العقْلِ وأصالتِه. وتَخصيصُ جِبريلَ بهذا الوَصْفِ يُشعِرُ بأنَّه الملَكُ الَّذي يَنزِلُ بفُيوضاتِ الحِكمةِ على الرُّسلِ والأنبياءِ(٣).

- وقولُه: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ مُفرَّعٌ على ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ بطَريقِ التَّفسيرِ، والفاءُ لتَفصيلِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾؛ فإنَّه إلى قولِه تعالى: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ التعليمِ، أي: فاستقامَ على صُورتِه الَّتي خلَقَه اللهُ تعالَى عليها دونَ الصُّورةِ الَّتي كانَ يَتمثَّلُ بها كلَّما هبَطَ بالوحْيِ. وقيلَ: استوَى بقُوَّتِه على ما جُعلَ له مِن الأمرِ(٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وصْفُ الأُفقِ بالأعْلى يُفيدُ أنَّه ناحيةٌ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥، ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٦).

جَوِّ السَّماءِ؛ وذُكِرَ هذا ليُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾

- (ثُمَّ) عاطفةٌ على جُملةِ ﴿فَاسْتَوَى﴾ [النَّجْم: ٦]، والتَّراخي الَّذي تُفيدُه (ثُمَّ) تراخٍ رُتبيٌّ؛ لأنَّ الدُّنوَّ إلى حيثُ يَبلُغُ الوحيُ هو الأهمُّ في هذا المقام، والدُّنوُّ: القُربُ، وإذ قدْ كان فِعلُ الدُّنوِّ قدْ عُطِفَ بحَرْفِ (ثُمَّ) على ﴿فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾؛ عُلِمَ أنَّه دنَا إلى العالَمِ الأرضيِّ، أي: أخَذَ في الدُّنوِّ بعدَ أنْ تلقَّى ما يُبلِّغُه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- و(تدلَّى): انخفَضَ مِن عُلُوٍّ قليلًا، أي: ينزِلُ مِن طَبَقاتٍ إلى ما تحتَها كما يَتدَلَّى الشَّيءُ المُعلَّقُ في الهواءِ، بحيثُ لو رآهُ الرَّائي يَحسَبُه مُتدلِّيًا وهو ينزِلُ مِن السَّماءِ غيرَ مُنقَضٍّ[3].

- قولُه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: فكان مِقدارُ مَسافةِ قُربِه مِثلَ قابِ قوسَيْنِ، فحُذِفَت هذه المُضافاتُ[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن المُعاهَدةِ على لُزومِ الطَّاعةِ؛ لأنَّ الحَليفَينِ في عُرْفِ العربِ إذا تحالَفا على الوفاءِ والصَّفاءِ، أَلْصَقا وتَرَيْ قَوسَيْهما[5].

- وحرْفُ (أَوْ) في قولِه: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ للتَّخييرِ في التَّقديرِ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقريبِ، أي: إنْ أراد أحدٌ تقريبَ هذه المسافةِ، فهو مُخيَّرٌ بيْنَ أنْ يَجعلَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢٠).

قابَ قوسَينِ أو أدْنى، أي: لا أزيَدَ؛ إشارةً إلى أنَّ التَّقديرَ لا مُبالَغةَ فيه[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾

- تفرَّعَ قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ على قولِه: ﴿فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ المُفرَّعِ على المُفرَّعِ على قَولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهذا التَّفريعُ هو المَقصودُ مِن البَيانِ، وما قبْلَه تَمهيدٌ له، وتَمثيلٌ لأحوالٍ عَجيبةٍ بأقرَبِ ما يَفهَمُه النَّاسُ؛ لقصْدِ بَيانِ إمكانِ تَلقِّي الوحْيِ عن اللهِ تعالى؛ إذ كان المشرِكون يُحِيلونه[٢].

- وضَميرُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالى المَعلومِ مِن قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجْم: ٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ، والمعْنى: فأَوحَى اللهُ إلى عَبْدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا كافٍ في هذا المَقامِ؛ لأنَّ المَقصودَ إثباتُ الإيحاءِ لإبطالِ إنكارِهم إيَّاهُ[٣].

- وقيل: قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾، أي: جِبريلُ عليهِ السَّلامُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبْدِ الله تعالَى، وإضمارُه قبْلَ الذِّكرِ لغايةِ ظُهورِه، وإنْ لم يَجْرِ لاسْمِه عزَّ وجل ذِكرٌ؛ لأنَّه لا يُلْبِسُ[٤].

- وإيثارُ التَّعبيرِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ ﴿عَبْدِهِۦ﴾ إظْهارٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).
ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير الآية (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦).

مَقامِ الإضمارِ؛ لِمَا في اختِصاصِ الإضافةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ مِن التَّشريفِ[١].

- في قولِه: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ إبهامٌ؛ لتَفخيمِ الوحْيِ الَّذي أُوحِيَ إليه وتعظيمِه، كأنَّه أعظَمُ مِن أنْ يُحيطَ به بَيانٌ، فأبْهَمَ الأمْرَ الَّذي أوحاهُ إلى عبْدِه وجعَلَه عامًّا، وذلك أبلَغُ؛ لأنَّ السَّامعَ يَذهَبُ وهمُه فيه كلَّ مَذهبٍ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡفُؤَادُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: فُؤادُه؛ وعليه فيكونُ تَفريعُ الاستِفهامِ في قولِه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ استفهامًا إنكاريًّا؛ لأنَّهم مارَوْه. ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ تأْكيدًا لمَضمونِ قَولِه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النَّجْم: ٩]؛ فإنَّه يُؤذِنُ بأنَّه بمَرأًى مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لرفْعِ احتمالِ المجازِ في تَشبيهِ القُرْبِ، أي: هو قُرْبٌ حِسِّيٌّ، وليس مُجرَّدَ اتِّصالٍ رُوحانيٍّ[٣].

٩- قولُه تعالَى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ مِن المُماراةِ، وهي المُلاحاةُ والمُجادَلةُ في الباطلِ، وتَعديةُ الفِعلِ فيهما بحرْفِ الاستِعلاءِ (علَى)؛ لتَضمُّنِه معْنى الغَلَبةِ، أي: هَبْكُم غالَبْتُموه على عِبادتِكم الآلهةَ، وعلى الإعراضِ عن سَماعِ القرآنِ، ونحْوِ ذلك؛ أتَغْلِبونه على ما رَأى ببصَرِه[٤]؟!

- وفي قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عبَّر عن الماضِي بالمضارِعِ ﴿يَرَىٰ﴾؛ إشارةً إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨، ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٩، ١٠٠).

استِحضارِ هذا الشَّيءِ، وأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ أخْبَرَ به كأنَّما يَراهُ الآنَ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا حدَّثَ عن ماضٍ فرُبَّما يقولُ قائلٌ: لعلَّه نسِيَ فأخطأَ، ولكنْ إذا عبَّرَ بالمضارِعِ صارَ كأنَّه يَتحدَّثُ عن شَيءٍ هو يُشاهِدُه[١]. وقيل: فيه إشارةٌ إلى ما يمكِنُ حدوثُه بعدُ[٢].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾، أي: إنْ كُنتُم تَجحَدون رُؤيتَه جِبريلَ في الأرضِ، فلقدْ رآهُ رُؤيةً أعظَمَ منها؛ إذ رآهُ في العالَمِ العُلويِّ مُصاحِبًا، فهذا مِن التَّرقِّي في بَيانِ مَراتبِ الوحْيِ، والعطفُ عطْفُ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ، ابتُدِئَ بالأضْعَفِ، وعُقِّبَ بالأقْوى؛ فتأْكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ مِن أجْلِ ما في هذا الخبَرِ مِن الغَرابةِ، مِن حيثُ هو قدْ رأَى جِبريلَ، ومِن حيثُ إنَّه عرَجَ به إلى السَّماءِ، ومِن الأهمِّيَّةِ مِن حيثُ هو دالٌّ على عَظيمِ مَنزلةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فضَميرُ الرَّفْعِ في ﴿رَءَاهُ﴾ عائدٌ إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ [النَّجم: ٢]، وضَميرُ النَّصبِ عائدٌ إلى جِبريلَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ الرُّؤيةَ في هذه المرَّةِ كانت أيضًا بنُزولٍ ودُنُوٍّ[٣].

- وانتِصابُ ﴿نَزْلَةً﴾ على نزْعِ الخافضِ، أو على النِّيابةِ عن ظرْفِ المكانِ، أو على حذْفِ مُضافٍ بتَقديرِ: وقْتَ نَزلةٍ أُخرى، فتَكونُ نائبًا عن ظرْفِ الزَّمانِ[٤].

- وقولُه: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿رَءَاهُ﴾، وخُصَّت بالذِّكرِ رُؤيتُه عندَ سِدرةِ المُنتَهى؛ لعَظيمِ شرَفِ المكانِ بما حصَلَ عِندَه مِن آياتِ ربِّه الكُبْرى،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٩، ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولأنَّها مُنتهى العُروجِ في مَراتبِ الكَرامةِ[١].

- وإضافةُ ﴿سِدۡرَةِ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إضافةً بَيانيَّةً. ويَجوزُ كونُها لتَعريفِ السِّدرةِ بمَكانٍ يُنْتهَى إليه لا يَتجاوَزُه أحدٌ؛ لأنَّ ما وراءَهُ لا تُطِيقُه المخلوقاتُ. أو إضافةُ المِلْكِ إلى المالِكِ على حذْفِ الجارِّ والمَجرورِ، أي: سِدرةُ المُنْتَهى إليهِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ[٢].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ ظرْفٌ مُستقَرٌّ[٣] في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، أُرِيدَ به التَّنويهُ بما حفَّ بهذا المكانِ المُسمَّى سِدرةَ المُنْتهى مِن الجَلالِ والجَمالِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ إبهامٌ للتَّفخيمِ الإجماليِّ، وتَعظيمٌ وتَكثيرٌ لِمَا يَغْشاها، وأنَّه تَضيقُ عنه عِباراتُ الوصْفِ في اللُّغةِ؛ فقد عُلِمَ بهذه العِبارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير هذه الآية (ص: ٤٠٥).

(٣) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ من عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

أنَّ ما يَغشاها مِن الخلائقِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ وجَلالِه أشياءُ لا يَكتَنِهُها النَّعتُ، ولا يُحيطُ بها الوصفُ[١].

- وتأْخيرُ ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ عن المَفعولِ؛ للتَّشويقِ إليه[٢].

- وصِيغةُ المُضارعِ ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ لِحكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استِحضارًا لصُورتِها البَديعةِ، وللإيذانِ باستِمرارِ الغَشَيانِ بطَريقِ التَّجدُّدِ[٣].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ مُعترِضةٌ، وهي في معْنى جُملةِ ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ إلى آخِرِها، أي: رأى جِبريلَ رُؤيةً لا خطَأَ فيها، ولا زِيادةَ على ما وُصِفَ، أي: لا مُبالَغةَ[٤].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ تَذْييلٌ، أي: رأى آياتٍ غيْرَ سِدرةِ المُنْتهَى، وجنَّةِ المأْوَى، وما غشِيَ السِّدرةَ مِن البَهجةِ والجَلالِ؛ رأى مِن آياتِ اللهِ الكُبْرى[٥].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: واللهِ لقدْ رأَى ...[٦].

- قولُه: ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ صِفةُ ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾، والمَرئيُّ مَحذوفٌ؛ لتَفخيمِ الأمْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٠٢).

ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١).

وتَعظيمِه، كأنَّه قال: لقدْ رَأى مِن آياتِ ربِّه الكُبْرى أُمورًا عِظامًا لا يُحِيطُ بها الوصْفُ، والحذْفُ في مِثلِ هذا أبلَغُ وأهولُ؛ لأنَّ فيه تَفخيمًا لآياتِ اللهِ الكُبرى، وأنَّ فيها ما رآهُ، وفيها ما لمْ يَرَهُ[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢١)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩ / ٣٥٠).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾
تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ
لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ﴾: أصنامٌ مِن حِجارةٍ كانوا يَعبُدونَها، قيل: اشتَقُّوا اللَّاتَ مِنَ اللهِ، والعُزَّى مِنَ العَزيزِ، ومَناةَ مِن المنَّانِ. وقيل: اللَّاتُ: كان رجُلًا يَلُتُّ السَّويقَ ويُطعِمُه الحاجَّ، فلمَّا ماتَ عَكَفُوا على قَبرِه يَعبُدونَه، والعُزَّى: تأنيثُ الأعزِّ، ومَناةُ: قيل: سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ دماءَ النَّسائِكِ تُمْنَى عندَها، أي: تُراقُ[(١)].

﴿ضِيزَىٰٓ﴾: أي: جائِرةٌ ناقِصةٌ عَوْجاءُ، وأصلُ (ضيز): يدُلُّ على اعوِجاجٍ[(٢)].

﴿تَمَنَّىٰ﴾: أي: اشتَهى وأمَّلَ، والتَّمَنِّي: تَشَهِّي حُصولِ الأمرِ المَرغوبِ فيه، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تقديرِ شَيءٍ ومنه التَّمَنِّي: لأنَّه أملٌ يُقدِّرُه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٥٦٢).

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عمَّا عليه المشركونَ مِن جهلٍ وسَفَهٍ، ويُبيِّنُ بُطلانَ عبادتِهم للأصنامِ، فيقولُ: أفرأيتُم -أيُّها المُشرِكونَ- اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثَّالِثةَ الأُخرَى؛ تلك الأصنامَ الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ، وتَزعُمونَ أنَّها بَناتٌ للهِ تعالى: أتَختارون الذُّكْرانَ لأنفُسِكم، وتَنسُبونَ للهِ تعالى الإناثَ اللَّاتي تَكرَهونَهنَّ ولا تَرضَونَ بهنَّ بناتٍ لكم؟! قِسْمتُكم تلك -أيُّها المُشرِكونَ- قِسْمةٌ جائِرةٌ ظالِمةٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا عليهم ما ابتَدَعوه مِن الافتراءِ والكفرِ، مِن عبادةِ الأصنامِ وتسميتِها آلهةً: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم إلَّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها، اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وما أنزَلَ اللهُ تعالى بها مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ!

ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ في عِبادتِهم تلك الأصنامَ إلَّا الظَّنَّ وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدَى مِن رَبِّهم.

ثمَّ ينكِرُ تعالى على مَن زعَم أنَّه يحصُلُ له ما تمنَّى، ويُبيِّنُ أنَّه ليس للإنسانِ ما يَتمنَّاه ويَشتهيه؛ فالأمرُ كلُّه لله، فيقولُ: أمْ للإنسانِ ما يَتمنَّاه مِنَ الخَيرِ؟! فلِلَّهِ وَحْدَه الآخِرةُ والدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الهُدَى ودِينِ الحَقِّ، والأمرِ بعبادةِ اللهِ وتوحيدِه؛ ذَكَرَ بُطلانَ ما عليه المُشرِكونَ مِن عبادةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ الرِّسالةَ أوَّلًا، وأتْبَعَه مِن ذِكرِ عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه الباهرةِ بذِكرِ التَّوحيدِ، والمنْعِ عن الإشراكِ باللهِ تعالى؛ وقَّفَهم على حَقارةِ مَعبوداتِهم، وهي الأوثانُ، وأنَّها ليستْ لها قُدرةٌ[1].

وأيضًا لَمَّا قَرَّر الرِّسالةَ؛ ذَكَر ما ينبغي أن يَبتدِئَ به الرَّسولُ، وهو التَّوحيدُ، ومَنعُ الخَلقِ عن الإشراكِ، فقال[2]:

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾.

أي: أفرأيتُم -أيُّها المُشرِكونَ- اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثَّالِثةَ الأُخرى، الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ، وتَزعُمونَ أنَّها بَناتٌ للهِ تعالى[3]؟

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٥).

قال الشوكاني: (﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾ أي: أَخبِرُوني عن الآلِهةِ الَّتي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ: هل لها قُدرةٌ تُوصَفُ بها؟ وهل أَوحَت إليكم شَيئًا كما أوحى اللهُ إلى محمَّدٍ؟ أمْ هي جماداتٌ لا تَعقِلُ ولا تَنفَعُ؟). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٢).

وقال ابنُ كثير: (كانت اللَّاتُ صَخرةً بَيضاءَ مَنقوشةً، وعليها بيتٌ بالطَّائِفِ له أستارٌ وسَدَنةٌ، وحَولَه فِناءٌ مُعظَّمٌ عندَ أهلِ الطَّائِفِ، وهم ثَقيفٌ ومَن تابَعَها، يفتَخِرون بها على مَن عداهم مِن أحياءِ العرَبِ بعدَ قُرَيشٍ. قال ابنُ جرير: وكانوا قد اشتَقُّوا اسمَها مِن اسمِ اللهِ تعالى، فقالوا: اللَّاتَ، يَعْنونَ مُؤنَّثةً منه -تعالى اللهُ عن قَولِهم عُلُوًّا كَبيرًا-! وحُكِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ ومجاهدٍ والرَّبيعِ بنِ أنسٍ: أنَّهم قَرَؤُوا ﴿اللَّاتَّ﴾ بتشديدِ التَّاءِ، وفَسَّروه بأنَّه كان رجُلًا يَلُتُّ للحَجيجِ في الجاهِليَّةِ السَّويقَ، فلمَّا مات عكَفوا على قَبرِه فعَبَدوه... قال ابنُ جرير: وكذا العُزَّى مِنَ العَزيزِ، وكانت شَجَرةً عليها بناءٌ وأستارٌ بنَخلةَ -وهي بيْنَ مكَّةَ والطَّائفِ- كانت قُرَيشٌ يُعَظِّمونَها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٥). ويُنظر: ((كتاب الأصنام)) لهشام الكلبي (ص: ١٦، ١٧، ٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٩). =

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ٢١﴾.

أي: أتختارونَ لأنفُسِكم -أيُّها المُشرِكونَ- صِنفَ الذُّكورِ مِنَ الأولادِ، فتُفَضِّلونَهم على الإناثِ، وتَنسُبونَ للهِ تعالى الإناثَ اللَّاتي تَكرهونَهنَّ ولا تَرضَونَ بهنَّ بناتٍ لكم؛ إذ زَعمتُم أنَّ تلك الأصنامَ بناتٌ للهِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦].

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾.

أي: قِسْمتُكم تلك -أيُّها المُشرِكونَ- قِسْمةٌ جائِرةٌ ظالِمةٌ مائِلةٌ عن الحَقِّ

= وقال ابنُ كثير أيضًا: (وأمَّا مَناةُ فكانت بالمُشَلَّلِ -عندَ قُدَيدٍ بيْنَ مكَّةَ والمَدينةِ- وكانت خُزاعةُ والأَوسُ والخَزْرجُ في جاهليَّتِها يُعظِّمونَها، ويُهِلُّونَ منها للحَجِّ إلى الكعبةِ... وقد كانت بجزيرةِ العرَبِ وغَيرِها طواغيتُ أُخَرُ تُعظِّمُها العرَبُ كتعظيمِ الكعبةِ غيرُ هذه الثَّلاثةِ الَّتي نَصَّ عليها في كتابِه العزيزِ، وإنَّما أفرَد هذه بالذِّكرِ؛ لأنَّها أشهَرُ مِن غَيرِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٦).

ويُنظر: ((كتاب الأصنام)) لهشام الكلبي (ص: ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وقال السعدي: (سَمَّوُا «اللَّاتَ» مِنَ «الإلهِ» المُستَحِقِّ للعبادةِ! و«العُزَّى» مِنَ «العزيزِ»، و «مَناةَ» مِنَ «المنَّانِ»؛ إلحادًا في أسماءِ اللهِ تعالى، وتجَرِّيًا على الشِّركِ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

والصَّوابِ[1]!

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

أي: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم -اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ- إلَّا أسماءٌ لا معانيَ تَحتَها، ولا حَقيقةَ لها، وإنَّما اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم، وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وادَّعيتُم أنَّها بناتُ اللهِ[2]!

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

أي: ما أنزل اللهُ بذلك مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ يدُلُّ على ما زَعمتُم وادَّعيتُم بشَأنِها[3]!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٤ - ١٥٧].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

أي: ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ إلَّا الوَهمَ وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، بلا عِلمٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٦، ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨).

ويقينٍ، ولا حُجَّةٍ وبُرهانٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠ – ٢٢].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أي: ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدى مِن رَبِّهم؛ إذ أنزَلَ عليهم القُرآنَ وفيه الأمرُ بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وبيانُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ[(٢)].

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات – الحديد)) (ص: ٢١٧).

قال ابنُ عطية: (الظَّنُّ: مَيلُ النَّفْسِ إلى أحدِ مُعتقَدَينِ مُتخالِفَينِ دونَ أن يكونَ مَيلُها بحُجَّةٍ ولا بُرهانٍ. وهوى الأنفُسِ: هو إرادتُها المَلَذَّةَ لها، وإنَّما تَجِدُ هَوى النَّفْسِ أبدًا في تَركِ الأفضَلِ؛ لأنَّها مَجبولةٌ بطَبعِها على حُبِّ المَلاذِّ، وإنَّما يَردَعُها ويَسوقُها إلى حُسنِ العاقِبةِ: العَقلُ والشَّرعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢).

وقال الرَّسْعَني: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في عبادتِها واعتقادِ إلاهيَّتِها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوَهْمَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني: أنَّهم يقولون أقوالًا بغيرِ حُجَّةٍ؛ كقولِهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وقولِهم: إنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨).

وقال الشوكاني: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يَتَّبِعونَ فيما ذُكِر مِن التَّسميةِ والعملِ بموجَبِها إلَّا الظَّنَّ الَّذي لا يُغْني مِن الحقِّ شيئًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

أي: أم للإنسانِ ما يَتمنَّاه ويَشتَهيه مِنَ الخَيرِ[1]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

قال القرطبي: (﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: اشتهى، أي: ليس ذلك له. وقيل: ﴿لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ مِنَ البَنينَ، أي: يكونُ له دونَ البناتِ. وقيل: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ مِن غيرِ جَزاءٍ، ليس الأمرُ كذلك. وقيل: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ مِن النُّبُوَّةِ أن تكونَ فيه دونَ غَيرِه. وقيل: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ مِن شَفاعةِ الأصنامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ في الآيةِ: محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمعنى: أم اشتهى محمَّدٌ النُّبُوَّةَ، فأعطاه اللهُ إيَّاها؟ ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ مُعَقِّبًا على هذا القَولِ: (هذا لا تَقتَضيه الآياتُ، وإن كان اللَّفظُ يَعُمُّه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢).

وقيل: المعنى: أمْ للكافِرِ ما تمنَّى مِن شَفاعةِ الأصنامِ، وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ إلى أنَّ المرادَ: ما تمنَّى مِن أنَّ الملائكةَ تَشفَعُ لهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٢).

وممَّن اختار العُمومَ -أي: ليس لأحدٍ ما يتمنَّى ويَشتهي، إنَّما الأمرُ كلُّه لله-: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ «أم» هنا للإنكارِ، والإنسانُ هنا جِنسُ بني آدَمَ، أي: ليس لأحَدٍ ما يَتمَنَّى، بل الأمرُ بيَدِ اللهِ. وقيل: إنَّ الإشارةَ إلى ما طَمِعَ فيه الكُفَّارُ مِن شَفاعةِ الأصنامِ. وقيل: إلى قَولِ العاصي بنِ وائِلٍ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]. وقيل: هو تمَنِّي بَعضِهم أن يكونَ نَبيًّا. والأحسَنُ حَملُ اللَّفظِ على إطلاقِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فلِلَّهِ وَحْدَه مُلكُ الآخِرةِ والدُّنيا، وله وَحْدَه مُطلَقُ التَّصرُّفِ فيهما؛ فيُعطي مَن يَشاءُ ما شاء، ويَمنَعُ مَن يشاءُ ما شاء؛ فالأمرُ كما يُريدُ الرَّحمنُ، لا كما يَتمنَّى الإنسانُ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الظَّنُّ الَّذي لا يُعلَمُ رُجحانُه لا يجوزُ اتِّباعُه، وذلك هو الَّذي ذَمَّ اللهُ به مَن قال فيه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فهم لا يَتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، ليس عندَهم عِلْمٌ، ولو كانوا عالِمينَ بأنَّه ظَنٌّ راجِحٌ لَكانوا قدِ اتَّبَعوا عِلمًا، ولم يَكونوا ممَّن لا يَتَّبِعُ إلَّا الظَّنَّ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٢٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ذَمُّ مَن أجاب داعيَ الجَهلِ والظُّلمِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أنَّ الشُّبهةَ والشَّهوةَ هما الأصلان اللَّذان ذَمَّ اللهُ مَن يَتَّبِعُهما، ويُحكِّمُهما على الوَحيِ الَّذي بَعَثَ اللهُ به أنبياءَه ورُسُلَه؛ فـ «الظَّنُّ»: الشُّبهةُ، و «ما تَهْوى الأنفُسُ»: الشَّهوةُ، والهُدى الَّذي جاءنا مِن ربِّنا مخالِفٌ لهذا وهذا[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ اعلَمْ أنَّ الأُمنيَّةَ مَذمومةٌ، والإرادةَ مَحمودةٌ، والفَرقُ بيْنَهما أنَّ الأُمنيَّةَ شَهوةٌ لا يُصَدِّقُها العَمَلُ، والإرادةَ هي ما يُصَدِّقُه العَمَلُ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ والمقصودُ إبطالُ نوالِ الإنسانِ ما يَتَمَنَّاه، وأنْ يَجعلَ ما يَتَمَنَّاه باعثًا عن أعمالِه ومُعْتَقَداتِه، بل عليه أنْ يَتطلَّبَ الحقَّ مِن دلائِلِه وعلاماتِه وإنْ خالَف ما يَتمنَّاه، وهذا تأْديبٌ وتَرويضٌ للنُّفوسِ على تَحمُّلِ ما يُخالِفُ أهواءَها إذا كان الحقُّ مُخالِفًا للهَوى، وليَحمِلَ نفْسَه عليه

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩٦).

قال ابن القيِّم: (وممَّا يَنبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ مَن رجَا شيئًا استلزَم رجاؤُه ثلاثةَ أمورٍ؛ أحدُها: محبَّةُ ما يَرجوه. الثَّاني: خَوفُه مِن فَواتِه. الثَّالثُ: سعيُه في تحصيلِه بحسَبِ الإمكانِ. وأمَّا رجاءٌ لا يُقارِنُه شيءٌ مِن ذلك فهو مِن بابِ الأمانيِّ، والرَّجاءُ شَيءٌ والأمانيُّ شيءٌ آخَرُ). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٣٩).

وقال أيضًا: (والفرقُ بيْنَ الرَّجاءِ والتَّمنِّي أنَّ الرَّجاءَ يكونُ معَ بذْلِ الجهدِ واستِفراغِ الطَّاقةِ في الإتيانِ بأسبابِ الظَّفرِ والفوزِ، والتَّمنِّيَ حَديثُ النَّفْسِ بحُصولِ ذلك معَ تَعطيلِ الأسبابِ الموصلةِ إليه). ((الروح)) (ص: ٢٤٥).

حتَّى تَتخلَّقَ به(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأُنثى ناقِصةٌ بمُقتضى الخِلْقةِ والطَّبيعةِ، وأنَّ الذَّكَرَ أفضَلُ وأكمَلُ منها(٢)، فالذُّكورةُ قوَّةٌ وكمالٌ، والأنوثةُ ضَعفٌ خِلْقيٌّ جِبِلِّيٌّ، ونقصٌ خلْقيٌّ جبَلَ اللهُ هذا النَّوعَ مِن الإنسانِ عليه، وهو أمرٌ مُشاهَدٌ لا يُنكِرُه العقلاءُ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ قِصَّةِ الغَرانيقِ(٤)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأَ بعْدَ ذلك هذه الآيةَ، فلو فرَضْنا أنَّه قال: «تلك الغَرانيقُ العُلَا»، ثمَّ أبطلَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، فكيف يَفرَحُ المُشرِكونَ بعدَ هذا الإبطالِ والذَّمِّ التَّامِّ لأصنامِهم بأنَّها أسماءٌ بلا مُسَمَّياتٍ(٥)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١) و(٤/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحج، الآية (٥٢).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٢).

أمَّا قِصَّةُ الغَرانيقِ فقد رُويت في سببِ نُزولِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [الحج: ٥٢]، وحاصلُها: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأَ بمكَّةَ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلمَّا بَلَغَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ألْقى الشَّيطانُ على لسانِه: تلك الغَرانيقُ العُلى، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لتُرتَجى! فقال المشركون: ما ذَكَرَ آلهتَنا بخَيرٍ قبْلَ اليَومِ، فسَجَد وسَجَدوا؛ فنزلَتْ هذه الآيةُ.

قال الشَّوكانيُّ: (لمْ يَصِحَّ شَيءٌ مِن هذا، ولا ثَبَتَ بوجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، ومع عدَمِ صِحَّتِه -بل بُطلانِه- فقد دفَعَه المُحقِّقون بكِتابِ اللهِ سُبحانَه؛ قال اللهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقولُه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أنَّ هذه الآلهةَ وإن سُمِّيَت آلِهةً فما هي إلَّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها؛ فهي باطِلةٌ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ المعنى: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُنزِلْ بها دَليلًا، وسُمِّيَ الدَّليلُ سُلطانًا؛ لأنَّ صاحِبَ الدَّليلِ معه سُلطةٌ يَعلُو بها على خَصْمِه، ومَن ليس له دليلٌ ليس له سُلطانٌ؛ فالسُّلطانُ يأتي بمعنى الحُجَّةِ -أي: الدَّليلِ-؛ لأنَّ مَن معه الدَّليلُ ذو سُلطةٍ على خَصْمِه[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ لَمَّا كان الظَّنُّ قد يكونُ مُوافِقًا للحَقِّ مُخالِفًا للهَوى، قال: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أنَّ أكثرَ ما يَحمِلُ

= وقولُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فنَفى المقارَبةَ للرُّكونِ، فضْلًا عن الرُّكونِ. قال البَزَّارُ: هذا حديثٌ لا نَعْلَمُه يُروى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسنادٍ مُتَّصِلٍ. وقال البَيهقيُّ: هذه القصَّةُ غيرُ ثابتةٍ مِن جهةِ النَّقلِ. ثمَّ أخَذ يَتكلَّمُ أنَّ رُواةَ هذه القصَّةِ مَطعونٌ فيهم. وقال إمامُ الأئمَّةِ ابنُ خُزَيْمةَ: إنَّ هذه القصَّةَ مِن وضْعِ الزَّنادقةِ. قال القاضي عِياضٌ في الشِّفا: إنَّ الأُمَّةَ أجمَعَتْ فيما طريقُه البَلاغُ أنَّه معصومٌ فيه مِنَ الإخبارِ عن شَيءٍ بخِلافِ ما هو عليه، لا قصْدًا ولا عَمْدًا ولا سَهْوًا ولا غلَطًا. قال ابنُ كثيرٍ: قد ذَكَر كثيرٌ مِنَ المُفسِّرين هاهنا قصَّةَ الغَرانيقِ، وما كان مِن رُجوعِ كثيرٍ مِنَ المُهاجِرينَ إلى أرضِ الحبشةِ ظَنًّا منهم أنَّ مُشْركي قُرَيشٍ قد أَسلَموا، ولكنَّها مِن طُرُقٍ كلُّها مُرسَلةٌ، ولمْ أَرَها مُسنَدةً مِن وجْهٍ صحيحٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٦). ويُنظر: ((مسند البزار)) (١١/ ٢٩٦)، ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) للقاضي عياض (٢/ ١٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)) للألباني.

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحج الآية (٥٢).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦١).

الإنسانَ على اتِّباعِ الظَّنِّ المُخطِئِ هو هواه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أنَّ مَنشَأَ الباطلِ هو مِن نَقْصِ العِلمِ، أو سُوءِ القَصدِ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، قولُه: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يجوزُ تلقِّي الشَّريعةِ إلَّا مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو الخالِقُ المالِكُ المُدَبِّرُ[٣].

٩- قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: ليس للإنسانِ ما تمنَّى، وكثيرًا ما يَتَمَنَّى الإنسانُ شيئًا، بل ويسعَى في أسبابِه ولكنْ لا يحصُلُ؛ لأنَّ هناك مُدبِّرًا، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ الَّذي بيدِه الأمرُ جلَّ وعلا؛ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى رَدِّ صنيعِ هؤلاءِ المشركينَ الَّذين يَعبدونَ الأصنامَ، ويقولونَ: إنَّها تُقَرِّبُهم إلى اللهِ؛ وليس لهم ذلك! وأيضًا رَدٌّ لقولِهم: إنَّ للهِ البناتِ، ولهم البنينَ، وليس لهم ذلك، وهم وإنْ تَمنَّوْا ذلك وصار في مُخَيِّلَتِهم، فإنَّه لا يَحْصُلُ، وليس للإنسانِ ما تَمَنَّى[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لَمَّا جَرَى في صِفةِ الوحْيِ ومُشاهَدةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبريلَ عليه السَّلامُ، ما دلَّ على شُؤونٍ جَليلةٍ مِن عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وشرَفِ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ إذ وُصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ، ومَنازِلِ العِزَّةِ،

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كما وُصِفَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعُروجِ في المَنازلِ العُلْيا -كان ذلك ممَّا يُثيرُ موازَنةَ هذه الأحوالِ الرَّفيعةِ بحالِ أعظَمِ آلهَتِهم الثَّلاثِ في زعْمِهم، وهي: اللَّاتُ، والعُزَّى، ومَناةُ الَّتي هي أحجارٌ مَقرُّها الأرضُ، لا تَملِكُ تَصرُّفًا، ولا يُعرَجُ بها إلى رِفعةٍ، فكان هذا التَّضادُّ جامِعًا خَياليًّا يَقْتضي تَعقيبَ ذِكرِ تلك الأحوالِ بذِكرِ أحوالِ هاتِه، فانتُقِلَ الكلامُ مِن غرَضِ إثباتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُوحًى إليه بالقُرآنِ، إلى إبطالِ عِبادةِ الأصنامِ، ومَناطُ الإبطالِ قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ فالفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ وما بعْدَه على جُملةِ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢] المُفرَّعةِ على جُملةِ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[1] [النجم: ١١].

- ولَمَّا كان المشركون مع عِبادتِهم لهذه الأصنامِ يقولونَ: إنَّ الملائكةَ وتلكَ الأصنامَ بناتُ اللهِ -تعالَى اللهُ عن ذلكَ عُلوًّا كبيرًا-؛ قِيل لهم تَوبيخًا وتبكيتًا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ...﴾ إلخ[2].

- والرُّؤيةُ في ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بَصريَّةً، تَتعدَّى إلى مَفعولٍ واحِدٍ، فلا تَطلُبُ مَفعولًا ثانيًا، ويكونَ الاستِفهامُ تَقريريًّا تَهكُّميًّا، أي: كيف ترَونَ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بالنِّسبةِ لِما وُصِفَ في عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرَفِ مَلائكتِه، وشَرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! وهذا تَهكُّمٌ بهم، وإبطالٌ لإلهيَّةِ تلك الأصنامِ بطَريقِ الفَحْوى، ودَليلُه العِيانُ، وتَكونَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] استِئنافًا وارتقاءً في الرَّدِّ، أو بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾؛ لأنَّ مَضمونَها ممَّا تَشتمِلُ عليه مَزاعِمُهم؛ كانوا يَزعُمون أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بَناتُ اللهِ!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ عِلْميَّةً قَلبيَّةً، أي: أزَعَمْتُم اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ؟! فحُذِفَ المَفعولُ الثَّاني اختصارًا، والتَّقديرُ: أزَعَمْتُموهنَّ بَناتِ اللهِ، أتَجْعَلون له الأُنثى وأنتُم تَبْتَغون الأبناءَ الذُّكورَ؟! ولدَلالةِ الحالِ عليه؛ فالمعْنى: عَقيبَ ما سمِعْتُم مِن آثارِ كَمالِ عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مُلكِه ومَلكوتِه، وجَلالِه وجَبروتِه، وإحكامِ قُدرتِه ونفاذِ أمْرِه في الملأِ الأَعْلى وما تحتَ الثَّرى وما بيْنَهما؛ رأيتُم هذهِ الأصنامَ -مع غايةِ حَقارتِها وقَماءتِها- بَناتٍ له تعالَى! وتَكونَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ ...﴾ إلخ بَيانًا للإنكارِ، وارتقاءً في إبطالِ مَزاعِمِهم، أي: أتَجْعَلون للهِ البناتِ خاصَّةً وتَختصُّون أنفُسَكم بالبنينَ الذُّكورِ؟! وقولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ يَشهَدُ به شَهادةً بيِّنةً؛ فإنَّه تَوبيخٌ مَبنيٌّ على التَّوبيخِ الأوَّلِ، وحيثُ كانَ مَدارُه تَفضيلَ جانبِ أنفُسِهم على جَنابِه تَعالى بنِسبتِهم إليه تَعالى الإناثَ مع اختيارِهم لأنفُسِهم الذُّكورَ، وجَبَ أنْ يكونَ مَناطُ الأولِ نفْسَ تلك النِّسبةِ؛ حتَّى يَتسنَّى بِناءُ التَّوبيخِ الثَّاني(١).

وقيل: لَمَّا كان فيما جَرَى مِن صِفةِ الوحْيِ ومَنازلِ الزُّلْفى الَّتي حَظِيَ بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعَظَمةِ جبريلَ: إشعارٌ بسَعةِ قُدرةِ اللهِ تَعالى وعَظيمِ مَلكوتِه، ممَّا يُسجِّلُ على المشركين في زَعْمِهم شُركاءَ للهِ أصنامًا مِثلَ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، فسادَ زعْمِهم، وسَفاهةَ رأْيِهم -أُعقِبَ ذِكرُ دَلائلِ العَظَمةِ الإلهيَّةِ بإبطالِ إلهيَّةِ أصنامِهم بأنَّها أقلُّ مِن مَرتبةِ الإلهيَّةِ؛ إذ تلك أوهامٌ لا حَقائقَ لها، ولكنِ اخترَعَتْها مُخيَّلاتُ أهلِ الشِّركِ، ووَضَعوا لها أسماءً ما لها حَقائقُ، ففُرِّعَ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ...﴾ إلخ؛ فيَكونُ الاستفهامُ تَقريريًّا إنكاريًّا، والرُّؤيةُ عِلْميَّةً، والمَفعولُ الثَّاني هو قولَه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وتَكونُ جُملةُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢، ١٠٣).

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ إلخ مُعترِضةً بيْنَ المَفعولين؛ للارتقاءِ في الإنكارِ، أي: وزَعَمْتُموهنَّ بَناتٍ للهِ، أو وزَعَمْتُم الملائكةَ بَناتٍ للهِ! وهذه الوجوهُ غيرُ مُتنافيةٍ، فنَحمِلُها على أنَّ جميعَها مَقصودٌ في هذا المَقامِ. ويجوزُ جَعْلُ فِعلِ (أرأَيْتُم) -على اعتبارِ الرُّؤيةِ عِلْميَّةً- مُعلَّقًا عن العَملِ؛ لوُقوعِ (إنْ) النَّافيةِ بعْدَه في قولِه: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾، وتُجعَلَ جُملةُ ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ إلى قولِه: ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ اعتِراضًا[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاء هنا بالفاءِ حيث قال: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾، وفي مَواضعَ بغيرِ الفاءِ، كما قال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ﴾ [فاطر: ٤٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا قدَّم مِن عَظَمةِ آياتِ اللهِ في مَلَكوتِه أنَّ رسولَ اللهِ إلى الرُّسلِ -الَّذي يسُدُّ الآفاقَ ببَعضِ أجْنحَتِه، ويُهلِكُ المدائنَ بشِدَّتِه وقوَّتِه- لا يُمكِنُه أنْ يَتعدَّى السِّدرةَ في مَقامِ جَلالِ اللهِ وعِزَّتِه؛ قال: أفرَأَيْتُم هذه الأصنامَ -مع ذِلَّتِها وحَقارتِها- شُركاءَ اللهِ مع ما تَقدَّمَ؟! فقال بالفاءِ -عَقِيبَ ما سمِعْتُم من عَظَمةِ آياتِ اللهِ تَعالى الكُبرى، ونَفاذِ أمْرِه في الملأِ الأعلى وما تحتَ الثَّرى-: فانْظُروا إلى اللَّاتِ والعُزَّى؛ تَعلَموا فسادَ ما ذَهبْتُم إليه، وعوَّلْتُم عليه[2].

- ﴿ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ﴾ قيل: إنَّها مَنصوبةٌ بقولِه: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾، وهي بمعْنى أخْبِروني، والمفعولُ الثَّاني الَّذي لها هو قولُه: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾، ولم يَعُدْ ضَميرٌ من جُملةِ الاستِفهامِ على اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ هو في معْنى: وله هذه الإناثُ، فأغْنى عن الضَّميرِ. وكانوا يَقولون في هذه الأصنامِ: هي بِناتُ اللهِ، فالمعْنى: أَلَكُمُ النَّوعُ المحبوبُ المستحسَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٨).

الموجودُ فيكم، وله النَّوعُ المذمومُ بزَعْمِكم؟! وهو المستثقَلُ. وحسَّنَ إبرازَ ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ كونُه نصًّا في اعتِقادِهم أنَّهنَّ إناثٌ، وأنَّهنَّ بَناتُ اللهِ تَعالى، وإنْ كان في لَحاقِ تاءِ التأنيثِ في (اللَّاتِ) وفي (مَناةَ)، وألِفِ التأنيثِ في (العُزَّى) ما يُشعِرُ بالتَّأنيثِ، لكنَّه قد يُسمَّى المُذَكَّرُ بالمؤنَّثِ، فكان في قولِه: ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ نصٌّ على اعتقادِ التَّأنيثِ فيها. وحسَّن ذلك أيضًا كونُه جاء فاصلةً؛ إذ لو أتَى ضَميرًا فكان التَّركيبُ (ألكمُ الذَّكَرُ وله هُنَّ)، لم تَقَعْ فاصلةً[1].

- قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفتانِ للتَّأكيدِ، أو ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ مِن التَّأخُّرِ في الرُّتبةِ، فقد وصَفَ مَناةَ بقولِه: ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾؛ لأنَّها أقلُّ بالرُّتبةِ من اللَّاتِ والعُزَّى؛ فقد كانتْ عِندَهم دونَهما في المَنزِلةِ، أمَّا الوصْفُ بقولِه: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فإنَّها تُقوِّي هذا المعْنى، وتَزيدُ في وَضاعتِها، وإلَّا لَقال: الأُخرياتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الأوَّليَّةُ والتَّقديمُ عِندَهم لِلَّاتِ والعُزَّى؛ فالتَّراخي المستفادُ مِن لَفظِ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بحسَبِ الزَّمانِ[2]. وقيل: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفةٌ للعُزَّى، وإنَّما أخَّرها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦).

قال أبو السعود: (وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ هذه الجملةَ مفعولٌ ثانٍ للرُّؤيةِ، وخلوها عن العائدِ إلى المفعولِ الأوَّلِ؛ لِما أنَّ الأصلَ: أخبِروني أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومناةَ ألكُم الذَّكرُ وله هُنَّ، أي: تلك الأصنامُ، فوُضِعَ مَوضِعَ الأُنثى؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ، وتحقيقِ مناطِ التَّوبيخِ- فمعَ ما فيه مِن التَّمَحُّلاتِ الَّتي ينبغي تنزيهُ ساحةِ التَّنزيلِ عن أمثالِها؛ يَقتَضِي اقتِصارَ التَّوبيخِ على ترجيحِ جانبِهم الحَقيرِ على جَنابِ اللهِ العزيزِ الجَليلِ، مِن غيرِ تعرُّضٍ للتَّوبيخ على نِسبةِ الوَلَدِ إليه سُبحانَه). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤، ٣٥٥).

على أنَّ أبا حيَّان قد قال: (ولفظُ «آخَرَ» ومُؤنَّثُه «أُخرى» لم يُوضَعا للذَّمِّ ولا للمدحِ، إنَّما يدُلَّان على معنى «غيْر»، إلَّا أنَّ مِن شرطِهما أنْ يكونَا من جِنس ما قبْلَهما. لو قلتَ: مررتُ برجُلٍ =

رِعايةً للفاصلةِ(١).

وقيل: فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ، تَقديرُه: والعُزَّى الأُخْرى، ومَناةَ الثَّالثةَ الذَّليلةَ؛ وذلك لأنَّ الأُولى كانت وَثَنًا على صُورةِ آدميٍّ، والعُزَّى صُورةَ نَباتٍ، ومَناةَ صُورةَ صَخْرةٍ، فالآدميُّ أشرَفُ مِن النَّباتِ، والنَّباتُ أشرَفُ مِن الجَمادِ، فالجَمادُ مُتأخِّرٌ، ومَناةُ جَمادٌ؛ فهي في أُخرياتِ المراتبِ(٢).

وقيل: وصْفُ مَناةَ بالثَّالثةِ في قولِه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾؛ لأنَّها ثالثةٌ في الذِّكْرِ، وهو صِفةٌ كاشفةٌ(٣)، ووصْفُها بالأُخرى أيضًا صِفةٌ كاشفةٌ؛ لأنَّ كونَها

= وآخَرَ، لم يدُلَّ إلَّا على معنى «غير»، لا على ذمٍّ ولا على مدحٍ. ((تفسيرِ أبي حيان)) (١٠/ ١٧).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩، ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧).

(٣) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

ثالثةً في الذِّكرِ غيرَ المَذكورتينِ قبْلَها مَعلومٌ للسَّامعِ، فالحاصلُ مِن الصِّفتينِ تأْكيدُ ذِكْرِها؛ لأنَّ اللَّاتَ والعُزَّى عندَ قُريشٍ وعندَ جُمهورِ العرَبِ أشهَرُ مِن مَناةَ؛ لبُعْدِ مَكانِ مَناةَ عن بِلادِهم، ولأنَّ ترتيبَ مَواقعِ بُيوتِ هذه الأصنامِ كذلك؛ فاللَّاتُ في أعْلى تِهامةَ بالطَّائفِ، والعُزَّى في وَسَطِها بنَخْلةَ بيْنَ مكَّةَ والطَّائفِ، ومَناةَ بالمُشلَّلِ بيْن مكَّةَ والمدينةِ، فهي ثالثةُ البِقاعِ[1].

أو أنَّ قولَه: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ جَرى على أُسلوبِ العرَبِ إذا أخبَروا عن مُتعدِّدٍ، وكان فيه مَن يُظَنُّ أنَّه غيرُ داخلٍ في الخبَرِ لعَظَمةٍ، أو تَباعُدٍ عن التَّلبُّسِ بمِثلِ ما تَلبَّسَ به نُظراؤه؛ أنْ يَختِموا الخبَرَ فيَقولوا: وفلانٌ هو الآخَرُ، ووَجْهُه هنا: أنَّ عُبَّادَ مَناةَ كَثيرون في قَبائلِ العرَبِ، فنَبَّه على أنَّ كَثرةَ عَبَدتِها لا يَزيدُها قوَّةً على بَقيَّةِ الأصنامِ في مَقامِ إبطالِ إلهيَّتِها. وكلُّ ذلك جارٍ مَجرى التَّهكُّمِ والتَّسفيهِ، والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ لهم[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ارتِقاءٌ في الإبطالِ والتَّهكُّمِ والتَّسفيهِ والتَّوبيخِ، وهي مُجاراةٌ لاعتقادِهم أنَّ تلك الأصنامَ الثَّلاثةَ بَناتُ اللهِ، وأنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، أي: أجعَلْتُم للهِ البناتِ خاصَّةً وأنتم تَعلَمون أنَّ لكم أولادًا ذُكورًا وإناثًا، وأنَّكم تُفضِّلون الذُّكورَ وتَكرَهون الإناثَ، وقد خصَصْتُم اللهَ بالإناثِ دونَ الذُّكورِ، واللهُ أَولى بالفضْلِ والكَمالِ لو كُنتُم تَعلَمون؟! فكان في هذا زِيادةُ تَشنيعٍ لكُفْرِهم؛ إذ كان كُفْرًا وسَخافةَ عقْلٍ[3].

- وتَقديمُ المَجرورينِ في جُملةِ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؛ للاهتِمامِ بالاختصاصِ الَّذي أفادَتْه اللَّامُ اهتِمامًا في مَقامِ التَّهكُّمِ والتَّسفيهِ، على أنَّ في تَقديمِ ﴿وَلَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾ إفادةَ الاختِصاصِ، أي: دونَ الذَّكَرِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والتَّهكُّمِ المُفادِ مِن الاستفهامِ في ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]، أي: قد جُرْتُم في القِسمةِ وما عدَلْتُم، فأنتمْ أحِقَّاءُ بالإنكارِ[٢].

- والإشارةُ بكلمةِ ﴿تِلۡكَ﴾ إلى المَذكورِ باعتبارِ الإخبارِ عنه بلَفظِ ﴿قِسۡمَةٞ﴾؛ فإنَّه مُؤنَّثُ اللَّفظِ[٣].

- و﴿إِذٗا﴾ حرْفُ جَوابٍ أُريدَ به جَوابُ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: تَرتَّبَ على ما زعَمْتُم أنَّ ذلك قِسمةٌ ضِيزَى، أي: قسَمْتُم قِسمةً جائرةً[٤].

- قولُه: ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ فيه استِعمالُ كَلمةِ ﴿ضِيزَىٰٓ﴾، وهي لفظةٌ غريبةٌ، هي مِن أغربِ ما في القرآنِ، ومعَ ذلك فإنَّ حُسنَها في نظمِ الكلامِ مِن أغربِ الحُسنِ وأعجبِه؛ فهي لَفظةٌ في مَوضعِها لا يسُدُّ غيرُها مسَدَّها؛ فسُورةُ (النَّجمِ) كلُّها مَسجوعةٌ على حَرْفِ الياءِ اللَّيِّنة، فلمَّا ذكَرَ الأصنامَ وقِسمةَ الأولادِ، وما كان يَزعُمُه الكفَّارُ، قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ * تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾؛ فجاءت هذه اللَّفظةُ على الحرْفِ المَسجوعِ الَّذي جاءت السُّورة جميعُها عليه، هذا مِن النَّاحيةِ اللَّفظيَّةِ، أمَّا مِن ناحيةِ المعْنَى فإنَّها في مَعرِضِ الإنكارِ على العربِ المشركينَ؛ إذ ورَدت في ذِكرِ الأصنامِ، وزعمِهم في قِسمةِ الأولادِ، فكانت غرابةُ اللَّفظِ أشدَّ الأشياءِ مُلاءمةً لغرابةِ هذه القِسمةِ الَّتي أنكَرها، والغرَضُ تَهجينُ قَولِهم، وتفْنيدُ قِسمتِهم، والتَّشنيعُ عليها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا مِن أعجَبِ ما ورَدَ في القرآنِ الكريمِ مِن مُطابَقةِ الألفاظِ لمُقْتضَى الحالِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ استِئنافٌ يَكُرُّ بالإبطالِ على مُعتقَدِهم مِن أصْلِه، بعْدَ إبطالِه بما هو مِن لَوازِمه على مُجاراتِهم فيه؛ لإظهارِ اختلالِ مُعتقَدِهم، وفي هذه الجُملةِ احتِراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ إنكارَ نَسبتِهم البَناتِ للهِ، أنَّه إنكارٌ لتَخصيصِهم اللهَ بالبَناتِ، وأنَّ له أولادًا ذُكورًا وإناثًا، أو أنَّ مَصبَّ الإنكارِ على زعْمِهم أنَّها بناتٌ وليست ببَناتٍ، فيَكونُ كالإنكارِ عليهم في زعْمِهم الملائكةَ بَناتٍ[٢].

- والقَصْرُ في قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ[٣]، أي: هي أسماءٌ لا حَقائقَ عاقلةً مُتصرِّفةً كما تَزعُمون، وليس القصْرُ حَقيقيًّا؛ لأنَّ لِهاتِه الأصنامِ مُسمَّياتٍ، وهي الحِجارةُ أو البيوتُ الَّتي يَقصِدُونها بالعِبادةِ، ويَجعَلون لها سَدَنةً[٤].

- وجُملةُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ تَعليلٌ لمعْنى القَصْرِ بطَريقةِ الاكتِفاءِ[٥]؛ لأنَّ كونَها لا حَقائقَ لها في عالَمِ الشَّهادةِ أمْرٌ مَحسوسٌ؛ إذ ليستْ إلَّا حِجارةً،

(١) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (١/ ١٦٢)، ((إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)) للرافعي (ص: ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٧، ١٠٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٧٣).

وأمَّا كَونُها لا حَقائقَ لها مِن عالَمِ الغَيبِ؛ فلأنَّ عالَمَ الغَيبِ لا طَريقَ إلى إثباتِ ما يَحتويه إلَّا بإعلامٍ مِن عالِمِ الغَيبِ سُبحانَه، أو بدليلِ العقْلِ -فيما للعقلِ فيه إدراكٌ-، كدَلالةِ العالَمِ على وُجودِ الصَّانعِ وبعْضِ صِفاتِه، واللهُ لم يُخبِرْ أحدًا مِن رُسلِه بأنَّ للأصنامِ أرواحًا أو مَلائكةً، مِثلَ ما أخبَرَ عن حَقائقِ الملائكةِ والجنِّ والشَّياطينِ[١].

- والسُّلطانُ: الحُجَّةُ، وعُبِّرَ عن الإخبارِ المُوحى به بفِعلِ ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ يَرِدُ مِن العالَمِ العُلويِّ؛ مِن اللهِ تعالى، وهذا كِنايةٌ عن انتفاءِ أنْ تكونَ عليها حُجَّةٌ؛ لأنَّ وُجودَ الحُجَّةِ يَستلزِمُ ظُهورَها، فنفْيُ إنزالِ الحُجَّةِ بها من بابِ: (على لاحِبٍ لا يُهتدَى بمَنارِه)[٢]، أي: لا مَنارَ له فيُهْتَدى به[٣].

- وأُكِّدَ نفْيُ إنزالِ السُّلطانِ بحرْفِ (مِن) الزَّائدةِ؛ لتَوكيدِ نفْيِ الجِنسِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ فضَميرُ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ عائدٌ إلى الَّذين كان الخِطابُ مُوجَّهًا إليهم، أُعقِبَ نفْيُ أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ على الخَصائصِ الَّتي يَزعُمونها لأصنامِهم، أو على أنَّ اللهَ سمَّاهم بتلك الأسماءِ؛ بإثباتِ أنَّهم استَنَدوا فيما يَزعُمونَه إلى الأوهامِ، وما تُحِبُّه نُفوسُهم مِن عِبادةِ الأصنامِ ومَحبَّةِ سَدَنتِها ومَواكبِ زِيارتِها، وغُرورِهم بأنَّها تَسعَى في الوساطةِ لهم عندَ اللهِ تعالى بما يَرغَبونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٨).

(٢) القائلُ هو امرُؤ القَيس. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).

واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في حَياتِهم؛ فتلك أوهامٌ وأمانيُّ مَحبوبةٌ لهم يَعيشون في غُرورها[١].

- وقولُه: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ تَحويلٌ عن خِطابِ المشرِكينَ الَّذي كان ابتِداؤُه مِن أوَّلِ السُّورةِ، وهو مِن ضُروبِ الالْتِفاتِ؛ فهذا الْتِفاتٌ مِن خِطابِ المُشرِكينَ إلى الغَيبةِ عنْهم؛ تحقيرًا لهم، وللإيذانِ بأنَّ تَعدادَ قَبائحِهم اقْتضَى الإعراضَ عنهم تَحقيرًا لشأْنِهم، وحِكايةَ جِناياتِهم لغيرِهم[٢].

- وجِيءَ بالمُضارعِ في ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم سيَستَمِرُّونَ على اتِّباعِ الظَّنِّ وما تَهواهُ نُفوسُهم، وذلك يدُلُّ على أنَّهم اتَّبعوا ذلك مِن قبْلُ، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فَحواهُ[٣].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وقولُه بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨] فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تكرَّرَ قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في الآيتَينِ، واختَلفَ خِتامُهما؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا قال قبْلُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، أي: سمَّيتُم هذه الأصنامَ آلِهةً، والملائكةَ بناتِ اللهِ تَسميةً باطلةً لا حُجَّةَ لكم فيها؛ فلم يَحصُلْ لكم إلَّا ألفاظُها! فأمَّا المعاني؛ فإنَّكم تتَّبِعون فيها الظَّنَّ وهَوى النَّفْسِ، وما في الطَّبعِ مِن حُبِّ الإلفِ، وقد أتاكُم مِن ربِّكم ما يَثْنيكم

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩).

عنه إلى الرَّشادِ! ومَن جاءه مِن اللهِ الهُدى فترَكَهُ لاتِّباعِ الهَوى؛ فقد ضلَّ وهَوَى، فلمَّا كان الَّذي يَجذِبُهم إلى مَقالتِهم شَيئانِ: ظنٌّ وهَوًى؛ ذُكِرَا معًا ليُبيِّنَ صارِفَهم عن الحقِّ. ثمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾؛ فخصَّ الَّذين يقولونَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ بالذِّكرِ توكيدًا لإلزامِه الحُجَّةَ عليهم، وأنَّهم يتَّبعون الظَّنَّ بمَقالتِهم، والظَّنُّ لا يقومُ مَقامَ العلمِ، ولا يُغْني غَناءَه -والمرادُ بالحقِّ هاهنا هو العلمُ-؛ فوَصَفَ أنَّ الَّذي تَعتمِدونه لا يَجوزُ أنْ يُعتمَدَ؛ لأنَّه ظنٌّ، وبإزائِه عِلمٌ يُبطِلُه، وهُدًى مِن اللهِ تَعالى يَدفَعُه، ويَصرِفُ عنه إلى الحقِّ الَّذي لا مَهرَبَ منه، ومَن لم يَقبَلْه بعدَ وُضوحِ الحُجَّةِ له، فأعْرِضْ عنه، وهو قولُه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]؛ ففي الآيةِ الأُولى ذَكَر صارفَهم عن الحقِّ، وداعِيَهم إلى الباطلِ؛ فبيَّن ما هو، وفي الثَّانيةِ طعَن على هذا الصَّارفِ والدَّاعي إلى الباطلِ، وإثباتُ الشَّيءِ أوَّلٌ في العَقلِ، ووَصْفُه بأنَّه صحيحٌ أو سقيمٌ ثانٍ في الرُّتبةِ؛ فلذلك اختُصَّت الأُولى بما اختُصَّت، والثَّانيةُ بما تَبِعَها(١). وليس بتَكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بعِبادتِهم اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ، والثَّانيَ بعِبادتِهم الملائكةَ؛ والظَّنُّ فيها مَذمومٌ بقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يقومُ مَقامَ العِلمِ(٢).

- وأصلُ الظَّنِّ الاعتِقادُ غيرُ الجازِمِ، ويُطلَقُ على العِلمِ الجازمِ إذا كان مُتعلِّقًا بالمُغيَّباتِ، وكَثُرَ إطلاقُه في القرآنِ على الاعتقادِ الباطلِ، وهو المُرادُ هنا؛ بقَرينةِ عطْفِ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ عليه، وهو كِنايةٌ عن الخطَأِ باعتبارِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٢٢-١٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠).

لُزومِه له غالبًا، ومَناطُ الذَّمِّ في هذه الآيةِ هو قصْرُ اتِّباعِهم على ما تَهواهُ أنفُسُهم(١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وما تَهواهُ أنفُسُهم(٢).

- وعطْفُ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ على ﴿ٱلظَّنَّ﴾ عطْفُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: الظَّنَّ الَّذي يَبعَثُهم على اتِّباعِه أنَّه مُوافقٌ لِهَواهم وإلْفِهم(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ تَوبيخٌ لهم، والَّذي هُمْ عليه باطلٌ، واعتِراضٌ بيْنَ الجُملتَينِ، أي: يَفعَلونَ هذه القبائحَ، والهُدى قد جاءَهُم، فكانوا أَولى مَن يَقبَلُه ويَترُكُ عِبادةَ مَن لا يُجدي عِبادتُه(٤)!

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِهم، أي: يَستمِرُّون على اتِّباعِ الظَّنِّ والهَوى في حالِ أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم رسولًا بالهُدى(٥)!

- ولامُ القَسَمِ لتأْكيدِ الخبَرِ؛ للمُبالَغةِ فيما يَتضمَّنُه مِن التَّعجيبِ مِن حالِهم، كأنَّ المُخاطَبَ يشُكُّ في أنَّه جاءَهم ما فيه هُدًى مُقنِعٌ لهم مِن جِهةِ استِمرارِهم على ضَلالِهم استمرارًا لا يُظَنُّ مِثلُه بعاقلٍ(٦).

- والتَّعبيرُ عن الجَلالةِ بعُنوانِ ﴿رَّبِّهِمُ﴾؛ لزِيادةِ التَّعجيبِ مِن تَصامُمِهم عن سَماعِ الهُدى، مع أنَّه ممَّن تجِبُ طاعتُه، فكان ضَلالُهم مَخلوطًا بالعِصيانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّمرُّدِ على خالِقِهم[١].

- والتَّعريفُ في الهُدَى؛ للدَّلالةِ على معْنى الكَمالِ، أي: الهُدى الواضحُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ، وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾[٣] [النجم: ٢٣].

- وتَعريفُ الإنسانِ في قولِه: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في حيِّزِ الإنكارِ المُساوي للنفْيِ جَعَله عامًّا في كلِّ إنسانٍ[٤].

- و(ما) المَوصولةُ في ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ بمَنزِلةِ المُعرَّفِ بلامِ الجِنسِ؛ فوُقوعُها في حيِّزِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ الَّذي بمَنزِلةِ النَّفْيِ يَقْتضي العُمومَ، أي: ما للإنسانِ شَيءٌ ممَّا تمنَّى، أي: ليس شَيءٌ جاريًا على إرادتِه، بلْ على إرادةِ اللهِ، وقد شمِلَ ذلك كلَّ هَوًى دَعاهم إلى الإعراضِ عن كَلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فشَمِلَ تَمنِّيَهم شَفاعةَ الأصنامِ، وهو الأهمُّ من أحوالِ الأصنامِ عِندَهم، وذلك ما يُؤذِنُ به قولُه بعْدَ هذا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٦] الآيةَ، وتَمنِّيَهم أنْ يكونَ الرَّسولُ مَلَكًا، وغيرَ ذلك، نحْوَ قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقولِهم: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[٥] [يونس: ١٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

- وتَقدُّمُ المَجرورِ في ﴿لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾؛ لأنَّ مَحطَّ الإنكارِ هو أَمْنيَّتُهم أنْ تَجرِيَ الأمورُ على حسَبِ أهْوائِهم، فلذلك كانوا يُعرِضون عن كلِّ ما يُخالِفُ أهواءَهُم، فتَقديمُ المَعمولِ هنا لإفادةِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلْبٍ[1]، أي: ليس ذلك مَقصورًا عليهم كما هو مُقْتضى حالِهم، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَرَونَ الأمورَ تَجْري على ما يَتمنَّون، أي: بلْ أماني الإنسانِ بيَدِ اللهِ؛ يُعطي بعْضَها، ويَمنَعُ بعضَها، كما دلَّ عليه التَّفريعُ عقِبَه بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ بعْدَ أنْ أُنكِرَ أنَّ للإنسانِ ما تَمنَّى، فُرِّعَ عليه أنَّ اللهَ مالِكُ الآخِرةِ والأُولى، أي: فهو يَتصرَّفُ في أحوالِ أهلِهما بحسَبِ إرادتِه، لا بحسَبِ تَمنِّي الإنسانِ، وهذا إبطالٌ لمُعتقَداتِ المُشرِكين، الَّتي منها يَقينُهم بشَفاعةِ أصْنامِهم[3].

- وقولُه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ تعليلٌ لانتِفاءِ أنْ يكونَ للإنسانِ ما يَتمنَّاهُ حتْمًا؛ فإنَّ اختِصاصَ أُمورِ الآخرةِ والأُولى جَميعًا بهِ تعالى مُقْتضٍ لانتِفاءِ أنْ يكونَ للإنسانِ أمْرٌ مِن الأمورِ[4].

- وتَقديمُ المَعمولِ هنا ﴿فَلِلَّهِ﴾ لإفادةِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلْبٍ، أي: للهِ، لا للإنسانِ[5].

- والمَقصودُ مِن ذِكرِ الآخرةِ والأُولى تَعميمُ الأشياءِ، وإنَّما قُدِّمَت الآخرةُ للاهتمامِ بها، والتَّنبيهِ إلى أنَّها الَّتي يجِبُ أنْ يكونَ اعتِناءُ المؤمنينَ بها؛ لأنَّ

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١، ١١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢).

الخِطابَ في هذه الآيةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، معَ ما في هذا التَّقديمِ مِن الرِّعايةِ للفاصلةِ[1]، وأيضًا لأنَّ مُلْكَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الآخرةِ يَظهَرُ أكثرَ مِمَّا في الدُّنيا؛ فالدُّنيا فيها مُلوكٌ، وفيها رُؤساءُ، وفيها زُعَماءُ، يرى العامَّةُ أنَّ لهم تَدبيرًا، لكِنْ في الآخرةِ لا يُوجَدُ هذا ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[2] [غافر: ١٦].

- وفي تَعَلُّقِ الفاءِ بالكلامِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ تقديرَه: الإنسانُ إذا اختار معبودًا في دُنياه على ما تمنَّاه واشتهاه، فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، يُعاقِبُه على فِعلِه في الدُّنيا، وإنْ لم يُعاقِبْه في الدُّنيا فيُعاقِبُه في الآخِرةِ، وقولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦] يكونُ مُؤكِّدًا لهذا المعنى، أي: عِقابُهم يَقَعُ، ولا يَشفَعُ فيهم أحَدٌ، ولا يُغْنِيهم شَفاعةُ شافِعٍ.

الثَّاني: أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ اتِّخاذَ اللَّاتِ والعُزَّى باتِّباعِ الظَّنِّ وهَوى الأنفُسِ، كأنَّه قَرَّره وقال: إنْ لم تَعلَموا هذا فلِلَّه الآخرةُ والأُولى، وهذه الأصنامُ ليس لها مِن الأمرِ شَيءٌ، فكيف يجوزُ الإشراكُ؟! وقَولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ على هذا الوَجهِ جَوابُ كَلامٍ، كأنَّهم قالوا: لا نُشرِكُ باللهِ شَيئًا، وإنَّما هذه الأصنامُ شُفَعاؤُنا؛ فإنَّها صورةُ مَلائِكةٍ مُقَرَّبينَ، فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦].

الثَّالِثُ: هذه تسليةٌ، كأنَّه تعالى قال ذلك لنَبيِّه حيثُ بَيَّن رِسالتَه ووحدانيَّةَ اللهِ ولم يُؤمِنوا، فقال: لا تأْسَ؛ فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، أي: لا يُعجِزونَ اللهَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

الرَّابِعُ: هو ترتيبُ حَقٍّ على دليلِه. بيانُه هو أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] إلى آخِرِه، وبَيَّن بَعضَ ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو التَّوحيدُ، قال: إذا عَلِمتُم صِدْقَ مُحمَّدٍ ببَيانِ رِسالةِ اللهِ تعالى، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبَرَكم عن الحَشرِ، فهو صادِقٌ.

الخامِسُ: هو أنَّ الكُفَّارَ كانوا يقولونَ عن المؤمنينَ: أهؤلاءِ أَهْدى مِنَّا؟ وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، فقال تعالى: إنَّ اللهَ اختار لكم الدُّنيا، وأعطاكم الأموالَ، ولم يُعْطِ المؤمِنينَ بَعضَ ذلك الأمرِ، بل قُلتُم: لو شاء اللهُ لأغناهم، وتحَقَّقْتُم هذه القَضيَّةَ، فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، قُولُوا في الآخِرةِ ما قُلتُم في الدُّنيا؛ يَهدي اللهُ مَن يَشاءُ كما يُغْني اللهُ مَن يَشاءُ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٣).

الآيات (٢٦-٣٢)

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ
وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ٢٨ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ
إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ
بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ
ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ
ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ
أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَبۡلَغُهُم﴾: أي: غايتُهم، وأصلُ (بلغ): يدُلُّ على وُصولٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾: أي: بالجنَّةِ والثَّوابِ، وأصلُ (حسن): يدُلُّ على ضِدِّ القُبحِ[(٢)].

﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ من ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[(٣)].

﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ، أي: ما عَظُم قُبحُه مِنَ الكبائِرِ، والفُحْشُ والفَحْشاءُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

والفاحِشةُ: ما عظُم قُبحُه مِن الأفعالِ والأقوالِ، وكلُّ شَيءٍ جاوَز قَدْرَه فهو فاحِشٌ، ولا يكونُ ذلك إلَّا فيما يُتكَرَّهُ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[1].

﴿ٱللَّمَمَ﴾: أي: صِغارَ الذُّنوبِ؛ مِنْ أَلَمَّ بالشَّيءِ: إذا لم يتعَمَّقْ فيه ولم يَلزَمْه، وأصلُ اللَّمَمِ: ما يَعمَلُه الإنسانُ الحِينَ بعدَ الحِينِ، ولا يكونُ له عادةً ولا إقامة عليه[2].

﴿أَجِنَّةٌ﴾: جمعُ جَنينٍ: وهو الوَلَدُ ما دامَ في البَطنِ، وسُمِّيَ جَنينًا؛ لاجتِنانِه واستِتارِه، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[3].

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: لا تُبَرِّئُوها عن الآثامِ، ولا تَمدَحوها بحُسنِ أعمالِها، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ، وطهارةٍ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى منكِرًا على مَن عبَد الملائكةَ وغيرَهم، وزعَم أنَّها تشفعُ له عندَ الله يومَ القيامةِ، ومبينًا أنَّ الملائكةَ معَ سُمُوِّ مَنزِلتِهم ورِفعةِ مَقامِهم، لا يَملِكون الشَّفاعةَ لأحدٍ إلَّا بإذنِه تعالى، فيقولُ: وكَثيرٌ مِنَ الملائِكةِ في السَّمَواتِ لا تَنفَعُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠).

شَفاعتُهم شَيئًا إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ منهم، ويَرضَى عن المَشفوعِ لهم.

ثمَّ ينكِرُ الله تعالى على المشركينَ ما كانوا يَعتقِدونَه في الملائكةِ مِن عقيدةٍ فاسدةٍ، فيقولُ: إنَّ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ مَلائكةَ اللهِ إناثًا، ويَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ سُبحانَه! وما للمُشرِكينَ بذلك مِن عِلمٍ، ما يَتَّبعونَ في زَعْمِهم هذا إلَّا الوَهمَ الكاذِبَ، وإنَّ الظنَّ المَبنيَّ على الوَهمِ لا يُفيدُ شَيئًا!

ولَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّهم لا غرَضَ لهم في اتِّباعِ الحقِّ؛ أمَر نبيَّه بالإعراضِ عنهم، فقال: فأعْرِضْ -يا محمَّدُ- عمَّن أعرَضَ عن القُرآنِ، ولم يُرِدْ إلَّا الحَياةَ الدُّنيا، وذلك هو مُنتهى عِلْمِهم وغايتُه، إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طَريقِه، وهو أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا إلى الحَقِّ.

ولله وَحْدَه مُلْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ لِيَجزيَ الَّذين أساؤُوا بما عَمِلوه مِن كُفرٍ أو عِصيانٍ، ولِيُثيبَ الَّذين أحسَنوا بالجنَّة.

ثمَّ يصِفُ الله تعالى هؤلاء المحسنينَ، فيقولُ: وأولئك المُحسِنونَ هم الَّذين يَبتَعِدونَ عن كَبائِرِ الذُّنوبِ والفواحِشِ، إلَّا صَغائِرَ الذُّنوبِ دونَ إصرارٍ عليها، فهي مَعفوٌّ عنها، إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- واسِعُ المَغفرةِ لذُنوبِ عِبادِه، هو أعلَمُ بكم حينَ خَلَقَ أباكم آدَمَ مِن الأرضِ، وحينَ كُنتُم حَمْلًا في بُطونِ أمَّهاتِكم؛ فلا تَشهَدوا لأنفُسِكم بالبَراءةِ مِنَ الذُّنوبِ ولا بالصَّلاحِ والتَّقْوى؛ فاللهُ وَحْدَه أعلَمُ بمَن اتَّقى!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أيأَسَهم مِن أنْ يَنالوا خَيرًا مِن عِبادةِ أصنامِهم والتَّقَرُّبِ إليها، وأنَّها لا تكونُ وَسيلةً لهم عندَ رَبِّهم؛ حَرَمَهم فائِدةَ عِبادتِها مِن وَجهٍ آخَرَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان التَّقديرُ: فكم مِن شَخصٍ تَرَونَه في الأرضِ -معَ أنَّه في غايةِ المُكْنةِ فيما يَظهَرُ لكم- لا يَصِلُ إلى رُبُعِ ما يتمَنَّاه؛ عَطَف عليه قَولَه مُظهِرًا لضَخامةِ مُلكِه، وأنَّه لا يُبالي بأحَدٍ(٢):

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾.

أي: وما أكثَرَ الملائِكةَ الَّذين في السَّمَواتِ، ولا تَنفَعُ شَفاعتُهم شَيئًا إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ منهم، وبَعْدَ رِضاه عن المَشفوعِ لهم الَّذين هم مِن أهلِ التَّوحيدِ(٣)!

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦، ٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((حاشية الخفاجي)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٩).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّ أمْرَ الشَّفاعةِ ضَيِّقٌ، وذلك أنَّ الملائِكةَ مع قُربتِهم وزُلْفاهم وكَثرتِهم واغتِصاصِ السَّمَواتِ بجُموعِهم: لو شَفَعوا بأجمُعِهم لأحَدٍ لم تُغْنِ شَفاعتُهم عنه شَيئًا قطُّ ولم تَنفَعْ، إلَّا إذا شفَعوا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ لهم في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ الشَّفاعةَ له ويَرضاه ويَراه أهلًا لأنْ يُشفَعَ له، فكيف تَشفَعُ الأصنامُ إليه لعَبَدتِهم؟!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قِيلَ لهم: إنَّ الصَّنَمَ جَمادٌ لا يَشفَعُ، وبَيَّنَ لهم أنَّ أعظَمَ أجناسِ الخَلقِ لا شَفاعةَ لهم إلَّا بالإذْنِ؛ قالوا: نحن لا نَعبُدُ الأصنامَ لأنَّها جماداتٌ، وإنَّما نَعبُدُ الملائِكةَ بعِبادتِها؛ فإنَّها على صُوَرِها، ونَنصِبُها بيْنَ أيدينا لِيُذَكِّرَنا الشَّاهِدُ الغائِبَ، فنُعَظِّمَ المَلَكَ الَّذي ثَبَت أنَّه مُقَرَّبٌ عَظيمُ الشَّأنِ، رفيعُ المكانِ؛ فقال تعالى ردًّا عليهم: كيف تُعَظِّمونَهم وأنتم تُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى[1]؟!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ مَلائكةَ اللهِ إناثًا، ويَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ سُبحانَه[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).
قال السعدي: (يعني: أنَّ المُشركينَ باللهِ المكَذِّبينَ لرُسُلِه، الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، وبسَبَبِ عَدَمِ إيمانِهم بالآخِرةِ: تجَرَّؤوا على ما تجَرَّؤوا عليه مِنَ الأقوالِ والأفعالِ المُحادَّةِ للهِ ولِرَسولِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

أي: وما للمُشرِكينَ بادِّعائِهم أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ مِن عِلمٍ صَحيحٍ يَعتَمِدونَ عليه في إثباتِ صِحَّةِ دَعواهم؛ كمُشاهَدةٍ لخَلْقِهم، أو قِراءةِ ذلك في كِتابٍ مِن كُتُبِ اللهِ، أو سَماعِ رَسولٍ يُخبِرُهم بصِدقِ ما يَزعُمونَ(١).

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عِلْمَهم؛ تشَوَّفَ السَّامِعُ إلى الحامِلِ لهم على ذلك، فقال(٢):

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

أي: ما يَتَّبِعونَ في زَعْمِهم هذا إلَّا الوَهمَ الكاذِبَ بغَيرِ عِلمٍ ولا يَقينٍ(٣)!

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا كالقاطِعينَ بأنَّ ذلك يَنفَعُهم؛ أكَّدَ بقَولِه(٤):

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

أي: وإنَّ الظنَّ المَبنيَّ على الوَهمِ لا يُفيدُ شَيئًا مِنَ الحَقِّ، أو يقومُ مَقامَه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٣).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَديثِ))(١).

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أنْ وَصَف مَدارِكَهم الباطِلةَ وضَلالَهم؛ فَرَّع عليه أمْرَ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تقَدَّمَ مِن وَصفِ ضَلالِهم كان نَتيجةَ إعراضِهم عن ذِكرِ اللهِ، وهو التَّوَلِّي عن الذِّكرِ؛ فحَقَّ أن يكونَ جَزاؤُهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم(٢).

وأيضًا لَمَّا كان هذا دَأْبَ هؤلاءِ المذكورينَ؛ أنَّهم لا غَرَضَ لهم في اتِّباعِ الحَقِّ، وإنَّما غَرَضُهم ومَقصودُهم ما تَهواه نُفوسُهم؛ أمَرَ اللهُ رَسولَه بالإعراضِ عمَّن توَلَّى عن ذِكْرِه، ولم يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدُّنيا(٣).

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾.

أي: فأعْرِضْ -يا محمَّدُ- عمَّنْ أعرَضَ عن القُرآنِ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، أي: أعرِضْ عن الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ، واهجُرْه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٨/ ١٦٤).

وقال ابنُ عاشور: (إعراضُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنهم المأمورُ به: مرادٌ به عَدَمُ الاهتمامِ بنَجاتِهم؛ لأنَّهم لم يَقبَلوا الإرشادَ، وإلَّا فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ بإدامةِ دَعوتِهم =

= للإيمانِ، فكما كان يَدعوهم قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ فقد دعاهم غيرَ مَرَّةٍ بعدَ نُزولِها، على أنَّ الدَّعوةَ لا تَختَصُّ بهم؛ فإنَّها يَنتَفِعُ بها المؤمنونَ، ومَن لم يَسبِقْ منه إعراضٌ مِنَ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم يَسمَعونَ ما أُنذِرَ به المُعرِضونَ، ويتأمَّلونَ فيما تَصِفُهم به آياتُ القُرآنِ، وبهذا تَعلَمُ أنْ لا عَلاقةَ لهذه الآيةِ وأمثالِها بالمُتاركةِ، ولا هي مَنسوخةٌ بآياتِ القِتالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ليس المعنى: أعرِضْ عنه لا تَنصَحْه... معنى أعرِضْ: لا تُبالِ به، ولا يُهِمَّنَّك أمْرُه، ولا تَستَحسِرْ مِن أجْلِ توَلِّيه، بل ادْعُ إلى سَبيلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أيًّا كان). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

وقال القاسمي: (والمرادُ مِن «الإعراضِ»: هَجْرُهم هَجرًا جَميلًا، وتَرْكُ إيذائِهم. وقَولُ الزَّمخشريِّ: أي: أعرِضْ عن دَعوةِ مَن رأيْتَه مُعرِضًا عن ذِكرِ اللهِ ... إلخ: لا يَصِحُّ؛ لأنَّ الصَّدعَ بالحَقِّ لا تَسامُحَ فيه، لا سِيَّما والدَّعوةُ للمُعرِضِينَ، وهي تَستَلزِمُ أن يُحاجُّوا به بمُنتَهى الطَّاقةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وإنَّما معنى الآيةِ: فاصفَحْ عنهم، ودَعْ أذاهم في مُقابَلةِ ما يَجهَلونَ به عليك، كما بَيَّنَ ذلك في مواضِعَ مِن التَّنزيلِ، والقُرآنُ يُفَسِّرُ بَعضُه بَعضًا). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤).

ممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ: ابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، وابنُ عطية، والقُرطبيُّ، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٤).

واستظهر الشنقيطيُّ أنَّه كان في أوَّلِ الأمرِ مأمورًا بالإعراضِ عن المُشرِكينَ، ثمَّ نُسِخَ ذلك بآيةِ السَّيفِ، وذَكرَ أنَّ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على ذلك قَولَه تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقَولَه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]، وقَولَه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقَولَه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٢٠).

وقال الرازي: (وأكثَرُ المفَسِّرين يقولونَ بأنَّ كُلَّ ما في القُرآنِ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ منسوخٌ بآيةِ القَتلِ، وهو باطِلٌ؛ فإنَّ الأمرَ بالإعراضِ مُوافِقٌ لآيةِ القِتالِ، فكيف يُنسَخُ به؟ وذلك لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مأمورًا بالدُّعاءِ بالحِكمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، فلمَّا عارَضوه بأباطيلِهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ثمَّ لَمَّا لم يَنفَعْ قال له رَبُّه: فأعرِضْ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣].

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان المُعرِضُ في وَقتٍ قد يُقبِلُ في آخَرَ، دَلَّ على دَوامِه على وَجهٍ بَليغٍ، بقَولِه: ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾ أي: في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ ﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[1]!

﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: ولم يَطلُبْ إلَّا الحَياةَ الدُّنيا ولَذَّاتِها[2].

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

أي: طَلَبُ الدُّنيا والسَّعيُ لها: هو مُنتهى عِلْمِهم وغايتُه؛ فليس لهم عِلمٌ فَوقَ ذلك[3].

= عنهم، ولا تُقابِلْهم بالدَّليلِ والبُرهانِ؛ فإنَّهم لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، وقابِلْهم بالإعراضِ عن المُناظَرةِ بشَرطِ جوازِ المُقابَلةِ، فكيف يكونُ مَنسوخًا؟!). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠).

والقاعدةُ أنَّ النَّسخَ لا يثبُتُ مع الاحتِمالِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٢٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٦٥)، ((تفسير =

كما قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر ما هم عليه؛ أخبَرَ تعالى بأنَّه عالِمٌ بالضَّالِّ والمُهتَدي، وهو مُجازِيهما[١].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أعرِضْ، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شديدَ المَيلِ إلى إيمانِ قَومِه، وكان رُبَّما هَجَس في خاطِرِه أنَّ في الذِّكرى بَعْدُ مَنفعةً، ورُبَّما يُؤمِنُ من الكافِرينَ قَومٌ آخَرونَ مِن غَيرِ قِتالٍ؛ فقال له[٢]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن حادَ عن طَريقِه، فلم يتَّبِعِ الحَقَّ[٣].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

= ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٦).

وممَّن قال بأنَّ المشارَ إليه هو طَلَبُهم الحياةَ الدُّنيا: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المشارُ إليه: ادِّعاؤُهم أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

أي: وربُّك -يا محمَّدُ- أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا إلى الحَقِّ[(١)].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ٣١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ وبمَنِ اهتَدَى، وكان هذا رُبَّما أوهَمَ أنَّ مَن ضَلَّ على هذه الحالةِ ليس في قَبضَتِه؛ قال نافيًا لهذا الإبهامِ، مُبَيِّنًا أنَّ له الأسماءَ الحُسنى ومُقتَضياتِها في العالَمِ[(٢)]:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ جَميعِ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ[(٣)].

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾.

أي: لِيَجزيَ اللهُ الَّذين أساؤُوا العَمَلَ جَزاءَ ما عَمِلوه مِن كُفرٍ أو عِصيانٍ[(٤)].

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾.

أي: ولِيُثيبَ اللهُ الَّذين أحسَنوا العَمَلَ فآمَنوا به وأطاعوه المَثوبةَ الحُسنى، وهي الجنَّةُ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير =

= الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠).
قال ابن جُزَي: (﴿لِيَجْزِىَ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بمعنى ما قبْلَها، والتَّقديرُ: أنَّ اللهَ مالكُ أمرِ السَّمواتِ والأرضِ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩).
وقال القرطبي: (اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بالمعنى الَّذي دلَّ عليه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كأنَّه قال: هو مالكُ ذلك، يَهدي مَن يَشاءُ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ؛ لِيَجزيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥). وتبِعه الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥).
واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ ذكر ابنُ عاشور أنَّها لامُ التَّعليلِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).
وقيل: إنَّ قولَه: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ مُتعلِّقٌ بمعنَى قولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠]، فإذا كان أعْلَمَ بهم، جازى كُلًّا بما يَستحِقُّه؛ لأنَّ نتيجةَ العِلمِ بالضَّالِّ والمُهتدي: جزاؤُهما، وأنَّ ما بيْنَهما اعتراضٌ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والرَّسْعَنيُّ، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٣، ٤٤٤).
قال الواحدي: (وهي لامُ العاقِبةِ؛ وذلك لأنَّ عِلمَه بالفريقَينِ أدَّى إلى جزائِهم باستِحقاقِهم، وإنَّما يَقدِرُ على مُجازاةِ المُحسِنِ والمُسيءِ إذا كان كثيرَ المِلْكِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٠١).
وذهب ابنُ عطيَّةَ والرَّازيُّ إلى أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿ضَلَّ﴾ وبقولِه: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ.
قال ابن عطية: (فكأنَّه قال: لِيَصيرَ أمْرُهم جميعًا إلى أن يجزى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣).
قال الألوسي: (ولا يخفى بُعْدُه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠).
وقال الرَّازي: (قوله: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، لا بالعِلمِ ولا بخَلقِ ما في السَّمواتِ، تقديرُه كأنَّه قال: هو أعْلَمُ بمَن ضلَّ واهتدى ﴿لِيَجْزِىَ﴾، أي: مَن ضلَّ واهتدى يُجزى الجزاءَ، واللهُ أعلَمُ به). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٨).
وقال البِقاعي: (لَمَّا أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، وسَلَّاه، وأعلَمَه أنَّ الكُلَّ في مُلكِه، فلو شاء لَهداهم ورَفَع النِّزاعَ، ولكِنَّه له في ذلك حِكَمٌ تَحارُ فيها الأفكارُ- عَلَّل الإعراضَ... بقَولِه تعالى ﴿لِيَجْزِىَ﴾...). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٦٦).
وقيل: إنَّ اللَّامَ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ﴾، قال الشَّوكاني: (وهو بعيدٌ مِن حيثُ اللَّفظُ ومِن حيثُ المعنَى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥). ويُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي =

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَعَد سُبحانَه الَّذين وَقَع منهم الإحسانُ؛ وصَفَهم فقال[1]:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾.

أي: الَّذين يَبتَعِدونَ عن كبائرِ الذُّنوبِ، ويَبتَعِدونَ عن الفواحِشِ، كالزِّنا وعَمَلِ قَومِ لُوطٍ[2].

= (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠).

و«الحُسْنَى»: الجنَّةُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥).

وقال البيضاوي: (﴿ بِالْحُسْنَى ﴾ بالمَثوبةِ الحُسنى، وهي الجنَّةُ، أو بأحسَنَ مِن أعمالِهم، أو بسببِ الأعمالِ الحُسنى). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠).

وقال ابن عثيمين: (﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾... فأنت إذا فعَلْتَ حسَنةً فتَكونُ عَشْرَ حسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ... ولهذا قال: ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾، أي: بما هو أحسَنُ وأكثَرُ مِن عمَلِهم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص:٢٢٩، ٢٣٠).

وقال السعدي: (﴿ بِالْحُسْنَى ﴾ أي: بالحالةِ الحسَنةِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأكبَرُ ذلك وأجَلُّه رِضا ربِّهم، والفوزُ بنعيمِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٠، ٢٣٢).

وقد اختُلِف في ضابطِ الكبيرةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، وأقرَبُ الأقوالِ أنَّها ما يَترتَّبُ عليها حدٌّ في =

= الدُّنيا، أو تُوُعِّدَ عليها بالنَّارِ، أو اللَّعنةِ، أو الغضَبِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١١/ ٦٥٠)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٧)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٢٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٠)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (١/ ٨).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي في ضابطِ الكبيرةِ أنَّها كلُّ ذنْبٍ اقترَن بما يدُلُّ على أنَّه أعظَمُ مِن مُطلَقِ المعصيةِ، سواءٌ كان ذلك الوعيد عليه بنارٍ أو غضَبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ، أو كان وجوب الحدِّ فيه، أو غير ذلك ممَّا يدُلُّ على تغليظِ التَّحريمِ وتوكيدِه). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الفواحشَ مِن الكبائرِ، لكنَّها أعظَمُ قُبحًا، وأشَدُّ فُحشًا، وأقوى إثمًا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي، والألوسي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧).

قال القاسمي: (والعطفُ إمَّا مِن عطفِ أحدِ المُترادِفَينِ، أو الخاصِّ على العامِّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٩).

وقال السعدي: (﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ أي: يَفعلون ما أمَرَهم اللهُ به مِن الواجباتِ، الَّتي يكونُ ترْكُها مِن كبائرِ الذُّنوبِ، ويَترُكون المحرَّماتِ الكِبارَ؛ كالزِّنا، وشُربِ الخَمرِ، وأكلِ الرِّبا، والقتلِ، ونحوِ ذلك مِن الذُّنوبِ العظيمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

وقال في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الشُّورى: (الفرقُ بيْنَ الكبائرِ والفواحِشِ -معَ أنَّ جميعَهما كبائرُ- أنَّ الفواحشَ هي الذُّنوبُ الكِبارُ الَّتي في النُّفوسِ داعٍ إليها، كالزِّنا ونحوِه، والكبائرَ ما ليس كذلك، هذا عندَ الاقترانِ، وأمَّا مع إفرادِ كلٍّ منهما عن الآخَرِ فإنَّ الآخَرَ يَدخُلُ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

قال السمرقندي: (قال بعضُهم: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ يعني: الشِّركَ بالله، ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ يعني: المعاصيَ. وقال بعضُهم: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ بمعنًى واحدٍ؛ لأنَّ كلَّ فاحِشةٍ كبيرةٌ، وكلَّ كبيرةٍ فاحِشةٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٣).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ...﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

أي: إلَّا صَغائِرَ الذُّنوبِ دونَ إصرارٍ عليها، فهي مَعفوٌّ عنها، وليس ذلك بمُخرِجٍ لصاحِبِها مِن جُملةِ المُحسِنينَ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٨، ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦-١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ باللَّمَمِ صَغائِرُ الذُّنوبِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٨، ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٣).

وقيل: إنَّ المُرادَ: القُبْلةُ، والغمزةُ، والنَّظرةُ، ونحوُ ذلك. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وحُذَيْفةُ بنُ اليَمانِ، ومَسروقٌ، والشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠).

وقيل: إنَّ المُرادَ باللَّمَمِ هو ما دونَ حدِّ الدُّنيا وحدِّ الآخرةِ، فليس فيه حدٌّ في الدُّنيا، ولا عذابٌ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا من السَّلَفِ: ابنُ الزُّبَير، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢). والأقوالُ المذكورةُ متقاربةٌ.

وقال ابنُ رجب: (في تفسيرِ اللَّمَمِ قَولانِ للسَّلَفِ:

أحدُهما: أنَّه مُقَدِّماتُ الفواحِشِ، كاللَّمسِ والقُبلةِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: هو ما دونَ الحَدِّ مِن وعَيدِ الآخِرةِ بالنَّارِ، وحَدِّ الدُّنيا. والثَّاني: أنَّه الإلمامُ بشَيءٍ مِنَ الفَواحِشِ والكبائِرِ مرَّةً واحِدةً، ثمَّ يتوبُ منه، ورُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وأبي هُريرةَ... ومَن فَسَّر الآيةَ بهذا قال: لا بُدَّ أن يتوبَ منه، بخِلافِ مَن فَسَّره بالمقدِّماتِ؛ فإنَّه لم يَشترِطْ تَوبةً. والظَّاهِرُ أنَّ القولَين صَحيحانِ، وأنَّ =

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ما رأيتُ شَيئًا أشبَهَ باللَّمَمِ مِمَّا قال أبو هُرَيرةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ كَتَب على ابنِ آدَمَ حَظَّه مِنَ الزِّنا، أدرَكَ ذلك لا مَحالةَ؛ فزِنا العَينِ النَّظَرُ، وزِنا اللِّسانِ المَنطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّه ويُكَذِّبُه))[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

لَمَّا أخرَجَ تعالى المُسيءَ عن المَغفِرةِ؛ بَيَّنَ أنَّ ذلك ليس لضِيقٍ فيها، بل ذلك بمَشيئةِ اللهِ تعالى، ولو أراد اللهُ المَغفِرةَ لكُلِّ مَن أحسَنَ وأساء لَفَعَل، وما كان يَضيقُ عنهم مَغفِرتُه[2].

وأيضًا لَمَّا كان المُلوكُ لا يَغفِرونَ لِمَن تكَرَّرَتْ ذُنوبُه إليهم وإنْ صَغُرَت، فكان السَّامِعُ يَستَعظِمُ أن يَغفِرَ مَلِكُ المُلوكِ سُبحانَه مِثْلَ هذا؛ عَلَّلَ ذلك بقَولِه تعالى[3]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- واسِعُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم،

= كِلَيْهِما مُرادٌ مِنَ الآيةِ، وحينَئذٍ فالمحسنُ: هو مَن لا يأتي بكبيرةٍ إلَّا نادِرًا، ثمَّ يتوبُ منها، ومَن إذا أتى بصغيرةٍ كانت مَغمورةً في حَسَناته المُكَفِّرةِ لها، ولا بُدَّ ألَّا يكونَ مُصِرًّا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٤٨، ٤٤٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

قال السعدي: (هذه مع الإتيانِ بالواجباتِ وتَرْكِ المُحَرَّماتِ تَدخُلُ تحتَ مَغفِرةِ اللهِ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٨).

ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجتَنَب الكبائِرَ))[٢].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾.

مُناسَبتُها لما قَبْلَها:

تقريرٌ لِما مَرَّ مِن قَولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ [النجم: ٣٠]، كأنَّ العامِلَ مِن الكُفَّارِ يَقولُ: نحن نَعمَلُ أُمورًا في جَوفِ اللَّيلِ المُظلِمِ، وفي البَيتِ الخالي، فكيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٤، ٢٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّغائرَ تُغفَرُ، وقد ثَبَت في القُرآنِ الكريم أنَّ الصَّغائرَ تُغفَرُ باجتنابِ الكبائِرِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾. أمَّا إذا قُلْنا: اللَّمَمُ: القَليلُ مِنَ الفَواحِشِ والكبائِرِ، فيَكونُ قَولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارةً إلى أنَّ الكبائِرَ إذا تاب الإنسانُ منها غَفَرَ اللهُ له، وكأنَّها لم تكُنْ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٥).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

يَعلَمُه اللهُ تعالى؟! فقال: ليس عَمَلُكم أخفى مِن أحوالِكم وأنتم أجِنَّةٌ في بُطونِ أُمَّهاتِكم، واللهُ عالمٌ بتلك الأحوالِ[(١)].

وأيضًا فهو تأكيدٌ وبيانٌ للجَزاءِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [النجم: ٣١] كأنَّ الكافِرينَ قالوا: هذا الجزاءُ لا يتحَقَّقُ إلَّا بالحَشرِ، وجَمْعِ الأجزاءِ بعدَ تفرُّقِها. وإعادةُ ما كان لِزَيدٍ مِن الأجزاءِ في بَدَنِه مِن غيرِ اختِلاطٍ: غيرُ مُمكِنٍ؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾، فيَجمَعُها بقُدرتِه على وَفْقِ عِلْمِه كما أنشَأَكم[(٢)].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾.

أي: ربُّكم أعلَمُ بكم حينَ خَلَقَ أباكم آدَمَ مِن الأرضِ قبْلَ أن تُوجَدوا، وحينَ كُنتُم حَمْلًا مَستورينَ في بُطونِ أمَّهاتِكم قبْلَ أن تُولَدوا[(٣)].

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٦، ٢٣٧).

قال السعدي: (أي: هو تعالى أعلَمُ بأحوالِكم كُلِّها، وما جَبَلكم عليه مِنَ الضَّعفِ والخَوَرِ عن كَثيرٍ ممَّا أمَرَكم اللهُ به، ومِن كَثرةِ الدَّواعي إلى بَعضِ المحَرَّماتِ، وكثرةِ الجواذِبِ إليها، وعدَمِ الموانعِ القويَّةِ، والضَّعفُ موجودٌ مُشاهَدٌ منكم حينَ أنشأكم اللهُ مِن الأرضِ، وإذ كنتُم في بُطونِ أمَّهاتِكم، ولم يَزَلْ موجودًا فيكم، وإنْ كان اللهُ تعالى قد أوجدَ فيكم قوَّةً على ما أمرَكم به، ولكنَّ الضَّعفَ لم يَزَلْ؛ فلِعِلمِه تعالى بأحوالِكم هذه ناسبَت الحِكمةُ الإلهيَّةُ والجُودُ الرَّبَّانيُّ أن يتغَمَّدَكم برَحمتِه ومَغفرتِه وعَفْوِه، ويَغمُرَكم بإحسانِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ إنشاءَهم مِنَ الأرضِ يَستلزِمُ ضَعفَ قُدَرِهم عن تحمُّلِ المَشاقِّ مع تفاوُتِ أطوارِ نَشأةِ بني آدمَ، فاللهُ عَلِمَ ذلك، وعَلِمَ أنَّ آخِرَ الأُمَمِ -وهي أمَّةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أضعفُ الأُمَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن عادةِ مَن سَلِمَ مِنَ الذُّنوبِ أن يَفتَخِرَ على مَن قارَفَها -لِما بُنِيَ الإنسانُ عليه مِن محبَّةِ الفَخرِ؛ لِما جُبِلَ عليه مِنَ النُّقصانِ-، وكان حالُه قد يَتبدَّلُ، فيَسبقُ عليه الكِتابُ فيَشقَى- سَبَّبَ عن ذلك قَولَه تعالى[1]:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

أي: فلا تَشهَدوا لأنفُسِكم بالبَراءةِ مِنَ الذُّنوبِ والآثامِ، أو تَمدَحوها بحُسنِ الأعمالِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا * ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠].

وعن مُحمَّدِ بنِ عَمرِو بنِ عَطاءٍ، قال: سَمَّيتُ ابنَتي بَرَّةَ، فقالت لي زَينبُ بنتُ أبي سَلَمةَ: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نهى عن هذا الاسمِ، وسُمِّيتُ بَرَّةَ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تُزَكُّوا أنفُسَكم؛ اللهُ أعلَمُ بأهلِ البِرِّ منكم! فقالوا: بِمَ نُسَمِّيها؟ قال: سَمُّوها زَينبَ))[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

قال ابن عاشور: (ويَشملُ تَزكيةَ المَرءِ غَيرَه، فيَرجِعُ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ إلى معنى: قَومَكم أو جماعتَكم، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]، أي: لِيُسَلِّمْ بَعضُكم على بَعضٍ. والمعنى: فلا يُثْنِ بَعضُكم على بَعضٍ بالصَّلاحِ والطَّاعةِ؛ لئَلَّا يَغُرَّه ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٤٢).

وعن أبي بَكْرةَ الثَّقفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: أثْنَى رَجُلٌ على رَجُلٍ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((وَيْلَك! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِك -مِرارًا-، ثمَّ قال: مَن كان مِنْكم مادِحًا أخاه لا مَحالةَ فلْيَقُلْ: أحسَبُ فُلانًا، واللهُ حَسيبُه(١)، ولا أُزَكِّي على اللهِ أحدًا(٢)، أحسَبُه كذا وكذا، إنْ كان يَعلَمُ ذلك منه))(٣).

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ بمَن اتَّقى سَخَطَه وعَذابَه مِنْكم، فامتثَلَ أوامِرَه، واجتنَبَ نواهيَه(٤).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَنَع اللهُ تعالى مِنَ الظَّنِّ في ثلاثةِ مَواضِعَ، وفي جميعِ تلك المواضِعِ كان المَنعُ عَقيبَ التَّسميةِ والدُّعاءِ باسمٍ؛ مَوضِعانِ منها في هذه السُّورةِ، أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٨]، والثَّالِثُ: في (الحُجُراتِ)، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢] عَقِيبَ الدُّعاءِ باللَّقَبِ، وكُلُّ ذلك دليلٌ على أنَّ حِفظَ اللِّسانِ أَولى مِن حِفظِ

---

(١) أي: كافيه، أو يكون فَعيلٌ مِن الحِسابِ، أي: مُحاسِبُه على عمَلِه الَّذي يَعلَمُ حقيقتَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٧٧).

(٢) أي: لا أقطعُ على عاقِبةِ أحدٍ، ولا على ما في ضميرِه؛ لكونِ ذلك مُغيَّبًا عنه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٣٠٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠).

غَيرِه مِنَ الأركانِ، وأنَّ الكَذِبَ أقبَحُ مِنَ السَّيِّئاتِ الظَّاهِرةِ مِن الأيدي والأرجُلِ، وهذه المواضِعُ الثَّلاثةُ: أحَدُها: مَدحُ مَن لا يَستَحِقُّ المدحَ، كاللَّاتِ والعُزَّى مِنَ العِزِّ. وثانيها: ذَمُّ مَن لا يَستَحِقُّ الذَّمَّ، وهم الملائِكةُ الَّذين هم عِبادُ الرَّحمنِ، يُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى. وثالِثُها: ذَمُّ مَن لم يُعلَمْ حالُه. وأمَّا مَدحُ مَن يُعلَمُ حالُه فلم يَقُلْ فيه: لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، بل الظَّنُّ فيه مُعتَبَرٌ، والأخذُ بظاهِرِ حالِ العاقِلِ واجِبٌ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ الاستِثناءُ هنا بمعنى الاستِدراكِ. ووَجهُه: أنَّ ما سُمِّيَ باللَّمَمِ: ضَربٌ مِنَ المعاصي المحَذَّرِ منها في الدِّينِ؛ فقد يَظُنُّ النَّاسُ أنَّ النَّهيَ عنها يُلحِقُها بكبائِرِ الإثمِ؛ فلذلك حَقَّ الاستِدراكُ، وفائدةُ هذا الاستِدراكِ عامَّةٌ وخاصَّةٌ؛ أمَّا العامَّةُ فلِكَيلا يُعامِلَ المُسلِمونَ مُرتَكِبَ شَيءٍ منها مُعامَلةَ مَن يَرتَكِبُ الكبائِرَ. وأمَّا الخاصَّةُ فرَحمةٌ بالمُسلِمينَ الَّذين قد يَرتَكِبونَها؛ فلا يَفُلُّ ارتِكابُها مِن نَشاطِ طاعةِ المُسلِمِ، ولِيَنصَرِفَ اهتِمامُه إلى تجنُّبِ الكبائِرِ؛ فهذا الاستِدراكُ بِشارةٌ لهم، وليس المعنى أنَّ اللهَ رَخَّص في إتيانِ اللَّمَمِ[٢]!

٣- صرَّح الله تعالى بالنَّهيِ العامِّ عن تزكيةِ النَّفْسِ في قَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، وأحْرَى نَفْسُ الكافِرِ الَّتي هي أخَسُّ شَيءٍ وأنجَسُه[٣]! وفيه تحذيرٌ للمُؤمِنينَ مِن العُجْبِ بأعمالِهم الحَسَنةِ عُجبًا يُحدِثُه المَرءُ في نَفْسِه، أو يُدخِلُه أحَدٌ على غيرِه بالثَّناءِ عليه بعَمَلِه، ويَشمَلُ ذلك ذِكرَ المَرءِ أعمالَه الصَّالِحةَ للتَّفاخُرِ بها، أو إظهارَها للنَّاسِ، ولا يجوزُ ذلك إلَّا إذا كان فيه جَلبُ مَصلحةٍ عامَّةٍ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

٤- إنَّ تزكيةَ الإنسانِ نَفْسَه ضَربانِ؛ أحَدُهما: بالفِعلِ، وهو مَحمودٌ، وإليه قُصِدَ بقَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، والثَّاني: بالقَولِ -كتَزكيةِ العَدلِ غَيرَه-، وذلك مذمومٌ أن يَفعَلَ الإنسانُ بنَفْسِه، وقد نهى اللهُ تعالى عنه بقَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، ونَهيُه عن ذلك تأديبٌ؛ لِقُبحِ مَدحِ الإنسانِ نَفْسَه عَقلًا وشَرعًا؛ ولهذا قيل لحَكيمٍ: ما الَّذي لا يَحسُنُ وإنْ كان حقًّا؟ فقال: مَدْحُ الإنسانِ نَفْسَه[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى وُجوبِ الخَوفِ مِن العاقِبةِ، أي: لا تَقطَعوا بخَلاصِكم أيُّها المُؤمِنونَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ عاقِبةَ مَن يكونُ على التُّقَى، وهذا يؤيِّدُ قَولَ مَن يَقولُ: «أنا مؤمِنٌ إن شاء اللهُ»؛ للصَّرفِ إلى العاقِبةِ[2].

٦- أنَّ المؤمِنَ مع المؤمِنِ بمَنزلةِ العُضوِ مع العُضوِ اللَّذَينِ تَجمَعُهما نَفْسٌ واحِدةٌ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى الأخَ المؤمِنَ نَفْسًا لأخيه في غَيرِ مَوضِعٍ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ إنْ قال قائِلٌ: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؟

الجوابُ: بلى، لكِنْ معنى: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: مَن عَمِلَ عملًا تزكُو به نَفْسُه، وليس معنى مَن زَكَّاها: مَن أثنَى عليها ومَدَحها بأنَّها عَمِلَت وعَمِلَت! بلِ المرادُ عَمِلَ عَمَلًا تَزكُو به نَفْسُه؛ فلا مُعارَضةَ بيْنَ الآيتَينِ، والتَّزكيةُ الَّتي يُذَمُّ عليها أنْ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٨).

يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه، ويَمدَحَ وكأنَّه يَمُنُّ على اللهِ! يقولُ: صَلَّيتُ، وتصَدَّقتُ، وصُمْتُ، وحَجَجْتُ، وجاهَدْتُ، وبَرَرتُ والديَّ، وما أشْبَهَ ذلك؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُزَكِّيَ نَفْسَه[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ رَدٌّ على أولئك الصُّوفيَّةِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم أئِمَّةٌ، ويُزكُّون أنْفُسَهم، ويقولونَ: وصَلْنا إلى حَدٍّ لا تَلْزَمُنا الطَّاعةُ! وصَلْنا إلى عالَمِ المَلَكوتِ؛ فليس علينا صَلاةٌ ولا صَدَقةٌ ولا صيامٌ، ولا يَحْرُمُ علينا شَيءٌ! وهؤلاء مُنسَلِخونَ مِنَ الدِّينِ انسِلاخًا تامًّا؛ ولذلك نقولُ: هؤلاء الَّذين يُزَكُّون أنْفُسَهم هم أبعَدُ النَّاسِ عن الزَّكاةِ؛ لأنَّهم أُعجِبوا بأعمالِهم، وأَدَلُّوا بها على اللهِ عزَّ وجلَّ، وجَعلوا لأنْفُسِهم مَنصِبًا لم يَجعَلْه اللهُ تعالى لهم، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ كأنَّه يقولُ: لماذا تُزَكُّون أنْفُسَكم؟ أتُريدونَ أنْ تُعْلِموا اللهَ بما أنتم عليه؟! الجوابُ: لا؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، يعني: إنْ كنتَ مُتَّقيًا للهِ فاللهُ أعلَمُ بك، ولا حاجةَ أنْ تَقولَ للهِ: إنِّي فعَلْتُ وفعَلْتُ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: لا تَصِفُوها بالزَّكاةِ افتِخارًا، وأمَّا التَّحَدُّثُ بنِعمةِ اللهِ على العَبدِ، مِثلُ أنْ يقولَ القائلُ: إنَّه كان مُسرِفًا على نَفْسِه، كان مُنحَرِفًا، فهداه اللهُ ووَفَّقَه ولَزِمَ الاستِقامةَ؛ تحدُّثًا بنِعمةِ اللهِ، لا تزكيةً لنَفْسِه- فإنَّ هذا لا بأسَ به، ولا حَرَجَ فيه؛ أنْ يَذْكُرَ الإنسانُ نعمةَ اللهِ عليه في الهِدايةِ والتَّوفيقِ، كما أنَّه لا حَرَجَ أنْ يَذْكُرَ نعمةَ اللهِ عليه بالغِنى بعدَ الفَقرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٢١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صِفةٌ لـ﴿مَّلَكٍ﴾، والمقصودُ منها بَيانُ شَرَفِ الملائكةِ بشَرَفِ العالَمِ الَّذي هم أهلُه، وهو عالَمُ الفضائِلِ ومنازِلِ الأسرارِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أمورٌ كُلُّها تُشيرُ إلى عِظَمِ الأمرِ:

أحَدُها: «كم»؛ فإنَّه للتَّكثيرِ.

ثانيها: لَفظُ «المَلَكِ»؛ فإنَّه أشرَفُ أجناسِ المخلوقاتِ.

ثالثُها: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ فإنَّها إشارةٌ إلى عُلُوِّ مَنزِلتِهم، ودُنُوِّ مَرتبتِهم مِن مَقَرِّ السَّعادةِ.

رابعُها: اجتِماعُهم على الأمرِ في قَولِه: ﴿شَفَٰعَتُهُمۡ﴾. وكُلُّ ذلك لبيانِ فَسادِ قَولِهم: إنَّ الأصنامَ يَشفَعونَ[٢]، كأنَّه يقولُ: الملائكةُ الكرامُ لا تُغْني شفاعتُهم شيئًا إلَّا بإذْنِ الله، فكيفَ أوثانُكم[٣]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ نفَى سُبحانَه أنْ تُغْنِيَ شفاعةُ الملائكةِ الَّذين في السَّماءِ إلَّا من بعدِ إذْنِه؛ تنبيهًا بذلك على أنَّ مَن دَونَهم أَولى ألَّا تُغنِيَ شَفاعتُهم؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا يقولونَ عن الأصنامِ: إنَّها تَشفَعُ لهم[٤]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٢٣١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ أُفرِدَت الشَّفاعةُ؛ لأنَّها مَصدَرٌ، ولأنَّهم لو شَفَع جَميعُهم لواحدٍ لم تُغْنِ شَفاعتُهم عنه شيئًا[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ أنَّ للشَّفاعةِ شَرطَينِ؛ الأوَّلُ: الإذْنُ مِنَ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾. والثَّاني: رِضاه عن الشَّافعِ والمَشفوعِ له؛ لِقَولِه: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فلا بُدَّ من إذْنِه تعالى، ورِضاهُ عنِ الشَّافعِ والمَشفوعِ له، إلَّا في التَّخفيفِ عن أبي طالبٍ كما جاء في الحَديثِ[2]، فالمُشرِكونَ إذَنْ لا نَصيبَ لهم مِن شَفاعةِ الشَّافِعينَ، وقد سَدُّوا على أنفُسِهم رَحمةَ أرحَمِ الرَّاحِمينَ[3]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ أنَّه لَمَّا كان المَلِكُ قد يأذَنُ في الشَّفاعةِ وهو كارِهٌ، قال مُعْلِمًا أنَّه ليس كأولئك؛ فحينَئذٍ تُغْني شَفاعتُهم إذا كانوا مِن المأذونِ لهم، كلُّ هذا قَطعًا لأطماعِهم وعن قَولِهم بمُجَرَّدِ الهوى: إنَّ آلهتَهم تَشفَعُ لهم[4]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ أن يُقالَ: «إنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ» مع أنَّهم كانوا يقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وكان مِن عادتِهم أن يَربِطوا مَركوبًا على قَبرِ مَن يموتُ، ويَعتَقِدونَ أنَّه يُحشَرُ عليه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٨٨٥) ومسلمٌ (٢١٠) من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

الجوابُ مِن وَجهينِ:

أحَدُهما: أنَّهم لَمَّا كانوا لا يَجزِمونَ به؛ كانوا يقولونَ: لا حَشْرَ، فإنْ كان فَلَنا شُفَعاءُ، يدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

ثانيهما: أنَّهم ما كانوا يَعتَرِفونَ بالآخرةِ على الوَجهِ الحَقِّ، وهو ما وَرَد به الرُّسُلُ[١].

ويمكنُ أن يُقالَ: إنَّهم كانوا يَطلُبون بعبادةِ الأصنامِ الشَّفاعةَ لِيَتحقَّقَ لهم ما يَطلُبون في الدُّنيا مِن أرزاقٍ ومكاسِبَ وعافيةٍ ونصْرٍ... إلخ.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿**وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا**﴾ سؤالٌ: كيف أنَّ الظَّنَّ لا يَقومُ مَقامَ العِلمِ مع أنَّه يقومُ مَقامَه في كثيرٍ مِنَ المسائِلِ كالقياسِ؟

الجوابُ: المرادُ هنا: الظَّنُّ الحاصِلُ مِن اتِّباعِ الهوى، دونَ الظَّنِّ الحاصِلِ مِنَ الاستِدلالِ والنَّظَرِ، بقَرينةِ قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[٢] [النجم: ٢٣].

٩- قَولُ مَن قال: إنَّه لا يجوزُ العَمَلُ بالظَّنِّ في المسائِلِ الفِقهيَّةِ وغَيرِها: خَطَأٌ؛ لأنَّ كثيرًا من المسائِلِ الفِقهيَّةِ ظَنِّيَّةٌ؛ إمَّا لخفاءِ الدَّليلِ، أو خفاءِ الدَّلالةِ: ليس كُلُّ مَسألةٍ في الفَقهِ يَقولُ بها الإنسانُ على سبيلِ اليقينِ أبَدًا، بل بَعضُها يَقينٌ وبَعضُها ظَنٌّ، والظَّنُّ إذا تعذَّرَ اليَقينُ: مِمَّا أحَلَّ اللهُ، ومن نِعمةِ اللهِ أنَّه إذا تعذَّر اليقينُ رجَعْنا إلى غَلَبةِ الظَّنِّ، فليس كلُّ ظَنٍّ مُنكَرًا، لكِنَّ الظَّنَّ الَّذي ليس له أصلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠).

يُبنَى عليه: مُنكَرٌ[١].

١٠- الظَّنُّ يُطلَقُ في لُغةِ العَرَبِ الَّتي نزل بها القُرآنُ على معنيَين:

أحَدُهما: الشَّكُّ المستوي الطَّرَفَينِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾، وقَولِه تعالى عن الكُفَّارِ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

والثَّاني: هو إطلاقُ الظَّنِّ مُرادًا به العِلمُ واليَقينُ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ [فصلت: ٤٨] أي: أيقَنوا أنَّهم ليس لهم يومَ القيامةِ مَحيصٌ، وقولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: يوقِنون أنَّهم مُلاقو اللهِ، وقولُه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، وقولُه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] أي: أيقنتُ ذلك[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ لطيفةٌ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان كالطَّبيبِ للقُلوبِ؛ فقد أتَى على ترتيبِ الأطِبَّاءِ في أنَّ المَرَضَ إذا أمكَنَ إصلاحُه بالغِذاءِ لا يَستعمِلونَ الدَّواءَ القَويَّ، ثمَّ إذا عَجَز عن المُداواةِ بالمشروباتِ وغيرِها عَدَلوا إلى الحديدِ والكَيِّ، كما قيل: آخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٢٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٠) و (٧/ ٣٥).

فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلًا: أمَرَ القُلوبَ بذِكرِ اللهِ فحَسْبُ؛ فإنَّ بذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلوبُ، كما أنَّ بالغِذاءِ تطمَئِنُّ النُّفوسُ؛ فالذِّكرُ غِذاءُ القَلبِ؛ ولهذا قال أوَّلًا: قولوا: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» أمَرَ بالذِّكرِ لِمَن انتَفَع، مِثلُ أبي بَكرٍ وغَيرِه مِمَّن انتفَع، ومَن لم ينتَفِعْ ذَكَر لهم الدَّليلَ، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ [الغاشية: ١٧] إلى غيرِ ذلك، ثمَّ أتى بالوَعيدِ والتَّهديدِ، فلَمَّا لم ينفَعْهم قال: أعرِضْ عن المعالَجةِ، واقطَعِ الفاسِدَ؛ لئَلَّا يُفسِدَ الصَّالحَ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ أنَّ غايتَهم ذلك، و﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والمجنونُ الَّذي لا عِلْمَ له والصَّبيُّ لا يُؤمَرُ بما فوقَ احتِمالِه، فكيف يُعاقِبُهم اللهُ؟

الجوابُ: ذَكَر سُبحانَه قبْلَ ذلك أنَّهم تولَّوا عن ذِكرِ اللهِ، فكان عدَمُ عِلْمِهم لعَدَمِ قَبولِهم العِلمَ، وإنَّما قَدَّرَ اللهُ تولِّيَهم؛ لِيُضافَ الجهلُ إلى ذلك، فيُحَقَّقَ العِقابُ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ -الَّتي هي: ﴿أَعْلَمُ﴾ في هذه الآيةِ- يُرادُ بها مُطلَقُ الوَصفِ لا التَّفضيلُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُشارِكُه أحَدٌ في عِلمِ ما يَصيرُ إليه خَلْقُه مِن شَقاوةٍ وسَعادةٍ(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ إنَّما بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، وبمَنِ اهتدَى؛ لفائدتَينِ:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٦).

الفائدةُ الأُولى: أنْ نَعلَمَ أنَّ ما وَقَعَ مِن الضَّلالِ والهدايةِ فهو صادِرٌ عن علمِ اللهِ تعالى، وبإرادتِه؛ إذ لا يُمكِنُ أنْ يوجَدَ في خَلْقِه خِلافُ مَعلومِه تعالى.

الفائدةُ الثَّانيةُ: التَّحذيرُ مِن الضَّلالِ، والتَّرغيبُ في الاهتِداءِ، ما دام الإنسانُ يَعلَمُ أنَّ أيَّ عَمَلٍ صَدَرَ منه فعِلْمُه عندَ اللهِ فإنَّه سوف يَخشَى أنْ يَعصِيَ اللهَ، وسوف يَسعَى أنْ يُرضِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ، كأنه يقولُ: إنْ ضَلَلْتَ فاللهُ أعلمُ بك، وإنِ اهتديتَ فاللهُ أعلمُ بك؛ فيَجزي الَّذين أساؤوا بما عَمِلوا، ويَجزي الَّذين أحسَنوا بالحُسنى[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عَبَّرَ بالرَّبِّ؛ إشارةً إلى أنَّ ضلالَ هذا مِنَ الإحسانِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو دخل في دينِه لأفسَدَ أكثَرَ مِمَّا يُصلِحُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[2] [التوبة: ٤٧].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه سُبحانَه مالِكٌ لِذَواتِهما، ومالكٌ لِمَا فيهما أيضًا، يتصرَّفُ فيه كما يشاءُ حسَبَ ما تقتضيه حكمتُه. وإيمانُنا بأنَّ للهِ مُلْكَ السَّمَواتِ والأرضِ يُفيدُ فائدتَينِ عظيمتَينِ:

الفائدةُ الأُولى: الرِّضا بقضاءِ اللهِ تعالى؛ لأنَّك مِلْكُه، فهو كما يَتصرَّفُ في السَّحابِ يُمْطِرُ أو لا يُمطِرُ، يَمضي أو لا يَمضي، ويَتصرَّفُ في الشَّمسِ والقمرِ، ويَتصرَّفُ في المخلوقاتِ؛ يَتصرَّفُ فيك أيضًا كما يشاءُ، إنْ شاء أعطاك صحَّةً، وإنْ شاء سَلَبَها، إنْ شاء أعطاك عقلًا، وإنْ شاء سَلَبَك، إنْ شاء أعطاك مالًا، وإنْ شاء سَلَبَك، أنت مِلْكُه، فإذا آمنتَ بهذا رضيتَ بقضائِه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٥).

الفائدة الثَّانية: الرِّضا بشرْعِه، وقَبولُ شرْعِه، والقيامُ به؛ لأنك ملْكُه، إذا قال لك: افعلْ فافعلْ، وإذا قال: لا تفعلْ فلا تفعلْ، فإذا عصيتَ ربَّك -إمَّا بفعلِ مُحَرَّمٍ، وإمَّا بتركِ واجبٍ- فإنَّك خرجتَ عن مُقتضى العبوديَّةِ التَّامَّةِ؛ لأنَّ مقتضى العبوديَّةِ التَّامَّةِ أنْ تَخضَعَ لشرْعِه كما أنَّك خاضعٌ كرهًا أو طَوعًا لقضائه وقَدَرِه، فليس معنى قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنْ يُخبِرَنا أنه مالكٌ فقط! لكنْ مِن أجْلِ أنْ نعتقدَ مُقتضى هذا المُلْكِ، وهو الرِّضا بقضائِه، والرِّضا بشرْعِه، هذه حقيقةُ المُلْكِ[1].

١٧- إنَّ وُقوعَ الذَّنْبِ مع تَعَقُّبِه بالتَّوبةِ والاستِغفارِ لا يَقدَحُ في كَونِ الرَّجُلِ مِن المُقَرَّبينَ السَّابِقينَ ولا الأبرارِ، ولا يَلْحَقُه بذلك وعيدٌ في الآخرةِ، فضلًا عن أنْ يَجعلَه مِن الفُجَّارِ، وقد قال تعالى في عُمومِ وَصْفِ المؤمِنينَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[2].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أنَّ السَّيِّئةَ لا يُجازَى الإنسانُ بأكثرَ منها[3]، فحينَ ذَكَر سُبحانَه جزاءَ المُسيءِ قال: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾، وحينَ ذكَرَ جزاءَ المُحسِنِ أتَى بالصِّفةِ الَّتي تَقتَضي التَّفضُّلَ، وتدُلُّ على الكَرَمِ والزِّيادةِ للمُحسِنِ ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾، وهي كقَولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] [العنكبوت: ٧]، فقال تعالى: ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ ولم يَقُلْ: «بما عَمِلوا»؛ لأنَّ فَضْلَ اللهِ أوسعُ مِن أعمالِنا، فأنت إذا فعَلْتَ حَسَنةً فتكونُ عشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةِ ضِعْفٍ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠).

أضعافٍ كثيرةٍ، وهذا يَدُلُّك على سَعةِ فضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإحسانِه وكمالِ عدلِه[١]!

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ بَيانُ المُسيءِ والمُحسِنِ؛ لأنَّ مَن لا يجتَنِبُ كبائِرَ الإثم يكونُ مُسيئًا، والَّذي يجتَنِبُها يكونُ مُحسنًا، وعلى هذا ففيه لَطيفةٌ: وهي أنَّ المُحسِنَ لَمَّا كان هو مَن يجتَنِبُ الآثامَ، فالَّذي يأتي بالنَّوافِلِ يكونُ فَوقَ المُحسِنِ، واللهُ تعالى وَعَد المُحسِنَ بالزِّيادةِ؛ فالَّذي فَوقَه يكونُ له زياداتٌ فَوقَها، وهم الَّذين لهم جزاءُ الضِّعفِ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وَصْفُ اللهِ المُحسِنينَ باجتِنابِ الكبائرِ[٣]، فقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ صِفةٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾، أي: الَّذين أحسَنوا واجتَنَبوا كبائِرَ الإثم والفواحِشَ، أي: فَعَلوا الحَسَناتِ واجتَنَبوا المَنهيَّاتِ؛ وذلك جامعُ التَّقْوى. وهذا تنبيهٌ على أنَّ اجتِنابَ ما ذُكِرَ يُعَدُّ مِنَ الإحسانِ؛ لأنَّ فِعلَ السَّيِّئاتِ يُنافي وَصْفَهم بالَّذين أحسَنوا؛ فإنَّهم إذا أتَوا بالحَسَناتِ كُلِّها ولم يَترُكوا السَّيِّئاتِ، كان فِعْلُهم السَّيِّئاتِ غيرَ إحسانٍ، ولو تَرَكوا السَّيِّئاتِ وتَرَكوا الحَسَناتِ كان تَركُهم الحَسَناتِ سَيِّئاتٍ[٤].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أنَّ مِن الذُّنوبِ كَبائِرَ وصَغائِرَ[٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ دَلالةٌ على عَدَمِ المساواةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٥).

بيْنَ المعاصي[1].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ ... ﴾ الآيةَ: تَكفيرُ الصَّغائرِ باجتِنابِ الكبائرِ[2].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ سُؤالٌ: إذا ذُكِرَتِ الكبائرُ، فما الفواحِشُ بَعْدَها؟

الجوابُ: الكبائرُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن مِقدارِ السَّيِّئةِ، والفواحِشُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن وَصفِ القُبحِ، كأنَّه قال: «عظيمةُ المقاديرِ، قَبيحةُ الصُّوَرِ»، والفاحِشُ في اللُّغةِ مُختَصٌّ بالقَبيحِ الخارجِ قُبحُه عن حَدِّ الخَفاءِ، ولهذا لم يَقُل: «الفواحِشَ مِن الإثمِ»، وقال في الكبائرِ: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾؛ لأنَّ الكبائرَ إنْ لم يُمَيِّزْها بالإضافةِ إلى الإثمِ لَمَا حَصَل المقصودُ، بخِلافِ الفواحِشِ[3].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ الكبائرَ تختلِفُ؛ وأنَّ الفواحشَ تختلفُ، لأنَّ الكبائرَ وَصْفٌ؛ كلمَّا كان أعظَمَ صار أشدَّ كبيرةً، والفواحشُ كذلك، وفي قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠] فرَّقَ اللهُ بيْنَها -معَ أنَّها كلَّها فواحشُ- لكنَّ بعضَها أعظمُ مِن بعضٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٠).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٢).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أنَّه تعالى عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ قبْلَ وُقوعِه؛ فهو يَعلَمُ ما سيَعمَلُه الخَلقُ[١].

٢٦- قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ المعنى أنَّ الضَّعْفَ المُقتَضِيَ لسَعةِ التَّجاوُزِ بالمَغفِرةِ مُقرَّرٌ في عِلمِ اللهِ مِن حينِ إنشاءِ آدَمَ مِنَ الأرضِ بالضَّعفِ الملازِمِ لجِنسِ البَشَرِ على تفاوُتٍ فيه؛ قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ فإنَّ إنشاءَ أصلِ الإنسانِ مِن الأرضِ -وهي عُنصُرٌ ضَعيفٌ- يَقتَضي ملازَمةَ الضَّعفِ لجَميعِ الأفرادِ المنحَدِرةِ مِن ذلك الأصلِ[٢].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ تَنبيهٌ على كَمالِ العِلمِ والقُدرةِ؛ فإنَّ بَطنَ الأُمِّ في غايةِ الظُّلمةِ، ومَن عَلِمَ بحالِ الجَنينِ فيها لا يَخفَى عليه ما ظَهَر مِن حالِ العِبادِ[٣].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ دَليلٌ على تثبيتِ نَسَبِ ولدِ الزِّنا مِن أُمِّه، ومُغْنٍ عن قياسِه على وَلَدِ المُلاعَنةِ؛ لِدُخولِ ولَدِ الزِّنا -لا محالةَ- في هذا الخِطابِ، ونِسبتِه جلَّ وتعالى جميعَ الأَجِنَّةِ إلى الأُمَّهاتِ[٤].

٢٩- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ دليلٌ على أنَّ الزَّكاةَ هي التَّقْوى، وعُلِم مِن ذلك أنَّ التَّزكيةَ هي الإخبارُ بالتَّقوى[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٤).
(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٩١) و (١٦/ ١٩٩).

﴿يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ لَمَّا بيَّنَ اللهُ أنَّ أُمورَ الدَّارَينِ بيَدِ اللهِ تعالى، وأنْ ليس للإنسانِ ما تَمنَّى، ضرَبَ لذلك مِثالًا مِن الأمانيِّ الَّتي هي أعظَمُ أمانيِّ المُشرِكين؛ وهي قولُهم في الأصنامِ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فبيَّنَ إبطالَ قولِهم بطَريقِ فَحوى الخِطابِ؛ وهو أنَّ الملائكةَ الَّذين لهم شرَفُ المَنزلةِ -لأنَّ الملائكةَ من سُكَّانِ السَّمواتِ، فهمْ لا يَسْتطيعون إنكارَ أنَّهم أشرَفُ مِن الأصنامِ- لا يَملِكون الشَّفاعةَ إلَّا إذا أذِنَ اللهُ أنْ يُشفَعَ إذا شاء أنْ يَقبَلَ الشَّفاعةَ في المَشفوعِ له، فكيف يكونُ للمُشرِكينَ ما تَمنَّوا من شَفاعةِ الأصنامِ للمشركينَ الَّذين يَقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وهي حِجارةٌ في الأرضِ، وليست مَلائكةً في السَّمواتِ؟! فثبَتَ أنْ لا شَفاعةَ إلَّا لِمَن شاء اللهُ، وقد نفَى اللهُ شَفاعةَ الأصنامِ، فبَطَلَ اعتقادُ المشرِكينَ أنَّهم شُفعاؤُهم، فهذه مُناسَبةُ عطْفِ هذه الجُملةِ على جُملةِ ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ [النجم: ٢٤]، وليس هذا الانتِقالُ اقتضابًا لبَيانِ عِظَمِ أمْرِ الشَّفاعةِ(١).

- وفي هذا إقناطٌ لهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم مِن شَفاعةِ الملائكةِ لهم، مُوجِبٌ لإقناطِهم مِن شَفاعةِ الأصنامِ بطَريقِ الأَولويَّةِ(٢).

- وجُملةُ ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا ...﴾ إلخ، خبَرٌ عن (كَمْ)، أي: لا تُغْني شَفاعةُ أحدِهم، فهو عامٌّ؛ لوُقوعِ الفِعلِ في سِياقِ النَّفْيِ، ولإضافةِ شَفاعةٍ إلى ضَميرِهم، أي: جَميعُ الملائكةِ -على كَثرتِهم وعُلوِّ مِقدارِهم- لا تُغْني شَفاعةُ واحدٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢، ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠).

منهم[١].

- و﴿شَيْـًٔا﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ -أي: لم تُذكَرْ مُتعلَّقاتُه- للتَّعميمِ، أي: شيئًا مِن الإغناءِ؛ لِزيادةِ التَّنصيصِ على عُمومِ نفْيِ إغناءِ شَفاعتِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يقُلْ: (لا يَشفَعون)، مع أنَّ دَعْواهم: أنَّ هؤلاء شُفعاؤُنا، لا أنَّ شَفاعتَهم تَنفَعُ أو تُغْني، وقد قال تَعالى -في مواضِعَ أُخَرَ-: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥]؛ فنَفَى الشَّفاعةَ بدونِ الإذْنِ، وقال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[السجدة: ٤]؛ فنَفَى الشَّفيعَ، وهاهنا نَفى الإغناءَ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّهم كانوا يَقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا، وكانوا يَعتقِدون نفْعَ شَفاعتِهم، كما قال تَعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، ثمَّ نقولُ: نفْيُ دَعواهم يَشتمِلُ على فائدةٍ عَظيمةٍ، أمَّا نفْيُ دَعواهم؛ لأنَّهم قالوا: الأصنامُ تَشفَعُ لنا شَفاعةً مُقرِّبةً مُغْنيةً! فقال: لا تُغْني شَفاعتُهم؛ بدليلِ أنَّ شَفاعةَ الملائكةِ لا تُغْني، وأمَّا الفائدةُ فلأنَّه لَمَّا استَثْنى بقولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾، أي: فيَشفَع، ولكنْ لا يكونُ فيه بَيانُ أنَّها تُقبَلُ وتُغْني أو لا تُقبَلُ، فإذا قال: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾، فيَكونُ معناهُ: تُغْني؛ فتَحصُلُ البِشارةُ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وقال تَعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الشورى: ٥]، والاستِغفارُ شَفاعةٌ. وأمَّا قولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٥] فليس المرادُ نفْيَ الشَّفاعةِ وقَبولَها، كما في هذه الآيةِ حيثُ رَدَّ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولَهم، وإنَّما المرادُ عَظَمةُ اللهِ تَعالى، وأنَّه لا يَنطِقُ في حضْرتِه أحدٌ ولا يَتكلَّمُ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[1] [النبأ: ٣٨].

- ولَمَّا كان ظاهرُ قولِه: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ يُوهِمُ أنَّهم قد يَشفَعون فلا تُقبَلُ شَفاعتُهم، وليس ذلك مُرادًا؛ لأنَّ المُرادَ أنَّهم لا يَجرُؤونَ على الشَّفاعةِ عند اللهِ؛ فلذلك عُقِّبَ بالاستِثناءِ بقولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، وذلك ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، أي: إلَّا مِن بَعْدِ أنْ يَأذَنَ اللهُ لأحدِهم في الشَّفاعةِ، ويَرضَى بقَبولِها في المَشفوعِ له، فالمُرادُ بـ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَن يَشاؤُه اللهُ منهم، أي: فإذا أذِنَ لأحدِهم قُبِلَت شَفاعتُه[2].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ هي اللَّامُ الَّتي تَدخُلُ بعدَ مادَّةِ الشَّفاعةِ على المشفوعِ له؛ فهي مُتعلِّقةٌ بشفاعتِهم، وليستِ اللَّامُ مُتعلِّقةً بـ﴿يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾، ومَفعولُ ﴿يَأْذَنَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾، وتَقديرُه: أنْ يَأْذَنَهم اللهُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ لتَعديةِ ﴿يَأْذَنَ﴾ إذا أُرِيدَ به معْنى يَستمِعُ. ومعْنى ذلك أنَّ الملائكةَ لا يَزالون يَتقرَّبون بطلَبِ إلْحاقِ المؤمنينَ بالمَراتبِ العُلْيا، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وقولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]؛ فإنَّ الاستغفارَ دُعاءٌ، والشَّفاعةَ تَوجُّهٌ أعْلى، فالملائكةُ يَعلَمون إذا أرادَ اللهُ استجابةَ دَعوتِهم في بَعضِ المؤمنينَ، أذِنَ لأحدِهم أنْ يَشفَعَ له عندَ اللهِ، فيَشفَعَ، فتُقبَلَ شَفاعتُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣، ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤).

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ بالشَّفاعةِ يَجْري على حسَبِ إرادتِه إذا كان المَشفوعُ له أهْلًا لأنْ يُشفَعَ له(١).

- وفي هذا الإبهامِ تَحريضٌ للمؤمنينَ أنْ يَجتهِدوا في التَّعرُّضِ لِرِضا اللهِ عنهم؛ ليَكونوا أهْلًا للعفوِ عمَّا فرَّطوا فيه مِن الأعمالِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ اعتِراضٌ واستِطرادٌ لِمُناسَبةِ ذِكرِ الملائكةِ، وتبَعًا لِما ذُكِرَ آنِفًا مِن جَعْلِ المشرِكين اللَّاتَ والعُزى ومَناةَ بَناتٍ للهِ بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩- ٢١]؛ ثُنِيَ إليهم عِنانُ الرَّدِّ والإبطالِ لزعْمِهم أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، جمْعًا بيْن ردِّ باطلَينِ مُتشابهينِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُعبَّرَ عن المَردودِ عليهم بضَميرِ الغَيبةِ تبَعًا لقولِه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٨]، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ بالمَوصوليَّةِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن التَّوبيخِ لهم، والتَّحقيرِ لعَقائدِهم؛ إذ كَفَروا بالآخرةِ، وقد تواتَرَ إثباتُها على ألْسِنةِ الرُّسلِ وعندَ أهْلِ الأديانِ المُجاوِرينَ لهم مِن اليهودِ والنَّصارَى والصَّابئةِ، فالمَوصوليَّةُ هنا مُستعمَلةٌ في التَّحقيرِ والتَّهكُّمِ نَظيرَ حِكايةِ اللهِ عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، إلَّا أنَّ التَّهكُّمَ المَحكيَّ هنالك تَهكُّمُ المُبطِلِ بالمُحقِّ؛ لأنَّهم لا يَعتقِدون وُقوعَ الصِّلةِ، وأمَّا التَّهكُّمُ هنا فهو تَهكُّمُ المُحِقِّ بالمُبطِلِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَضمونَ الصِّلةِ ثابتٌ لهم(١).

- وفي تَعليقِ تَسميتِهم الملائكةَ تَسميةَ الأُنثى بعَدَمِ الإيمانِ بالآخرةِ، إشعارٌ بأنَّها في الشَّناعةِ والفَظاعةِ واستِتْباعِ العقوبةِ في الآخرةِ بحيثُ لا يَجترِئُ عليها إلَّا مَن لا يُؤمِنُ بها رأْسًا(٢).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ الَّذي هو في معْنى المُتعدِّدِ، والَّذي دَعا إلى هذا النَّظْمِ مُراعاةُ الفَواصلِ؛ لِيَقَعَ لَفظُ ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ فاصِلةً(٣).

- جُملةُ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَيُسَمُّونَ﴾، أي: يُثبِتونَ للملائكةِ صِفاتِ الإناثِ في حالِ انتِفاءِ عِلْمٍ منهم بذلك، وإنَّما هو تَخيُّلٌ وتَوهُّمٌ؛ إذ العِلْمُ لا يكونُ إلَّا عن دَليلٍ لهم، فنَفْيُ العِلمِ مُرادٌ به نفْيُه ونفْيُ الدَّليلِ على طَريقةِ الكِنايةِ(٤).

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ ذو شُعَبٍ؛ فإنَّ فيها بيانًا لجُملةِ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، وعَودًا إلى جُملةِ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وتأْكيدًا لمَضمونِها، وتَوطئةً لتَفريعِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾(٥) [النجم: ٢٩].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أُظهِرَ لَفظُ الظَّنِّ دونَ ضَميرِه؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَسيرَ مَسيرَ الأمثالِ(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤، ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ونفْيُ الإغناءِ مَعناهُ نفْيُ الإفادةِ، أي: لا يُفيدُ شيئًا مِن الحقِّ؛ فحرْفُ (مِنْ) بَيانٌ، وهو مُقدَّمٌ على المُبيَّنِ، أعني ﴿شَيْـًٔا﴾[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بعْدَ أنْ وصَفَ مَدارِكَهم الباطِلةَ وضَلالَهم، فرَّعَ عليه أمْرَ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعْراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن وَصْفِ ضَلالِهم كان نَتيجةَ إعراضِهم عن ذِكرِ اللهِ، وهو التَّولِّي عن الذِّكرِ، فحَقَّ أنْ يكونَ جَزاؤُهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم، فإنَّ الإعراضَ والتَّولِّي مُترادِفانِ أو مُتقارِبانِ[٢].

- وماصَدَقَ[٣] ﴿مَّن تَوَلَّىٰ﴾ القومُ الَّذين تولَّوا، وإنَّما جَرَى الفِعلُ على صِيغةِ المُفرَدِ مُراعاةً للَفظِ (مَن)؛ ألَا ترى قولَه: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم﴾ بضَميرِ الجمْعِ[٤]؟

- وجِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ في مَقامِ الإضمارِ فقِيل: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾، دونَ: (فأعرِضْ عنهم)؛ لِما تُؤذِنُ به صِلةُ المَوصولِ مِن عِلَّةِ الأمْرِ بالإعراضِ عنهم، ومِن تَرتُّبِ تَولِّيهم عن ذِكرِ اللهِ على ما سبَقَ وصْفُه مِن ضَلالِهم؛ إذْ لم يَتقدَّمْ وصْفُهم بالتَّولِّي عن الذِّكْرِ، وإنَّما تَقدَّمَ وصْفُ أسبابِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦، ١١٧).

(٣) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعْنى ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ الإيمانِ بالحياةِ الآخِرةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]؛ لأنَّهم لو آمَنوا بها على حَقيقتِها لَأرادُوها ولو ببَعضِ أعمالِهم[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لقُصورِ هِمَمِهم بالدُّنيا، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ بُيِّنَ به سَببُ جَهْلِهم بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ؛ لأنَّه لغَرابتِه ممَّا يَسأَلُ عنه السَّائلُ، وفيه تَحقيرٌ لهم، وازْدِراءٌ بهم بقُصورِ مَعلوماتِهم، وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْنَ الجُمَلِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وعِلَّتِها في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآيةَ[٢].

- وفي تَعليلِ الأمرِ بإعراضِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الاعتِناءِ بأمْرِهم باقتِصارِ العِلمِ بأحوالِ الفَريقينِ عليه تعالَى؛ رمْزٌ إلى أنَّه تعالَى يُعامِلُهم بمُوجَبِ عِلْمِه بهم، فيَجْزي كُلًّا منْهم بما يَليقُ بِه مِن الجزاءِ؛ ففيه وَعيدٌ ووعْدٌ ضِمْنًا كما سيأْتي صَريحًا[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾، وهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والخبَرُ مُستعمَلٌ في معْنى أنَّه مُتولِّي حِسابِهم وجَزائِهم على طَريقةِ الكِنايةِ، وفيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

وَعيدٌ للضَّالِّينَ[(١)].

- والتَّوكيدُ المُفادُ بحرْفِ (إنَّ) وبضَميرِ الفَصْلِ راجعٌ إلى المعْنى الكِنائيِّ، وأمَّا كونُه تعالى أعلَمَ بذلك، فلا مُقْتضى لتأْكيدِه؛ لَمَّا كان المُخاطَبُ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعْنى: هو أعلَمُ منك بحالِهم[(٢)].

- وضَميرُ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ مُفيدٌ القصْرَ، وهو قصْرٌ حَقيقيٌّ[(٣)]، والمعْنى: أنتْ لا تَعلَمُ دَخائلَهم؛ فلا تَتحسَّرْ عليهم[(٤)].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تَتْميمٌ[(٥)]، وفيه وعْدٌ للمؤمنينَ، وبِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٦)].

- وتَكريرُ قولِه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لِزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بكَمالِ تَبايُنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٥) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

المَعلومَينِ[(١)].

- والباءُ في ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وفي ﴿بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ لتَعديةِ صِفتَيْ (أعلَم)، وهي للمُلابَسةِ، أي: هو أشدُّ عِلمًا مُلابِسًا لِمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، أي: مُلابِسًا لحالِ ضَلالِه[(٢)].

- وقَدَّم العِلمَ بمَن ضَلَّ على العِلمِ بالمُهتَدي، وكذا في كثيرٍ مِنَ المواضِعِ، منها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]، ومنها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم: ٧]؛ ووَجْهُه: أنَّ المذكورَ في المواضِعِ كُلِّها نَبيُّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمعانِدونَ؛ فذَكَرهم أوَّلًا تَهديدًا لهم، وتَسليةً لقَلبِ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٣)]، وأيضًا لأنَّ الضَّالِّينَ أهمُّ في هذا المَقامِ، وأمَّا ذِكرُ المُهتدينَ فتَتميمٌ[(٤)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ...﴾ إلخ؛ فبَعْدَ أنْ ذكَرَ أنَّ للهِ أُمورَ الدَّارينِ بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، انتقَلَ إلى أهمِّ ما يَجْري في الدَّارينِ مِن أحوالِ النَّاسِ الذين همْ أشرَفُ ما على الأرضِ، بمُناسَبةِ قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النجم: ٣٠]، المُرادِ به الإشارةُ إلى الجَزاءِ، وهو إثباتٌ لوُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ...﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ قولُه: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ بما في الخبَرِ مِن معْنى الكَونِ المقدَّرِ في الجارِّ والمجرورِ المُخبَرِ به عن ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: كائنٌ مِلْكًا للهِ كونًا، عِلَّتُه أنْ يَجزيَ الَّذين أساؤُوا والَّذين أحْسَنوا مِن أهْلِ الأرضِ، وهم الَّذين يَصدُرُ منهم الإساءةُ والإحسانُ، فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ لامُ التَّعليلِ، جعَلَ الجزاءَ عِلَّةً لثُبوتِ مِلكِ اللهِ لِما في السَّمواتِ والأرضِ. وقيل: قولُه: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهو مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، أي: فأعرِضْ عن دَعوةِ مَن تَدْعوه إلى لِقاءِ ربِّه والدَّارِ الآخِرةِ وهو يقولُ: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، والحالُ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى إنَّما خلَقَ العالَمَ وسَوَّى هذا الملَكوتَ؛ ليَجزِيَ المُحسنَ والمُسيءَ، ويكون قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ تعريضًا بهم، وبظَنِّهم الباطلِ أنَّهم يُتْرَكون سُدًى، ويَزعُمون أنَّ السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما خُلِقَ عبَثًا، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآيةَ على هذا اعتِراضٌ وتَوكيدٌ للتَّهديدِ والوعيدِ.

ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بقولِه: ﴿أَعْلَمُ﴾ مِن قولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النجم: ٣٠]، أي: مِن خَصائصِ عِلْمِه الَّذي لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ أنْ يكونَ عِلْمُه مُرتَّبًا عليه الجَزاءُ(١).

- والباءانِ في قولِه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ وقولِه: ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ لتَعديةِ فِعْلَيْ ﴿لِيَجْزِىَ﴾ ﴿وَيَجْزِىَ﴾؛ فما بعْدَ الباءَينِ في معْنى مَفعولِ الفِعلَينِ، فهما داخِلَتانِ على الجزاءِ، وقولُه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ حينئذٍ تَقديرُه: بمِثلِ ما عَمِلوا، أي: جَزاءً عادِلًا مُماثِلًا لِما

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

عَمِلوا؛ فلذلك جُعِلَ بمَنزلةِ عَينِ ما عَمِلوه على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغ(١).

- وقوله: ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾ أي: بالمَثوبةِ الحُسنى، أي: بأفضلَ ممَّا عَمِلوا، وفيه إشارةٌ إلى مُضاعَفةِ الحَسَناتِ(٢).

- و(الْحُسْنَى) صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه (يَجزي)، وهي المَثوبةُ بمعْنى الثَّوابِ(٣).

- وجاء تَرتيبُ التَّفصيلِ لجَزاءِ المُسيئينَ والمُحسنينَ على وَفْقِ تَرتيبِ إجْمالِه الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠] على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّبِ(٤).

- وتَكريرُ الفِعلِ (يَجزي) لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بأمْرِ الجَزاءِ، والتَّنبيهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

تَبايُنِ الجَزاءَينِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى في حقِّ المسيءِ: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾، وقال في حَقِّ المُحسِنِ: ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ ووجهُه: أنَّ جزاءَ المسيءِ عذابٌ؛ فنَبَّه على ما يَدفَعُ الظُّلمَ، فقال: لا يُعذِّبُ إلَّا عن ذَنْبٍ. وأمَّا في الحُسنَى فلم يقُلْ: (بما عمِلوا)؛ لأنَّ الثَّوابَ إنْ كان لا علَى حَسنةٍ يكونُ في غايةِ الفَضلِ، فلا يُخِلُّ بالمعنَى، هذا إذا قُلنا: الحُسنَى هي المَثوبةُ بالحُسنَى، وأمَّا إذا قُلْنا: الأعمالُ الحُسنَى؛ ففيه لطيفةٌ غيرُ ذلك، وهي أنَّ أعمالَهم لم يُذكَرْ فيها التَّساوي، وقال في أعمالِ المُحسنينَ: الحسنَى؛ إشارةً إلى الكَرمِ والصَّفحِ، حيثُ ذكَرَ أحْسَنَ الاسمَينِ، والحُسنَى صِفةٌ أُقيمتْ مُقامَ المَوصوفِ، كأنَّه تعالَى قال: بالأعمالِ الحُسنَى، كقولِه تعالَى: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وحينَئذٍ هو كقولِه تعالَى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]، أي: يأخُذُ أحْسنَ أعمالِهم ويَجعَلُ ثوابَ كلِّ ما وُجِدَ منهم لجزاءِ ذلك الأحسَنِ، أو هي صِفةُ المَثوبةِ، كأنَّه قال: ويَجزي الَّذين أحْسَنوا بالمَثوبةِ الحُسنَى، أو بالعاقِبةِ الحُسنَى، أي: جزاؤُهم حُسنُ العاقبةِ، وهذا جزاءٌ فحَسْبُ، وأمَّا الزِّيادةُ -الَّتي هي الفَضلُ بعْدَ الفَضلِ- فغيرُ داخلةٍ فيه[2].

وقيل: لم يقلْ: (بما عملوا)؛ لأنَّ فضْلَ اللهِ أوسعُ مِن أعمالِنا[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٩).

- صِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ دالَّةٌ على الاستِقبالِ، وعلى تَجدُّدِ الاجتِنابِ واستِمرارِه[١].

- قُرِئَ ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ بصِيغةِ الإفرادِ والتَّذكيرِ[٢]؛ لأنَّ اسمَ الجِنسِ يَسْتوي فيه المُفرَدُ والجمْعُ[٣].

- وعطْفُ الفواحشِ يَقْتضي أنَّ المعطوفَ بها مُغايِرٌ للكبائرِ، ولكنَّها مُغايَرةٌ بالعُمومِ والخُصوصِ الوجْهيِّ؛ فالفواحشُ أخصُّ مِن الكَبائرِ، وهي أقْوى إثْمًا[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ استِثناءُ اللَّممِ استِثناءٌ مُنقطِعٌ -على قولٍ-؛ لأنَّ اللَّمَمَ ليس مِن كبائرِ الإثمِ ولا مِن الفواحشِ، فالاستِثناءُ بمعْنى الاستِدراكِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في الكَبائرِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال في عبادةِ الطَّاغوتِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١٧]، والفرْقُ -مِن جِهةِ زمَنِ الفعلِ-: أنَّ عِبادةَ الطَّاغوتِ راجعةٌ إلى الاعتِقادِ، والاعتِقادُ إذا وُجِدَ دامَ ظاهرًا؛ فمَنِ اجتَنَبَها اعتَقَدَ بُطلانَها فيَستمِرُّ. وأمَّا مِثلُ الشُّربِ والزِّنا فأمرٌ تَختلِفُ أحوالُ النَّاسِ فيه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

(٢) وهي قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ وخلَفٍ، وقرأ الباقون ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢١، ١٢٢).

فيَترُكُه زَمانًا ويَعودُ إليه، فقال في الآثام: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ دائمًا، ويُثابرون على التَّركِ أبدًا، وفي عِبادةِ الأصنامِ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ﴾ بصِيغةِ الماضي؛ لِيَكونَ أدَلَّ على الحُصولِ، ولأنَّ كَبائرَ الإثمِ لها عددُ أنواعٍ؛ فيَنْبغي أنْ يُجتنَبَ عن نوعٍ، ويُجتنَبَ عن آخَرَ، ويُجتنَبَ عن ثالثٍ؛ ففيه تَكرُّرٌ وتَجدُّدٌ؛ فاستُعمِلَ فيه صِيغةُ الاستِقبالِ، وعِبادةُ الصَّنمِ أمْرٌ واحدٌ مُتَّحِدٌ؛ فتُرِكَ فيه ذلك الاستِعمالُ، وأُتِيَ بصِيغةِ الماضي الدَّالَّةِ على وُقوعِ الاجتِنابِ لها دَفْعةً[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ تَعليلٌ لاستِثناءِ اللَّمَمِ مِن اجتنابِهم كَبائرَ الإثمِ والفواحشَ شرْطًا في ثُبوتِ وصْفِ الَّذين أحْسَنوا لهم، وتَنْبيهٌ على أنَّ إخراجَه عن حُكمِ المُؤاخَذةِ به ليسَ لخُلُوِّهِ عن الذَّنْبِ في نفْسِه، بل لِسَعةِ المَغفرةِ الرَّبَّانيَّةِ[2].

- وفي بِناءِ الخبَرِ على جَعْلِ المُسنَدِ إليه ﴿رَبَّكَ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ: إشعارٌ بأنَّ سَعةَ المَغفرةِ رِفقٌ بعِبادِه الصَّالِحينَ، شأْنَ الرَّبِّ معَ مَربوبِه الحقِّ[3].

- والواسعُ: الكثيرُ المَغفرةِ، عُبِّرَ بالسَّعةِ عن كَثرةِ الشُّمولِ؛ لأنَّ المكانَ الواسِعَ يُمكِنُ أنْ يَحتويَ على العدَدِ الكثيرِ ممَّنْ يَحِلُّ فيه[4].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ ...﴾ إلخ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾؛ لِما تَضمَّنَتْه مِن الامتِنانِ، فكأنَّ السَّامِعينَ لَمَّا سَمِعوا ذلك الامتِنانَ، شَكَروا اللهَ وهجَسَ في نُفوسِهم خاطرُ البَحثِ عن سَببِ هذه الرَّحمةِ بهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٣).

فأُجِيبوا بأنَّ ربَّهم أعلَمُ بحالِهم مِن أنفُسِهم؛ فهو يُدبِّرُ لهم ما لا يَخطُرُ ببالِهم(١).

- وقوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ صِفةٌ كاشِفةٌ(٢)؛ إذ الجَنينُ لا يُقال إلَّا على ما في بطْنِ أُمِّه، وفائدةُ هذا الكشْفِ أنَّ فيه تَذكيرًا باختلافِ أطْوارِ الأجِنَّةِ مِن وَقتِ العُلوقِ إلى الوِلادةِ، وإشارةً إلى إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بتلك الأطْوارِ(٣).

- وجُملةُ ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾ وجُملةِ ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٣٣] إلخ، والفاءُ لتَفريعِ الاعتِراضِ(٤). أو الفاءُ لتَرتيبِ النَّهيِ عن تَزْكيةِ النَّفْسِ على ما سبَقَ مِنْ أنَّ عدَمَ المُؤاخَذةِ باللَّمَمِ ليسَ لعدَمِ كَونِه مِن قَبيلِ الذُّنوبِ، بلْ لمَحْضِ مَغفرته تعالى مع عِلْمِه بصُدورِه عنكُم، أي: إذا كان الأمرُ كذلكَ، فلا تُثْنوا عليها بالطَّهارةِ عن المعاصِي بالكُلِّيَّةِ، أو بما يَستلزِمُها مِن زَكاءِ العمَلِ ونَماءِ الخَيرِ، بلِ اشكرُوا اللهَ تعالى على فضْلِه ومَغفرتِه(٥).

- ولَفظُ ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾ مُضارِعُ (زكَّى) الَّذي هو مِن التَّضعيفِ المُرادِ منه نِسبةُ المَفعولِ إلى أصْلِ الفِعلِ، نحْو (جهَّلَه)، أي: لا تَنسُبوا لأنفسِكُم الزَّكاةَ، فقولُه: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ صادقٌ بتَزكيةِ المرْءِ نفْسَه في سِرِّه أو عَلانيتِه، فرجَعَ الجمْعُ في قولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ إلى مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ التي تَقتضي التَّوزيعَ على الآحادِ، مِثلُ: ركِبَ القومُ دَوابَّهم(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

(٢) تقدَّم تعريفُها (ص: ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

- ووَقَعَتْ جُملةُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ مَوقعَ البَيانِ لسَببِ النَّهيِ، أو لأهمِّ أسبابِه، والمعْنى: فَوِّضوا ذلك إلى اللهِ؛ إذ هو أعلَمُ بمَنِ اتَّقى، أي: بحالِ مَنِ اتَّقى؛ مِنْ كَمالِ تَقْوًى، أو نَقْصِها، أو تَزييفِها[١]. أو هو استِئنافٌ مُقرِّرٌ للنَّهيِ، ومُشعِرٌ بأنَّ فيهم مَن يَتَّقِيها بأسْرِها[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

الآيات (٢٢-٥٥)

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ
﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ
خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ
وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾: أي: مَنَع وانقطَع، وأصلُه مِنَ الكُدْيةِ -وهي ما صَلُبَ مِنَ الأرضِ- يقالُ لِمَن حفَرَ بِئرًا ثمَّ بَلَغ إلى حَجَرٍ لا يتهَيَّأُ له فيه حَفرٌ: قد أكْدَى، فشُبِّه الرَّجُلُ إذا أعطَى يسيرًا ثمَّ قطَع بالحافِرِ يَحفِرُ فيُكْدي فيُمْسِكُ عن الحفرِ(١).

﴿يُنَبَّأْ﴾: أي: يُخْبَرْ، والنَّبَأُ: الخَبَرُ ذو الفائدةِ العَظيمةِ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ(٢).

﴿وَفَّىٰٓ﴾: أي: أكمَلَ وأتمَّ ما يَجِبُ للهِ تعالى عليه بالطَّاعةِ والصَّبرِ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[١].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾: أي: لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثْمَ نفسٍ أُخرى، ولا تُؤخَذُ نفْسٌ بذَنْبِ غَيرِها، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[٢].

﴿الْأَوْفَى﴾: أي: الأكمَلَ والأتَمَّ، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[٣].

﴿نُطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٤].

﴿تُمْنَى﴾: أي: تُصَبُّ، وتُلقَى في الرَّحِمِ، مِن قَولِك: أَمْنَى الرَّجُلُ: إذا خرَجَ منه المَنِيُّ، والمَنِيُّ: الماءُ الَّذي يُخلَقُ ويُقدَّرُ منه الوَلَدُ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِك: مَنَى اللهُ الشَّيءَ: إذا خَلَقه، فكأنَّه قال: تُخْلَقُ وتُقَدَّرُ، وأصلُ (مني): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).

قال الشنقيطي: (النُّطفة مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَنْ زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجُلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك في موضِعٍ آخَرَ، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

على تقديرِ شَيءٍ ونَفاذِ القَضاءِ به، وماءُ الإنسانِ مَنِيٌّ، أيْ: يُقَدَّرُ منه خِلْقَتُه[١].

﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾: أي: الخَلْقَ الثَّانيَ لِلبَعثِ يومَ القيامةِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ[٢].

﴿وَأَقۡنَىٰ﴾: أي: أعطاهم قُنْيةً يَقتَنونَها مِن أُصولِ الأموالِ وما يَدَّخِرونَه بعدَ الكِفايةِ؛ مِن قُنْيَةِ المالِ: وهو كَسْبُه وادِّخارُه، يُقالُ: أقْناه اللهُ مالًا: أي: أَكْسَبه إيَّاه، وقيل غيرُ ذلك[٣].

﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾: اسمُ نَجمٍ في السَّماءِ، وكان ناسٌ في الجاهليَّةِ يَعبُدونَها[٤].

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾: أي: قُرى قَومِ لُوطٍ المَخْسوفَ بها الَّتي ائتَفَكَت بأهلِها: أي: انقَلَبَت فصار أعلاها أسفَلَها، ومعنى الائتِفاكِ في اللُّغةِ: الانقِلابُ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ وصَرفِه عن جِهتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٦١٠/١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢٧٦/٥)، ((البسيط)) للواحدي (٧٣/٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٢٠٧/٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤٢٨/٥)، ((تفسير البغوي)) (٤١٨/٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١٨/١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤٦٧/٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٨٣/٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢٩/٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٤١٩/٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١٨/١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٣٢٠/٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠٦/١٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٤١٩/٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، =

﴿أَهْوَىٰ﴾: أي: طَرَحَها مِن هواءٍ عالٍ إلى أسفَلَ، وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(١)].

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾: أي: ألبَسَها، والتَّغْشيةُ: إلباسُ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[(٢)].

﴿ءَالَآءِ﴾: أي: نِعَم، واحِدُها أَلًى وإِلًى[(٣)].

﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أي: تَرتابُ وتَشُكُّ وتُجادِلُ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، وأصلُ (مري): يدُلُّ على صَلابةٍ في شَيءٍ؛ لأنَّ المِراءَ كَلامٌ فيه بَعضُ الشِّدَّةِ[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٦) و (٢١/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: أَنْ: مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، واسمُها ضَميرُ الشَّأنِ مَحذوفٌ، أي: أنَّه. والجُملةُ المَنفيَّةُ (لا تَزِرُ) في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ «أَنْ» المخفَّفةِ، والمَصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: في محَلِّ جَرٍّ بَدَلٌ مِن «ما» في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ﴾، والتَّقديرُ: بأنَّه لا تَزِرُ وازِرةٌ...

ويجوزُ أن يكونَ المصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: في محَلِّ رَفعٍ خَبَرًا لِمُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: ذلك أَنْ لا تَزِرُ، أو هو أنْ لا تَزِرُ. وجملةُ «هُو أَنْ لا تَزِرُ» استِئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وهو استِئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيلَ: ما في صُحُفِهما؟ فقيلَ: هو ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ويجوزُ أن يكونَ المصدَرُ في محَلِّ نَصبٍ على المفعوليَّةِ بإضمارِ «أعني»(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ذامًّا مَنْ أعرَض عن الحقِّ: أفرَأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ، وأعطى قليلًا مِنَ الخَيرِ ثمَّ انقَطَع عنه، أعِندَه عِلمُ الغَيبِ، فهو يَراه؟! أم لَمْ يُخبَرْ هذا الكافِرُ بما في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى، وبما في صُحُفِ إبراهيمَ الَّذي أكمَلَ وأتمَّ شَرائِعَ الإسلامِ الَّتي فرَضَها اللهُ عليه؟!

وذلك الَّذي في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى هو أنَّه لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ ذَنْبَ نفْسٍ أُخرى، وأنَّه ليس للمَرءِ في الآخِرةِ إلَّا ما عَمِلَه في الدُّنيا، وأنَّ عَمَلَ كُلِّ عاملٍ سوف يُرى ويُشاهَدُ يومَ القيامةِ، ثمَّ يُجزَى على سَعْيِه الجزاءَ التَّامَّ الأكمَلَ!

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا جانبًا من مظاهِرِ قدرتِه ورحمتِه: وأنَّ إلى ربِّك -يا محمَّدُ- مَرجِعَ ومَصيرَ جَميعِ العِبادِ، وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أضحَكَ وأبكى،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٥).

وأنَّه تعالى هو الَّذي أمات وأحيا، وأنَّه تعالى خَلَق الصِّنفَينِ -الذَّكَرَ والأُنثى- مِن نُطفةِ مَنِيٍّ حينَ تُصَبُّ في الأرحامِ، وأنَّ عليه تعالى إعادةَ المخلوقاتِ بعدَ مَوتِهم، وأنَّه تعالى هو الَّذي أغنى مَن شاءَ مِن عِبادِه، وجَعَل لِمَن شاءَ منهم ما يَقتَنيه ويَدَّخِرُه بَعْدَ كِفايتِه، وأنَّه تعالى هو خالِقُ نَجمِ الشِّعْرَى!

وأنَّه تعالى أهلَكَ عادًا قَومَ هُودٍ، وثَمودَ قَومَ صالحٍ، فما أبقى منهم أحَدًا، وأهلَكَ بالغَرَقِ قَومَ نُوحٍ مِن قَبْلِ عادٍ وثَمودَ؛ إنَّهم كانوا هم أشَدَّ ظُلْمًا، وأعظَمَ كُفرًا وطُغيانًا، وقَلَبَ قَريةَ قَومِ لُوطٍ؛ فجَعَل عالِيَها سافِلَها، فغطَّى تلك القَريةَ ما غَطَّاها مِنَ الحِجارةِ الَّتي أُمطِرَت عليهم. فبأيِّ نِعَمِ رَبِّك تَرتابُ وتُكَذِّبُ وتُجادِلُ، أيُّها الإنسانُ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ جَهْلَ المُشرِكينَ في عِبادةِ الأصنامِ؛ ذَكَر واحِدًا منهم مُعَيَّنًا بسُوءِ فِعْلِه[(١)].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣)﴾.

أي: أفرأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٩).

واستظهر الرَّازيُّ أنَّ ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ في هذه الآيةِ يعودُ إلى المُتوَلِّي في قَولِه تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]، فهو عامٌّ غيرُ مُختَصٍّ بواحِدٍ مِنَ المعانِدينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٢، ٢٧٣). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وأعطَى قليلًا مِنَ الخَيرِ ثمَّ انقَطَع عنه، ولم يَستَمِرَّ على ذلك[١]!

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: أعِندَه عِلمُ ما غاب عن النَّاسِ، فهو يراه[٢]؟!

= وقال ابنُ عاشور: (اتَّفق المفَسِّرون والرُّواةُ على أنَّ المرادَ به هنا مُعَيَّنٌ... واختَلَفوا في تعيينِ هذا ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾؛ فروى الطَّبَريُّ عن مجاهِدٍ وابنِ زَيد: أنَّ المرادَ به: الوليدُ بنُ المُغيرةِ... وروى القرطبيُّ عن السُّدِّيِّ: أنَّها نزَلَت في العاصي بنِ وائلٍ السَّهْميِّ، وعن محمَّدِ ابنِ كَعبٍ: نزَلَت في أبي جَهلٍ، وعن الضَّحَّاكِ: نزَلَت في النَّضرِ بنِ الحارثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١١، ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٧).

قال ابنُ جرير: (ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نَزَلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ؛ من أجْلِ أنَّه عاتَبَه بَعضُ المُشرِكينَ، وكان قد اتَّبَع رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دينِه، فضَمِنَ له الَّذي عاتَبَه إنْ هو أعطاه شَيئًا مِن مالِه ورَجَع إلى شِرْكِه أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ الآخرةِ، ففَعَل، فأعطى الَّذي عاتَبَه على ذلك بَعضَ ما كان ضَمِنَ له، ثمَّ بَخِلَ، ومَنَعَه تمامَ ما ضَمِنَ له!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١).

قال أبو حيان: (﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ قال ابنُ عبَّاس: أطاع قليلًا ثمَّ عصى.

وقال مجاهِدٌ: أعطى قليلًا مِن نَفْسِه بالاستِماعِ، ثمَّ أكْدَى بالانقِطاعِ.

وقال الضَّحَّاكُ: أعطى قليلًا مِن ماله ثمَّ مَنَع.

وقال مقاتِلٌ: أعطى قليلًا مِنَ الخَيرِ بلِسانِه ثمَّ قَطَع). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٨٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المعنى: وأعطى قليلًا من مالِه، ثمَّ بَخِلَ عليه فمَنَعه ولم يستَمِرَّ في عَطائِه: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير =

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا الَّذي تولَّى قد يظُنُّ أنَّ عَمَلَ غَيرِه يَنفَعُه، عَبَّرَ عنه جامِعًا للوَعظِ والتَّهويلِ، بقَولِه[1]:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: أم لَمْ يُخبَرْ هذا الكافِرُ بما في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى[2]؟!

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: أم لَمْ يُخبَرْ أيضًا بما في صُحُفِ إبراهيمَ الَّذي أطاع اللهَ تعالى في جميعِ أوامِرِه ونواهيه، وأكمَلَ شَرائِعَ الإسلامِ الَّتي فرَضَها اللهُ عليه، فلم يَنقُصْ منها

= ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: أعِندَ هذا الَّذي ضَمِنَ له صاحِبُه أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ اللهِ في الآخرةِ عِلمُ الغَيبِ، فهو يرى حقيقةَ قَولِه، ووفاءَه بما وَعَده؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤).

وقال الشنقيطي: (الآيةُ تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ النُّزولِ لا يَخلو مِن إعطاءِ شَيءٍ في مُقابَلةِ تحَمُّلِ الذُّنوبِ عمَّن أعطى؛ لأنَّ فاعِلَ ذلك ليس عِندَه عِلمُ الغَيبِ؛ فيَعلَمَ به أنَّ الَّذي ضَمِنَ له تحمُّلَ ذُنوبِه يَفعَلُ ذلك، ولم يُنَبَّأْ بما في الصُّحُفِ الأُولى مِن ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أم لم يُخْبَرْ هذا المَضمونُ له أن يُتحَمَّلَ عنه عذابُ اللهِ في الآخِرةِ بالَّذي في صُحُفِ موسى بنِ عِمْرانَ صَلَواتُ الله عليه ...؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤).

شَيئًا[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ * سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠١ - ١١١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وذلك الَّذي في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى هو أنَّه لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ ذَنْبَ نفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذنْبَ غيرِه[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤، ٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٣)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩)، ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٨/ ٥٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢).

قال ابنُ جريرٍ: (وإنَّما عَنَى بقَولِه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الَّذي ضَمِنَ للوَليدِ بنِ المُغيرةِ أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ! يقولُ: ألم يُخبَرْ قائِلُ هذا القولِ وضامِنُ هذا الضَّمانِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۞ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

لَمَّا نَفَى أن يَضُرَّه إثمُ غَيرِه؛ نَفَى أن يَنفَعَه سَعيُ غَيرِه، فقال[1]:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وأنَّه ليس للمَرءِ في الآخِرةِ إلَّا ما عَمِلَه في الدُّنيا[2].

= بالَّذي في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ؛ مَكتوبٌ: أنْ لا تأثَمُ آثِمةٌ إثمَ أُخرى غَيرِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٢).

قال أبو حيان: (﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: الظَّاهِرُ أنَّ الإنسانَ يَشملُ المُؤمنَ والكافرَ، وأنَّ الحصرَ في السَّعيِ، فليس له سَعْيُ غيرِه، وقال عِكْرِمةُ: كان هذا الحُكمُ في قومِ إبراهيمَ وموسى، وأمَّا هذه الأمَّةُ فلها سعيُ غيرِها... وقال الرَّبيعُ: الإنسانُ هنا الكافرُ، وأمَّا المؤمنُ فله ما سعى وما سعى له غيرُه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت أنَّه ليس له ولا عليه إلَّا ما عَمِلَ، وكان في الدُّنيا قد يَفعَلُ الشَّيءَ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ ولا يَراه مَن فَعَله مِن أجْلِه ولا غَيرُه؛ نفى أن تكونَ الآخرةُ كذلك،

= قال السَّمعاني: (قولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ مَعْناهُ: إنْ سعى في الخَيرِ يَلْقَ الخَيْرَ، وإنْ سعى في الشَّرِّ يَلْقَ الشَّرَّ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١).

وقال ابن كثير: (﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: كما لا يُحمَلُ عليه وِزْرُ غيرِه، كذلك لا يُحصِّلُ مِن الأجرِ إلَّا ما كسَبَ هو لِنَفْسِه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

واختار ابنُ عاشور أنَّ المرادَ بالسَّعيِ هنا: عمَلُ الخَيرِ وما سعاه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

وقال الرَّازي: (قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ليس المرادُ منه أنَّ له عيْنَ ما سعى، بل المرادُ... ليس له إلَّا ثوابُ ما سعى، أو إلَّا أجرُ ما سعى، أو يقالُ بأنَّ المرادَ: أنَّ ما سعى محفوظٌ له، مَصونٌ عن الإحباطِ؛ فإذَنْ له فِعلُه يومَ القيامةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٦).

وقال ابنُ جُزَي: (اتَّفَق العلماءُ على أنَّ الأعمالَ الماليَّةَ -كالصَّدقةِ والعِتقِ- يجوزُ أن يَفعَلَها الإنسانُ عن غيرِه، ويَصِلُ نفعُها إلى مَن فُعِلَتْ عنه. واختلَفوا في الأعمالِ البدَنيَّةِ، كالصَّلاةِ والصِّيامِ. وقيل: إنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بقولِه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. والصَّحيحُ أنَّها مُحْكَمةٌ؛ لأنَّها خبَرٌ، والأخبارُ لا تُنسَخُ.

وفي تأويلِها ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: أنَّها إخبارٌ عمَّا كان في شريعةِ غيرِنا، فلا يَلزَمُ في شريعتِنا. الثَّاني: أنَّ للإنسانِ ما عَمِل بحقٍّ، وله ما عَمِل له غيرُه بهِبَةِ العامِلِ له، فجاءت الآيةُ في إثباتِ الحقيقةِ دونَ ما زاد عليها. الثَّالثُ: أنَّها في الذُّنوبِ، وقد اتُّفِق أنَّه لا يَحتملُ أحدٌ ذنْبَ أحدٍ، ويدُلُّ على هذا قولُه بعدَها: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وكأنَّه يقولُ: لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِه، ولا يؤاخَذُ إلَّا بذنْبِ نفْسِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠).

فقال[١]:

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: وأنَّ عَمَلَ كُلِّ عاملٍ سوف يُرى ويُشاهَدُ يومَ القيامةِ[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٩).

قيل: إنَّ المعنى: يُعرَضُ عليه، ويُكشَفُ له، أي: أنَّ اللهَ تعالى يُريه إيَّاهُ -من أرَيْتُه الشَّيءَ- فيرى العبدُ عمَلَه يومَ القيامةِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: السَّمعانيُّ، والرازي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٢).

وقال القرطبي: (أي: يُريه اللهُ تعالى جزاءَه يومَ القيامةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٥). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٩٥).

قال الرازي: (وفيه بِشارةٌ للمؤمنينَ...، وذلك أنَّ اللهَ يُريه أعمالَه الصَّالحةَ؛ لِيَفرَحَ بها. أو يكونُ يُري ملائكتَه وسائرَ خَلْقِه؛ لِيَفتخِرَ العاملُ به على ما هو المشهورُ، وهو مذكورٌ لفَرَحِ المسلِمِ ولحزنِ الكافرِ؛ فإنَّ سَعْيَه يُرى للخَلقِ، ويُرى لنفْسِه). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧).

ويحتمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿ يُرَىٰ ﴾ من رأى يَرى، فيكونَ كقولِه تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: وأنَّ عمَلَ كلِّ عاملٍ سوف يَراه يومَ القيامةِ مَن ورَدَ القيامةَ، بالجزاءِ الَّذي يُجازَى عليه؛ خيرًا كان أو شرًّا، لا يؤخَذُ بعقوبةِ ذنْبٍ غيرُ عامِلِه، ولا يُثابُ على صالِحِ عمَلٍ عامِلٌ غيرُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٠).

وقال ابن جُزَي: (﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ قيل: معناه: يَراه الخَلقُ يومَ القيامةِ، والأظهرُ أنَّه صاحِبُه؛ لقولِه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠).

وقال مكِّي: (قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أي: وإنَّ عمَلَ كلِّ عامِلٍ سوف يَراه اللهُ يومَ القيامةِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧١٧٢). =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ثمَّ يَجزيه اللهُ على سَعْيِه الجزاءَ الأَوفَرَ التَّامَّ[(١)].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: وأنَّ إلى ربِّك -يا محمَّدُ- مَرجِعَ ومَصيرَ جَميعِ العِبادِ، لا إلى غَيرِه[(٢)].

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه: ﴿يُرَىٰ﴾ فاعِلُه حاضِرو القيامة، أي: يَراه الله ومَن شاهَدَ الأمرَ، وفي عَرضِ الأعمالِ على الجميعِ تشريفٌ للمُحسِنينَ، وتَوبيخٌ للمُسيئينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، أي: أنَّ عمَلَه سوف يُرَى في الدُّنيا وفي الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٥).

وذهب ابنُ قُتَيْبَةَ إلى أنَّ معنى قولِه: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُعلَمُ. يُنظر: ((غريب القرآن)) (ص: ٤٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾: اسمُ تَفضيلٍ مِنَ الوَفاءِ، وهو التَّمامُ والكَمالُ، والتَّفضيلُ مُستعمَلٌ هنا في القُوَّةِ، وليس المرادُ تَفضيلَه على غَيرِه. والمعنى: أنَّ الجزاءَ على الفِعلِ مِن حَسَنٍ أو سَيِّئٍ مُوافِقٌ للمَجْزيِّ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٠).

وقال ابنُ عثيمين: (الأكمَلُ والأَوفى في الصَّالِحِ: زيادةُ المَثوبةِ، والأَوفى في السَّيِّئِ: العَدلُ، بحيثُ لا يُزادُ في سَيِّئاته، وعلى هذا فالأَوفى يُفَسَّرُ بمعنى العَدلِ، ويُفَسَّرُ بالزِّيادةِ والفَضلِ؛ العَدلُ في السَّيِّئةِ: لا يُمكِنُ أن يُزادَ سَيِّئةً، والفَضلُ في الحَسَناتِ: الحَسَنةُ بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِمِئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٨). =

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتِقالٌ مِنَ الاعتِبارِ بأحوالِ الآخِرةِ إلى الاعتِبارِ بأحوالِ الحياةِ الدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى الأُمورَ الاختياريَّةَ وقَدَّمَها لأنَّها مَحَطٌّ للبَلاءِ، وسَلَب عِلْمَها عن أصحابِها، وحَذَّرَ مِن عاقِبَتِها بإحاطتِه بكُلِّ شَيءٍ، وكان معنى ذلك أنَّه القادِرُ على غَيرِه، والعالِمُ لا غَيرُه؛ عَطَفَ عليه قَولَه ذاكِرًا للأُمورِ الاضطراريَّةِ الَّتي هي في غايةِ التَّنافي؛ إكمالًا للدَّليلِ على أنَّه يَعلَمُ ما في النُّفوسِ دونَ أصحابِها وغَيرِهم، وأنَّه إليه المُنتهَى إعادةً وإبداءً(٢).

وأيضا إنَّما جَرَى ذِكْرُ الإضحاكِ والإبكاءِ في هذا المَقام؛ لمُناسَبةِ أنَّ الجزاءَ الأَوفى لسعْيِ النَّاسِ: بعضُه سارٌّ لفريقٍ، وبَعضُه مُحزِنٌ لفريقٍ آخَرَ(٣).

= وممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة. وذهب البِقاعي والسعدي إلى ما هو أعَمُّ مِن معنى الرُّجوعِ الأُخرويِّ إلى اللهِ تعالى. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

قال البقاعي: (﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أي: الانتِهاءَ برُجوعِ الخَلائِقِ حِسًّا بالبَعثِ، ومَعنًى بالعَمَلِ والعِلمِ، وإسنادِ الأُمورِ وإرسالِ الآمالِ؛ ومكانَ رُجوعِهم وزَمانَه، كما كان منه المُبتَدأُ؛ أكَّدَ ذلك خَلقًا لذلك كُلِّه وحِسابًا عليه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٧٣).

وقال السعدي: (قَولُه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أي: إليه تَنتهي الأمورُ، وإليه تَصيرُ الأشياءُ والخلائِقُ بالبَعثِ والنُّشورِ، وإلى اللهِ المُنتَهى في كُلِّ حالٍ؛ فإليه يَنتهي العِلمُ والحُكمُ، والرَّحمةُ وسائِرُ الكمالاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧). ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٩٩) و(٢/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أضحَكَ وأبكَى مَنْ شاء أن يُضحِكَهم أو يُبكِيَهم(١).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ٤٤﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أمات مَن شاءَ مِن خَلْقِه، وأحيا مَن شاءَ مِنهم(٢).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ...﴾ [الملك: ٢].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٧١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٩، ٦٠، ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧، ٢٤٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا عامٌّ في كُلِّ ضَحِكٍ وبُكاءٍ). ((البسيط)) (٢١/ ٧١).

وممَّن قال بأنَّ هذا الضَّحِكَ والبُكاءَ عامٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧، ٢٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (لَمَّا كان هذا الغَرَضَ مِن إثباتِ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصَرُّفِ في الإنسانِ بما يَجِدُه النَّاسُ في أحوالِ أنفُسِهم مِن خُروجِ أسبابِ الضَّحِكِ والبُكاءِ عن قُدرتِهم؛ تعَيَّنَ أنَّ المرادَ: أضحَكَ وأبكى في الدُّنيا، ولا عَلاقةَ لهذا بالمَسَرَّةِ والحُزنِ الحاصِلَينِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

قال الواحدي: (المتقدِّمون مِنَ المفَسِّرينَ حَمَلوا هذا على الإماتةِ في الدُّنيا، والإحياءِ للبَعثِ، والمتأخِّرونَ منهم ذَكَروا وُجوهًا أُخرى؛ منها: أنَّه أمات الآباءَ، وأحيا الأبناءَ... ومنها: أنَّه أمات النُّطفةَ، وأحيا النَّسَمةَ، وأمات الكافِرَ بالكُفرِ، وأحيا المؤمِنَ بالإيمانِ). ((البسيط)) (٢١/ ٧٢).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ الانتقالِ إلى هذه الجُملةِ أنَّ فيها كَيفيَّةَ ابتداءِ الحياةِ[١].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي خَلَق الصِّنفَينِ: الذَّكَرَ والأُنثى[٢].

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾.

أي: خلَق اللهُ الصِّنفينِ -الذَّكَرَ والأُنثى- مِن نُطفةِ مَنيٍّ حينَ تُصَبُّ وتُراقُ في الأرحامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

قال الشوكاني: (المرادُ بالزَّوجَينِ: الذَّكَرُ والأُنثَى مِن كُلِّ حَيوانٍ، ولا يدخُلُ في ذلك آدَمُ وحَوَّاءُ؛ فإنَّهما لم يُخلَقا مِن النُّطفةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٠).

وقصَر ابنُ عاشورٍ المرادَ بالزَّوجينِ على البشرِ، فقال: (المرادُ بالزَّوجَينِ: الذَّكَرُ والأُنثَى مِن خُصوصِ الإنسانِ؛ لأنَّ سياقَ الكلامِ للاعتِبارِ ببَديعِ صُنعِ اللهِ، وذلك أشَدُّ اتِّفاقًا في خِلْقةِ الإنسانِ، ولأنَّ اعتِبارَ النَّاسِ بما في أحوالِ أنفُسِهم أقرَبُ وأمكَنُ، ولأنَّ بَعضَ الأزواجِ مِن الذُّكورِ والإناثِ لا يَتخَلَّقُ مِن نُطفةٍ، بل مِن بَيضٍ وغَيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٦، ١٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ساق هذه الأشياءَ دَليلًا على إحاطةِ عِلْمِه، فلَزِمَها أنْ دَلَّت على تمامِ قُدرتِه، وخَتَمَها بالنَّشأةِ الأُولى، فلَزِمَ من ذلك الإقرارُ حَتمًا بأنَّه قادِرٌ على البَعثِ- عَبَّرَ بما يَقتَضي أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ به وَعْدُه على جميعِ ألسِنَةِ رُسُلِه صار واجِبًا عليه، بمعنى أنَّه لا بُدَّ مِن كَونِه؛ لأنَّه لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيه، لا غيرُ ذلك[١].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧)﴾.

أي: وأنَّ على اللهِ تعالى أن يَخلُقَ النَّاسَ بعدَ مَوتِهم، فيُعيدَهم أحياءً يومَ القيامةِ[٢].

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أغنى مَن شاءَ مِن عِبادِه، وجَعَل لِمَن شاءَ منهم ما يَقتَنيه ويَدَّخِرُه بَعْدَ كِفايتِه[٣].

= وقيل: معنى ﴿تُمْنَى﴾: تُخلَقُ وتُقدَّرُ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، والسَّمْعانيُّ، ونسَبه الماوَرْديُّ للأخفَشِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).=

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو خالِقُ نَجمِ الشِّعْرَى المُضيءِ، ومالِكُه ومُدَبِّرُ شَأنِه[1].

= قال الواحدي: (﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾ النَّاسَ بالأموالِ ومَوَّلَهم، ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أعطى القُنْيَةَ وأصولَ الأموالِ، وما يَدَّخِرونَه بعد الكفاية). ((الوسيط)) (٤/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عطية: (والوَجهُ فيها بحَسَبِ اللُّغةِ: أكسَبَ ما يُقتَنَى. وقال ابنُ عبَّاسٍ: «أَقْنى»: قَنَّعَ. والقَناعةُ خَيرُ قُنْيةٍ، والغِنى عَرَضٌ زائِلٌ، فلِلَّه دَرُّ ابنِ عَبَّاسٍ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨).

وقال ابن كثير: (﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي: مَلَّك عِبادَه المالَ، وجعَلَه لهم قُنْيةً مُقيمًا عِندَهم لا يحتاجونَ إلى بَيعِه، فهذا تمامُ النِّعمةِ عليهم، وعلى هذا يدورُ كَلامُ كَثيرٍ مِنَ المفَسِّرينَ؛ منهم أبو صالحٍ، وابنُ جريرٍ، وغَيرُهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢).

وقال ابن عاشور: (معنى ﴿أَغۡنَىٰ﴾ جعَل غَنيًّا، أي: أعطى ما به الغِنى، والغِنى: التَّمَكُّنُ مِن الانتِفاعِ بما يُحَبُّ الانتِفاعُ به. ويَظهَرُ أنَّ معنى «أقْنَى» ضِدُّ معنى «أغْنَى»؛ رَعيًا لنظائِره الَّتي زاوَجَت بيْنَ الضِّدَّينِ مِن قَولِه: ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]، و﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم: ٤٤]، و﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]؛ ولذلك فَسَّره ابنُ زَيدٍ والأخفَشُ وسُليمانُ التَّيْميُّ بمعنى: أفقَرَ. وعن مُجاهِدٍ وقَتادةَ والحَسَنِ: أقنى: أخْدَمَ؛ فيكونُ مُشتَقًّا مِنَ القِنِّ: وهو العَبدُ، أو المولودُ في الرِّقِّ، فيكونُ زيادةً على الإغناءِ. وقيل: أقنى: أعطى القُنْيَةَ، وهذا زيادةٌ في الغِنى. وعن ابنِ عبَّاسٍ: أقنى: أرضَى، أي: أرضَى الَّذي أغناه بما أعطاه، أي: أغناه حتَّى أرضاه، فيكونُ زيادةً في الامتِنانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٩).ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

قال ابنُ جرير: (هو نَجمٌ كان بَعضُ أهلِ الجاهِليَّةِ يَعبُدُه مِن دونِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥).

وأوَّلُ مَن سنَّ للعربِ عِبادةَ «الشِّعْرَى»، وأدخَل تلك العبادةَ إليهم: «أبو كَبْشةَ»، فخالَف قُرَيشًا في عبادةِ الأصنامِ، وعبَدَ الشِّعْرى، فقيل: لم يَعبُدْها مِن قبائلِ العربِ إلَّا خُزاعةُ، وقيل: حِمْيَرُ وخُزاعةُ، وقيل: بعضُ قبائلِ لَخْمٍ وخُزاعةَ وحِمْيَرَ وقُرَيشٍ، ولم تَعبُدِ العربُ مِن الكواكبِ غيرَها؛ فلذلك عُيِّنَتْ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٩)، ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ١٥٥)، ((المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)) لجواد علي (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استُوفِيَ ما يَستحِقُّه مَقامُ النِّداءِ على باطلِ أهْلِ الشِّركِ مِن تَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطَعْنِهم في القرآنِ، ومِن عِبادةِ الأصنام، وقولِهم في الملائكةِ، وفاسِدِ مُعتَقَدِهم في أُمورِ الآخرةِ، وفي المُتصرِّفِ في الدُّنيا، وكان مُعظَمُ شأنِهم في هذه الضَّلالاتِ شَبيهًا بشأْنِ أُمَمِ الشِّركِ البائدة؛ نُقِلَ الكلامُ إلى تَهديدِهم بخَوفِ أنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بتلك الأُمَمِ البائدةِ، فذُكِرَ مِن تلك الأُمَمِ أشهَرُها عندَ العربِ، وهمْ: عادٌ، وثَمودُ، وقومُ نوحٍ، وقومُ لوطٍ(١).

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه على كَمالِ عِلْمِه وشُمولِ قُدرتِه بأُمورِ الخافِقَينِ -العُلويِّ والسُّفليِّ-، فكان ذلك داعِيًا إلى الإقبالِ على ما يُرضيه، وناهيًا عن الإلمام بما يُسخِطُه؛ شَرَع في التَّهديدِ لِمَن وَقَف عن ذلك، بما وَقَع في مَصارِعِ الأوَّلينَ مِن عجائِبِ قُدرتِه؛ فقال تعالى(٢):

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ قَبيلةَ عادٍ؛ قَومِ هُودٍ(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقد ذهب ابنُ جريرٍ ومكِّيٌّ والواحديُّ إلى أنَّ عادًا لَمَّا أهلَكَها اللهُ بالرِّيحِ خَلَفَتْها أمَّةٌ أُخرى مِن نَسْلِها فكانوا عادًا الأخرى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٦-٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

﴿وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ (٥١)﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ قَبيلةَ ثَمودَ؛ قَومِ صالحٍ، فما أبقَى منهم أحَدًا(١)!

= وضعَّف هذا القَولَ ابنُ عَطيَّةَ، وابنُ عاشور؛ لعَدَمِ وُجودِ دَليلٍ على صِحَّتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣).

قال ابنُ عطية: (اختُلِفَ في معنى وَصْفِها بـ ﴿الْأُولَىٰ﴾؛ فقال ابنُ زَيدٍ والجُمهورُ: ذلك لأنَّها في وَجهِ الدَّهرِ وقَديمِه، فهي أُولى بالإضافةِ إلى الأُمَمِ المتأخِّرةِ. وقال الطَّبريُّ: سُمِّيَت أُولى، لأنَّ ثَمَّ عادًا أَخيرةً، وهي قَبيلةٌ كانت بمكَّةَ مع العماليقِ، وهم بنو لُقَيْمِ بنِ هَزَّالٍ. قال القاضي أبو محمَّدٍ [ابن عطية]: والقَولُ الأوَّلُ أبيَنُ؛ لأنَّ هذا الأخيرَ لم يَصِحَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٧).

وقال ابن عاشور: (معنى كَونِها أُولى؛ لأنَّها أوَّلُ العَرَبِ ذِكرًا، وهم أوَّلُ العَرَبِ البائِدةِ، وهم أوَّلُ أمَّةٍ أُهلِكَت بعدَ قَومِ نُوحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقال ابن عثيمين: (﴿الْأُولَىٰ﴾ وَصْفٌ كاشِفٌ، وليس وَصفًا مُقيِّدًا، يعني: ليس هناك عادٌ أُولى وعادٌ ثانيةٌ، بل هي واحِدةٌ، لكِنَّها عادٌ قديمةٌ سابِقةٌ؛ ولهذا وَصَفَها بأنَّها الأُولى، أي: أنَّها القَديمةُ السَّابقةُ، وليس ثَمَّةَ عادٌ أُخرى). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقيل: سمَّاها الأُولى؛ لأنَّهم كانوا مِن قبْلِ ثَمودَ. وممَّن اختاره: القُرطبيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ولم يُبْقِ اللهُ ثَمودَ فيَترُكَها على طُغيانِها وتمَرُّدِها على رَبِّها مُقيمةً، ولكِنَّه عاقبَها بكُفرِها وعُتُوِّها، فأهلَكَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَّمَ مَن كان إهلاكُهم بنَفْسِ الرِّيحِ الَّتي هي مَبدَأُ الأمطارِ الآتيةِ لهم في السَّحابِ، وأتْبَعَهم مَن إهلاكُهم بها بحَمْلِها للصَّيحةِ وإرجافِها بهم؛ أتْبَعَهم مَن كان إهلاكُهم بالماءِ الَّذي هو غايةُ السَّحابِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ بالغَرَقِ قَومَ نُوحٍ مِن قَبْلِ عادٍ وثَمودَ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾.

أي: إنَّ قَومَ نُوحٍ كانوا هم أشَدَّ ظُلمًا، وأعظَمَ كُفرًا وطُغيانًا مِن غَيرِهم[(٣)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٤).

قال ابنُ عطية: (جَعَلَهم أظلَمَ وأطغى؛ لأنَّهم سَبَقوا إلى التَّكذيبِ دونَ اقتِداءٍ بأحَدٍ قَبْلَهم، وأيضًا فإنَّهم كانوا في غايةٍ مِنَ العُتُوِّ، وكان عُمُرُ نوحٍ قد طال في دُعائِهم!). ((تفسير ابن عطية)) =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ۝٥٣﴾.

أي: وقَريةَ قَومِ لُوطٍ أسقَطَها جبريلُ، وجَعَل عالِيَها سافِلَها[١].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩، ١٠].

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ۝٥٤﴾.

أي: فغطَّى تلك القَريةَ ما غَطَّاها مِنَ الحِجارةِ الَّتي أُمطِرَت عليهم[٢].

= (٥/ ٢٠٩).

قال ابن عاشور: (ضميرُ الجَمعِ في ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى قَومِ نُوحٍ، أي: كانوا أظلَمَ وأطغَى من عادٍ وثَمودَ، ويجوزُ أن يكونَ عائِدًا إلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ نُوحٍ، والمعنى: أنَّهم أظلَمُ وأطغَى مِن قَومِك الَّذين كَذَّبوك؛ فتكونَ تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه لَقُوا من أُمَمِهم أشَدَّ مِمَّا لَقِيَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

وقال ابن عثيمين: (وكِلا المعنَيَينِ صَحيحٌ؛ فهؤلاء الأُمَمُ أظلَمُ وأطغى مِن قُرَيشٍ، وقَومُ نوحٍ أظلَمُ وأَطغى مِن عادٍ وثمودَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (المُؤتَفِكةُ: قَريةُ قَومِ لُوطٍ، بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّك -أيُّها الإنسانُ- تَرتابُ وتُشَكِّكُ، وتُكذِّبُ وتُجادِلُ[1]؟!

= قال الواحدي: (﴿فَغَشَّـٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: فغَشَّاها اللهُ وألبَسَها ما غَشَّى، يعني: الحِجارةَ، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣١، ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

ممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ للإنسانِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والواحدي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

وقيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعي، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥، ١٥٦).

وقيل: هو خِطابٌ للكافِرِ على وَجهِ الخُصوصِ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْديُّ، والسمعاني، وابن عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لَمَّا ذَكَر ما ذَكَره في سورةِ «النَّجمِ»، وذكَرَ إهلاكَ مُكَذِّبي الرُّسُلِ؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾، فإهلاكُهم مِن آلاءِ رَبِّنا، وآلاؤُه: نِعَمُه الَّتي تدُلُّ على رحمتِه، وعلى حِكمتِه، وعلى مَشيئتِه وقُدرتِه، ورُبوبيَّتِه سُبحانَه وتعالى). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٧٠).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ جاء الفِعلُ بصيغةِ الماضي دونَ المُستَقبَلِ؛ لزيادةِ الحَثِّ على السَّعيِ في العَمَلِ الصَّالحِ، فقال: ليس له إلَّا ما قد سعى وحَصَّل وفَرَغ منه، وأمَّا تسويلاتُ الشَّيطانِ وعِداتُه فلا اعتِمادَ عليها[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المنتهى في أمورِ الدِّينِ والدُّنيا -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-؛ فإلى اللهِ المنتهى في مسائلِ العِلمِ، في الحُكْم بيْنَ النَّاسِ وللنَّاسِ، ومنتهَى جميعِ الخلائقِ إليه يومَ القيامةِ، فإلى اللهِ المصيرُ، فمُنتهى أحوالِنا وأحكامِنا وجميعِ ما يَصْدُرُ منَّا وعلينا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإذا كان إلى اللهِ المنتهَى؛ فاجعَلْ شكواك إليه إذا أصابَك الضُّرُّ، واجعَلْ توجُّهَك إليه إذا أرَدْتَ النَّفعَ؛ لأنَّ إليه المنتهَى، فلا يَجْلِبُ لك الخَيرَ إلَّا اللهُ، ولا يمنعُ عنك الضَّرَرَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، فاجعَلْه مُنتهاك في كلِّ أمورِك[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مُتضَمِّنٌ لكَنزٍ عَظيمٍ، وهو أنَّ كلَّ مُرادٍ إنْ لم يُرَدْ مِن أجْلِه، ويَتَّصِلْ به، وإلَّا فهو مُضمَحِلٌّ مُنقَطِعٌ؛ فإنَّه ليس إليه المُنتهى! وليس المُنتهى إلَّا إلى الَّذي انتَهَتْ إليه الأمورُ كلُّها؛ فانتَهَتْ إلى خَلْقِه ومَشيئتِه وحِكمتِه وعِلْمِه؛ فهو غايةُ كلِّ مطلوبٍ، وكلُّ محبوبٍ لا يُحَبُّ مِن أجْلِه فمَحبَّتُه عَناءٌ وعذابٌ، وكلُّ عَمَلٍ لا يُرادُ مِن أجْلِه فهو ضائعٌ وباطلٌ، وكلُّ قلبٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٦).

قال ابن تيميَّة: (وما هَمَّ به مِن القولِ الحسَنِ والعملِ الحسَنِ إنَّما يُكتَبُ له به حسَنةٌ واحدةٌ، فإذا صار قولًا وفعلًا كُتِب له به عَشْرُ حسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٧).

وقال السعدي: (مَن نوى الخَيرَ، واقترَن بنيَّتِه الجازِمةِ سَعْيٌ فيما يَقدِرُ عليه، ثمَّ لم يقدرْ؛ فإنَّه يُنزَّلُ مَنزِلةَ الفاعِلِ التَّامِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧).

لا يَصِلُ إليه فهو شَقِيٌّ مَحجوبٌ عن سَعادتِه وفَلاحِه! فاجتمَعَ ما يُراد منه كلُّه في قَولِه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، واجتَمَعَ ما يُرادُ له كلُّه في قَولِه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾؛ فليس وراءَه سُبحانَه غايةٌ تُطلَبُ، وليس دونَه غايةٌ إليها المُنتَهى، وتحتَ هذا سِرٌّ عظيمٌ مِن أسرارِ التَّوحيدِ، وهو أنَّ القلبَ لا يَستقِرُّ ولا يَطمئِنُّ ويَسكُنُ إلَّا بالوُصولِ إليه، وكلُّ ما سِواه مما يُحَبُّ ويُرادُ فمُرادٌ لغَيرِه، وليس المرادُ المحبوبُ لِذَاتِه إلَّا واحِدًا إليه المُنتَهى، ويَستحيلُ أنْ يكونَ المُنتَهى إلى اثنَينِ، كما يَستحيلُ أنْ يكونَ ابتِداءُ المخلوقاتِ مِن اثنَينِ؛ فمَنْ كان انتِهاءُ مَحبَّتِه ورَغبتِه وإرادتِه وطاعتِه إلى غَيرِه، بَطَلَ عليه ذلك، وزالَ عنه، وفارقَه أحْوَجَ ما كان إليه، ومَن كان انتهاءُ محبَّتِه ورغبتِه ورَهبتِه وطَلَبِه هو سُبحانَه، ظَفِرَ بنِعَمِه ولَذَّتِه وبَهجتِه وسَعادتِه أَبَدَ الآبادِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ تَنبيهٌ إلى أنَّ الظُّلمَ والطُّغيانَ لا يُخَلِّصُ الإنسانَ، ولا يُغْني ولا يُجدِي، بل يُرْدِي، بدَلالةِ قومِ نوحٍ؛ فقد كانوا أظْلَمَ منهم وأَطغَى، فأُهلِكوا(٢)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ هذا الاستِخبارُ ليس لعدَمِ عِلْمِه جلَّ وعلا، ولكنْ لِشَحْذِ النُّفوسِ والهِمَمِ إلى الاستِماعِ إلى ما يُلْقَى(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يقتَضي أنَّ المُنبَّأَ بذلك يجِبُ عليه تصديقُ ذلك، والإيمانُ به؛ لأنَّه مِمَّا أَخبرَ به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٠٨، ٥٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

مُصَدِّقًا لإبراهيمَ وموسى، كما ذُكِرَ ذلك في آخرِ سورةِ (الأعلَى): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وهذا يَقتَضي ثلاثةَ أُصولٍ؛ الأوَّلُ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. الثَّاني: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. الثَّالثُ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ فالأصلُ الأوَّلُ: أنَّ ذَنْبَ الإنسانِ لا يَحمِلُه غيرُه، وهو قولُه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يَحْمِلُ أحدٌ عن أحدٍ مِن ذنْبِه شَيئًا. الثَّاني: أنَّه ليس للإنسانِ إلَّا سعيُه، وهو قولُه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. الثَّالِثُ: أنَّه ﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، وهذه أصولُ الإيمانِ بالوَعدِ والوَعيدِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وهي نتيجةُ الإيمانِ بالأمرِ والنَّهيِ والمَعادِ، بل نتيجةُ الجزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ...﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: أنَّ أكثَرَ هذه الصُّحُفِ أمثالٌ ومَواعِظُ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: تأكيدُ تَرابُطِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أمَّا بيانُ تَوفيتِه ففيه لطيفةٌ: وهي أنَّه لم يَعْهَدْ عَهدًا إلَّا وَفَّى به، وقال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧] فاستغفَرَ ووَفَّى بالعَهدِ، ولم يغفِرِ اللهُ له! فعُلِمَ أنْ ليس للإنسانِ إلَّا ما سعَى، وأنَّ وِزرَه لا تَزِرُه نَفْسٌ أُخرى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحمِلُ ذَنْبَ غيرِه، إلَّا أنَّه يُستَثنَى مِن ذلك إذا كان صاحِبَ سُنَّةٍ آثمةٍ؛ فإنَّ عليه وِزْرَها ووِزْرَ مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامةِ، ولكِنَّ الحقيقةَ أنَّ هذا لا يَتحمَّلُ وِزْرَ غَيرِه؛ لأنَّ غيرَه قد وُزِرَ وأَثِمَ، لكِنْ هو تَحَمَّلَ إثمَ السُّنَّةِ السَّيِّئةِ، والبَدْءِ بالشَّرِّ، فيكونُ حقيقةً أنَّه لم يُوزَرْ وِزْرَ غَيرِه، ولكِنَّه وُزِرَ بوِزْرِ نفْسِه[1]!

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ هذا خبَرٌ مِن الرَّسولَينِ الكَريمَينِ: إبراهيمَ وموسى عليهما السَّلامُ، وهما خبَرانِ عامَّانِ، والأخبارُ لا تُنسَخُ، ولا تَختَلِفُ شرائِعُ الأنبياءِ في الأخبارِ المُجرَّدةِ[2]، فهما آيتانِ مُحكَمتانِ يَقتَضيهما عَدلُ الرَّبِّ تعالى، وحِكمتُه، وكمالُه المُقَدَّسُ، والعَقلُ والفِطرةُ شاهِدانِ بهما، فالأُولى: تقتَضي أنَّه لا يُعاقَبُ بجُرْمِ غَيرِه، والثَّانيةُ: تقتَضي أنَّه لا يُفْلِحُ إلَّا بعَمَلِه وسَعْيِه، فالأُولى: تُؤَمِّنُ العبدَ مِن أخْذِه بجَريرةِ غيرِه، كما يَفعلُه مُلوكُ الدُّنيا، والثَّانيةُ: تَقطَعُ طَمَعَه من نجاتِه بعَمَلِ آبائِه وسَلَفِه ومَشايِخِه، كما عليه أصحابُ الطَّمَعِ الكاذِبِ؛ فتأمَّلْ حُسْنَ اجتِماعِ هاتَينِ الآيتَينِ[3]، وهذا هو العَدلُ الَّذي نَزَّهَ نفْسَه عن خِلافِه[4].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أنَّه قال في حَقِّ المُسيءِ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وهو لا يدُلُّ إلَّا على عَدَمِ الحَملِ عن الوازِرةِ، وهذا لا يَلزَمُ منه بقاءُ الوِزرِ عليها -مِن ضَرورةِ اللَّفظِ-؛ لِجَوازِ أن يَسقُطَ عنها ويَمحوَ اللهُ ذلك الوِزرَ، فلا يَبقى عليها، ولا يَتحَمَّلُ عنها غَيرُها، ولو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٨).

قال: «لا تَزِرُ وازرةٌ إلَّا وِزرَ نَفْسِها» كان مِن ضَرورةِ الاستِثناءِ أنَّها تَزِرُ؛ وقال في حَقِّ المحسِنِ: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: «ليس له ما لم يَسْعَ»؛ لأنَّ العبارةَ الثَّانيةَ ليس فيها أنَّ له ما سعى، وفي العبارةِ الأُولى أنَّ له ما سعى -نظرًا إلى الاستِثناءِ-، فقال في حَقِّ المُسيءِ بعِبارةٍ لا تَقطَعُ رَجاءَه، وفي حَقِّ المُحسِنِ بعِبارةٍ تَقطَعُ خَوفَه؛ كُلُّ ذلك إشارةً إلى سَبْقِ الرَّحمةِ الغَضَبَ[(١)].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ استَدَلَّ به الشَّافِعيُّ على أنَّ ثَوابَ القِراءةِ لا يَلحَقُ المَيِّتَ[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَملِكُ غيرَ سَعيِه، ولا يَستَحِقُّ غيرَه، وإنْ كان قد يَحصُلُ له نَفعٌ بفَضلِ اللهِ وبرَحمتِه وبدُعاءِ غيرِه؛ فإنَّه قد عُرِفَ أنَّ اللهَ يَرحَمُ كثيرًا مِن النَّاسِ مِن غيرِ جِهةِ عَمَلِه، لكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥١).

قال ابن كثير: (ومِن هذه الآيةِ الكريمةِ استنبط الشَّافعيُّ -رحِمه الله- ومَن اتَّبعه أنَّ القِراءةَ لا يَصِلُ إهداءُ ثَوابِها إلى الموتى؛ لأنَّه ليس مِن عمَلِهم ولا كَسبِهم؛ ولهذا لم يَندُبْ إليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أمَّتَه، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشَدهم إليه بنصٍّ ولا إيماءٍ، ولم يُنقَلْ ذلك عن أحدٍ مِن الصَّحابةِ رضيَ الله عنهم، ولو كان خيرًا لَسَبَقونا إليه، وبابُ القُرُباتِ يُقتصَرُ فيه على النُّصوصِ، ولا يُتصرَّفُ فيه بأنواعِ الأقيسةِ والآراءِ، فأمَّا الدُّعاءُ والصَّدقةُ فذاك مُجمَعٌ على وُصولِهما، ومنصوصٌ مِن الشَّارعِ عليهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

وقال السعدي: (وقد استَدلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ مَن يرى أنَّ القُرَبَ لا يُفيدُ إهداؤُها للأحياءِ ولا للأمواتِ؛ قالوا: لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، فوُصولُ سعْيِ غيرِه إليه مُنافٍ لذلك، وفي هذا الاستِدلالِ نظرٌ؛ فإنَّ الآيةَ إنَّما تدُلُّ على أنَّه ليس للإنسانِ إلَّا ما سعَى بنفْسِه، وهذا حقٌّ لا خلافَ فيه، وليس فيها ما يدُلُّ على أنَّه لا ينتفِعُ بسَعيِ غيرِه إذا أهداه ذلك الغيرُ له، كما أنَّه ليس للإنسانِ مِن المالِ إلَّا ما هو في ملكِه وتحتَ يدِه، ولا يَلزَمُ مِن ذلك ألَّا يَملِكَ ما وهَبه له الغيرُ مِن مالِه الَّذي يَملِكُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

ليس له إلَّا ما سعَى[(١)]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ على أنَّه لا يَنتَفِعُ أحَدٌ بعَمَلِ غَيرِه، وقد جاءت آيةٌ أُخرى تدُلُّ على أنَّ بَعضَ النَّاسِ رُبَّما انتفَع بعَمَلِ غيرِه، وهي قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ [الطور: ٢١]، فرَفعُ دَرَجاتِ الأولادِ -سواءٌ قُلنا: إنَّهم الكِبارُ أو الصِّغارُ- نَفعٌ حاصِلٌ لهم، وإنَّما حصَلَ لهم بعَمَلِ آبائِهم لا بعَمَلِ أنفُسِهم؟

الجوابُ مِن ثَلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ آيةَ ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ إنَّما دَلَّت على نَفيِ مِلكِ الإنسانِ لغَيرِ سَعْيِه، ولم تدُلَّ على نَفيِ انتِفاعِه بسَعيِ غَيرِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «وأنْ لن ينتَفِعَ الإنسانُ إلَّا بما سَعى»، وإنَّما قال: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ ﴾، وبيْنَ الأمْرَينِ فَرقٌ ظاهِرٌ؛ لأنَّ سَعيَ الغَيرِ مِلكٌ لساعيه: إنْ شاء بَذَله لِغَيرِه فانتفَعَ به ذلك الغَيرُ، وإن شاء أبقاه لنَفْسِه، وقد أجمَعَ العُلَماءُ على انتِفاعِ المَيِّتِ بالصَّلاةِ عليه، والدُّعاءِ له، والحَجِّ عنه، ونحوِ ذلك مِمَّا ثَبَت الانتِفاعُ بعَمَلِ الغَيرِ فيه.

الثَّاني: أنَّ إيمانَ الذُّرِّيةِ هو السَّبَبُ الأكبَرُ في رَفعِ دَرَجاتِهم؛ إذ لو كانوا كُفَّارًا لَمَا حَصَل لهم ذلك؛ فإيمانُ العَبدِ وطاعتُه سَعيٌ منه في انتِفاعِه بعَمَلِ غَيرِه مِنَ المُسلِمينَ، كما وَقَع في الصَّلاةِ في الجَماعةِ؛ فإنَّ صَلاةَ بَعضِهم مع بعضٍ يَتضاعَفُ بها الأجرُ زِيادةً على صَلاتِه مُنفَرِدًا، وتلك المُضاعَفةُ انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ سَعى فيه المُصَلِّي بإيمانِه وصلاتِه في الجماعةِ، وهذا الوَجهُ يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّ السَّعيَ الَّذي حَصَل به رفْعُ دَرَجاتِ الأولادِ ليس للأولادِ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥١).

هو نَصُّ قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، ولكِنَّه مِن سَعيِ الآباءِ، فهو سَعيٌ للآباءِ أقَرَّ اللهُ عُيونَهم بسَبَبِه بأنْ رَفَع إليهم أولادَهم؛ لِيَتمتَّعوا في الجنَّةِ برُؤيتِهم؛ فالآيةُ تُصَدِّقُ الأُخرى ولا تُنافيها؛ لأنَّ المقصودَ بالرَّفعِ إكرامُ الآباءِ لا الأولادِ، فانتِفاعُ الأولادِ تَبَعٌ، فهو بالنِّسبةِ إليهم تفَضُّلٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه وتعالى عليهم بما ليس لهم، كما تَفَضَّلَ بذلك على الوِلْدانِ والحُورِ العِينِ والخَلْقِ الَّذين يُنشِئُهم للجَنَّةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ بِشارةٌ للمُوحِّدِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُريه أعمالَه الصَّالِحةَ لِيَفرَحَ بها، ويَحزَنَ الكافِرُ بأعمالِه الفاسِدةِ، فيَزدادَ غَمًّا[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أنَّه لَمَّا كان في هذه الدَّارِ رُبَّما وَقَعت المُسامَحةُ ببَعضِ الأشياءِ، والغَفلةُ عن بَعضِها؛ قال: ﴿ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي: الأتَمَّ الأكمَلَ؛ فإن كان خيرًا فمعَ المُضاعَفةِ، وإن كان غَيرَه فعلى السَّواءِ؛ لِمَن أراد اللهُ تعالى ذلك له، ويَعفو عن كثيرٍ، لكِنَّه تَذكِرةٌ له[٣]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ ما يَعمَلُه الإنسانُ فبِقَضاءِ اللهِ تعالى وخَلْقِه، حتَّى الضَّحِكَ والبُكاءَ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾، وكذا قَولُه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾: أتى بالأمْرَينِ وهما مُتقابِلانِ؛ لِيُعلَمَ بذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى على

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢١١).

كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهو القادِرُ على خَلْقِ الضِّدَّين[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ أنَّه سُبحانَه المُحْيي المُميتُ، وأنَّه خَلَقَ الموتَ والحياةَ؛ فثَبَتَ أنَّ الأفعالَ كلَّها؛ خَيرَها وشرَّها: صادِرةٌ عن خَلْقِه وإحداثِه إيَّاها[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ هذَين الصِّنفَينِ المُختلِفَينِ خَلْقًا، والمُختلِفَينِ مِزاجًا، والمُختلِفَين عَقلًا، والمُختلِفَين فِكْرًا؛ خَلَقَهما مِن شيءٍ واحدٍ؛ مِن نطفةٍ؛ ولهذا قال اللهُ تبارك وتعالى في آخرِ سورةِ (القيامةِ): ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ * أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩، ٤٠]؟ **الجوابُ**: بلى، فاللهُ تعالى خَلَقَ الزَّوجَينِ مِن شَيءٍ واحِدٍ، وهذا يدُلُّ على كمالِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ إذْ إنَّه خَلَقَ صِنفَينِ مُختَلِفَينِ في كلِّ الأحوالِ: في القُوَّةِ البَدَنيَّةِ، والعَقليَّةِ، والفِكريَّةِ، والتَّنظيميَّةِ، يختَلِفُ الذَّكَرُ عنِ الأنثى، وبذلك نَعْرِفُ ضلالَ أولئك القومِ الَّذين يُريدونَ أنْ يُلْحِقوا المرأةَ بالرَّجُلِ في أعمالٍ تختَصُّ بالرَّجُلِ! فإنَّهم سُفَهاءُ العُقولِ، ضُلَّالُ الأديانِ، فكيف يمكنُ أنْ نُساويَ بيْنَ صِنفَينِ فرَّقَ اللهُ بيْنَهما خِلْقةً وشَرعًا؟! فهناك أحكامٌ يُطالَبُ بها الرَّجُلُ ولا تُطالَبُ بها المرأةُ، وأحكامٌ تُطالَبُ بها المرأةُ ولا يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، وأمَّا قَدَرًا وخِلْقةً فالأمرُ واضحٌ، لكنَّ هؤلاء الَّذين لم يُوَفَّقوا وسَلَبَ اللهُ عقولَهم، وأَضعَفَ أديانَهم يُحاوِلونَ الآن أنْ يُلْحِقوا النِّساءَ بالرِّجالِ! وهذه لا شكَّ أنَّها فِكرةٌ خاطِئةٌ، مُخالِفةٌ للفِطرةِ، ومُخالِفةٌ للطَّبيعةِ، كما أنَّها مُخالِفةٌ للشَّريعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ هذا مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على كَمالِ قُدرتِه سُبحانَه وتعالى، وانفرادِه بالعِزَّةِ العَظيمةِ، وهذا من وَجهَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّه أوجَدَ تلك الحيواناتِ -صَغيرَها وكبيرَها- مِن نُطفةٍ ضَعيفةٍ من ماءٍ مَهينٍ، ثمَّ نَمَّاها وكَمَّلها، حتَّى بلَغَت ما بلَغَت، ثمَّ صار الآدميُّ منها إمَّا إلى أرفَعِ المقاماتِ في أعلى عِلِّيِّينَ، وإمَّا إلى أدنى الحالاتِ في أسفَلِ سافلينَ[١]. الثَّاني: أنَّ النُّطفةَ جِسمٌ مُتناسِبُ الأجزاءِ، يَخلُقُ اللهُ منها أعضاءً مُختَلِفةً، وطِباعًا مُتبايِنةً! وخَلْقُ الذَّكَرِ والأُنثى منها أعجَبُ ما يكونُ؛ ولهذا لم يَقدِرْ أحَدٌ على أن يَدَّعِيَه، كما لم يَقدِرْ على أن يدَّعِيَ خَلْقَ السَّمَواتِ[٢].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى أَوجبَ على نفْسِه أنْ يَبْعَثَ النَّاسَ؛ لأنَّه لو كان النَّاسُ يَحيَونَ ويَموتونَ بلا إرجاعٍ لَكان هذا عَبَثًا مَحْضًا؛ لأنَّنا نَعلَمُ الآنَ أنَّ النَّاسَ في الدُّنيا يختَلِفونَ في الغِنى والفَقرِ، والقُوَّةِ والضَّعفِ، والذَّكاءِ والعَقلِ، وغيرِ ذلك، ولو كان الخَلْقُ هكذا فقط بدونِ إرجاعٍ لَكان هذا مُنافيًا للحِكمةِ تمامًا، لكِنْ لا بُدَّ مِن رُجوعٍ[٣].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ القادِرَ على الأُولى قادِرٌ على الآخِرةِ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾[٤] [الروم: ٢٧].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَه: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ المقصودُ منه تخويفُ الظَّالِمِ بالهَلاكِ، فإذا قال: هم كانوا في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).

غايةِ الظُّلمِ والطُّغيانِ فأُهلِكوا، فيَقولُ الظَّالِمُ: هم كانوا أظلَمَ فأُهلِكوا؛ لِمُبالَغتِهم في الظُّلمِ، ونحن ما بالَغْنا، فلا نَهلِكُ! وأمَّا لو قال: أُهلِكوا لأنَّهم ظَلَمةٌ، لَخاف كُلُّ ظالمٍ؛ فما الفائدةُ في قَولِه: ﴿أَظْلَمَ﴾؟

الجوابُ: المقصودُ بَيانُ شِدَّتِهم، وقُوَّةِ أجسامِهم؛ فإنَّهم لم يُقْدِموا على الظُّلمِ والطُّغيانِ الشَّديدِ إلَّا بتَماديهم وطولِ أعمارِهم، ومع ذلك ما نجا أحَدٌ منهم! فما حالُ مَن هو دُونَهم مِن العُمُرِ والقُوَّةِ؟! فهو كقَولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾(١) [الزخرف: ٨].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في اختِصاصِ المُؤتَفِكةِ باسمِ الموضِعِ في الذِّكرِ، وقال في عادٍ وثمودَ وقَومِ نُوحٍ اسمَ القَومِ؟

الجَوابُ مِن وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ ثَمودَ اسمُ المَوضِعِ، فذَكَر عادًا باسمِ القَومِ، وثمودَ باسمِ المَوضِعِ، وقَومَ نوحٍ باسْمِ القَومِ، والمُؤتَفِكةَ باسْمِ المَوضِعِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ القَومَ لا يُمكِنُهم صَونُ أماكِنِهم عن عذابِ اللهِ تعالى، ولا الموضِعُ يُحَصِّنُ القَومَ عنه؛ فإنَّ في العادةِ تارةً يَقوَى السَّاكِنُ فيَذُبُّ عن مَسكَنِه، وأُخرى يَقوَى المَسكَنُ فيَرُدُّ عن ساكِنِه؛ وعذابُ اللهِ تعالى لا يَمنَعُه مانِعٌ! وهذا المعنى حَصَل للمُؤمِنينَ في آيتَينِ؛ إحداهما: قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، وقَولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]؛ ففي الأُولى: لم يَقدِرِ السَّاكِنُ على حِفظِ مَسكَنِه، وفي الثَّانيةِ: لم يَقْوَ الحِصنُ على حِفظِ السَّاكِنِ.

والوَجهُ الثَّاني: هو أنَّ عادًا وثَمودَ وقَومَ نوحٍ كان أمرُهم مُتقَدِّمًا، وأماكِنُهم كانت قد دَثَرت؛ ولكِنَّ أمْرَهم كان مَشهورًا مُتواتِرًا؛ وقومَ لُوطٍ كانت مساكِنُهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٤).

وآثارُ الانقِلابِ فيها ظاهِرةً؛ فذَكَر الأظهَرَ مِنَ الأمْرَينِ في كُلِّ قَومٍ(١).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ ضُمِّنَ «تَتمارى» معنى «تُكَذِّبُ»؛ ولهذا عَدَّاه بالباءِ؛ فإنَّه «تَفاعَلَ» مِن المِراءِ، يقالُ: تَمارَيْنا في الهِلالِ، و((مِراءٌ في القُرآنِ كُفْرٌ))(٢)، وهو يكونُ لتكذيبٍ وتشكيكٍ، ويقالُ: لَمَّا كان الخِطابُ لهم قال: «تَتمارَى» أي: يَتمارَونَ، ولم يَقُلْ: «تَمتَري»؛ لأنَّ التَّفاعُلَ يكونُ بيْنَ اثنَينِ(٣).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ سؤالٌ: كيف قال تعالى ذلك بعدَ تَعديدِ النِّقَمِ، والآلاءُ: النِّعَمُ؟!

الجَوابُ: قد تَقدَّمَ تعديدُ النِّعَمِ، مع أنَّ النِّقمةَ في طَيِّها نِعمةٌ؛ لِما تَضمَّنَتْه مِنَ المواعِظِ والزَّواجِرِ(٤) لِمَن اعتبَرَ وتَدبَّرَ، لذا أُطلِقَ على النِّعَمِ والنِّقَمِ لفظُ الآلاءِ، وهي النِّعَمُ الَّتي لا يَتشكَّكُ فيها سامعٌ(٥). وأيضًا فهلاكُ الكافرينَ مِن حيثُ إنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٦٠٣)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٠٩٣)، وأحمد (٧٨٤٨) واللَّفظُ له مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.
استحسنه يحيى بنُ مَعِينٍ كما في ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (٤٥/ ٧٣)، وصحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٤٦٤)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٢٤٣) وقال: (على شرطِ مسلمٍ)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٢٤١)، وحسَّن الحديثَ ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (١٢/ ٣٥٣)، وقال الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٠٣): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٨).

تَخليصٌ لأهلِ الأرضِ مِن شُؤمِ عَقائدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ، يحقُّ أن يُحمَدَ عليها[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أنَّ كلَّ ما خَلَقَه اللهُ تعالى فهو نِعمةٌ على عبادِه المُؤمِنينَ؛ يَستَحِقُّ أنْ يَحمَدوه ويَشكُروه عليه، وهو مِن آلائِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ التَّعجيبيِّ على قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ إذ كان حالُ هذا الَّذي تولَّى وأعْطَى قليلًا وأكْدَى جَهْلًا بأنَّ للإنسانِ ما سَعى، وقد حصَلَ في وقْتِ نُزولِ الآيةِ المُتقدِّمةِ أو قبْلَها حادثٌ أنبَأَ عن سُوءِ الفَهمِ لمُرادِ اللهِ مِن عِبادِه، مع أنَّه واضحٌ لِمَن صرَف حقَّ فَهْمِه، ففُرِّعَ على ذلك كلِّه تَعجيبٌ مِن انحرافِ أفْهامِهم؛ فالَّذي تَولَّى وأعْطى قليلًا هو هنا ليس فَريقًا مِثلَ الَّذي عَناهُ قولُه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]، بلْ هو شَخصٌ بعَينِه، ولعلَّ ذلك وَجْهُ التَّعبيرِ عنه بلَفظِ (الَّذي) دونَ كَلمةِ (مَن)؛ لأنَّ (الَّذي) أظهَرُ في الإطلاقِ على الواحِدِ المُعيَّنِ دونَ لَفظِ (مَن)[٣].

- قولُه: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ وُصِفَ عَطاؤه بأنَّه قليلٌ؛ تَوطئةً لذَمِّه بأنَّه مع قِلَّةِ ما أعطاهُ قد شحَّ به فقطَعَه، وأشار قولُه: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ إلى بُخْلِه وقَطْعِه العَطاءَ، وهذه مَذمَّةٌ ثانيةٌ بالبُخلِ[٤]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٨).

- الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ إنكاريٌّ، أي: ما عِندَه عِلمُ الغيبِ. وهذا الخبَرُ كِنايةٌ عن خَطَئِه فيما تَوهَّمَه، والجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ للاستِفهامِ التَّعجيبيِّ مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ...﴾ إلخ[1].

- وتَقديمُ (عِنْدَهُ) -وهو مُسنَدٌ- على ﴿عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ -وهو مُسنَدٌ إليه-؛ للاهتِمامِ بهذه العِنديَّةِ العَجيبِ ادِّعاؤُها، والإشارةِ إلى بُعْدِه عن هذه المَنزِلةِ[2].

- وفُرِّعَ على هذا التَّعجيبِ قولُه: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾، أي: فهو يُشاهِدُ أُمورَ الغَيبِ. والرُّؤيةُ في قولِه: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ بَصريَّةٌ، ومَفعولُها مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: فهو يَرى الغَيبَ[3].

- وتَقديمُ الضَّميرِ المُسنَدِ إليه ﴿فَهُوَ﴾ على فِعلِه المُسنَدِ ﴿يَرَىٰٓ﴾ دونَ أنْ يقولَ: فيَرى؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكم، نحْو: هو يُعطِي الجَزيلَ. وهذا التَّقوِّي بناءً على ما أظهَرَ مِن اليقينِ بالصَّفقةِ الَّتي عاقَدَ عليها -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهو أدخَلُ في التَّعجيبِ مِن حالِه[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾

- حرْفُ (أَمْ) لإضرابِ الانتِقالِ إلى مُتعجَّبٍ منه، وإنكارٍ عليه آخَرَ، وهو جَهْلُه بما عليه أنْ يَعلَمَه الَّذين يَخشَون اللهَ تعالى مِن عِلمِ ما جاء على ألْسِنةِ الرُّسلِ الأوَّلينَ؛ فإنْ كان هو لا يُؤمِنُ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهلَّا تَطلَّبَ ما أخبَرَت به رُسلٌ مِن قبْلُ، طالَما ذَكَرَ هو وقومُه أسماءَهُم وشَرائعَهم في الجُملةِ؟ وطالَما سأَلَ هو وقَومُه أهلَ الكتابِ عن أخبارِ مُوسى، فهلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٩).

سأَلَ عمَّا جاء عنهم في هذا الغرَضِ الَّذي يَسْعى إليه؟ -وهو طلَبُ النَّجاةِ مِن عَذابِ اللهِ- فيُنبِّئه العالِمون؛ فإنَّ مآثِرَ شَريعةِ إبراهيمَ مأْثورٌ بعضُها عندَ العرَبِ، وشَريعةَ مُوسى مَعلومةٌ عندَ اليهودِ، فالاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكارٌ، والتَّقديرُ: بلْ ألمْ يُنبَّأْ بما في صُحفِ مُوسى... إلخ[1].

- قولُه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ تنبيهٌ لِمَن خُوطِبَ بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ على خَطَئِه في إمساكِه عن البرِّ، وقَبولِ قولِ أخيهِ: أنا أتحمَّلُ ذُنوبَك كلَّها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ ولذلك جُعِلَ قولُه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]؛ تَمهيدًا لقولِه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2] [النجم: ٣٩].

- وإنَّما خصَّ هذه الصُّحفَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العرَبَ يَعرِفون إبراهيمَ وشَريعتَه ويُسَمُّونها الحَنيفيَّةَ، ورُبَّما ادَّعى بعضُهم أنَّه على أثارةٍ منها، وأمَّا صُحفُ مُوسى فهي مُشتهِرةٌ عندَ أهْلِ الكِتابِ، والعرَبُ يُخالِطون اليهودَ في خَيبرَ وقُرَيظةَ والنَّضيرِ وتَيْمَا، ويُخالِطون نَصارى نَجْرانَ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قدَّمَ مُوسَى هاهنا فقال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، وفي سُورةِ (الأعْلى) قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، فقدَّمَ إبراهيمَ؛ وذلك لعِدَّةِ أوجهٍ: الأوَّلُ: مِثلُ هذا في كلامِ الفُصحاءِ لا يُطلَبُ له فائدةٌ، بلِ التَّقديمُ والتأخيرُ سواءٌ في كَلامِهم. الثَّاني: أنَّ الذِّكرَ في سُورةِ (الأعلى) لمُجرَّدِ الإخبارِ والإنذارِ، وهاهنا المقصودُ بَيانُ انتفاءِ الأعذارِ، فذُكِرَ هناك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩، ١٣٠).

تَرتيبِ الوجودِ: صُحفُ إبراهيمَ قبْلَ صُحفِ مُوسى في الإنزالِ، وأمَّا هاهنا فإنَّ الكلامَ مع أهلِ الكِتابِ -وهم اليهودُ- فقدَّمَ كِتابَهم، وإنْ قُلنا: الخِطابُ عامٌّ؛ فصُحُفُ مُوسى عليه السَّلامُ كانتْ كثيرةَ الوجودِ؛ فكأنَّه قِيل لهم: انْظُروا فيها تَعلَموا أنَّ الرِّسالةَ حقٌّ، وأُرسِلَ مِن قبْلِ مُوسى رُسلٌ، والتَّوحيدَ صِدقٌ، والحَشرَ واقعٌ، فلمَّا كانتْ صُحُفُ مُوسى عندَ اليَهودِ كثيرةَ الوجودِ قدَّمَها، وأمَّا صُحُفُ إبراهيمَ فكانتْ بعيدةً، وكانتِ المواعظُ الَّتي فيها غيرَ مَشهورةٍ فيما بيْنَهم كصُحُفِ مُوسى؛ فأخَّرَ ذِكرَها[(١)]، ولأنَّ كتابَ موسى عليه السَّلامُ أعظَمُ كتابٍ بعدَ القرآنِ الكريمِ[(٢)].

وقيل: إنَّ تَقديمَ صُحفِ مُوسى؛ لأنَّها اشتُهِرَت بسَعةِ ما فيها مِن الهُدَى والشَّريعةِ، وأمَّا صُحفُ إبراهيمَ فكان المأْثورُ منها أشياءَ قليلةً. وإنَّما قُدِّمَ في سُورةِ (الأعْلى) صُحفُ إبراهيمَ على صُحفِ مُوسى؛ مُراعاةً لوُقوعِهما بدَلًا مِن الصُّحفِ الأُولى، فقُدِّمَ في الذِّكْرِ أقدَمُهما. أو تأْخيرُ ذِكرِ صُحفِ إبراهيمَ؛ ليقَعَ ما بعْدَها هنا جامعًا لِما احتَوَت عليه صُحفُ إبراهيمَ، فتكونَ صُحفُ إبراهيمَ هي الكلماتِ الَّتي ابتَلى اللهُ بها إبراهيمَ المذكورةَ في قولِه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: بلَّغَهنَّ إلى قَومِه ومَنْ آمَنَ به، ويكونَ قَولُه هنا: ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ في معنى قولِه: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ في سُورةِ البقرةِ، الآية (١٢٤)[(٣)].

- ووَصْفُ إبراهيمَ بأنَّه ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ تَسجيلٌ على المشرِكين بأنَّ إبراهيمَ بلَّغَ ما أُوحِيَ إليه إلى قَومِه وذُرِّيَّتِه، ولكنَّ العرَبَ أهْمَلوا ذلك، واعتاضُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

عن الحنيفيَّةِ بالإشراكِ[١].

- وتَخصيصُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بـ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؛ لاحتِمالِه ما لم يَحتمِلْه غيرُه، كالصَّبرِ على نارِ نُمروذَ، وذَبْحِ الولَدِ[٢]. وقيل: مَدحُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه كان مُتَّفَقًا عليه بيْنَ اليَهودِ والمُشرِكينَ والمُسلِمينَ، ولم يُنكِرْ أحَدٌ كَونَه وَفيًّا ومُوفِيًا، ورُبَّما كان المُشرِكونَ يَتوقَّفونَ في وَصفِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

- وجاءَ قولُه: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ مُشدَّدًا، والتَّشديدُ مُبالَغةٌ في الوفاءِ، أو بمعْنى: وفَّى وأتَمَّ ما الْتزَمَه أو أُمِرَ به[٤].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَفَّىٰٓ﴾؛ لِيَتناوَلَ كلَّ وَفاءٍ وتَوفيةٍ، مِن ذلك: تَبليغُه الرِّسالةَ، واستِقلالُه بأعباءِ النُّبوَّة، والصَّبرُ على ذبْحِ ولَدِه وعلى نارِ نَمروذَ، وقِيامُه بأضيافِه وخِدمتُه إيَّاهم بنفْسِه[٥].

- وخَصَّ هذَينِ النَّبيَّينِ عليهما أفْضلُ الصَّلاةِ والسَّلامُ بالذِّكرِ؛ قِيل: لأنَّه ما بيْنَ نوحٍ وإبراهيمَ كانوا يأْخُذون الرَّجُلَ بأبيه وابنِه وعمِّه وخالِه، والزَّوجَ بامرأتِه، والعبدَ بسيِّده، فأوَّلُ مَن خالَفَهم إبراهيمُ، ومِن شَريعةِ إبراهيمَ إلى شَريعةِ مُوسى صلَّى اللهُ وسلَّم عليهما كانوا لا يأْخُذون الرَّجُلَ بجَريمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

غَيرِه(١).

وقيل: لأنَّ المُدَّعِينَ مِن بني إسرائيلَ -اليهودَ والنَّصارى- يَدَّعونَ مُتابَعة مُوسى عليه السَّلامُ، ومِنَ العَرَبِ يَدَّعونَ مُتابَعةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ومَن عَداهم لا مُتمَسَّكَ لهم ولا سَلَفَ في نبُوَّةٍ مُحقَّقةٍ، ولا شَريعةٍ مَحفوظةٍ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

- تَفسيرٌ للَّذي في الصُّحُفِ، أو استِئنافٌ(٣).

- وعُمومُ لَفظِ ﴿وِزْرَ﴾ يَقْتضي اطِّرادَ الحُكمِ في أُمورِ الدُّنيا وأُمورِ الآخرةِ، وتأنيثُ ﴿وَازِرَةٌ﴾ بتأْويلِ: (نَفْس)، وكذلك تأنيثُ ﴿أُخْرَىٰ﴾، ووُقوعُ (نَفْس) و﴿أُخْرَىٰ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ(٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بيانٌ لعدَمِ انتِفاعِ الإنسانِ بعمَلِ غَيرِه مِن حيثُ جلْبُ النَّفعِ إليه، إثرَ بَيانِ عدَمِ انتِفاعِه بهِ مِنْ حيثُ دفْعُ الضَّررِ عنه(٥).

- وهو عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]؛ فيصِحُّ أنْ تكونَ عطْفًا على المَجرورِ بالباءِ، فتكونَ (أنْ) مُخفَّفةً مِن الثَّقيلةِ. ويصِحُّ أنْ تكونَ عطْفًا على ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فتَكونَ (أنْ) تَفسيريَّةً، وعلى كِلا الاحتمالَينِ تكونُ (أنْ) تأْكيدًا لنَظيرتِها في المَعطوفِ عليها(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٣، ١٦٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

- وتَعريفُ الإنسانِ هنا تَعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ، والمعْنى: لا يَختصُّ به إلَّا ما سعاهُ، قيل: المُرادُ هنا عمَلُ الخَيرِ؛ بقَرينةِ ذِكرِ لامِ الاختِصاصِ، وبأنْ جُعِلَ مُقابِلًا لقولِه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]، والمعْنى: لا تَحصُلُ لأحدٍ فائدةُ عمَلٍ إلَّا ما عمِلَه بنفْسِه، فلا يكونُ له عمَلُ غيرِه، ولامُ الاختِصاصِ يُرجِّحُ أنَّ المُرادَ ما سَعاهُ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، وبذلك يكونُ ذِكْرُ هذا تَتْميمًا لمعْنى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ فيه وَعيدٌ للكافرِ، ووعْدٌ للمؤمنِ(٢).

- ومعنَى ﴿يُرَىٰ﴾ يُشاهَدُ عِندَ الحِسابِ؛ فيَجوزُ أنْ تُجسَّمَ الأعمالُ فتَصيرَ مُشاهَدةً، وأُمورُ الآخرةِ مُخالِفةٌ لمُعتادِ أُمورِ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ علاماتٌ على الأعمالِ يُعلَنُ بها عنها، كما في قولِه تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، وما في الحديثِ: «إنَّ الغادرَ يُنصَبُ له لِواءٌ يومَ القِيامةِ، فيُقال: هذه غَدْرةُ فُلانِ بنِ فُلانٍ»(٣)، فيُقدَّرُ مُضافٌ تقديرُه: وأنَّ عُنوانَ سَعْيِه سَوف يُرى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ذلك بإشهارِ العمَلِ والسَّعيِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٩] الآيةَ، فتكونُ الرُّؤيةُ مُعبَّرًا بها عن العِلْمِ؛ لقصْدِ تَحقُّقِ العِلمِ واشتِهارِه. وحِكمةُ ذلك تَشريفُ المُحسنينَ بحُسْنِ السُّمعةِ، وانكسارُ المُسيئينَ بسُوءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦١٧٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٣٥) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

الأُحدوثةِ، وقولُه: ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ هو المَقصودُ مِن الجُملةِ[(١)].

- و(ثَمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ حُصولَ الجَزاءِ أهمُّ مِن إظهارِه، أو إظهارِ المَجزيِّ عنه[(٢)].

- وضَميرُ النَّصبِ في قولِه: ﴿يُجْزَاهُ﴾ عائدٌ إلى السَّعيِ، أي: يُجْزَى عليه، أو يُجْزى به؛ فحُذِفَ حرْفُ الجرِّ، ونُصِبَ على نَزعِ الخافضِ؛ فقد كثُرَ أنْ يُقالَ: جَزاهُ عمَلَه، وأصْلُه: جَزاهُ على عمَلِه، أو جَزاهُ بعمَلِه[(٣)].

- والأَوْفَى: اسمُ تَفضيلٍ مِن الوَفاءِ، وهو التَّمامُ والكَمالُ، والتَّفضيلُ مُستعمَلٌ هنا في القوَّةِ، وليس المُرادُ تَفضيلَه على غيرِه، والمعْنى: أنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ -مِن حَسَنٍ أو سَيِّءٍ- مُوافِقٌ للمَجزيِّ عليه[(٤)].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ [النجم: ٤٠]، فتَكونَ تَتِمَّةً لِما في صُحفِ مُوسى وإبراهيمَ، ويكونَ الخِطابُ في قَولِه: ﴿إِلَى رَبِّكَ ﴾ الْتِفاتًا مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والمُخاطَبُ غيرُ مُعيَّنٍ، فكأنَّه قِيل: وأنَّ إلى ربِّه المُنْتهى. ويَجوزُ أنَّها ليستْ ممَّا اشتمَلَتْ عليه صُحفُ مُوسى وإبراهيمَ، ويَكونُ عطْفُها عطْفَ مُفرَدٍ على مُفرَدٍ، فيَكونُ المَصدَرُ المُنسبِكُ مِن (أنْ) ومَعمولِها مَدخولًا للباءِ، أي: لم يُنبَّأْ بأنَّ إلى ربِّك المُنتهى، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا نَتطلَّبُ لها نَظيرًا مِن كَلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٠، ١٤١).

- والتَّعبيرُ عن اللهِ بلفْظِ ﴿رَبِّكَ﴾ تَشريفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالتَّهديدِ لمُكذِّبيه؛ لأنَّ شأْنَ الرَّبِّ الدِّفاعُ عن مَرْبوبه(١).

- ومعنى الرُّجوعِ إلى اللهِ: قيل: الرُّجوعُ إلى حُكْمِه المحْضِ الَّذي لا تُلابِسُه أحكامٌ هي في الظَّاهرِ مِن تَصرُّفاتِ المَخلوقاتِ ممَّا هو شأْنُ أُمورِ الدُّنيا؛ فالكلامُ على حذْفِ مُضافٍ دلَّ عليه السِّياقُ(٢).

- وقيل: في الآيةِ معنًى آخَرُ، وهو أنْ يكونَ المُنتهى مُعبَّرًا به عن انتهاءِ السَّيرِ، بمعْنى الوُقوفِ؛ لأنَّ الوقوفَ انتهاءُ سَيرِ السَّائرِ، ويكونَ الوُقوفُ تَمثيلًا لحالِ المُطيعِ لأمْرِ اللهِ؛ تَشبيهًا لأمْرِ اللهِ بالحدِّ الَّذي تُحدَّدُ به الحوائطُ، والمعْنى: التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ لِما أمَرَ اللهُ ونَهى، وقيل غير ذلك(٣).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ لا يَخْلو الإنسانُ مِن حالَيْ حُزنٍ وسُرورٍ؛ لأنَّه إذا لم يكُنْ حَزينًا مَغمومًا كان مَسرورًا؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ السُّرورَ والانشراحَ مُلازِمًا للإنسانِ بسَببِ سَلامةِ مِزاجِه وإدراكِه؛ لأنَّه إذا كان سالِمًا كان نَشيطَ الأعصابِ، وذلك النَّشاطُ تَنشَأُ عنه المَسرَّةُ في الجُملة، وإنْ كانتْ مُتفاوِتةً في الضَّعفِ والقُوَّة؛ فذِكْرُ الضَّحِكِ والبُكاءِ يُفيدُ الإحاطةَ بأحوالِ الإنسانِ بإيجازٍ، ويَرمُزُ إلى أسبابِ الفرَحِ والحُزنِ، ويُذكِّرُ بالصَّانعِ الحَكيمِ، ويُشيرُ إلى أنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في الإنسانِ؛ لأنَّه خلَقَ أسبابَ فرَحِه ونكَدِه، وألْهَمَه إلى اجتلابِ ذلك بما في مَقدورِه، وجعَلَ حدًّا عظيمًا من ذلك خارجًا عن مَقدورِ الإنسانِ، وذلك لا يَمْتري فيه أحدٌ إذا تأمَّلَ، وفيه ما يُرشِدُ إلى الإقبالِ على طاعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ (ص: ٥٢٤ - ٥٢٥).

اللهِ والتَّضرُّعِ إليه؛ ليُقدِّرَ للنَّاسِ أسبابَ الفرَحِ، ويَدفَعَ عنهم أسبابَ الحُزنِ(١).

- وأفادَ ضَميرُ الفصْلِ (هُو) قصْرًا لصِفةِ خلْقِ أسبابِ الضَّحِكِ والبُكاءِ على اللهِ تعالى؛ لإبطالِ الشَّريكِ في التَّصرُّفِ، فتَبطُلُ الشَّرِكةُ في الإلهيَّةِ، وهو قصْرُ إفرادٍ(٢)؛ لأنَّ المَقصودَ نفْيُ تَصرُّفِ غيرِ اللهِ تعالى، وإنْ كان هذا القصْرُ بالنَّظرِ إلى نفْسِ الأمرِ قصْرًا حقيقيًّا لإبطالِ اعتِقادِ أنَّ الدَّهرَ مُتصرِّفٌ، وإسنادُ الإضحاكِ والإبكاءِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالِقُ قُوَّتَي الضَّحِكِ والبُكاءِ في الإنسانِ، وذلك خلْقٌ عَجيبٌ، ولأنَّه خالقُ طِبائعِ المَوجوداتِ الَّتي تَجلِبُ أسبابَ الضَّحِكِ والبُكاءِ مِن سُرورٍ وحُزْنٍ(٣).

- ولم يُذكَرْ مَفعولُ ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ لأنَّ القصْدَ إلى الفِعلَينِ، لا إلى مَفعولَيْهما، فالفِعلانِ مُنزَّلانِ مَنزِلةَ اللَّازمِ، أي: أوجَدَ الضَّحِكَ والبُكاءَ(٤).

- وفي قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ تَضادٌّ، وفي الاعتبارِ بخلْقِ الشَّيءِ وضِدِّه إشارةٌ إلى دَقائقِ حِكمةِ اللهِ تعالى. وتَقديمُ الضَّحِكِ على البُكاءِ؛ لأنَّ فيه امتِنانًا بزِيادةِ التَّنبيهِ على القُدْرةِ، وحصَلَ بذلك مُراعاةُ الفاصِلةِ(٥).

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ انتُقِلَ مِن الاعتبارِ بانفرادِ اللهِ بالقُدرةِ على إيجادِ أسبابِ المَسرَّةِ والحُزنِ -وهما حالتانِ لا تَخلو عن إحداهما نفْسُ الإنسانِ- إلى العِبرةِ بانفرادِه تَعالى بالقُدْرةِ على الإحياءِ والإماتةِ، وهما حالتانِ لا يَخلو الإنسانُ عن إحْداهما؛ فإنَّ الإنسانَ أوَّلُ وُجودِه نُطفةٌ مَيتةٌ، ثمَّ عَلَقةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثمَّ مُضْغةٌ -قِطعةٌ ميِّتةٌ وإنْ كانت فيها مادَّةُ الحياةِ، إلَّا أنَّها لم تَبرُزْ مَظاهرُ الحياةِ فيها-، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ، فيَصيرُ إلى حياةٍ، وذلك بتَدْبيرِ اللهِ تَعالى وقُدرتِه. ولعلَّ المقصودَ هو العِبرةُ بالإماتةِ؛ لأنَّها أوضَحُ عِبْرةً، وللرَّدِّ عليهم قولَهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وأنَّ عطْفَ ﴿وَأَحْيَا﴾ تَتْميمٌ[١] واحتراسٌ[٢]؛ ولذلك قُدِّمَ ﴿أَمَاتَ﴾ على (أَحْيَا)، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

- وفِعلَا ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ مُنزَّلانِ مَنزلةَ اللَّازِمِ؛ إظهارًا لبَديعِ القُدْرةِ على هذا الصُّنْعِ الحَكيمِ، مع التَّعريضِ بالاستدلالِ على كَيفيَّةِ البَعثِ وإمكانِه، حيث أحالَه المُشرِكون، وشاهِدُه في خلْقِ أنفُسِهم[٤].

- وضَميرُ الفصلِ (هُو) للقصْرِ؛ ردًّا على أهلِ الجاهليَّةِ الَّذين يُسنِدون الإحياءَ والإماتةَ إلى الدَّهرِ، فقالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فليس المُرادُ الحياةَ الآخرةَ؛ لأنَّ المُتحدَّثَ عنهم لا يُؤمِنون بها، ولأنَّها مُستقبَلةٌ، والمُتحدَّثُ عنه ماضٍ[٥]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٥٠٣).

(٢) الاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩-٥١، ٢٤٠-٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ و﴿ وَأَعْطَىٰ ﴾﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ و﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ طِباقٌ[1] لا يَخفَى، وهو في السُّورة جَميعِها مُتعدِّدٌ؛ ولهذا يَدخُلُ في بابِ المُقابَلةِ، وقد زادَ هذا الطِّباقَ حُسْنًا أنَّه أتَى في مَعرِضِ التَّسجيعِ الفَصيحِ؛ لمَجيءِ المُناسَبةِ التَّامَّةِ في فَواصِلِ الآيِ[2].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ هذه الآيةُ وإنْ كانتْ مُستقِلَّةً بإفادةِ أنَّ اللهَ خالِقُ الأزواجِ مِن الإنسانِ خلْقًا بَديعًا مِن نُطفةٍ فيَصيرُ إلى خَصائصِ نَوعِه، وذلك ما لا يَجهَلُه المُخاطَبون؛ فما كان ذِكْرُه إلَّا تَمهيدًا وتَوطئةً لقولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧] على نحْوِ قولِه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وباعتبارِ استقلالِها بالدَّلالةِ على عَجيبِ تَكوينِ نسْلِ الإنسانِ عُطِفَت عليها جُملةُ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾

(١) الطِّباقُ: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّين مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٧/ ٥٩).

[النجم: ٤٧]، وإلَّا لَكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (إنَّ عليه النَّشأةَ الأُخرى) بدونِ عطْفٍ، وبكسْرِ هَمزةِ (إنَّ)[١].

- ولم يُؤتَ في هذه الجُملةِ بضَميرِ الفصْلِ (هو) كما في اللَّتَينِ قبْلَها؛ لعدَمِ الدَّاعي إلى القَصْرِ هنا؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ في أنَّ اللهَ خالِقُ الخلْقِ[٢].

- ولعلَّ وجْهَ ذِكرِ الزَّوجينِ والبدَلِ منه ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وأنَّه خلَقَه -أي: الإنسانَ- مِن نُطفةٍ)، كما قال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ...﴾ [الطارق: ٥، ٦] الآيةَ؛ أمْرانِ: أحدُهما: إدماجُ الامتِنانِ في أثناءِ ذِكرِ الانفِرادِ بالخلْقِ بنِعمةِ أنْ خلَقَ لكلِّ إنسانٍ زوجةً، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا ...﴾[الروم:٢١] الآيةَ. الثَّاني: الإشارةُ إلى أنَّ لكِلَا الزَّوجَينِ حظًّا من النُّطفةِ الَّتي منها يُخلَقُ الإنسانُ، فكانتْ للذَّكَرِ نُطفةٌ، وللمرأةِ نُطفةٌ، كما ورَدَ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّه إذا سبَقَ ماءُ الرَّجُلِ أشبَهَ المولودُ أباهُ، وإنْ سبَقَ ماءُ المرأةِ أشبَهَ المولودُ أُمَّه[٣]، وبهذا يَظهَرُ أنَّ لكلٍّ مِن الذَّكَرِ والأُنثى نُطفةً، وإنْ كان المُتعارَفُ عندَ الناسِ قبْلَ القُرآنِ أنَّ النُّطفةَ هي ماءُ الرَّجلِ، إلَّا أنَّ القرآنَ يُخاطِبُ النَّاسَ بما يَفهَمون، ويُشيرُ إلى ما لا يَعلَمون إلى أنْ يَفهَمَه المُتدبِّرون[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٧).

قال ابنُ عرفة: (السُّهَيلي: لم يُؤْتَ في هذه بضَميرِ الفَصلِ كما أتى به فيما قَبْلَها؛ لأنَّ بَعضَ الجُهَّالِ قد نَسَب تلك الأفعالَ لغَيرِ اللهِ تعالى، كقَولِ النُّمرودِ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، وأمَّا هذا فلم يَدَّعِه أحَدٌ. انتهى). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٩٣٨) من حديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رضيَ اللهُ عنه.

وما أخرجه مسلمٌ (٣١١) مِن حديثِ أمِّ سُلَيمٍ رضيَ اللهُ عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥، ١٤٦).

- ولفْظُ (مِن) في قولِه: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ فإنَّ خلقَ الإنسانِ آتٍ وناشئٌ بواسِطةِ النُّطفةِ، فإذا تكوَّنَتِ النُّطفةُ وأُمْنِيَت ابتدَأَ خلْقُ الإنسانِ(١).

- والتَّقييدُ بـ﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾؛ لِمَا في اسمِ الزَّمانِ مِن الإيذانِ بسُرعةِ الخلْقِ عندَ دَفْقِ النُّطفةِ في رَحِمِ المرأةِ؛ فإنَّه عندَ الْتِقاءِ النُّطفتَينِ يَبتدِئُ تخَلُّقُ النَّسلِ، فهذا إشارةٌ خَفيَّةٌ إلى أنَّ البُويضةَ -الَّتي هي نُطفةُ المرأةِ- حاصِلةٌ في الرَّحِم، فإذا أُمْنِيَتْ عليها نُطفةُ الذَّكَرِ أخَذَت في التَّخلُّقِ إذا لم يَعُقْها عائقٌ، ثمَّ لِما في فِعلِ ﴿تُمۡنَىٰ﴾ مِن الإشارةِ إلى أنَّ النُّطفةَ تُقطَّرُ وتُصَبُّ على شَيءٍ آخَرَ؛ لأنَّ الصَّبَّ يَقْتضي مَصبوبًا عليه، فيُشيرُ إلى أنَّ التَّخلُّقَ إنَّما يَحصُلُ مِن انصبابِ النُّطفةِ على أُخرى، فعندَ اختلاطِ الماءَينِ يَحصُلُ تَخلُّقُ النَّسلِ، فهذا سِرُّ التَّقييدِ بقولِه: ﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾(٢).

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ كان مُقْتضَى الظَّاهِرِ مِن التَّنظيرِ أنْ يُقدَّمَ قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] على قولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾؛ لِما في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ مِن الامتنانِ وإظهارِ الاقتِدارِ المُناسبَينِ لقولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا * وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ...﴾ [النجم: ٤٣- ٤٥] إلخ؛ إذ يُنتقَلُ مِن نِعمةِ الخلْقِ إلى نِعمةِ الرِّزقِ، كما في قولِه تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ [الروم: ٤٠]، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك على طَريقةٍ تُشبِهُ الاعتِراضَ؛ ليُقرَنَ بيْنَ البَيانَيْنِ ذِكْرُ قُدْرتِه على النَّشأتَينِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٧).

- وفي جُملةِ ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ تَحقيقٌ لفِعلِه إيَّاها؛ شبَّهَها بالحقِّ الواجبِ على المَحقوقِ به بحيثُ لا يَتخلَّفُ، فكأنَّه حقٌّ واجبٌ؛ لأنَّ اللهَ وعَدَ بحُصولِ ما اقتَضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ؛ لظُهورِ أنَّ اللهَ لا يُكرِهُه شَيءٌ[١].

- والنَّشأةُ: المرَّةُ مِن الإنشاءِ، أي: الإيجادِ والخلْقِ، والأُخرى: مُؤنَّثُ الأخيرِ، أي: النَّشأةُ الَّتي لا نَشأةَ بعْدَها، وهي مُقابِلُ النَّشأةِ الأُولى الَّتي يَتضمَّنُها قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وهذه المُقابَلةُ هي مُناسَبةُ ذِكْرِ هذه النَّشأةِ الأُخرى[٢].

- وتَقديمُ الخبَرِ ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ للاهتِمامِ بالتَّحقيقِ الَّذي أفادَتْه (على)؛ تَنبيهًا على زِيادةِ تَحقيقِه بعْدَ أنْ حُقِّقَ بما في (أنَّ) مِن التَّوكيدِ[٣].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾

- الإتيانُ بضَميرِ الفصْلِ (هو) لقصْرِ صِفةِ الإغناءِ والإقناءِ عليه تَعالى دونَ غيرِه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٤]؛ لمُقابَلةِ ذُهولِ النَّاسِ عن شُكرِ نِعمةِ اللهِ تَعالى بإسنادِهم الإرزاقَ لوسائلِه العاديَّةِ، معَ عدَمِ التَّنبُّهِ إلى أنَّ اللهَ أوجَدَ مَوادَّ الأرزاقِ وأسبابَها، وصرَفَ موانِعَها[٥].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ في هذه الآيةِ مِن البَلاغةِ والبَديعِ مُحسِّنُ التَّنكيتِ؛ وهو أنْ يَقصِدَ المُتكلِّمُ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دونَ غيرِه ممَّا يسُدُّ مَسدَّه من أجْلِ نُكتةٍ في المَذكورِ تُرجِّحُ مَجيئَه؛ فقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٩).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٠).

ﵟٱلشِّعۡرَىٰﵞ، خَصَّ الشِّعرى بالذِّكرِ دونَ غيرِها مِن النُّجوم؛ لأنَّ العرَبَ كان ظَهَرَ فيهم رجلٌ يُعرَفُ بأبي كَبْشةَ عبَدَ الشِّعرى ودَعا خلْقًا إلى عِبادتِها، فأنزَلَ اللهُ سُبحانَه: ﵟوَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰﵞ الَّتي ادُّعِيَت فيها الرُّبوبيَّةُ دونَ سائرِ النُّجوم[١]. أو لَعلَّ تَخصيصَها؛ للإشعارِ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وإنْ وافَقَ أبا كَبْشةَ في مخالِفةِ قُرَيشٍ بتركِ عبادةِ الأوثانِ، خالَفَه أيضًا بتركِ عبادةِ الشِّعرَى[٢].

وقيل: إنَّ تَخصيصَ الشِّعرى بالذِّكرِ في هاتِه السُّورةِ؛ لأنَّه تَقدَّمَ ذِكرُ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، وهي مَعبوداتٌ وَهْميَّةٌ لا مُسمَّياتٍ لها، كما قال تعالى: ﵟإِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآﵞ [النجم: ٢٣]، وأعْقَبَها بإبطالِ إلهيَّةِ الملائكةِ، وهي مِن المَوجوداتِ المُجرَّداتِ الخَفِيَّةِ -أعقَبَ ذلك بإبطالِ عِبادةِ الكواكِبِ، وخُزاعةُ أجوارٌ لأهْلِ مكَّةَ، فلمَّا عَبَدوا الشِّعرَى ظَهَرتْ عِبادةُ الكَواكبِ في الحِجازِ، وإثباتُ أنَّها مَخلوقةٌ للهِ تعالى دليلٌ على إبطالِ إلهيَّتِها؛ لأنَّ المخلوقَ لا يكونُ إلهًا، مع ما في لَفظِ ﵟٱلشِّعۡرَىٰﵞ مِن مُناسَبةِ فَواصلِ هذه السُّورةِ[٣].

- والإتيانُ بضَميرِ الفصْلِ (هو) يُفيدُ قصْرَ مَربوبيَّةِ الشِّعرَى على اللهِ تعالى، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه ربَّ ما يَعتقِدون أنَّه مِن تَصرُّفاتِ الشِّعرى، أي: هو ربُّ تلك الآثارِ ومُقدِّرُها، وليستِ الشِّعرى ربَّةَ تلك الآثارِ المُسنَدةِ إليها في مَزاعِمِهم، وليس لقصْرِ كَونِ ربِّ الشِّعرى على اللهِ تعالى دونَ غيرِه؛ لأنَّهم لم يَعتقِدوا أنَّ للشِّعرى ربًّا غيرَ اللهِ، ضَرورةَ أنَّ منهم مَن يَزعُمُ أنَّ الشِّعرى

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١، ١٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٢).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

ربَّةٌ مَعبودةٌ، ومنهم مَن يَعتقِدُ أنَّها تَتصرَّفُ بقطْعِ النَّظَرِ عن صِفتِها[١].

١٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾

- إنَّما قُدِّمَ في الآيةِ ذِكرُ عادٍ وثَمودَ على ذِكرِ قَومِ نُوحٍ، مع أنَّ هؤلاء أسبَقُ؛ لأنَّ عادًا وثمودَ أشهَرُ في العرَبِ وأكثَرُ ذِكرًا بيْنَهم، ودِيارُهم في بلادِ العرَبِ[٢].

- وجاء بيْنَ أنَّ وخبَرِها لَفظُ (هو) في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ ففي الثَّلاثةِ الأُوَلِ لَمَّا كان قد يَدَّعي ذلك بعضُ النَّاسِ، كقولِ نُمْروذَ: أنا أُحْيي وأُميتُ، احتِيجَ إلى تأْكيدٍ في أنَّ ذلك إنَّما هو للهِ لا غَيرِه، فهو الَّذي يُضحِكُ ويُبْكي، وهو المميتُ المُحْيي، والمُغْني والمُقْني حقيقةً، وإنِ ادَّعى ذلك أحدٌ فلا حَقيقةَ له، وأمَّا ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ فلأنَّها لَمَّا عُبِدَتْ مِن دونِ اللهِ تعالى، نصَّ على أنَّه تعالى هو ربُّها ومُوجِدُها، ولَمَّا كان خلْقُ الزَّوجينِ، والإنشاءُ الآخَرُ، وإهلاكُ عادٍ ومَن ذُكِرَ لا يُمكِنُ أنْ يَدَّعيَ ذلك أحدٌ؛ لم يُحتَجْ إلى تأْكيدٍ ولا تَنصيصٍ أنَّه تعالى هو فاعِلُ ذلك[٣]. وأيضًا لِكَونِ هلاكِ هؤلاء مَعلومًا، لم تُقرَنِ الجُملةُ بضَميرِ الفَصْلِ هنا[٤].

١٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿أَهۡلَكَ عَادًا﴾ إلى آخِرِها، وضَميرُ الجمْعِ في ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يَعودَ إلى قَومِ نُوحٍ، أي: كانوا أظلَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣).

وأطْغَى مِن عادٍ وثَمودَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ عائدًا إلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ نُوحٍ، والمعْنى: أنَّهم أظلَمُ وأطْغى مِن قَومِك الَّذين كذَّبوك، فتَكونُ تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الرُّسلَ مِن قبْلِه لَقُوا من أُمَمِهم أشدَّ ممَّا لقِيَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ مُبْقٍ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلا يُهلِكُها؛ لأنَّه قدَّرَ دُخولَ بقيَّتِها في الإسلامِ ثمَّ أبنائِها[1].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُمْ) في قولِه: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ﴾ لتَقويةِ الخبَرِ[2].

١٦- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾

- (المُؤتفِكةُ) صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه اشتِقاقُ الوصْفِ، والتَّقديرُ: القُرَى المُؤتفِكةَ، وهي قُرى قومِ لُوطٍ الأربعُ، ووُصِفَتْ في سُورةِ (بَراءةَ) بـ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٠]؛ لأنَّ وصْفَ جمْعِ المُؤنَّثِ يَجوزُ أنْ يُجمَعَ، وأنْ يكونَ بصِيغةِ المُفرَدِ المُؤنَّثِ، وقد صار هذا الوصْفُ غالبًا عليها بالغَلَبةِ. وذُكِّرت القُرى باعتبارِ ما فيها مِن السُّكَّانِ؛ تَفنُّنًا، ومُراعاةً للفواصلِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ المؤتفكةُ هنا وصْفًا للأُمَّةِ، أي: لأُمَّةِ لُوطٍ؛ ليكونَ نَظيرًا لذِكْرِ عادٍ وثَمودَ وقومِ نُوحٍ[3].

- وتَقديمُ المفعولِ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾؛ للاهتِمامِ بعِبْرةِ انقلابِها[4].

١٧- قولُه تعالَى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾

- أفاد العَطْفُ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أنَّ ذلك كان بعَقِبِ إهْوائِها[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿مَا﴾ هنا مَوصولةٌ، وجِيءَ بصِلَتِها مِن مادَّةِ وصِيغةِ الفِعلِ الَّذي أُسنِدَ إليها ﴿غَشَّىٰ﴾، وذلك لا يُفيدُ خَبرًا جديدًا زائدًا على مُفادِ الفِعلِ، والمَقصودُ منه التَّهويلُ؛ كأنَّ المُتكلِّمَ أراد أنْ يُبيِّنَ بالمَوصولِ والصِّلةِ وصْفَ فاعِلِ الفِعلِ، فلمْ يَجِدْ لبَيانِه أكثَرَ مِن إعادةِ الفِعلِ؛ إذ لا يُستطاعُ وصْفُه[١].

١٨- قولُه تعالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تَفريعُ فَذْلَكة[٢] لِما ذُكِرَ مِن أوَّلِ السُّورةِ ممَّا يَختَصُّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ذلك -على قولٍ في تفسيرِ هذه الآيةِ-، كقولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢- ١٨]، وممَّا يَشملُه ويَشمَلُ غيرَه، مِن قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٣- ٤٩]؛ فإنَّ ذلك خَليطٌ مِن نِعَمٍ وضِدِّها على نَوعِ الإنسانِ، وفي مَجموعِها نِعمةُ تَعليمِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتِه بمَنافعِ الاعتِبارِ بصُنْعِ اللهِ. ثمَّ مِن قَولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا﴾ [النجم: ٥٠] إلى هنا، فتلك نِقَمٌ مِن الضَّالِّين والظَّالِمين لنَصْرِ رُسلِ اللهِ، وذلك نِعمةٌ على جَميعِ الرُّسلِ، ونِعمةٌ خاصَّةٌ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي بِشارتُه بأنَّ اللهَ سيَنصُرُه؛ فجَميعُ ما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ على أقوامٍ والنِّقَمِ على آخَرينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥).

(٢) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحَوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيله، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

هو نِعَمٌ مَحضَةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ[١].

- والاستِفهامُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ في معْنى الإنكارِ[٢]. و(أيّ) اسمُ استفهامٍ يُطلَبُ به تَمييزُ مُتشارِكٍ في أمْرٍ يعُمُّ بما يُميِّزُ البعضَ عن البقيَّةِ مِن حالٍ يَختَصُّ به، مُستعمَلٌ هنا في التَّسويةِ؛ كِنايةً عن تَساوي ما عُدِّد مِن الأُمورِ في أنَّها نِعَمٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وذلك على قولٍ-؛ إذ ليس لواحدٍ مِن هذه المَعدوداتِ نقْصٌ عن نَظائرِه في النِّعمةِ، والمَقصودُ مِن هذا الاستفهامِ تَذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذه النِّعَمِ؛ فالمعْنى: أنَّك لا تَحصُلُ لك مِرْيةٌ في واحدةٍ مِن آلاءِ ربِّك؛ فإنَّها سواءٌ في الإنعامِ[٣].

- والتَّماري: التَّشكُّكُ، وهو تَفاعُلٌ مِن المِرْيةِ؛ فإنْ كان الخِطابُ بقَولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ مُطاوِعَ مَاراهُ، والمعْنى: فبأيِّ آلاءِ ربِّك يُشكِّكونَك، أي: لا يَستَطيعونَ أنْ يُشكِّكوكَ في حُصولِ آلاءِ ربِّك الَّتي هي نِعَمُ النُّبوَّةِ، والَّتي منها رُؤيتُه جبريلَ عِندَ سِدْرةِ المُنْتهى، والكلامُ مَسوقٌ لتأْييسِ المُشرِكين مِن الطَّمَعِ في الكفِّ عنهم. وإنْ كان الخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تفاعلًا مُستعمَلًا في المُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، ولا يُعرَفُ فِعلٌ مُجرَّدٌ للمِراءِ، وإنَّما يُقال: امترَى، إذا شكَّ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٧).

الآيات (٥٦-٦٢)

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾: أي: قرُبَت ودَنَت القيامةُ، وسُمِّيت بذلك؛ لِقُربِها، وأصلُ (أزف): يدُلُّ على الدُّنُوِّ والمُقارَبةِ[1].

﴿سَٰمِدُونَ﴾: أي: لاهُونَ غافِلونَ مُعرِضونَ، وأصلُ (سمد): يدُلُّ على مُضِيٍّ قُدُمًا مِن غَيرِ تَعريجٍ؛ لأنَّ اللَّاهيَ يَمضي في أَمرِه غَيرَ مُعَرِّجٍ ولا مُتمَكِّثٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقرِّرُ اللهُ تعالى رسالةَ نبيِّه ويحذِّرُ مِن اقتِرابِ السَّاعةِ، فيقولُ: هذا رَسولُ اللهِ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- نَذيرٌ للنَّاسِ مِن جِنْسِ مَن سَبَق مِن الرُّسُلِ.

قَرُبَت ودَنَت القيامةُ، ليس لها مِن دونِ اللهِ تعالى كاشِفٌ لوَقتِها، أو قادِرٌ على دَفعِ شَدائِدِها وأهوالِها.

ثمَّ يقولُ تعالى مُتوعِّدًا المنكِرينَ لرسالةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، المعرِضينَ عن القرآنِ: أفمِنْ هذا القُرآنِ تَعجَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ-؟! وتَضحَكونَ مِنَ القُرآنِ استِهزاءً، ولا تَبكُونَ، وأنتم غافِلونَ لاهُون.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤، ٤٢٥).

ثُمَّ يختمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ آمرًا لعبادِه بالسُّجودِ له والعبادةِ، فيقولُ: فاسجُدوا للهِ وَحْدَه، واعبُدوه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ الكلامُ على هذا المِنهاجِ البَديعِ، والنَّمَطِ الرَّفيعِ، في حُسنِ البَيانِ للمَواعِظِ والشَّرعِ، والقَصَصِ القَديمةِ، والإنذارِ العَظيمِ التَّامِّ على وَجهٍ مُعجِزٍ مِن وُجوهٍ شَتَّى- أنتجَ قَولَه مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا خاتِمًا السُّورةَ بما بدأ هنا به مِن ذِكْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١):

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ٥٦﴾.

أي: هذا الرَّسولُ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- نَذيرٌ للنَّاسِ مِن جِنْسِ مَن سَبَق مِن الرُّسُلِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

قال الماوَرْدي: (فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّ مُحمَّدًا نذيرٌ بالحَقِّ، الذي أنذَرَ به الأنبياءُ قَبْلَه. قاله ابنُ جُرَيجٍ. الثَّاني: أنَّ القُرآنَ نَذيرٌ بما أنذَرت به الكُتُبُ الأُولى. قاله قَتادةُ. ويحتَمِلُ قولًا ثالثًا: أنَّ هلاكَ مَن تقَدَّم ذِكرُه مِن الأُمَمِ الأُولى نذيرٌ لكم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهو من جنسِ الرُّسُلِ قَبْلَه: الواحديُّ، ومال إليه ابنُ عطيَّةَ، وذهب إليه ابنُ كثير، والبقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير =

كما قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إهلاكَ مَن تقدَّمَ ذِكرُه، وذَكَر قَولَه: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ﴾؛ ذكَرَ أنَّ الَّذي أنذَرَ به قَريبُ الوُقوعِ، فقال[١]:

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧﴾.

أي: قَرُبَت ودَنَت القيامةُ القَريبةُ مِنكم، أيُّها النَّاسُ[٢]!

= السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الأشبَهُ أن تكونَ الإشارةُ إلى محمَّدٍ). ((تفسير ابن عطية (٥/ ٢٠٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ قيل: محمَّدٌ. وقيل: القُرآنُ. وهما مُتلازِمانِ، يقولُ: هذا نذيرٌ أنذَرَ بما أنذَرَت به الرُّسُلُ والكُتُبُ الأُولى. وقَولُه: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: مِن جِنسِها). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٢٠٩).

وقيل: المعنى: هذا المذكورُ في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى نذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى الَّتي جاءت الأُمَمَ قَبْلَكم كما جاءَتكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٧، ١٥٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أبو مالكٍ الغِفاريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ضاق الخِناقُ مِن ذِكرِها على هذا الوَجهِ، تشَوَّفَ السَّامِعُ إلى دَفعِها؛ فاستأنَفَ قَولَه(١):

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾.

أي: لا يَدفَعُها مِن دونِ اللهِ أحَدٌ، ولا يَطَّلِعُ على عِلْمِها سِواه(٢).

قال ابنُ عطية: (الآزِفةُ: عِبارةٌ عن القيامةِ بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: هذا نذيرٌ بآزفةٍ قَرُبَت). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨).

قال الواحدي: (ومعنى الكشفِ في اللُّغةِ: رَفْعُ الشَّيءِ عمَّا يُواريه، والمعنى على هذا القولِ: أنَّ القيامةَ إذا غَشِيَتِ الخَلْقَ بشَدائدِها وأهوالِها لم يَكشِفْها أحدٌ مِن آلهتِهم، أي: أنَّها لا تُنجيهم منها... والكاشفةُ على هذا القولِ نعتُ مؤنَّثٍ محذوفٍ، على تقديرِ: نفْسٌ كاشِفةٌ، أو جماعةٌ كاشِفةٌ، وهذا معنَى قولِ قَتادةَ: ليس لها مِن دونِ اللهِ رادٌّ.

ويجوزُ أن تكونَ الكاشِفةُ مَصدرًا، كالخائنةِ والعاقبةِ والعافيةِ، فإذا قدَّرْتَها مصدرًا كان المعنى: ليس لها مِن دونِ الله كشْفٌ، أي: لا يَكشِفُ عنها غيرُه، بمعنَى: لا يُبديها ولا يُظهِرُها ولا يُزيلُ =

= عنها ما يَستُرُها، وهو معنَى قولِ مُقاتِلٍ: لا يَكشِفُها أحدٌ إلَّا الله، قال: يعني: السَّاعةَ اللهُ الَّذي يَكشِفُها... وهذا القولُ اختيارُ الزَّجَّاجِ والفَرَّاءِ، وهو قولُ الكلبيِّ، قال: ليس لها مَن يَكشِفُ عن عِلمِها إلَّا اللهُ، وإذا كشَف عن عِلمِها فقد كشَف عنها). ((البسيط)) (٢١/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، أي: أنَّ المرادَ: لا يَكشِفُها إذا غَشِيتْ، ولا يَقدِرُ على دفْعِ شَدائدِها وأهوالِها إلَّا اللهُ: الماوَرْديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عَطاءٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٤).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ المرادَ: ليس للقيامةِ مُظهِرٌ لعِلمِ وَقتِها ومتى تكونُ غَيرُ اللهِ تعالى، ولا يَكشِفُ عنها ولا يُظهِرُها إلَّا اللهُ-: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والبغوي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنَيَينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨).

وقال ابن جرير: (ليس تَنكَشِفُ فتَقومَ إلَّا بإقامةِ اللهِ إيَّاها وكَشْفِها، دونَ مَن سِواه مِن خَلْقِه؛ لأنَّه لم يُطلِعْ عليها مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نَبيًّا مُرسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٥، ٩٦).

وقال القرطبي: (﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها مِن دُونِ اللهِ مَن يُؤَخِّرُها أو يُقَدِّمُها). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢).

قال ابن جُزَي: (﴿كَاشِفَةٌ﴾ يحتمِلُ لفظُه ثلاثةَ أوجُهٍ: أن يكونَ مَصدرًا كالعافيةِ، أي: ليس لها كشْفٌ. وأن يكونَ بمعنَى كاشِفٍ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، كعلَّامةٍ. وأن يكونَ صِفةً لِمَحذوفٍ تقديرُه: نفْسٌ كاشِفةٌ، أو جماعةٌ كاشِفةٌ. ويحتملُ معناه وجْهَينِ:

أحدُهما: أن يكونَ مِن الكَشفِ بمعنَى: الإزالةِ، أي: ليس لها مَن يُزيلُها إذا وقعَتْ.

والآخَرُ: أن يكونَ بمعنى الاطِّلاعِ، أي: ليس لها مَن يَعلَمُ وقتَها إلَّا اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢١).

كما قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفهَمَ هذا أنَّ اللهَ تعالى يَكشِفُ كُرَبَها عمَّن يُريدُ مِن عِبادِه، ويُثَقِّلُه على مَن يَشاءُ، ويَكشِفُ عِلْمَها بإقامتِها، ولا حِيلةَ لِغَيرِه في شَيءٍ مِن ذلك بوَجهٍ- سَبَّبَ عنه وعمَّا تقَدَّمَه مِنَ الإنذارِ قَولَه مُنكِرًا مُوَبِّخًا[1]:

﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: أفمِن هذا القُرآنِ تَعجَبونَ، أيُّها المُشرِكونَ[2]؟!

قال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢].

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: وتَضحَكونَ مِنَ القُرآنِ استِهزاءً، ولا تَبكُونَ انزِجارًا وخَوفًا[3]؟!

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن =

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: وأنتم غافِلونَ لاهُون(١).

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

قال السَّمينُ الحلبي: (قوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾: هذه الجُملةُ تحتَمِلُ أن تكونَ مُستأنَفةً؛ أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم بذلك، وتحتَمِلُ أن تكونَ حالًا، أي: انتفى عنكم التَّباكي حالَ كَونِكم ﴿سَٰمِدُونَ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ١١٦).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ فيه خمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: لاهُون، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ. قال أبو عُبَيْدةَ: يقالُ: دَعْ عنك سُمودَك، أي: لَهْوَك.

والثَّاني: مُعْرِضون، قاله مجاهِدٌ.

والثَّالثُ: أنَّه الغِناءُ، وهي لغةٌ يمانيةٌ، يقولون: اسْمُدْ لنا، أي: تَغَنَّ لنا، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقال عِكْرِمةُ: هو الغِناءُ بالحِمْيَريَّةِ.

والرَّابعُ: غافِلونَ، قاله قَتادةُ.

والخامسُ: أَشِرون بَطِرون، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١٠٣)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: لاهون غافِلون: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

وقال ابن عثيمين: (الصَّوابُ أنَّ المرادَ: غافِلون عنه بالغناءِ وغيرِه ممَّا تتَلهَّون به؛ حتَّى لا تَسمَعوا =

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ (٦٢)﴾.

أي: فاسجُدوا للهِ وَحْدَه خاضِعينَ له، واعبُدوه وَحْدَه مُخلِصينَ له[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾

= كلامَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

وقال الزمخشري: (﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ شامِخون مُبَرْطِمُون [البَرْطَمة: الانتِفاخُ مِن الغضَبِ]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٠). ويُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١١٥).

وقال ابن عاشور: (﴿سَامِدُونَ﴾: مِن السُّمودِ، وهو ما في المرءِ من الإعجابِ بالنَّفْسِ، يقالُ: سَمَدَ البَعيرُ، إذا رفَع رأسَه في سَيرِه، مُثِّل به حالُ المُتكبِّرِ المُعرِضِ عن النُّصحِ، المُعجَبِ بما هو فيه بحالِ البَعيرِ في نشاطِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

وقال البِقاعي: (﴿سَامِدُونَ﴾ أي: دائِبون في العملِ، جاهِدون في العمل؛ فإنَّ الأمرَ جِدٌّ، فالدَّأبُ في العملِ والجِدُّ فيه حينَئِذٍ علَّةٌ للبُكاء، فكأنَّه قيل: ولا تَدأبون في العملِ فتَبكون؛ وإنَّما قلتُ ذلك لأنَّ «سَمَد» معناه: دأَبَ في العملِ، ورفَع رأسَه تكبُّرًا وعلا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

قال السَّمْعاني: (وقَولُه: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ حمَل بعضُهم هذا على الصَّلَواتِ الخَمْسِ. وقيل: إنَّ الآيةَ نزلتْ بمَكَّةَ قبْلَ فرضِ الصَّلَواتِ الخَمسِ، والسُّورةُ مكِّيَّةٌ، فعلى هذا معناه: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي: اخضَعوا لله ووَحِّدوا. ويُقالُ: المُرادُ منه أصلُ السُّجودِ، والمرادُ مِن العبادةِ هي الطَّاعةُ. وهو مَوضِعُ سُجودٍ عِندَ أكثَرِ الفُقَهاءِ إلَّا مالك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٥).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ قيل: المرادُ به: سُجودُ تِلاوةِ القرآنِ. وهو قولُ ابنِ مسعودٍ. وبه قال أبو حنيفةَ والشَّافعيُّ... وقيل: المرادُ: سُجودُ الفرضِ في الصَّلاةِ، وهو قولُ ابنِ عُمرَ، كان لا يَراها من عَزائمِ السُّجودِ. وبه قال مالكٌ... والأوَّلُ أصَحُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٤).

ذَمُّ المعرِضِينَ عن سَماعِ القُرآنِ، المتعوِّضِينَ عنه بسَماعِ الغِناءِ، كما هو حالُ السَّمَّاعاتِيَّةِ المُؤْثِرينَ لسَماعِ المُكاءِ والتَّصْديةِ على سَماعِ القُرآنِ، المتعوِّضِينَ عنه بسَماعِ الغِناءِ، وهو نَظيرُ الَّذين أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ(١)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ...﴾ استِحبابُ البُكاءِ عندَ قِراءةِ القُرآنِ وسَماعِه، وذَمُّ الضَّحِكِ والغِناءِ، واللَّهوِ واللَّعِبِ والغَفلةِ(٢)!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ لم يَقُلْ: «بشيرٌ»؛ لأنَّ المقامَ لا يَقتَضي إلَّا ذِكْرَ الإنذارِ؛ إذْ إنَّ اللهَ تعالى تَحَدَّثَ مِن أوَّلِ السُّورة إلى آخِرِها عن قُرَيشٍ، وتَكذيبِها للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعبادتِها للأصنامِ، فيقولُ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾، أي: مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ، وكما أنَّ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ حَلَّ بهمُ العِقابُ والنَّكالُ، فأنتم -أيُّها المكَذِّبونَ- لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوشِكُ أنْ يَحُلَّ بكم النَّكالُ والعُقوبةُ؛ لأنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مِثلُ غَيرِه نَذيرٌ مِن النُّذُرِ، فإذا كان نَذيرًا مِن النُّذُرِ فإنَّ مَن كَذَّبَه سوف يَقَعُ به مِثلُ ما وَقَعَ بالأُمَمِ السَّابقةِ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ التَّنبيهُ على قُربِ المُنذَرِ به، وهو مِن كَمالِ الإنذارِ؛ للبِدارِ بتجَنُّبِ الوُقوعِ فيما يُنذَرُ به(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ الأمرُ بالسُّجودِ لله تعالى خُصوصًا؛

---

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

لِيَدُلَّ ذلك على فَضلِه، وأنَّه سِرُّ العِبادةِ ولُبُّها؛ فإنَّ لُبَّها الخُشوعُ للهِ والخُضوعُ له؛ والسُّجودُ هو أعظَمُ حالةٍ يَخضَعُ بها العَبدُ؛ فإنَّه يُخضِعُ قَلبَه وبَدَنَه، ويَجعَلُ أشرَفَ أعضائِه على الأرضِ المَهينةِ مَوضِعَ وَطءِ الأقدامِ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ﴾ أنَّ السُّجودَ يُطلَقُ على الصَّلاةِ كلِّها[٢]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، أو فَذْلَكةٌ[٣] لِما تَقدَّمَ على اختِلافِ الاعتِبارَينِ في مَرجِعِ اسمِ الإشارةِ؛ فإنْ جُعِلَ اسمُ الإشارةِ راجعًا إلى القُرآنِ؛ فإنَّه لحُضورِه في الأذهانِ يُنزَّلُ مَنزِلةَ شَيءٍ مَحسوسٍ حاضرٍ بحيث يُشارُ إليه، فالكلامُ انتِقالٌ اقتضابيٌّ تَنهيةً لِما قبْلَه، وابتِداءً لِما بعْدَ اسمِ الإشارةِ، على أُسلوبِ قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. والكلامُ مُوجَّهٌ إلى المُخاطَبينَ بمُعظَمِ ما في هذه السُّورةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ على وصْفِ الكَلامِ بأنَّه نذيرٌ، دونَ أنْ يقولَ: نَذيرٌ وبَشيرٌ. وإنْ جُعِلَ اسمُ الإشارةِ عائدًا إلى ما تَقدَّمَ مِن أوَّلِ السُّورةِ بتأويلِه بالمذْكورِ، أو إلى ما لمْ يُنبَّأْ به الَّذي تَولَّى وأعْطى قليلًا، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦] إلى هنا؛ فتَكونُ الإشارةُ إلى الكَلامِ المُتقدِّمِ تَنزيلًا لحُضورِه في السَّمعِ مَنزِلةَ حُضورِه في المُشاهَدةِ بحيث يُشارُ إليه[٤].

وعلى أنَّ الإشارةَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيكونُ افتتَحَ أوَّلَ السُّورة

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٤).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٧).

بِه، واختَتَمَ آخِرَها به[١].

- وتَنوينُ ﴿نَذِيرٌ﴾ للتَّفخيمِ[٢].

- و(مِنْ) مُتعلِّقةٌ بمَحْذوفٍ هو نَعتٌ لـ﴿نَذِيرٌ﴾، مُقرِّرٌ له، ومُتضمِّنٌ للوعيدِ، أي: هذا القرآنُ الَّذي تُشاهِدونَه نذيرٌ مِن قَبيلِ الإنذاراتِ المُتقدِّمةِ الَّتي سمِعْتُم عاقبتَها، أو هذا الرَّسولُ مُنذِرٌ مِن جِنسِ المُنذِرينَ الأوَّلينَ، و﴿ٱلْأُولَىٰٓ﴾ على تأويلِ الجَماعةِ؛ لمُراعاةِ الفواصلِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ تتنزَّلُ هذه الجُملةُ مِن الَّتي قبْلَها مَنزِلةَ البَيانِ للإنذارِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ [النجم: ٥٦]؛ فالمعْنى: هذا نَذيرٌ بآزِفةٍ قرُبَتْ[٤].

- وقولُه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي: دنَتِ القيامةُ، عُبِّرَ عنها بلفْظِ الماضي؛ لقُرْبِها، وضِيقِ وقْتِها[٥].

- وجِيءَ لفِعلِ ﴿أَزِفَتِ﴾ بفاعِلٍ مِن مادَّةِ الفِعلِ؛ للتَّهويلِ على السَّامعِ؛ لتَذهَبَ النَّفْسُ كلَّ مذهبٍ مُمكنٍ في تَعيينِ هذه الحادثةِ الَّتي أزِفَتْ، ومَعلومٌ أنَّها مِن الأُمورِ المَكروهةِ؛ لوُرودِ ذِكْرِها عقِبَ ذِكرِ الإنذارِ[٦].

- والتَّأنيثُ في ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ بتَأويلِ الوَقْعةِ، أو الحادثةِ، كما يُقالُ: نزَلَتْ به نازِلةٌ، أو وقعَتِ الواقعةُ، وغشِيَتْه غاشيةٌ، والعرَبُ يَستعمِلون التَّأنيثَ دَلالةً على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

المُبالَغةِ في النَّوعِ[1].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وفيه زِيادةُ تَهويلٍ بتَمْييزِ هذا الجِنسِ مِن بيْنِ الأجناسِ؛ لأنَّ في استِحضارِه زِيادةَ تَهويلٍ؛ لأنَّه حَقيقٌ بالتَّدبُّرِ في المَخلَصِ منه[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ مُستأنَفٌ بَيانيٌّ، أو صِفةٌ للآزِفةِ، و﴿كَاشِفَةٌ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا بوزْنِ فاعِلةٍ، كالعافيةِ، وخائنةِ الأعيُنِ، والمعْنى: ليس لها كشْفٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَاشِفَةٌ﴾ اسمَ فاعلٍ، قُرِنَ بهاءِ التَّأنيثِ للمُبالَغةِ، مِثلُ راويةٍ، وباقِعةٍ، ودَاهيةٍ، أي: ليس لها كاشفٌ قويُّ الكشْفِ، فضْلًا عمَّن دونَه[3].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صِلةٌ؛ للتَّوكيدِ[4].

- والكشْفُ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعْنى التَّعريةِ مُرادٌ به الإزالةُ، وذلك ضِدُّ ما يُقالُ: غَشِيَه الضُّرُّ؛ فالمعْنى: لا يَستطيعُ أحدٌ إزالةَ وَعيدِها غيرُ اللهِ، وقد أخبَرَ بأنَّها واقِعةٌ بقولِه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ وُقوعِها[5].

- وفي قولِه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّمثيلِ؛ فقد أُخرِجَ الكلامُ مُخرَجَ المثَلِ السَّائرِ يُتمثَّلُ به في الوقائعِ[6].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ تَفريعٌ على ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨، ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٠).

[النجم: ٥٦] وما عُطِف عليه وبُيِّن به مِن بَيانٍ أو صِفةٍ، فُرِّعَ عليه استِفهامُ إنكارٍ وتَوبيخٍ[١].

- ومعْنى العجَبِ هنا الاستِبعادُ والإحالةُ، أو كِنايةٌ عن الإنكارِ[٢].

- وتَقديمُ المجْرورِ ﴿أَفَمِنْ﴾؛ للقصْرِ، أي: هذا الحديثُ ليس أهلًا لِأنْ تُقابِلوه بالضَّحِكِ والاستِهزاءِ والتَّكذيبِ، ولا لِئلَّا يَتوبَ سامِعُه، أي: لو قابلْتُم بفِعلِكم كلامًا غيرَه، لَكان لكم شُبْهةٌ في فِعلِكم، فأمَّا مُقابلتُكم هذا الحديثَ بما فَعَلْتُم فلا عُذْرَ لكمْ فيها[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ الجُملةُ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، وهي قَيدٌ للنَّفْيِ، والإنكارُ مُتوجِّهٌ إلى نفْيِ البُكاءِ ووُجودِ السُّمودِ. وقيل: هي حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خَلا أنَّ مَضمونَها -على أنَّها بمعْنى: خاشِعونَ جامِدونَ، من السُّمودِ بمَعْنى الجُمودِ والخُشوعِ- قَيْدٌ للمَنْفيِّ، والإنكارُ واردٌ على نَفْيِ البُكاءِ والسُّمودِ معًا[٤].

- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ ذُكِرَ (سامِد) باسمِ الفاعِلِ -دونَ الضَّحِكِ والعَجَبِ-؛ لأنَّ الغَفلةَ دائِمةٌ، وأمَّا الضَّحِكُ والعَجَبُ فهُما أمْرانِ يَتجَدَّدانِ ويَعدَمانِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ تَفريعٌ على الإنكارِ والتَّوبيخِ المُفرَّعَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).

على الإنذارِ بالوعيدِ، فُرِّعَ عليه أمْرُهم بالسُّجودِ للهِ؛ لأنَّ ذلك التَّوبيخَ مِن شأْنِه أنْ يَعْمُقَ في قُلوبِهم، فيَكُفَّهم عمَّا همْ فيه مِن البطَرِ والاستِخفافِ بالدَّاعي إلى اللهِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾ لتَرتيبِ الأمْرِ أو مُوجِبِه على ما تَقرَّرَ مِن بُطلانِ مُقابَلةِ القُرآنِ بالإنكارِ والاستِهزاءِ، ووُجوبِ تَلقِّيه بالإيمانِ مع كَمالِ الخضوعِ والخُشوعِ، أي: وإذا كانَ الأمرُ كذلِكَ فاسْجُدوا للهِ الَّذي أنزَلَه واعْبُدوا(٢).

- والسُّجودُ يَجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ به سُجودَ الصَّلاةِ، ويكونَ الأمرُ به كِنايةً عن الأمْرِ بأنْ يُسلِموا؛ فإنَّ الصَّلاةَ شِعارُ الإسلامِ(٣).

وقيل: يَحتمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ عامًّا، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الْتِفاتًا؛ فيكونَ كأنَّه قال: أيُّها المؤمنونَ اسجُدوا شُكرًا على الهدايةِ، واشتغِلوا بالعِبادةِ(٤).

- وعُطِفَ على الأمْرِ بالسُّجودِ أمْرُهم بعِبادةِ اللهِ؛ لأنَّهم إذا خَضَعوا له حَقَّ الخُضوعِ، عَبَدوه وتَرَكوا عِبادةَ الأصنامِ، وقد كان المشرِكون يَعبُدون الأصنامَ بالطَّوافِ حوْلَها ومُعرِضين عن عِبادةِ اللهِ؛ فقَدْ عَمَدوا إلى الكعْبةِ فوَضَعوا فيها الأصنامَ؛ لِيَكونَ طَوافُهم بالكعْبةِ طَوافًا بما فيها مِن الأصنامِ(٥).

- ولم يقُلْ: (اعبُدوا اللهَ)؛ إمَّا لِكَونِه معلومًا، وإمَّا لأنَّ العِبادةَ في الحَقيقةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).
ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير هذه الآية (ص: ٥٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).

لا تَكونُ إلَّا للهِ، فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾، أي: ائتُوا بالمأمورِ، ولا تَعبُدوا غيرَ اللهِ؛ لأنَّها ليستْ بعِبادةٍ[1].



تمَّ بحَمدِ اللهِ المجلدُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ القَمَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).



الفهرس







الفهرس

سورةُ الطُّورِ

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠